

عبد الله المزدبى

امام الشيعة الاسماعيلية
ومؤسس لدولة الفاطمية في بلاد المغرب

تأليف

طه احمد سرف

دكتور في الآداب ، وماجستير في الآداب
ودبلوم معهد التربية العالي للمعلمين

هين ابراهيم حسن

دكتور في الآداب (القاهرة)
ودكتور في الفلسفة ، ودكتور في الآداب (لندن)
أستاذ التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التاريخ
بجامعة فؤاد الاول

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا — القاهرة

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة أ.د/علي عبد الواحد وافي
القاهرة

فقرة من سائر النسخة علم من عبد الواحد
تجربة نورة من النسخة
سنة ١٤٠٠

١٩٤٧ / ١٠ / ١٠

عبد الله المزدك

امام الشيعة الاسماعيلية
ومؤسس لدولة الفاطمية في بلاد المغرب

٣٥٩.٥٩٦٤٩٢٧٥١

مكتبة

تأليف

طه احمد شرف

D.Lit., M.A. (Cairo)
دكتور في الآداب ، وماجستير في الآداب

هين ابراهيم حسن

D. Lit. (Cairo), Ph. D.,
D. Lit. (London)
رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الاول



الناشر

مكتبة النهضة المصرية
١ شارع عدلي باشا
١٧٤٦٥٤

طبعة الشكشي بالانزله بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه ، اختلف المسلمون فيمن يلي الزعامة فيهم .
ولما ولي أبو بكر الخلافة ، ذهب فريق من المسلمين ، إلى أن هذه الزعامة يجب
أن تقر في آل بيت النبي ، واعتقدوا أن علي بن أبي طالب ، ابن عم الرسول وزوج
ابنته فاطمة ، وأولاده من بعده ، أحق الناس بها . وتميز أنصار علي وأولاده
باسم الشيعة .

وقد جر التنافس على منصب الخلافة ، إلى صراع عنيف بين الشيعة وغيرهم ،
ذهب ضحيته عليّ وابنه الحسين وغيرهما . ونال العلويين في عهد بني أمية كل ألوان
الأذى والاضطهاد .

ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، لم يرق ذلك العلويين ، واعتقدوا أن
العباسيين اغتصبوا حقهم في الخلافة ، كما اغتصبها الأمويون من قبل . وكان
العباسيون أشد بطشا بأبناء عمهم العلويين ، فلبجأ هؤلاء منذ عهد محمد بن إسماعيل
ابن جعفر الصادق إلى التستر ، ليدروا عن أنفسهم حتى هؤلاء الخلفاء . ولكنهم
لم يتركوا المطالبة بحقهم في الخلافة ، وإن اختلفت أساليبهم في ذلك .

وقد بحثنا في الباب الأول من هذا الكتاب في جهود أئمة الإسماعيلية ونوابهم

(حُجَجِهِمْ) من بيت القدّاح ، فبيّنا كيف قام هؤلاء جميعا بتنظيم الدعوة الإسماعيلية في أرجاء العالم الإسلامي كافة ، فوضعوا لها نظاما سريا بديعا متقنا ، واتخذ الأئمة من سَكَلِيَّة مركزا رئيسا لنشر دعوتهم ، كما اتخذ أنصارهم من أمهات المدن الإسلامية ، كالكوكة والأهواز والرّيّ وزبيد والفسطاط ، مراكز لنشر هذه الدعوة . ولم يأت النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ ، حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ؛ فظهرت في بلاد اليمن على يد ابن حوشب ، وفي العراق على يد حمدان قرمط وزكرويه بن مهرويه ، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنّابي ، وفي بلاد المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي ، وفي مصر على يد أبي علي الداعي المقيم ، وفي خراسان على أيدي كثير من الدعاة العلماء .

وكان أئمة الإسماعيلية يثقون بحُجَجِهِمْ من بيت القدّاح ؛ ولذلك اعتمدوا عليهم في ترويج دعوتهم . وبلغ من ثقتهم بهم ، أنهم كانوا يستودعونهم الإمامة ، لينقلوها إلى أبنائهم من بعدهم ، حتى إن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، استودع ، حين دنت منيته ، الإمامة سعيدا الخير بن الحسين بن عبد الله القدّاح ، ليتعهّد الدعوة ، ثم ينقلها إلى ابنه أبي القاسم حين يستقيم له الأمر .

وقد بينا في الباب الثاني موقف عبيد الله ؛ فكان عليه أن يحافظ على تراث الدعوة الذي أقامه أئمة الإسماعيلية وأنصارهم من القداحية ، فنظم الدعوة بين القرامطة ، وقضى على المعارضين منهم ، وأحل محلهم من يثق بإخلاصهم وولائهم ، وعمل على ازدياد نفوذه في بلاد اليمن والمغرب وفارس . ولكنه اضطر أمام ثورة بعض قرامطة الشمال من أبناء زكرويه بن مهرويه ، إلى الفرار من سلبية إلى بلاد المغرب ، مارا في طريقه بالرملة والفسطاط وطرابلس ، حتى انتهى به المطاف إلى سجلماسة حاضرة بني مدرار ، حيث سجن حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعي .

وكذلك عاجلنا في هذا الباب مسألة نسب الفاطميين التي كانت ولا تزال موضع جدل عنيف بين العلماء ، واعتمدنا على أمهات كتب الإسماعيلية ، وانهينا إلى كشف اللثام عن كثير من المسائل الغامضة ، وألقينا ضوءا كشف عن حقيقة نسب عبيد الله ، وهو أنه لم يكن من أبناء الأئمة الإسماعيلية نسبا ، وإنما كان من أبناء الإسماعيليين الروحيين أو التعليميين .

وقد أوضحنا في الباب الثالث موقف عبيد الله بعد أن أصبح خليفة في بلاد المغرب ، وكيف عمل على أن يمد نفوذه إلى المشرق ، فأرسل الحملات لفتح مصر أكثر من مرة ، واستعان بأنصاره القرامطة خاصة ، كما حاول الاتصال بأنصاره في فارس وخراسان وغيرهما من بلاد الدولة العباسية . كما بينا كيف حاول عبيد الله أن ينشر نفوذه على جميع بلاد المغرب ، وكيف وقف في وجه الأمويين في الأندلس والأدارسة في المغرب الأقصى ، وبسط نفوذه على جزيرة صقلية ، وهدد جنوبي إيطاليا ، وأسس مدينتي المهديّة والمحمديّة .

وفي الباب الرابع تناولنا الكلام على عبيد الله الخليفة ، وإمامته لطوائف الإسماعيلية ، فعالجنا موقفه من القرامطة ، وبيننا كيف أنه لم يعبأ بقاعدة تعيين رؤسائهم عن طريق الوراثة ، فسنّ لهم نظاما يقضى بأن لا يتم تعيين رؤسائهم إلا بموافقة ، حتى إن هؤلاء القرامطة أصبحوا أداة فعالة في تحقيق سياسته في الشرق . وعلى هذا النحو سار عبيد الله المهدي مع إسماعيلية اليمن ، وإن كانت هذه السياسة قد جرّت إلى وقوع النزاع بين أنصار الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد .

أما في الشرق والأندلس ، فقد اعتمد عبيد الله المهدي في تنفيذ سياسته على طائفة من العلماء ، كأبي حاتم الرازي ، الذي انتشرت الدعوة الإسماعيلية على يده في بلاد الرى خاصة ، واستجاب له جماعة من أنصار الدولة العباسية ، واشتهر بمصنفاته التي لا يزال كثير منها في حوزة البهرة إلى اليوم . ومن هؤلاء العلماء الدعاة ، النسفي الذي استطاع بلباقته السياسية أن يجذب نصر بن أحمد الساماني أمير بلاد ما وراء النهر إلى عبيد الله المهدي ، وقد ذاعت شهرته في عالم التأليف . ومن هؤلاء العلماء ،

السجزي ، الذي أتم أعمال الرازي والنسفي . وقد اشتهر بمؤلفاته الكثيرة في المذهب الإسماعيلي والرد على معارضيهِ . وعلى الرغم من أن هؤلاء الدعاة كانوا من الفرس ، كان أكثر كتبهم — لحسن الحظ — باللغة العربية .

وأما في بلاد الأندلس فقد انتشرت الدعوة الإسماعيلية على يد ذلك العالم الفيلسوف ، ابن مسرة ، الذي استطاع عبيد الله بفضل تدخله ، أن يشير ابن حفصون على الحكم الأموي في الأندلس .

وكذلك عرضنا في هذا الباب لتنظيم الدعوة الإسماعيلية الداخلي على يد عبيد الله المهدي ، فشرحنا علاقته برعاياه ، وبيننا كيف استغل هذا الخليفة الإمام الدعوة لمصلحة الدولة ، وكيف تخلص من أبي عبد الله الشيعي الذي قامت الدولة الفاطمية على يده ، والذي لقي ما لقيه أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية من قبل .

وقد ذكرنا في الباب الخامس أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله ، فتناولنا الكلام على دورى الاستتار والظهور ، كبدأ الإمامة ، وعمومية الدعوة ، والحلول ، وما إلى ذلك ؛ ثم بيننا عوامل نجاح عبيد الله التي تتلخص في ضعف العالم الإسلامي ، وضعف سائر طوائف الشيعة ، وتحمس المسلمين لعقيدة المهدي المنتظر ، وفي سن ذلك النظام الدقيق الذي وضعه الإسماعيلية لنشر دعوتهم ، وأخيرا ذكرنا صفات عبيد الله وأخلاقه ، وتكلمنا على زوجاته وأولاده .

وصفوة القول أننا بحثنا تاريخ عبيد الله المهدي والمذهب الإسماعيلي في عهده بحثا شاملا من النواحي المختلفة : دينية وسياسية وثقافية واجتماعية ، مستعينين في ذلك بما عثرنا عليه من المراجع الإسماعيلية ، مخطوطة ومنشورة ؛ وألحقنا بالكتاب كثيرا من الوثائق التاريخية ، التي توضح تاريخ هذا العهد . كما ذيلنا الكتاب بثبت يشمل المصادر ، مرتبة على أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وبفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وقد عقدنا العزم ، بمعونة الله ، على أن نوالى بحث تاريخ المذهب الإسماعيلي

من الناحية السياسية بوجه خاص ، وما طرأ عليه من تطورات ، وذلك في عهد
المعزدين الله ، والمستنصر بالله ، والحسن الثاني الزاري ، أحد أجداد سمو أغاخان .
وسنفرد لكل من هذه الشخصيات بحثاً خاصاً .

وإننا في هذا المقام ، نهدى أجزل الشكر ، وأعطر الثناء ، إلى حضرة صديقنا
الوفى الأستاذ مصطفى الإسقا ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ،
لتفضله بمراجعة هذا الكتاب ، وإلى حضرة الدكتور محمد كامل حسين المدرس
بالكلية ، لتفضله بإمدادنا بكثير من مخطوطات الإسماعيلية التي في حوزته ، وحضرة
حسن أحمد محمود افندي الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب لمساعدته القيمة في
عمل الفهارس .

حسن ابراهيم حسن طه أحمد شرف

٢٥ يولييه ١٩٤٧

محتويات الكتاب

صفحة	مقدمة الكتاب
٣
٨

الباب الأول

طائفة الإسماعيلية إلى أن تولى عبيد الله رئاسة الدعوة

صفحة	١ — العلويون والمتشيعون إلى ظهور طائفة الإسماعيلية
١٧
٢٥	٢ — أئمة الإسماعيلية
٢٩	(أ) إمامة إسماعيل بن جعفر...
٣٥	انقسام العلويين بعد جعفر الصادق
٣٦	(ب) إمامة محمد بن إسماعيل
٤٠	(ج) إمامة عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل
٤٣	(د) إمامة أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل
٤٥	(هـ) إمامة الحسين بن أحمد
٤٧	٣ — نواب الأئمة الإسماعيلية من بيت القداح
٥١	(أ) ميمون القداح
٥١	(ب) عبد الله بن ميمون

(ح) أثر عبد الله بن ميمون في نهضة المذهب الإسماعيلي ... ٥٦

(د) أثر عبد الله بن ميمون في نشر الدعوة ... ٥٨

(هـ) خلفاء عبد الله بن ميمون

١ - علاقتهم بالأئمة ... ٦٥

٢ - شخصية أبناء عبد الله بن ميمون ... ٦٦

٣ - مدى نشاط أبناء عبد الله بن ميمون ... ٦٩

٤ - انتقال زعامة الإسماعيلية إلى عبيد الله

(أ) عيد الله الحجة ... ٧٧

(ب) عيد الله الإمام ... ٧٨

الباب الثاني

عيد الله

منذ تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية

١ - موقف عيد الله من أنصار الدعوة الإسماعيلية ... ٩٢

(أ) موقف عيد الله من القرامطة

١ - من القرامطة في سواد الكوفة ... ٩٢

٢ - من قرامطة البحرين ... ١١٠

(ب) موقف عيد الله من أنصار الدعوة في اليمن والمغرب

وفارس ... ١١١

١ - في بلاد اليمن ... ١١٢

٢ - في المغرب ... ١١٦

- ١٢٢ ... ٣ — في فارس ...
- ١٢٤ ... ٢ — رحلة عيد الله إلى بلاد المغرب ...
- ١٢٥ ... (١) من سلمية إلى الرملة ...
- ١٢٩ ... (ب) من الرملة إلى القسطنطينية ...
- ١٣٣ ... (ح) من القسطنطينية إلى طرابلس ...
- ١٣٦ ... (د) من طرابلس إلى سجلماسة ...
- ١٣٧ ... أسباب نجاح عيد الله في فراره ...
- ١٤٠ ... (هـ) عيد الله في سجلماسة ...
- ١٤٣ ... ٣ — نسب عيد الله ...
- ١٤٤ ... (١) نسب عيد الله إلى علي وفاطمة ...
- ١٤٤ ... ١ — الستون الذين يؤيدون صحة النسب ...
- ١٤٩ ... ٢ — الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة النسب ...
- ١٥٢ ... انتساب عيد الله إلى الموسوية ...
- ١٥٦ ... (ب) نسب عيد الله إلى ميمون القذاح ...
- ١٥٧ ... ١ — آراء الإسماعيلية ...
- ٦٠ ... ٢ — آراء السنيين المعارضين ...

الباب الثالث

عيد الله المهدى والخلافة

- ١٧٠ ... ١ — علاقة عيد الله بالعباسيين ...

صفحة	أسباب هذا العدا	١٧٠
١٧٢	(١) امتداد نفوذ عبيد الله في المشرق	١٧٢
١٧٢	١ — الهجوم الفاطمي على مصر	١٧٢
١٧٣	(١) الحملة الأولى	١٧٣
١٧٥	(ب) الحملة الثانية	١٧٥
١٨١	(ح) الحملة الثالثة	١٨١
١٨٦	٣ — امتداد نفوذ عبيد الله في خراسان وفارس	١٨٦
١٨٨	٣ — امتداد نفوذ عبيد الله في بلاد المغرب	١٨٨
١٨٨	تنظيم عبيد الله بلاد المغرب	١٨٨
١٩٩	صقلية في عهد عبيد الله المهدي	١٩٩
٢٠٤	مدينتا المهدي والمحمدي	٢٠٤

الباب الرابع

عبيد الله المهدي وإمامة الإسماعيلية

صفحة	١ — عبيد الله الخليفة والقرامطة	٢١١
٢١١	(١) موقف عبيد الله المهدي من أبي سعيد الجنابي	٢١١
٢١٤	(ب) موقف عبيد الله المهدي من خلفاء أبي سعيد	٢١٤
٢١٤	عبيد الله وسعيد بن أبي سعيد	٢١٤
٢١٧	(ح) موقف عبيد الله المهدي من أبي طاهر الجنابي (٣٠٥-٣٢٢ هـ)	٢١٧
٢١٨	معاودة أبي طاهر عبيد الله المهدي في سياسته	٢١٨

صفحة	
٢٢٦	محاولة أبي طاهر الجنابي فتح العراق
٢٣٢	٢ — عيد الله المهدى والإسماعيلية في اليمن
٢٣٢	(١) موقف عيد الله من النزاع بين ابن فضل وابن حوشب
٢٣٦	(ب) عيد الله وأبناء المنصور
٢٤٢	٣ — عيد الله والدعوة الإسماعيلية في فارس
٢٤٥	أشهر دعاة عيد الله في بلاد المشرق
٢٤٥	١ - أبو حاتم الرازي
٢٤٨	٢ - النسفي
٢٥١	٣ - السجزي
٢٥٤	٤ - عيد الله والدعوة الإسماعيلية في بلاد الأندلس
٢٥٥	٥ - التنظيم الداخلي للدعوة الإسماعيلية في عهد عيد الله المهدى
٢٥٦	(١) علاقة عيد الله برعاياه
٢٦٠	(ب) توجيه الدعوة لمصلحة الدولة
٢٦٣	(ج) أبو عبد الله الشيعي يلاقى ملاقاته أبو مسلم الخراساني

الباب الخامس

أشهر بمنزلة الدعوة الإسماعيلية في عهد عيد الله

صفحة	
٢٧٠	١ - استتار الإمام وظهوره

صفحة	
٢٧٠	(١) استتار عبيد الله
٢٧١	١ - التعمق في السرية
٢٧٢	٢ - التحمس الحربي
٢٧٣	٣ - الدعوة للامام المستور
٢٧٤	(ب) ظهور عبيد الله (٢٩٦—٣٢٢ هـ)
٢٨٠	٣ — أشهر مبادئ الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي
٢٨٠	(١) مبدأ الإمامة في عهد عبيد الله المهدي
٢٩٢	(ب) الدعوة العامة للجميع
٢٩٥	(ح) الاشتراكية
٣٠٠	(د) الحلول
٣٠٤	٣ — عوامل نجاح عبيد الله
٣٠٥	(١) ضعف العالم الإسلامي
٣٠٦	(ب) انتشار التشيع
٣٠٨	(ح) ضعف طوائف الشيعة الأخرى
٣١٠	(د) تحمس المسلمين لعقيدة المهدي المنتظر
٣١٢	(هـ) برامج الإسماعيلية ووسائلهم الخاصة

خاتمة القول في عبيد الله المهدي

صفحة

٣١٨

أولاده وزوجاته

٣٢٠

وفاة المهدي

ملاحق الكتاب

صفحة

٣٢٢

ملحق ١ نهاية الإمام إسماعيل بن جعفر وإمامته

٣٢٣

ملحق ٢ في إمامة محمد بن إسماعيل

٣٢٦

ملحق ٣ ظهور المهدي

٣٢٧

ملحق ٤ انتقال الإمامة إلى المهدي والطيب بن الأمر

٣٢٨

ملحق ٥ الواجب على الأمة للأئمة

٣٢٨

ملحق ٦ في محاولة عبيد الله فتح مصر

٣٢٩

ملحق ٧ في فضل كتامة على الفاطميين

٣٣٠

ملحق ٨ عبيد الله في الرملة

٣٣١

ملحق ٩ عبيد الله في مصر

٣٣١

ملحق ١٠ الأمن في عهد أبي عبد الله الشيعي

ملحق ١١ المناظرة الأولى بين أبي عثمان سعيد بن محمد بن الحجاج

٣٣٣

وأبي العباس أخى أبي عبد الله الشيعي

٣٣٥

ملحق ١٢ المناظرة الثانية بين أبي عثمان وأبي العباس

٣٣٦

ملحق ١٣ المناظرة الثالثة بين أبي عثمان وأبي العباس

٣٤٠

ملحق ١٤ المناظرة الرابعة بين أبي عثمان وأبي العباس

٣٤٣

مصادر الكتاب

فهارس الكتاب

صفحة	
٣٥٠	الأعلام
٣٥٩	أسماء النساء
٣٥٩	٢ — الأماكن
٣٦٤ — ٣٦٧	٣ — الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة

عبيد الله المهردي

إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية
في بلاد المغرب

الباب الأول

طائفة الاسماعيلية إلى أن تولى عبيد الله رئاسة الدعوة

١ - العلويون والمتشبعون إلى ظهور طائفة الاسماعيلية

كان علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، من كبار الصحابة الذين ساهموا مع النبي ﷺ ، في إقامة صرح الإسلام . وكان يتطلع بعد وفاة النبي إلى زعامة المسلمين دينياً وسياسياً ، ويرى أنه أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان . وكان بيت أمية ينفس عليه منذ ولي عثمان الحكم ، ولذلك أعلنوا عليه الحرب في صور مختلفة حتى زحزحوا بيته عن الخلافة ، ومن ثم أصبحت زعامة المسلمين في يد الأمويين .

وقد حز في نفوس أنصار عليّ ، وهم الشيعة ، وفي نفوس أبنائه ، إقصاء بيت الرسول عن زعامة المسلمين . ومن ثم أثاروها حروباً دامية على بني أمية وانضموا إلى أبناء عليّ ، فناصروا الحسن والحسين ، والتفوا حول زيد بن علي زين العابدين (٥١٢٢) وابنه يحيى بن زيد (٥١٢٥) ، وقاموا بدور كبير في إزالة سلطان الأمويين . وفي الحق أن العلويين لم يرضوا منذ مقتل عليّ سنة ٤٠ هـ عن سياسة الأمويين ، ونادوا بإمامة الحسن الذي يرى الاسماعيلية أن علياً نصّ على إمامته من بعده ثم على إمامة أخيه الحسين ، ويرون أن الحسن كان إماماً مستودعاً ، وأن الحسين هو الإمام المستقر^(١) ، بمعنى أن الحسن إمام في حياته فقط ، وأنه لا يستطيع نقل إمامته وتوريثها

(١) الإمام المستودع : هو الذي يكون إماماً في حياته ، ولا يستطيع أن يورث أبنائه الإمامة

أبناءه بعكس أخيه الحسين الذي يستطيع توريثها أبناءه . وعلى الرغم من إخفاق الحسن في صراعه مع بني أمية ، ونزوله لمعاوية عن الخلافة ، ثم موته بعد قليل ، ظل المخلصون له من الشيعة على ولائهم لأخيه الحسين — الإمام المستقر — ورأوا في المناداة بإمامة أبناء عليّ تحدياً للأمويين أو بالأحرى للخلافة نفسها . وقد أذكت موقعة كربلاء نيران الحماصة بين صفوف الشيعة والعلويين أنفسهم ، واتسعت بذلك شقة الخلاف بين الإمامة العلوية والخلافة الأموية . يقول براون: (١) « إن فريق الشيعة أو حزب علي كان ... ينقصه الحماصة وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى معركة كربلاء المملوطة بدماء ابن بنت النبي ، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بحيث ذوى قرباه — كل ذلك غدا منذ ذلك الحين كاباً لأن يثير عاطمة الحماصة التي كانت على أشد ما تكون ، والأحزان التي تملك النفوس — حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً — وأصبحت هذه الروح التي لا تبالي بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت ، ترى كل هذه التضحيات لا تساوي التفكير فيها » .

وهكذا أخفق العلويون في جولاتهم الأولى ، فسم الحسن ، وقتل الحسين ، فحمل أعباء الإمامة محمد بن الحنفية — أخوهما لا بينهما — ليكون ستراً على علي زين العابدين ، فكان والحالة هذه إماماً مستودعاً . يقول الداعي الخطاب (٢) بن الحسين في تسلسل الإمامة من علي إلى أئمنائه : « وعهد علي » إلى الحسن عند حضور نقلته (٣) بأن يسلم الرتبة إلى أخيه الحسين . . . فلما قضى الحسن نحبته سلم إلى أخيه الحسين ، فاجتمعت الرتبتان « النبوة والإمامة » في الحسين وقام بهما ، حتى (٤) أظهر الغيبة ... وولده علي بن الحسين في حد الطفولية . فأودع له أخاه محمد بن الحنفية ، واستكفله .

ولأنما يكون كمال الأمانة عليه أن يردّها عند الحاجة . ونظرية الاستيداع الامامي من النظريات الجديدة في مبدأ الامامة ، ومن النظريات ذات الخطر السياسي وتاريخ الاسماعيلية . أما الامام المستقر فهو الذي تستقر الامامة فيه ، ويستطيع نقلها إلى أبنائه . وجميع الأئمة عند الاسماعيلية من هذا الصنف إلا نفرأ قليلاً عندهم ، هم الأئمة المستردعون .

(١) Browne : Literary History of Persia, vol. 1, pp. 226 sqq.

(٢) غاية المراليد ص ٣٥ (من المنتخب)

(٣) النقلة بمعنى الوفاة والانتقال أو الظاهر بالانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة

(٤) في الأصل حق والصواب حتى

إياه ، وأوصى إليه أن يسلم إليه وديعته عند بلوغه أشده . فقام محمد . . . بأمر الله وبث دعائه وأقام دعوته . وهذا يدل على أن الأئمة العلويين لم يكونوا مقصرين في القيام بواجبهم في نشر الدعوة لأنفسهم وجذب الناس إليهم ، غير أنهم لم يغلوا غلو أشياعهم من المتشيعين .

والواقع أننا لم نعد نسمع كثيراً عن جماعة الحسين في عهد الدولة الأموية ، اللهم إلا ما سنراه من الصراع بين هؤلاء وبين أبي جعفر المنصور (١٥٨ هـ) . وأما فرع الحسينية ، أتباع الحسين وأبنائه ، فلم يكن لهم شأن يذكر بعد مقتل زيد بن علي بن زين العابدين^(١) وابنه يحيى اللذين تصديا للدفاع عن حقهما في الإمامة . وظل الحسينيون خاملين حتى انتعشوا في العصر العباسي الأول على يد الإسماعيلية الذين يعتبر ظهورهم تطوراً في تاريخ الدعوة التي نستطيع أن نطلق عليها اسم « الدعوة الحسينية » .

أما الحنفية — أتباع محمد بن الحنفية — فكانت لهم الصدارة منذ مقتل الحسين سنة ٦١ هـ ، فينادى أتباعه الكيسانية — أصحاب المختار الثقفي — بإمامته بل بنبوته ورجعته ، ويغنون فيه غلواً كبيراً . ولا يهمننا تبرؤ محمد بن الحنفية من المختار الثقفي وأتباعه الكيسانية ، إنما الذي يهمننا هو أن الكيسانية قاطبة كانوا يقولون بإمامة محمد هذا دون سواه . وإذن ، هل اغتصب محمد بن الحنفية الإمامة التي ورثها عن الحسين بن علي زين العابدين ؟ أو بالأحرى هل كان الكيسانية من الثائرين على إمامة الحسينيين ؟ إن المراجع الإسماعيلية التي بين أيدينا تؤكد أن ابن الحنفية قد رد الودعة (الإمامة) إلى مستحقها (علي زين العابدين)^(٢) . وبهذا نستطيع أن نقول : إن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية^(٣) — صاحب فرقة الأبي هاشمية التي قامت

(١) ثار زيد بن علي على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في سنة ١٢٢ هـ لينقذ الإمامة الحسينية مما أصابها من ذبول خصوصاً بعد استبداد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالأسر دونه . ويسمى أتباعه الزيدية ، ويسمى البعض الرافضة لرفضهم طاعة زيد وادعائهم أنه على حب الصحابة أبي بكر وعمر . وقد لحق به ابنه يحيى الذي قتل في خراسان سنة ١٢٥ هـ .

(٢) الخطيب بن الحسين : غاية المواليد ص ٢٥ - ٣٦ (من المنتخب)

(٣) وأبو هاشم هذا هو الذي نزل عن الإمامة لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ، مدعياً أنه ليس هناك بين العلويين من يصلح لاقامة الدعوة العلوية .

الدولة العباسية على أكتافها - هو الذي اغتصب الإمامة من أبناء الحسين بن علي .
ومهما يكن من شيء ، فإن أبا هاشم ، باغتصابه الأمر من بني عمه الحسينيين ، ونزوله
عن الإمامة للعباسيين ، قد أضعاع على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة من
الأمويين ، كما ساعد على تفككهم . وبهذا تمكن العباسيون من قلب الدولة الأموية
والاستئثار بالخلافة دون العلويين . وظل الأبو هاشميين على إخلاصهم لرؤسائهم الدينيين
حتى صرعهم أبو جعفر المنصور ، فانضوا بعد ذلك تحت لواء الاسماعيلية ،
على ما سئرى .

كما تقدم نرى أن العلويين عجزوا في عهد الأمويين ، عن تحقيق مآربهم في سيادة
العالم الاسلامي ، لانقسامهم على أنفسهم إلى حسنيين وحسينيين وحنفية ، ثم إلى
أبي هاشمية ، ولأن الدولة الأموية كانت لا تزال على قوتها . أضف إلى ذلك انتقال
حق الإمامة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية العلوي إلى محمد بن علي بن عبد الله
العباسي ، الأمر الذي اعتبره العباسيون نزولاً من العلويين إلى العباسيين عن حقهم
في الإمامة ، وإن كان ذلك يعتبر من الناحية العملية نزولاً من طائفة واحدة من
عوائف العلويين .

أما في الدولة العباسية فقد أصبح الأئمة العلويون والحسينيون والحسينيون أكثر
تطلعا إلى النفوذ والسلطان ، فحمل لواء بني الحسن ، محمد بن عبد الله بن الحسن
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٠٠ - ١٤٥ هـ) المعروف بالنفس الزكية ،
وأخوه إبراهيم ، وتبعهما خلق كثير ، حتى ضاق بهم أبو جعفر المنصور ذرعاً ،
وبادلهم الاتهامات الجارحة ، كما يتضح من المکتب التي تبودلت بين أبي جعفر
والنفس الزكية . ولم يكن هذا الصراع في الواقع إلا صراعاً بين الفاطميين
الحسينيين وبين الحنفية المشايخ في الأبي هاشمية أنصار العباسيين . وقد أمد قتل محمد
النفس الزكية وأخيه إبراهيم أولاد الحسين وأنصارهم بقوة هائلة بانضمام فلول
هؤلاء الحسينيين إلى جعفر الصادق ، ثم إلى ابنه إسماعيل . وكان بنو الحسين
يعتقدون أنهم أحق من بني الحسن ، لأن الحسين — على ما تقدم — إمام مستقر ،
على حين أن الحسن إمام مستودع فحسب . ولذلك التفت كثيرون حول زيد بن
علي الحسيني وكونوا جماعة الزيدية ، كما التفوا حول أخيه محمد الباقر وكونوا جماعة

الباقرية ، ثم حول جعفر الصادق وكونوا فريق الجعفرية ، وانضوت فلول هؤلاء جميعاً تحت لواء الاسماعيلية .

كان جعفر الصادق بنفس على الحسين ، فتخلى عن النفس الزكية ، ولم يعترف بعامة ، مما ساعد العباسيين على الفتك به . والحق إن العباسيين كانوا يبغضون الحسين ، لأنهم أكثر جرأة وتحمساً في طلب الملك . ولذلك لم يعاملهم العباسيون معاملة لهم للحسينيين . وساعد على ذلك ما أبداه جعفر الصادق من كراهة لبني عمه ، وما صرح به في مؤتمر الهاشميين في أواخر عهد بني أمية . يقول صاحب كتاب الفخرى (١) : « فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الامام جعفر بن محمد الصادق : فإنه قال لا يبه عبد الله المحض : إن ابنك لا ينالها — يعنى الخلافة — وإن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر — أى المنصور ، كما لم يتعاون فريق جعفر مع الحسينيين في صراعاتهم مع الهادى حين أوقع هذا الخليفة بهم في موقعة فنج (سنة ١٦٩ هـ) التى قيل فيها « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأجع من فنج (٢) » . من هذا نرى أن زعامة العلويين في صدر الدولة العباسية لم تكن موحدة : فهناك الفاطميون — حسنيون وحسينيون — ينافسون كل منهم الآخر ، ولم يستطيعوا القضاء على الدولة الأموية ، وهناك الحنفية من أتباع بني هاشم الذين ارتموا في أحضان العباسيين وساعدوهم على إقامة دوائهم ، ولكنهم تعرضوا بعد قليل لتحمل كثير من ضروب العنت والاضطهاد على أيدي هؤلاء العباسيين .

وقد أدرك إسماعيل بن جعفر — على ما سنرى — مدى الضعف الذى ساد العلويين ، فعمل على تكوين جماعة ذات طابع خاص في تفكيرها ونظامها الاجتماعى والدينى والسياسى ، تلك الجماعة هى « طائفة الاسماعيلية ، التى ينتمى إليها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية .

ويحسن بنا أن نبحث أثر التشيع في الحركات الشيعية الأولى ، ثم في قيام جماعة الاسماعيلية الذين ينتسب إليهم عبيد الله . وفي الواقع إن التشيع — وهو اعتقاد حب على وأبنائه — كان من أهم الأحداث في التاريخ الإسلامى . والتشيع نوعان :

(١) فى الآداب السلطانية ص ١٢٠

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٦

تشيع حسن لا يرى صاحبه من ورائه إلى غير سيادة العلويين ، وتشيع قبيح يتخذه معتنقه وسيلة لهدم العقائد ، وإثارة روح الشعوبية ، وقلب نظام الحكم في الدول تحت ستار الدعوة لعلى وأبنائه . وتعتبر حركة الاسماعيلية مزاجاً من النوعين معاً : فبينما نرى بعض أئمتهم وأنصارهم على إخلاصهم للإسلام ، نرى بعضهم الآخر يتخذ انتماءه إلى جماعة الاسماعيلية وسيلة لبعث مبادئ تقوم على الإلحاد ، وتحض على الثورة ؛ لذلك قالوا « التشيع عش الزندقة » . وقد شعر الأئمة العلويون بخطر هذا التشيع القبيح فتأروا على مدعيه ، فترى على بن أبي طالب يخطب عبد الله بن سبأ الذي كانت آراؤه « جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة بعده (١) » . وعلى الرغم مما فعل على مع ابن سبأ ، عدّ هذا الأستاذ الأول لجماعة الاسماعيلية وغيرهم من الغلاة .

فهاهم أولاء الكيسانية — أنصار المختار — ينادون بما نادى به ابن سبأ ، من القول بالرجعة ، وإحاطة الأئمة بالعلوم كلها مظهر منها وما بطن ، وبأن الدين طاعة رجل واحد ، هو الإمام ، وأن هذه الطاعة ترفع عنهم التكاييف الشرعية ، كما نادوا بالمهدية التي نادى بها ابن سبأ من قبل . ولذلك نال الكيسانية من ابن الحنفية ما ناله السبئية من على بن أبي طالب (٢) . وعلى الرغم من قضاء الأمويين على حركة المختار تعدد حركته طليعة للحركات الدينية التي تتخذ الدين وسيلة لتحقيق الأغراض السياسية ، أو بعبارة أخرى كانت هذه الحركة طليعة للجماعات الاسماعيلية . ولذلك نرى جمره التشيع تلتهب في أواخر عهد الدولة الأموية ، فيحاول بعض أنصار تعاليم المجوسية القديمة استغلال التشيع لأحياء مبادئهم . ومن هؤلاء الداعي العباسي عمار بن بديل (١١٨ هـ) ، الذي يعرف باسم « خدّاش » ، وكان من أشياع خرمّما زوجة مزدك ، ومن المروجين لمبادئ زوجها في الإسلام . ولم يمّت مذهبه بموته ، بل بعث في صور وأشكال مختلفة ، تأثر الاسماعيلية بكثير منها (٣) .

والواقع أن التشيع اتخذ في أخريات الدولة الأموية اتجاهين مختلفين ، يرى

(١) الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٦٣ .

(٢) دكتور طه شرف : الزندقة والزنادقة (خطوط) ص ١٥٢ .

(٣) نفس المرجع والمفحة .

أولها إلى التقرب من أبي هاشم ، ومن ثم أخذ كثير من أتباعه يعملون على تقديس الخلفاء العباسيين ، ويرمى ثانيهما إلى التظاهر بالميل إلى الأئمة العلويين الحقيقيين . ومن هؤلاء المتشيعين الآخرين الاسماعيلية ، وجماعة اليبانية ، أتباع بيان بن سمان (١١٩ هـ) والمغيرية ، أتباع المغيرة بن سعيد العجلي (١١٩ هـ) ، وكانوا ينادون بالغلو والقول بإمامة محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم . وإلى جماعة الحنفية يرجع قيام الراوندية الذين نادوا بالوهمية أبي جعفر المنصور بعد أبي هاشم ، والآبي عسليية ، الذين نادوا بالوهمية أبي مسلم الخراساني ثم حفيده فيروز ، وقالت جماعة منهم بزعامة فاطمة بنت أبي مسلم ، حتى سموا بالفاطميين ، نسبة إليها . ولا يبعد أن يكون بابك الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني ، كما ذهب بعض الباحثين . وقيل إن القرامطة كانوا من بقايا المتشيعين الحنفية أو الآبي هاشمية . ومن ثم كان الآبو هاشمية خطراً على الأمويين أولاً ثم على العباسيين ثانياً ، فقد ثاروا في وجه الأمويين بزعامة أبي مسلم وأزالوا دولتهم . متخذين التقرب من أهل البيت وسيلة لإحياء مذاهب الفرس القديمة ، كما اتخذوا هذا التقرب وسيلة للتخلص من الدولة الأموية العربية . وكانوا يظنون أنهم سيجدون في الدولة العباسية الدولة التي ينشدونها ، فنادوا بحلول الله في شخص أبي جعفر المنصور ؛ ولكن هذا لم ير بدا من الوقوف في وجههم والقضاء على بدعتهم ، فنادوا بالحلول في رؤسائهم أنفسهم ، ثم ثاروا على العباسيين وانضموا إلى كل ثائر . فانضوا تحت لواء سنياذ (١٢٨ هـ) وأستاذسيس (١٤٩ هـ) اللذين أذكيا نار الثورة انتقاماً لآبي مسلم ، ثم انضموا إلى المقنع الخراساني الذي ثار على الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ودوخ جيوشه لينتقم لآبي مسلم وللجوس من العرب . فلما أخذت هذه الثورة ، لم تلبث أن هبت من جديد على يد بابك الخرمي ، الذي كان من أخلص أتباع الراوندية ، وأصبح القضاء على هذه الثورة شغل العباسيين الشاغل في عهد المأمون والمعتصم . ولما أخذت ثورة بابك ، وجد فلول البابكية الطريق ممهداً للاندماج في صفوف الاسماعيلية . وهكذا كان الثائرون من المتشيعين ، ولا سيما أنصار محمد بن الحنفية ، إذا ما أخفقوا في حركتهم الثورية ، لم تتركهم بدأ من الانضمام إلى الحزب السري الجديد ، وهو حزب الاسماعيلية .

هذا ما يمكن أن يقال عن تأثير التشيع في طائفة الحنفية ، أما تأثيره في الحسينيين فيتضح من مناداة بعضهم بإمامة جعفر الصادق وغلوهم فيه وتأليههم إياه . ومن هؤلاء العميرية - أتباع عمير بن بيان العجلي (١) ، الذي تار على الأمويين في أخريات حياتهم ، فوقف له خالد بن عبدالله القسرى (١٢٦ هـ) بالمرصاد وتبعه هو وأنصاره قتلاً وتشريداً .

على أن ثورة المتشيعين الحسينيين لم تحب ، بل هبت من جديد في أوائل حكم العباسيين على يد الخطائية - أتباع محمد بن زينب الاسدى الأجدع المعروف بأبى الخطاب . ومن هؤلاء الخطائية ميمون القداح مؤسس الدعوة الإسماعيلية ، حتى لقد ذهب بعض إلى القول بأن الإسماعيلية والخطائية طائفة واحدة . يقول النوبختي (٢) : «فأما الإسماعيلية فهم الخطائية - أصحاب أبى الخطاب ... وقد دخلت فرقة منهم في فرقة محمد بن إسماعيل ، ويقول النوبختي (٣) في موضع آخر : «ثم خرج من قال بمقاتته (أبى الخطاب) من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر بعد أن قتل أبو الخطاب ، فقالوا بإمامته ، وبهذا تأثر الإسماعيلية بالخطائية في عدة نواح منها : أن الخطائية كانوا كالإسماعيلية يدعون لجعفر الصادق ويغلون فيه ، وأن ميمونا القداح - المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي - كان واحداً منهم ، وأن فلول الخطائية كانوا يكونون الأساس الأول لفرقة الإسماعيلية .

وقد نال أبا الخطاب وفرقته من جعفر الصادق (١٤٨ هـ) ما نال السبئية من على بن أبى طالب والكيسانية من محمد بن الحنفية . ذكر أبو حنيفة النعمان المغربي (٤) قاضى الفاطميين : «أن جعفراً الصادق لما بلغه أن أبا الخطاب قال فيه ما قال من الغلو ، قال المفضل (أحد أخصاء جعفر) فدخلت عليه - صلى الله عليه وسلم - يوماً فآلفيته منقبضاً مستعبراً ، فقلت له : مالك ؟ جعلت فداك ؟ فقال : أبى

(١) هو ابن بيان الذى سبقت الإشارة إليه ، وقد انضم إلى الحسينيين مخالفاً إياهم بيانا بعد أن أدرك خروج الدعوة من آل على إلى آل العباس .

(٢) فرق الشيعة ص ٥٨

(٣) المصدر نفسه ص ٥٩

(٤) المجالس والمسايرات (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد) ج ١ ص ٧٨ - ٧٩

مفضل ! زعم هذا الكافر أنى أعلم الغيب ... اخرج إلى هؤلاء - يعنى أنصار أبى الخطاب - فقل لهم : إنا خلأئق مخلوقون ، وعباد مربوبون ،

ومهما يكن من شىء فقد تبرأ المعتدلون من الشيعة كما تبرأ العلويون أنفسهم من هذه الطائفة . يقول البغدادى (١) : « ومن أعجب الأشياء أن الخطائية زعمت أن جعفر الصادق قد أودعهم جلدًا فيه علم كل ما يحتاجون إليه من الغيب ، وسموا ذلك الجلد جفرا ، وزعموا أنه لا يقرأ ما فيه إلا من كان منهم ، وقد ذكر ذلك هرون بن سعد العجلي (أحد الزيدية) فى شعر فقال :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلمهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قاوا : إله ومنهم طوائف سمته النبي المطهرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض يصير بباب الكفر فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضوا عليها وإن يمضوا إلى الحق قصّرا
ولو قيل : إن الفيل ضب لصدقوا ولو قيل : زنجى تحول أحمر
فقبج أقوام رموه بفرية كما قال فى عيسى الفرسى من تنصرا

وسيتضح لنا مدى مساهمة الخطائية فى تأسيس الدعوة الاسماعيلية عند الكلام على إمامة إسماعيل بن جعفر . وقد ساعد التشيع على خلق جماعة الاسماعيلية وتغذيتها من حين إلى حين بالنشاط والحيوية . أضف إلى ذلك أن التشيع كان قد تكون فى العصر الأموى ، وأن الاسماعيلية تدجنوا ثماره فى العصر العباسى ، وكان نجاحهم من أكبر الانقلابات الدينية السياسية فى الاسلام .

٢ - أئمة الاسماعيلية :

نستطيع أن نقبين ضعف تأثير جماعة الأبي هاشمية ، أو بالأحرى فريق الحنفية ، منذ أوائل العصر العباسى الأول ، حتى إننا لم نعد نسمع كثيراً عنهم اللهم إلا ما كان يتردد على بعض الألسنة من تقدّيس لمحمد بن الحنفية واعتقاده فى رجعتة .

(٤) الفرق بين الفرق من ٢٣٩ - ٢٤٠ .

فقدما رأينا كثير عزة (١٠٥ هـ = ٧٣٠ م) يقول بإمامة علي وأبنائه الحسن والحسين وابن الحنفية ، ويشيد بالآخر منهم ولا يصدق بموته فيقول :

ألا إن الأئمة من قريش ولاية الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيهِ هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده غسل وماء

ونرى السيد الخيري الشاعر الأبا هاشمي المتوفى سنة ١٧٣ هـ ينادي بما نادى به كثير عزة ، فيستبعد موت ابن الحنفية ويشيد بما أثره فيقول :

سنين وأشهرها ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسود
مقيم بين آرام وعين وحقان تروح خلال رُبْد
تراعيها السباع وليس منها ملاقين مفترسا مجد
أمن به الردى فرتعن طورا بلاخوف لدى مرعى وورد^(١)

ومع ذلك لم نجد للحنفية - أئمتهم وعامتهم - من التأثير أو النفوذ شيئا يذكر في العصر العباسي الأول ؛ إلا أن جماعات من السكيسانية منهم ظلوا يعملون في الخفاء حتى انضموا بزعامه حمدان قرمط^(٢) إلى فريق الاسماعيلية النشيط في أواخر القرن الثالث الهجري . وهكذا ضعف الفرع العلوي الثالث ، الذي كان يتزعمه محمد بن الحنفية وأبناؤه من بعده .

أما الفرعان الفاطميان الآخران اللذان ينتميان إلى علي وفاطمة عن طريق الحسن والحسين فقد استطاع العباسيون - على ما رأينا - الفتك بالفرع الحسنی ، فقتل أبو جعفر المنصور علي محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وبدد الهادي شمل هذا الفريق في موقعة فح ، ولم يعد العباسيون يخشون على العراق أو الحجاز من هؤلاء ؛ إذ فر البقية الباقية منهم إلى بلاد المغرب بزعامه إدريس بن عبد الله

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ص ٣٧ .

(٢) وقد يؤيد هذا الرأي دستور القرامطة الذي يفسرته إلى زعمائهم ، وينادون فيه بإمامة أحمد ابن محمد بن الحنفية وبقيوته ، ويعتقدون أن له تنزيلا شديدا بالقرآن الكريم . انظر الطبري ج ١١ ص ٢٣٩ .

الذى كون دولة الادارسة ، ولكنه مات مسموماً على أيدي أنصار الرشيد ، كما فر أخوه يحيى بن عبد الله إلى بلاد الديلم . واستطاع الرشيد أن يقرر به فأحضره إلى بغداد وقتله سنة ١٧٦ هـ .

خلا الجو للفرع الحسينى بضعف جماعات الحنفية والحسنية ، فتلقف أئمة هذا الفرع الزعامة العلوية التى تركزت منذ أواخر حكم الأمويين وأوائل حكم العباسيين فى جعفر الصادق الإمام السادس عند الامامية الاثنا عشرية والاسماعيلية على السواء ، حيث يؤمنون جميعاً بإمامة على بن أبى طالب ، ويعتبرونه وصى الرسول وأساسه وسوسه (١) ، ويغلو فيه بعض المتأخرين من الاسماعيلية ، فيرون أنه صاحب التأويل ومحمد ﷺ صاحب التزويل ، وأن تأويل على خير من تنزيل محمد . حتى إن بعض فرق الاثنا عشرية كالنصيرية مثلاً يؤلهونه .

ويرى الاسماعيلية خاصة أن على بن أبى طالب نص على تعيين ولديه الإمامين الحسن والحسين ، وأن رتبة النبوة - النطق - انتقلت إلى الإمام الحسن بأمر من أبيه على ، ورتبة الامامة انتقلت بأمره أيضاً إلى ابنه الحسين ، وأنه بموت الحسن اجتمعت الرتبتان فى شخص الحسين .

يقول الخطاب بن الحسين (٢) فى كتابه غاية المواليد : « وقام أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) بالرتبتين حتى حضرته غيبته فأظهرها ، فنص برتبة النبوة على ولده الحسن ، وبرتبة الامامة على ولده الحسين ، وعهد إلى الحسن عند حضور نقلة بأن يسلم الرتبة إلى أخيه الحسين ، بعد تقدم النص عليهما من جدهما بقوله :

(١) يقول الاسماعيلية : إن لكل نبي ناطق صاحباً ، يأخذ عنه دعوته ، ويحفظها على أمته ، ويكون معه ظميراً له فى حياته وخليفة له من بعد وفاته . وعندهم أن هذا الصاحب إمام ولكن يسمونه « السوس » ، أو « الأساس » ، (انظر المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٩٣ . وعندهم أن شيثا سوس آدم ، وأن له شريعة باطنة ، وآدم شريعة ظاهرة ويعتبرون سام بن نوح أساس أبيه وصاحب الشريعة الباطنة على حين يعتبرون إبراهيم المليل نبياً ناطقاً له شريعة ظاهرة وأساسه ابنه إسماعيل صاحب الشريعة الباطنة ، ومثل ذلك فى هرون الأساس وأخيه موسى لناطق ، ويرون أن لعيسى شريعة ظاهرة ولأساسه شمعون الصفا شريعة باطنة ، وهكذا يرون فى محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ناطقاً له شريعته الظاهرية وفى ابن عمه على أساساً له شريعته الباطنة .

(٢) انظر المنتخب من كتب الاسماعيلية ص ٢٨

الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ، وأبوهما خير منهما . وليس هذا وحده بل إن فريق الحسينية - وعلى رأسهم الاسماعيلية - يحاولون بكل ما استطاعوا إقصاء بني الحسن بن علي عن الإمامة ، فيبتدعون نظرية الاستقرار والاستيداع للبرهنة على بطلان دعوى الحسينيين في الإمامة ، فكأن الدوافع السياسية هي التي حملت الاسماعيلية خاصة على ابتداع تلك النظريات في الإمامة . يدلنا على ذلك ما قالوه في محمد بن الحنفية من أنه حمل الوديعة - الإمامة - فقط ليردها إلى مستحقها - علي زين العابدين - ويرون أنه قام بردها فعلا ؛ ولهذا لا يعدون محمد بن الحنفية إماماً من أئمتهم . والفرق بين ابن الحنفية والحسن بن علي أن انتقال الإمامة إلى من خلف الحسن كان بعد وفاته (أي الحسن) ، أما ابن الحنفية فقد رد الوديعة قبل وفاته (١) ، فهو والحالة هذه ، لا يعدو أن يكون نائباً عن الإمام في حياته أو حجة له وسترأ ، شأنه في ذلك شأن بني القداح فيما بعد . وهكذا نستطيع أن نقول : إن إقرار إمامة الحسين فيها بطلان دعوى أبناء الحسن في الإمامة ، كما أن إقرار إمامة علي زين العابدين - الإمام الرابع - ينطوي على نفي إمامة محمد بن الحنفية أي نفي إمامة أبنائه . ونستطيع أن نلح الخلاف القائم بين الإمامية والكيسانية من قول كثير عزة السابق :

ألا إن الأئمة من قریش ولاة الحق أربعة سواء

فهو في هذا القول لا يعترف بإمامة علي زين العابدين ، على حين ينفي الإمامية لإمامة محمد بن علي وأبنائه من بعده .

ولا يعترف الإمامية كذلك بإمامة زيد بن علي زين العابدين ويقولون (٢)

(١) ويرهن دعاة الاسماعيلية على عدم أحقية ابن الحنفية للإمامة بأمر كثيرة تنبئها كلها إلى إنرار الإمامة في أبناء الحسين عن طريق علي زين العابدين : من ذلك ما يروونه من أن علياً زين العابدين حين طلب من عمه محمد تسليم وديعته قال له : وما هو لك المودع عندي ؟ فقال : هي قارورة مخومة فيها قرطاس أبيض وهي فارغة ليس فيها غيره . فعند ذلك جمع محمد بن علي الدعاة والتقياء وسلم إليه بحضورهم ، وأخرج القارورة وفتحها على بن الحسين بحضور من حضره ، فلم يكن فيها غير القرطاس الأبيض ، فكانت تلك بعض آياته التي أظهرها ليقع الإقرار به والتصديق . وكان إيداع الحسين بن علي - سلام الله عليه - القارورة المارغة والقرطاس الأبيض إشارة إلى خلوه من الأئمة . ، [غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٥ - ٣٦] . والذي تفرقه من تلك العبارة أن الدعاة لأبناء علي كانت رائجة في ذلك الحين ، وأن الاسماعيلية في البصر المتأخرة كانوا يعملون على تقريب أسباب هذا الخلاف بين أبناء علي المختلفين .

(٢) يعتقد الاسماعيلية أن هناك دورات للأئمة والآئمة ، وأن دورة الباقي - النبي - لا بد أن

بإمامة ابنه الآخر محمد الباقر بن علي زين العابدين . وهو عندهم الامام الخامس ، وأن أباه نص على إمامته من بعده . وهذا يفسر لنا كراهية الزيدية لبني عمهم الاسماعيلية ومقاومتهم إياهم في بلاد اليمن خاصة في جميع أطوار حياتهم .

أما الامام السادس عند الامامية فهو جعفر الصادق . ويظهر أنه كان من الحسكة السياسية بحيث كان يعمل على ألا يعرض شخصه ولا أنصاره للخطر الخارجي ؛ فرفض الخلافة من أي سلة خلال حتى لا يصطدم مع العباسيين وأنصارهم الأبي هاشمية (من الكيسانية) الأقوياء الطامحين ، ورفض أن يعلن الثورة على العباسيين لكيلا ينال منهم ما ناله ابن عمه النفس الزكية ؛ وأعلن تبرأه من أبي الخطاب وغيره من الغلاة ، حتى لا يتعرض لسيخط الرأي العام من جهة ، ويسهل على العباسيين الوصول إليه من جهة أخرى — واستطاع بفضل تلك السياسة الرشيدة أن يعمل في الخفاء ، وأن يزيل شكوك العباسيين فيه ، ويمهد السبيل لأبنائه من بعده للوصول إلى الخلافة . ونعتقد أنه لو لا فضج جعفر السياسي لما قامت للاسماعيلية والاثنى عشرية بعده قائمة . ولا نغالي إذا قلنا : إن جعفراً الصادق اتخذ من قيام الدولة العباسية وسيلة لبسط نفوذه وتدعيم تأثيره المذهبي ؛ فلم يكتف بالضعف الذي أصاب الفريقين العلويين الآخرين وهما فريقا الحسينيين أتباع الحسن والحنفية أتباع محمد بن الحنفية بل أظهر نفسه لفلول هؤلاء جميعاً على أنه الوارث الحقيقي لعلي وفاطمة ، فأخذوا يتسابقون في التقرب إليه وإلى أبنائه ، وكونوا طائفتي الاسماعيلية والاثنى عشرية وغيرهما . وعلى الرغم من أن جعفر لم يدرك نتائج جهوده كلها ، فإنه قد مهد السبيل لخلفائه الذين التف حولهم جميع فرق الجعفرية التي تدين له بالطاعة ، وغيرهم من الفرق الأخرى .

(١) إمامة إسماعيل بن جعفر

انقسم الإمامية بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ إلى فريقين : فريق نادى

يكون فيها سبعة أئمة أحدهم — وهو أولهم — العوس أو الأساس . ويسمى الستة الآخرون الأئمة الصمت ؛ والأئمة الصمت عند الاسماعيلية هم الحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ثم إسماعيل بن جعفر .

بأحقية إسماعيل^(١) بن جعفر ، ويعرف هؤلاء بالإسماعيلية أو السبعية ، لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع . ومن هؤلاء ظهر عبيد الله المهدى . وفريق آخر نادى بأحقية موسى الكاظم ، الابن الأصغر لجعفر الصادق ، وأبنائه من بعده حتى الإمام محمد الثاني عشر الذي اختفى بسر داب في مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته ، ولذلك سمي الإمام المنتظر . وكانوا يعرفون بالموسوية — نسبة إلى موسى الكاظم بن جعفر — واشتهروا بعد ذلك باسم الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثاني عشر .

ويرتبط بإمامة إسماعيل نظريات كثيرة قال بها أو ابتدعها الإسماعيلية ، منها تعيين الإمام بالنص ، وأن النص الأول هو المعمول به ، لأن البدء^(٢) من الله محال فيرى أنصار إسماعيل أنه كان أكبر أبناء أبيه جعفر وأحبهم إليه وأنه نص على إمامته بعده . ولذلك يرد الإسماعيلية على الموسوية والاثنا عشرية قولهم : إن موسى أحق من أخيه إسماعيل لأن إسماعيل مات في حياة أبيه فنص هذا على إمامة موسى ، ويقولون لهم : إن التعيين الأول هو المعمول به ، وأما الثاني فباطل لأنه يعتبر بدءاً وقد نسيت قول الصادق عليه السلام : إن البدء والمشية لله إلى كل شيء إلا في الإمامة^(٣) . . ويؤكدون لهم أن جعفراً الصادق كان يقول : ولو جاءكم أحد بدماغ ابني هذا (إسماعيل) فلا تشكوا أنه الإمام بعدى ، وأنه كان يقول فيه أيضاً : هذا هو الإمام بعدى ، فما أخذتموه عنه فهو عني^(٤) . كما لا يقر الإسماعيلية بموت إسماعيل في حياة أبيه ، ويردون على الاثنا عشرية الذين يقول شاعرهم :

لما انبرى لي سائل لأجيبه موسى أحق بها أم إسماعيل ؟
قلت : الدليل معي عليك وما على ما تدعيه للإمام دليل
موسى أطيل له البقاء فحازها إرثاً ونصاً والدعاة تقول :

(١) يعرف إسماعيل بالأعرج ، وكان أكبر إخوته وأحبهم إل أبيه . وقد توفي في حياة أبيه جعفر الصادق بالعريض في المدينة المنورة ، ودفن بالبقيع في سنة ١٤٥ هـ وهو الراجح وقيل في سنة ١٣٨ هـ (أنظر صحاح الأخبار ص ٤٥) .

(٢) ومعناه أن الله يبدؤ له فيغير ما أراد .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار التعاقب ص ١٥

(٤) المرجع نفسه

إن الإمام الصادق بن محمد عزى بإسماعيل وهو جدل

وأنى الصلاة عليه يمشى راجلاً أجمع في وقته معزول ؟ (١)

ويقول الإسماعيلية : إن جعفر الصادق إنما أشهد على موت إسماعيل لابعاد خطر العباسيين ، ويؤكدون أن إسماعيل مات بعد وفاة أبيه لا قبله وأنه رثى بالبصرة في سنة ١٥١ هـ وفعل المعجزات بها بإبرائه مريضاً مرضاً مزمناً ، وأنه قام بذلك وإعجازاً للخلائق بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة في عقبه الطاهرين من بيته ، لأن تم الحكمة وتتصل إلى الخلائق رحمة وتكمل الحجة وتم النعمة ، (٢) ويعتقدون أن ما فعله إسماعيل هو نوع من الغيبة التي اشتهر الشيعة بها ، لذلك يقولون : « إنه غيب شخصه في حياة أبيه سرّاً من أعدائه ومحنة لأوليائه (٣) » ، وهكذا لم يعترف الإسماعيلية للموسوية بأحقيتهم بالامامة دونهم .

والواقع أن إسماعيل بن جعفر مات في حياة أبيه ، وأن كثيراً من الإسماعيلية يؤمنون بذلك . ولكن الإسماعيلية جميعاً يؤمنون بأن النص لا يرجع القهقري ، ولذلك يتخذون نظرية الاستقرار والاستيداع وسيلة للتدليل على إمامة إسماعيل دون أبي عمه موسى ، فيقول المعتدلون منهم : إن موسى الكاظم كان إماماً مستودعاً لإسماعيل وأبنائه ، لأنهم أئمة استقرار شأنه في ذلك شأن الحسن مع الحسين وأبنائه . كما يقولون إن إسماعيل أوصى قبل موته أباه جعفر بتعيين وصي لابنه محمد ابن إسماعيل ، فعين جعفر ابنه موسى الكاظم وصياً على حفيده محمد بن إسماعيل ليكون ستراً عليه (٤) . فكان هذا مصداقاً لقوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في

(١) كتاب أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥

(٢) الداعي إدريس عماد الدين : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٤٩ . والواقع أن إسماعيل مات في حياة أبيه جعفر وأن موته كان سنة ١٤٥ هـ على الأرجح . ويرى الكثير من الإسماعيلية أنه مات في سنة ١٣٨ هـ ، ويرى آخرون أن ذلك كان في سنة ١٤٣ هـ . وهذا يرى أن ما ذهب إليه علماء الإسماعيلية من أنه مات بعد سنة ١٤٨ هـ ضرب من ضروب التورية .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطق ص ٨١ (من المنتخب)

(٤) جعفر بن منصور : أسرار النطق (من المنتخب) ص ٨١ . ويقول الداعي إدريس : « وإن الصادق عليه السلام أقام موسى حجاباً على محمد بن إسماعيل وعلى من جعله له باباً الذي هو ميمون الستر عليه والكفيل » ، (زهر المعاني ص ٤٩) .

عقبه ، . والحق أن هذا يتفق مع حرص الصادق الذي اشتهر به (١) . فقد كان يخشى العباسيين ، ولذلك أشهد الناس على وفاة ابنه إسماعيل حتى لا يشير شكوك العباسيين ، بل إن الاثنا عشرية يذهبون إلى القول بأن جعفرأ د لما حضرته النقلة ، استخلف المنصور على أهله وولده ، كل ذلك صيانة لهم وسترأ على ولي الله صلوات الله عليه ، (٢) .

ويقول الداعي إدريس في كتابه زهر المعاني : « إن موسى السكاظم لم يجعله الصادق عليه السلام إماماً إلا سترأ على ولي الأمر (أى محمد بن إسماعيل) لينبئكم أمره عن الأضداد ، ولئلا يطلع على ما خص به أهل العداوة والعناد ، . ويقول : « والموسوية قالت بإمامة موسى بن جعفر ، وكان أكثر اجتماع شيعة الصادق عليه السلام على موسى وعلى القول بإمامته . وادعى موسى الامامة لنفسه . قيل إن ذلك تقية منه على الامام محمد بن إسماعيل ، وإنه لو ملك الأمر لرده إلى أهله وأحله محله (٣) ، . من هذا كله يتضح مبلغ محاولة الاسماعيلية إثبات أحقية إمامهم إسماعيل الذي يعتقد بعضهم فيه ما يعتقده المسلم في نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (٤) .

ولكن هل قامت الدعوة الإسماعيلية في عهد إسماعيل ؟ الواقع أنها لم تتكون إلا في عهد ابنه محمد بن إسماعيل (٥) وأبنائه من بعده . ونحن نشك كثيراً في تكوين فرق الاسماعيلية في حياة إسماعيل ، أو بالأحرى في حياة أبيه جعفر الصادق ، اللهم إلا إذا افترضنا اندماج جعفر مع أنصار إسماعيل وابنه من الغلالة ، وافترضنا أنه تبرأ منهم تقية ، وهو مالم يوافق عليه أحد . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نقول على وجه التحقيق إن إسماعيل كان يدعو إلى نفسه في حياة أبيه جعفر ، فإن

(١) المأثور عن جعفر قوله : « والتقية ديني ودين آبائي . من لا تقية له فلا دين له » ، المنتخب ص ٩٢ .

(٢) جعفر بن منصور : أسرار الملقاة ص ٨١ .

(٣) الدكتور محمد كامل حسين : المزيد في الدين (رسالة) ص ١٣٥ .

(٤) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٤٧ (من المنتخب)

(٥) De Sacy : Recherches sur l'initiation à la Secte Ismaelienne, (J.A., 1824) p. 302.

هناك من الحوادث ما يجعلنا نميل إلى القول بأن إسماعيل كان على صلة بمؤسسى فرقة ؛ من ذلك اتهام الاثنا عشرية وغيرهم من السنيين لإياه بشرب الخمر (١) الذى يبيحه الغلاة . ولا يبعد أن يكون قد فعل ذلك — إن صح — لاتصاله بمؤسسى فرقة الخطائية والمباركية وسواهم ، أو بعبارة أخرى لا يبعد أن يكون إسماعيل قد أخذ يقول بالغلو الذى يعتبر من أهم مقومات المذهب الإسماعيلى . يؤيد ذلك حادثان : الأول قول أحد خاصّة جعفر الصادق : « كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، فى باب الخليفة أبى جعفر بالحيرة حين أتى ببسام ، (أحد الغلاة) وإسماعيل بن جعفر بن محمد ، فأدخلا على أبى جعفر ، فأخرج بسام مقتولا ، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فرفع جعفر رأسه إليه وقال : أفعلتها يا فاسق ! أبشر بالنار . » (٢) .

والثانية : ما أورده الكاشى أن الصادق عليه السلام قال للمفضل (٣) : يا كافر يا مشرك ! ما لك ولابنى — يعنى إسماعيل — وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطائية ، ثم رجع بعده ، وفى رواية أخرى أنت المفضل ؟ وقال له : يا كافر يا مشرك ! ما تريد إلى ابنى ؟ تريد أن تقتله ؟ (٤) . ومعنى ذلك أن إسماعيل كان على اتصال بجماعة الغلاة الذين قامت الدعوة الإسماعيلية فيما بعد على أكتافهم ، وخاصة بأبى الخطاب وأنصاره ، وهذا ما حدا بالآستاذ ماسينيون إلى القول بأن الكنية التى يكنى بها أبو الخطاب ، وهى « أبو إسماعيل » ، إنما تشير إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأن الخطاب هو الأب الروحى لإسماعيل بن جعفر (٥) . وهكذا كان أبو الخطاب على اتصال دائم بإسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه ، وقد كانا يعملان معاً على تنظيم مذهب اتخذ أساساً للمذهب الإسماعيلى فيما بعد ، كما كانا يعملان على

(١) يعتقد بعض الإسماعيلية فى إباحة شرب الخمر وارتكاب المخزورات على أيدى الرؤساء بدعى أنه لا جناح عليهم ، وأن تكاليف الشريعة إنما جعلت للعامة وحدهم .

(٢) انظر أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥

(٣) هو المفضل بن عمر الجعفى أحد أنصار أبى الخطاب

(٤) أعيان الشيعة ج ١١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦

(٥) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, p. 42. (٥)

تكوين فرقة شيعية ثورية ، تمكنت فيما بعد من جذب جميع الفرق الشيعية الأخرى إليها . بحيث أخذ الجميع يتسابقون في الاعتراف بإمامة إسماعيل وأبنائه من بعده . وإذا صح ذلك فكيف نفسر إقرار إسماعيل أباه جعفرا على تبرئه من أبي الخطاب ؟ وهل كان ذلك تقية (١) منه ، أم أن ذلك يرجع إلى عقيدة راسخة في نفس إسماعيل ؟ ويظهر أن إسماعيل كان يحارى أباه خوفا من العباسيين . هذا إذا صح أنه أقر أباه في انتقاضه على أبي الخطاب ، لأن الرواية تذهب إلى أن إسماعيل كان لا يزال طفلا في ذلك الحين . ونحن نعلم أن انتقاض جعفر الصادق على أبي الخطاب (٢) كان بعد قيام الدولة العباسية ، وأن إسماعيل لم يكن في ذلك الوقت طفلا ، بل كان رجلا كامل الرجولة مما يبعث على الشك في صحة هذا القول ، ويوحى إلينا في الوقت نفسه بأن إسماعيل قد بدأ ينظر إلى الإمامة وزعامة العالم الإسلامي نظرة عملية .

من هذا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن بعض الأئمة العلويين قد غيروا ، منذ أيام إسماعيل ، السياسة التي سار عليها على بن أبي طالب مع ابن سبأ ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبي عبيد الثقفي السكيساني ، وجعفر الصادق مع أبي الخطاب . وإن هذه السياسة الجديدة كانت تعنى باستغلال الفرص الملائمة لمصلحة الدعوة العلوية . ولذلك أصبحت سياسة هذا الفرع من الأئمة العلويين سياسة تقوم على المنفعة وحدها ، وهذه السياسة لا بد أنها لم تعجب المعتدلين من الشيعة أو الأئمة الآخرين . يتضح ذلك من موقف جعفر الصادق من ابنه إسماعيل وأفضاره . وعلى عكس ذلك

() أي أن يظهر خلاف ما يعلن خوفا .

(٢) ذكر الداعي جعفر بن منصور أنه : جاء عن بعض أصحابه (إسماعيل) ، وكان من دعوة أبي الخطاب ، أنه قال : رأيت إسماعيل عند منصرفه من الكتاب ، فأجلسته في حجرى ، وقبلت رأسه ، وقلت : ما أعجب أركم . . . ؟ فقال : بأى الأمور تعجب يا فلان ؟ قلت : يقول لنا أبوك بالأمس أبو الخطاب معدن سرنا وعية (وعاء) علينا ، واليوم يأمنا بالبراءة منه ، فقال : يا فلان ، وسماه ، إن الله جل وعز لما دعا السموات والأرض وذلك قوله : . . . اثريا طوعا أو كرها قاتنا : أينما طائعين . . . فكافنا مطيعين . وكذلك انطقاء والأوصياء والأئمة كانوا طيعين في إجابتهم ، فلذلك صاروا معصومين ، وسائر الأنبياء لهم مستقر ومستودع . . . وإن أبل الخطاب عن استودعه الله علينا ، فلذلك قال بولايتنا ، فلما أمد في دينه قبض الله وديعته ، فتهربنا منه . فن أى هذه الأمور أنت تعجب ؟ . . .

أسرار النطقاء ص ٩٥ - ٩٦ .

وجدت هذه الحركة الاندفاعية الجديدة رواجاً كبيراً بين غلاة أنصاره ، فحمل لواءها أخيراً ميمون القداح وأبناؤه ، وكانوا من أخلص تلاميذ هذه المدرسة ، وتركزت عصارة هذه الأفكار الجديدة في جماعة الإسماعيلية .

والخلاصة أن جعفر الصادق عهد إلى ابنه إسماعيل بالإمامة من بعده ، ولكنه نزل عن هذا التعيين الأول ، ومنحه ابنه الأصغر موسى الكاظم ؛ وذلك إما لوفاء إسماعيل في حياة أبيه ، أو لانهما بشرب الخمر ، لكي يبعد الشكوك عن نفسه وعن جماعته ، بعد أن اتضح للعباسيين أن إسماعيل كان على صلة ببعض الغلاة ، أو أن جعفر فعل ذلك ذراً للرماد في العيون ، حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقي ، وهو محمد بن إسماعيل ، النهوض بأعباء الدعوة سرا .

انقسام العلويين بعد جعفر الصادق

على أن موت جعفر الصادق أوجد حالة خطيرة من الاضطراب بين أتباعه وأبنائه ؛ فهناك جماعة ظلوا على وفائهم لجعفر الصادق ، ونادوا بمهديته وانتظاره وقالوا : إنه لم يمت ، وإبه سيعود ليلاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ويسمى هؤلاء « الجعفرية » ، إلا أن هذا الفريق ضعف وانمحق على مر الزمن .

ومن هؤلاء الأنصار جماعة اعتقدوا لإمامة عبد الله بن جعفر المعروف بالافطح ، وفيهم يقول الداعي إدريس (١) عماد الدين : « اعتقدت فرقة أخرى لإمامة الأفطح (الصواب الأفطح) عبد الله بن جعفر . فمات في عصر أبيه وهو منقطع الولد ، فبطل مالفقوه من الترهات . »

والواقع أن هذا الفريق قد قضى عليه لأمر منها : منافسة الفرق القوية الأخرى له ، ولا سيما جماعة الاثنا عشرية والإسماعيلية ، ومنها أن الأفطح مات بعد حياة أبيه ، لا كما ذهب إليه إدريس ، ولم يعرف أن جعفر الصادق نزل له عن الإمامة . أضف إلى ذلك أنه مات ولم يعقب ولداً ذكرًا مما أضعف مركز المتأدين بإمامته . ونستطيع أن ندرك من حركة الأفطحية كيف اتخذوا الانتماء إلى أهل

(١) زهر المغانى (من المنتخب من كتب الإسماعيلية) ص ٢٥ .

البيت وسيلة للتمتع بالنفوذ والجاه . ولا غرو فإن الأفظحية كانوا يدركون تمام الإدراك عدم أحقية الأبطح الذي تشيعوا له لهذا الغرض فحسب .

وهناك جماعة قالوا بإمامة محمد بن جعفر الصادق ، ويسمون « المحمدية » ، ويدعى هؤلاء أن محمد بن جعفر إمامهم ، وأنه ثار على العباسيين وحاربهم في مكة . ولا يعترف الإسماعيلية له بالإمامة ، لأن جعفر لم ينص عليه ، ولأنه حارب العباسيين في الشهر الحرام وفي البلد الحرام ؛ ثم لأنه اتبع هو وأنصاره طريقة العلويين التي كان نصيبها الإخفاق ، فلم يتخذوا لأنفسهم دار هجرة يعتصمون بها ، ويجهدون عدوهم منها ، ثم يفتحون بعد ذلك دار هجرة ، (١) . هذا إلى أن العباسيين عبثوا به ، وجعلوه يقر على نفسه وعلى دعوته بالخطأ ، كما تبرأ هو من دعوته ، وأقر على نفسه بالضلال . « والشيعية بأسرها مجتمعون على أن الإمام الذي يقوم بمكة لا يذلل له رأيه ، (٢) .

وقد تكونت جماعة قوية أخرى تنادى — على ما رأينا — بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وهم الإسماعيلية ، وانضوى أكثر الشيعة تحت لواء موسى الكاظم ، وسموا — على ما رأينا — الموسوية (٣) ثم الاثنا عشرية . على أن الأبطحية والمحمدية لم يكن لهم من الشهرة ما كان للإسماعيلية أو الموسوية .

ولا يعزب عن أذهانتنا أن الاضطراب المذهبي الذي أعقب موت جعفر الصادق قد ساعد على نجاح فريق الإسماعيلية . فقد أخذ ابنه محمد يدعو إلى نفسه في الخفاء ، واستغل اشتغال العباسيين بتتبع الطوائف العلوية الأخرى التي تكلمنا عليها من قبل .

(ب) إمامة محمد بن إسماعيل

مات إسماعيل حول سنة ١٤٥ هـ ، ولابنه محمد من العمر أربع عشرة سنة . وقد

(١) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٨٤

(٢) المصادر نفسها

(٣) Defrémery : Essai sur l'Histoire des Ismaéliens de la Perse, p. 12.

ولاه أبوه عهده ونص على إمامته في حياة جده جعفر الصادق . أى قبل سنة ١٤٥ هـ ، فعل ذلك لأن الإمامة — على ما يقولون — لا ترجع القهقري . ويرى بعض الإسماعيلية أن جعفرا الصادق لما عين موسى الكاظم ليكون سترا على محمد بن إسماعيل استبعد موسى بالامر دون محمد بعد موت الصادق (١) . ويرى بعض آخر أن جعفرا الصادق عهد إلى ميمون القداح - وكان من أخلص رجالاتهم - برعاية محمد بن إسماعيل . وأن ذلك كان في طفولة محمد لا عند موت أبيه (٢) .

ويبدو أن محمد بن إسماعيل كان يعمل على نشر الدعوة لنفسه وهو بالحجاز . وقد اشتهر أمره بعد وفاة جده جعفر الصادق ، واستطاع أن يمويه على العباسيين طوال عهد المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) والهادي (١٦٩ — ١٧٠ هـ) وجزءا من عهد الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) ، وساعده على ذلك إيمان أنصاره في التخفي واشتغال المهدي والهادي بحرب الزنادقة والعلويين الثوار . وكان محمد بن إسماعيل قد تعلم من جماعة العباسيين السرية (الآبي هاشمية) التي استطاعت بفضل إيمانها في التخفي أن تقلب العرش الأموي ، ولذلك فرق دعائه السيارة في جزائر الأرض (٣) ، وأمر أهل الجزائر بإقامة الدعة باسمه ، فعمرت الأرض ، وانتشر الأمر ، وأقبلوا في السياحة لنصب دار هجرة لهم ، (٤) .

غير أن محمد بن إسماعيل أدرك استحالة بقاءه في المدينة بعد اشتهار أمره في عصر الرشيد الذي يعتبر عهده العصر الذهبي للعباسيين ، والذي استطاع بنشاطه المتصل أن يحمي الثورات ويقضي على إدريس بن عبد الله وأخيه يحيى ، كما استطاع في الوقت نفسه أن يرقب حركات محمد بن إسماعيل ويعمل على اقتناصه . ولكن محمد بن إسماعيل أدرك خطر الرشيد على دعوته ، فأعد للأمر عدته ، فاتخذ سردابا له في داره بالمدينة ، حتى إذا ما شعر بدنو الخطر فر هاربا . وتتفق المصادر السنية والإسماعيلية في القول بأن محمد بن إسماعيل استطاع أن يتوغل في شرق المملكة

(١) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٤٩ ، ٥١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ .

(٣) الجزيرة عند الإسماعيلية هي الأقاليم التي تسمى من إقليم الدعوة .

(٤) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٦٠ .

الإسلامية . فيرى بعض (١) . أنه قصد فرغانة واستقر بها ، ويرى بعض آخر أن استقراره كان بنيسابور (٢) حيث تزوج هناك ، وأنجب ابنه عبد الله الرضى الذى عهد إليه بالإمامة من بعده (٣) ، على حين ترك ابنه إسماعيل وجعفر فى المدينة ، ولم يكن لهما من الإمامة شيء .

ويرى رشيد الدين (٤) أن محمد بن إسماعيل فر من المدينة إلى العراق فالرى ، ومنها إلى دوماوند ، وهو جبل قريب من الرى ، واستقر هناك بقرية تدعى سملا ، أطلق عليها فيما بعد محمد آباد ، (٥) نسبة إليه . وإن فرار الإمام محمد من المدينة لم يكن خوفا من العباسيين ، وإنما كان لنشر الدعوة وإنفاذ أبنائه ودعائه إلى كافة أنحاء العالم الإسلامى ؛ لأنه كان من السهل على من يقيم خارج بلاد الحجاز أن يتصل بالبلاد الأخرى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هرب محمد بن إسماعيل قد حدث بعد موت جعفر الصادق فى سنة ١٤٨ هـ . وكان قد أقام موسى الكاظم (+ ١٨٣ هـ) وصيا على محمد بن إسماعيل . ولعل موسى حاول الاستئثار بالإمامة دون محمد الذى خشى إفشاء سره على يد الموسوية ، وأدرك استحالة رواج الدعوة إليه إذا بقى بالحجاز ؛ ولذلك أثر الفرار منها إلى بلاد يسهل عليه التردد عليها من حين إلى حين . ولذلك نراه لا يفتر عن الانتقال ؛ فطورا نراه فى فرغانة والرى ، وطورا آخر فى سورية ، مما يدلنا على أنه كان يخاف بأس الرشيد ، ويؤيد بطلان رأى القائل بأنه كان على وفاق مع هذا الخليفة ، وإنه كان لا يترك السعى إلى السلطان من بنى العباس بعمه الإمام موسى الكاظم عليه السلام ، وهو مع ذلك يبره . وقد آل أمر سعيد به أن قبض عليه الرشيد وحبسه . . . حتى مات وحظى بعده ابن أخيه محمد بن إسماعيل هذا عند الرشيد ، ومات ببغداد ، (٦)

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 30.

(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٥٤

(٣) نفهم من ذلك أن مولد الإمام المستور الثانى - عبد الله - كان بعد فرار أبيه من المدينة فى عهد الرشيد ، أى بعد سنة ١٧٠ هـ بزمان طويل .

(٤) جامع التواريخ : المجلة الآسيوية الملكية سنة ١٩٣١ ص ٢٢٢

(٥) يقول الإسماعيلية إن موسى الكاظم ادعى الأمر له ولولده من بعده . المنتخب ص ٥١

(٦) عبد الله بن سراج : صحاح الأخبار ص ٤٥ - ٤٦ . ويتعارض هذا مع مراجعنا الإسماعيلية

التي تذهب إلى القول بأن محمد بن إسماعيل مات فى فرغانة أو فى نيسابور .

هذا عن فرار محمد بن إسماعيل من المدينة . أما عن مركزه في الدعوة ، فإنه يعتبر أول الأئمة المستورين الذين يتنهون بظهور سعيد وقيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦ هـ . وكان يسمى قبل فراره « الإمام محمد » ، أما بعد ذلك فقد أصبح يطلق عليه « الإمام المكتوم أو المستور » ، وهو بذلك أول من أوجد دور الستر الأول عند الإسماعيلية .

ويعتبر الإسماعيلية محمد بن إسماعيل الناطق السابع ، وأن إمامته كانت بداية دور جديد في تاريخ الإسماعيلية ، بل يذهبون إلى القول بأنه أقي بدين جديد ، نسخ به الشريعة التي سبقتها ، حتى لقد فضله الإسماعيلية على أبيه إسماعيل خاتم الأئمة الصمت . فهو في نظرهم قد جمع بين درجتى النطق والإمامة . ورفع عنهم التكليف الظاهرية للشريعة بمبادئه بالتأويل ، واهتمامه بالمعنى الباطن وغضه من شأن المعنى الظاهر ، ولذلك قيل فيه : « وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك ، لانتظامه في سلك مقامات دور الستر ، لأنك إذا عددت آدم ووصيه وأئمة دوره ، كان خاتمهم الناطق ، وهو نوح عليه السلام ... وإذا عددت عيسى ووصيه وأئمة دوره ، كان محمد ﷺ متسلماً لمراتبهم ، وهو الناطق الخاتم للنطقاء ، وكان وصيه عليه السلام بالفضل منفرداً به . وإذا عددت الأئمة في دوره كان محمد بن إسماعيل سابعهم (١) . وللسابع قوة على من تقدمه ، ولذلك صار ناطقاً وخاتماً للأسبوع ، وقائماً وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها (٢) . ويقول فيه المعز لدين الله : « وعطلت بقيامه ظاهر شريعة محمد ﷺ (٣) » وتلا به الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وخيلاً لما كان لمعانيها مبيئاً ، ولأسرارها كاشفاً ومجلياً ، فأزال عن أتباعه وأشياعه اعتقاد الظاهر على ما فيه من تعطيل وتشبيه للبدع الحق بمخلوقاته (٤) .

(١) نعلم أن إسماعيل هو الإمام السابع ، ويظهر أن الداعي إدريس يريد أن يقول : إن الإمام الحق بعد جعفر الصادق (الإمام السادس) هو محمد بن إسماعيل ، وأما أبوه فكان واسطة اتصال بين جعفر الوالد وإبراهيم الابن .

(٢) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٥٦

(٣) المصدر نفسه حيث يقول أيضاً هو « مترجم القرآن ومفسره ، ومظهر بيانه ومفوره ، وقائم يوم القيامة » .

(٤) ويقول الداعي إدريس (زهر المعاني ص ٤٧) عن ميمون القداح « هو ميمون بن غيلان

كان محمد بن إسماعيل يعتمد في نشر هذه الدعوة على حجته ميمون القداح الذي يذكر الإسماعيلية أنه من نسل سلمان الفارسي ، وسنرى أن أسرة القداح سوف تلعب دورا هاما في تاريخ الإسماعيلية ، وأن محمدا لم يمت حتى كان قد وضع مع حجته ميمون أسس الدعوة الإسماعيلية . ولا نعرف بالضبط سنة وفاة ميمون . على أن هذه الوفاة لابد أن تكون قد حدثت بعد سنة ١٨٣ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها موسى الكاظم ، لأن ميمونا عاش بعد الكاظم على ما ذهب إليه صاحب صحاح الأخبار .

ترك محمد بن إسماعيل كثيرا من الأولاد ، ومن هؤلاء عبد الله الذي ولاه أبوه عهده . أما إسماعيل وجعفر فقد رأينا أنه لم يكن لهما من الأمر شيء . ومن أولاد محمد ، علي بن الليث وأحمد والحسين . وقد تمكن العباسيون من الفتك بابنه علي ، ومن ثم هرب ابنه أحمد بن محمد إلى خوارزم ، ولا نعرف ما حدث له هناك . كما عين محمد بن إسماعيل ابنه الحسن ليعمل باسم ابنه وولي عهده عبد الله الرضى ، فظل مخلصا لأخيه لولا أن بعض الدعاة حاولوا إقامة الدعوة باسمه ، وإن كان ذلك على كره منه . ويقال إنه قصد خوارزم للاتصال بأخيه أحمد بن محمد بن إسماعيل ، فقبض عليه وقتل هو وجميع أقاربه ومن معه من أهل بيته ، حتى إنه لم يبق منهم إلا أحمد بن محمد بن إسماعيل ، وعبد الله الرضى . أما أحمد فلم نعرف عنه شيئا كما تقدم . وأما عبد الله فقد انتقلت إليه الإمامة بعد أبيه .

(ح) إمامة عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل

ولد عبد الله بن محمد الملقب بالرضى والناصر أو العطار في نيسابور ؛ ويعتبر أول الخلفاء (١) عند الإسماعيلية . ويذكر صاحب كتاب دستور المنجمين (٢) أنه عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل . وقد ولد في عهد الرشيد أو بعده . وأحاطه أبوه

== ابن بيدر بن مهران بن سلمان الفارسي ، كفيل محمد بن إسماعيل ومستودع أمره ... وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد إسحاق بن يعقوب أهل الاستيلاء والفائين بالبلاغ والابلاغ ، ، .

() الخليفة الإسماعيلي هو الامام الصامت الأول ، فهو شبيه بالحسن بعد علي

De Goeje : Memoires, vol. ii. p. 203. (٢)

بفريق من دعائه المخلصين ، كما غلا هو وأنصاره في إخفاء أمر ابنه عبد الله هذا حتى لا يقع في قبضة العباسيين . وهكذا نصب « محمد بن إسماعيل » له حجباً ، وأمر كل واحد من الحجب والحجج أن يتسمى باسم الإمام . فمن أخذ العهد على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضي الوهم إليه ستراً على صاحب الأمر (١) ، وهذا ما جعل التحقق من شخصية الأئمة المستورين متعذراً على الناس سنيين كانوا أم شيعيين ، وأصبح من الصعب التفريق بين الحجج والأئمة لاتفاق أكثرهم في التسمية . أضف إلى ذلك أن رؤساء الدعاة في جزر الدعوة الرئيسة وبحارها ، كانوا يختلفون فيما بينهم ، في ذكر أسماء الأئمة حتى كان ذلك من أهم العوامل التي حفظت الأئمة المستورين وحالت دون التعرض لأشخاصهم .

اتخذ الإمام عبد الله الرضى من عبد الله بن ميمون القداح حجة له وحجاباً . ولا ندري هل كان لكل من الإمام والحجة اسم آخر غير اسمه الذي اشتهر به ؛ فإن محمد بن إسماعيل كان يسمى الميمون ، كما كان حجته يسمى ميمون القداح . وتسمى الإمام عبد الله الرضى باسم حجة عبد الله القداح . ويظهر أن لكل منهما اسماً بل أسماء أخرى . والمهم عندنا أن اتفاق اسمي الحجة والإمام ينبغي أن لا يجعلنا نخطئ بين شخصيهما كما ذهب إليه ماور (٢) ، أو أن ننفي وجود واحد منهما كما نفاه بعض السنيين والإسماعيلية (٣) . يقول الداعي إدريس في عبد الله هذا (٤) : إنه « كتم نفسه ، وستر حجته وحدوده ، فكان حجته وحجابه عبد الله بن ميمون . رضوان الله عليه . »

ويدلنا على إمعان عبد الله في التخفي ، ما ذكره هذا الداعي نفسه : « وكان استتاره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الباطل على الحق ، واشددة دولة

(١) زهر المعاني ص ٥٤ . ويؤيد على ذلك : « وجرت بذلك السنة والنهضة في الأئمة المستورين الثلاثة . فمن ذلك أن الدعاة في أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ما اتفق منها في ذلك اثنان . »

(٢) Polemics on the Origin of the Ismailism, pp. 70-1 (٢)

(٣) حيث يغفل السنيون فينفون وجود الأئمة المستورين ويقولون بعض الإسماعيلية فينفي وجودهم في القداح من الحجج

(٤) زهر المعاني ص ٥٩

الظلمة من آل العباس ، وعظم الريب والوسواس . وكان لشدة استتار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولى العصر ، ولا يفوه باسمه ؛ وإذا ترشح فى العلم ، وعلمت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ، ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وإذن كانت هنالك دعوة سرية إسماعيلية منظمة فى أيام المأمون ، وكان استتار الأئمة قد بلغ غايته . كما كانت بلاد خوزستان مكاناً رئيساً لنشاط الدعوة فى عهد الإمام عبد الله هذا ، حيث تزوج فى نهاوند ، واستقر بالأهواز ؛ إلا أنه كان كثير الترحال ، فنراه يقصد مازندران (طبرستان) ، ثم يعود إلى الأهواز .

أدرك الإمام عبد الله هذه النهضة العلمية الكبيرة التى راجت فى عهد الرشيد وبلغت ذروتها فى عهد المأمون . وتأثر بها ذلك الإمام وأثر فيها ، لكنه لجأ إلى الاستتار ، فلم يقم بما قام به ابنه العلامة أحمد بن عبد الله ، الذى قيل إنه واضع تلك الرسائل الذائعة الصيت التى تعرف برسائل إخوان الصفا . أما الإمام عبد الله فلم يظهر عليه لأحد ولا أطلع عليه ولا عرفه إلا جملة العرش (كبار حدود دعوته) القائمون بأمر الله ، أمناء خليفته ، وفضلاء حججه المنصوبون فى دعوته ، (١)

ويعرف الإمام عبد الله الرضى عند الإسماعيلية بالإمام عبد الله الأكبر ، ويعتبر أول الأئمة المستورين الذين استقروا بسلمية ؛ وذلك أن العباسيين تتبعوه فى عهد المأمون ، فقتلوا ابنه وفتسكوا بعمامة أسرته مما اضطره إلى الهرب مع ابنه أحمد - ولى بعده فى الإمامة ، والتنقل هنا وهناك ، فقصد مازندران فالأهواز ، ثم اتجها إلى سامرا ومنها قصد سلمية من أعمال حمص . فادعى عبد الله للهاشميين هنالك أنه واحد منهم ، وظل فى سلمية موضع الاحترام والتبجيل لتقواه وجوده ، كما لم يصرح باسمه ولا باسم ابنه أحمد . ولكن متى حدث ذلك ؟ وما ورد فى كتاب عيون الأخبار (٢)

(١) زهر المعاني ص ٥٩

(٢) Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 33-34

نستطيع أن نقول إن ذلك حدث بعد أن عهد المأمون إلى علي الرضا بالخلافة من بعده ، أي قبل سنة ٢٠٦ هـ .

وإذن لم يكن خروج عبد الله من الأهواز مع ابنه أحمد لنشر الدعوة فقط ، وإنما كان فرارا من الاضطهاد الذي حاق بأئمة الإسماعيلية وأمرائهم : ومن ثم كان هربه مفاجأة لكثير من دعاة الذين لم يستطيعوا العثور عليه إلا بعد مشقة (١) . وكان موته بسلبية ، ويعتقد بعض الإسماعيلية خطأ أن الخلفاء الفاطميين أحضروا جثته من سلبية إلى القاهرة (٢) . ولكن هل كان حجته عبد الله بن ميمون القداح معه ؟ يبدو أن عبد الله لم يكن يفارق إمامه ، لأنه حجته ونائبه ، ورتبة الحجية تلي رتبة الإمام في حدود الدعوة ، ولأن الحجية والإمام كانا يتخذان معاً من دار هجرتهم في خوزستان وبخاصة في الأهواز مستقرا . ولذلك لم يصب من كان بالأهواز منهم بسوء ، أما إخوة الإمام عبد الله وأبناءؤه الآخرون الذين كانوا موزعين بين نهاوند والري ونيسابور وخوارزم فقد فتك بهم العباسيون ، إلا أنه لا يبعد أن يكون عبد الله القداح قد بقي في الأهواز يقيم الدعوة لإمامة من هنالك ، ليحوطه بسيلاج من التخفي والاستتار . ومهما يكن من شيء فإن موت عبد الله الرضى قد حدث في أواخر عهد المأمون أو في أثناء حكمه ببغداد على الأقل .

(٥) إمامة أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل

تولى أحمد بن عبد الله إمامة الإسماعيلية بعد وفاة أبيه عبد الله ، وكان ذلك بسلبية ، واتخذ عبد الله بن ميمون حجة له ، كما اتخذته أبوه من قبل . وعاصر هذا الإمام الخليفة المأمون ، وساهم لحشد كبير في النشاط الثقافي وقتئذ ، فألف كتابه المعروف باسم رسائل إخوان الصفا رغبة منه في المحافظة على الدين الصحيح ، على ما ذهب علماء الإسماعيلية ، وحتى لا تطغى الفلسفة اليونانية التي راجت في عهد المأمون على التفكير الإسلامي . بل لقد رمى الإسماعيلية المأمون العباسي بالميل إلى

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 29.

(٢) ومن أشهر أبناء عبد الله ابنه أحمد ثم إبراهيم . أما أحمد فهو خليفته ، وأما إبراهيم فلم تعرف عنه شيئا كثيراً إلا أن أبنائه كانوا بسلبية عند فرار المهدي وأنهم قتلوا على يد الحسين بن زكرويه .

الإلحاد ، وقالوا في سبب تأليف الرسائل : إن المأمون ، أراد أن يظهر علم الهيثة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيثة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، ليرى الخلق أن الذي جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك عملوا بعلى عليه السلام ما عملوا ، وأنهم في ذلك مصيبون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم في قتل ذرية النبوة قضاء بما طُل من دماء قریش ، فلما علم رلى الحق ذلك صنف الرسائل (١) .

كذلك ذهب الإسماعيلية إلى أن تقرب المأمون إلى العلويين لم يكن عن عقيدة خالصة ، بل كان وسيلة للايقاع بصاحب الزمان الإمام المستور أحمد بن عبد الله ، وأن كثيرين من كبار الدعاة العلماء ذهبوا ضحية هذه السياسة ، لاعتقاد المأمون أنهم من الأئمة (٢) . ولا يهمننا أن نبحث عن سبب إخلاص المأمون للعلويين أو نفاقه معهم ، إنما يهمننا أن نقول إن هناك دعوة إسماعيلية سرية منظمة ، انتشرت بصورة أثارت مخاوف المأمون ، فعمل على استئصالها ، وأن أكثرية القائمين بهذه الدعوة كانوا من العلماء ، فإمامهم عالم كبير ومؤلف ذائع الصيت ، وحجتهم عبد الله بن ميمون القداح من أبرز علماء عصره ، ودعاتهم بمن نبغوا في العلم في عصرهم . وهكذا ساهم الإسماعيلية في النشاط العلمي في عصر المأمون .

وليس من شك في أن الإمام أحمد بن عبد الله شاهد الثورات التي قامت في وجه المأمون ، واشترك حجته عبد الله في إحدى هذه الثورات . وليس من شك أيضا في أنه أدرك ثورة بابك الخرمي وأنصاره الخرمية على العباسيين في أواخر عهد هذا الخليفة . ولا يبعد أن يكون زعماء الإسماعيلية قد انتهزوا تلك الفرصة وعملوا على جذب فلول هؤلاء الثوار إليهم ، حتى أطلق بعضهم على جماعة الإسماعيلية اسم الخرمية . وصفوة القول أن سلمية قد اتخذها الأئمة الإسماعيلية دار هجرة منذ عهد المأمون ، وأصبحت المركز الرئيس للدعوة ، فكان ينتشر منها الدعاة في الأقاليم

(١) زهر المائى ص ٦٠ - ٦١

(٢) Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 36-7

ويذهبون إلى أن المأمون قتل عليا الرضا لأنه لم يكن كعلماء الإسماعيلية ودعاتهم في المعرفة .

المختلفة لبث الدعوة باسم الامام أحمد بن عبد الله ؛ إلا أنهم كانوا يخفون اسمه عن الناس .

ولم تذكر المراجع الاسماعيلية والسنية تاريخ وفاة أحمد بن عبد الله ؛ إلا أنها تذهب إلى القول بأنه تزوج وهو بسلية ، وأنجب فيها ابنة وخليفته الامام الحسين (١) ، فكان أحمد ثاني الخلفاء ، وابنه الحسين ثالثهم . ويرى البعض أنه أنجب ابناً ثانياً هو محمد الملقب سعيد الخير (٢) .

(هـ) إمامة الحسين بن أحمد

ويكنى الحسين المقتدى (٣) أحياناً والزكي (٤) أحياناً أخرى . وكان أبعد شهرة من أبيه : فمن الناحية العلمية عمل على تثقيف أشياعه « وبث العلوم الشيعية وأظهرها » ، وشرح الرسائل في كتاب أسماه « الجامعة » (٥) .

وأما من ناحية رواج الدعوة فقد انتشرت في كثير من بقاع العالم الإسلامي في عهد الحسين . ويرجع هذا إلى أن أمور الدعوة كانت قد مهدت من قبل ، ووضت رياستها في يد حجه المسمى أحمد الحكيم ، وهو الذي ذهبنا إلى أنه أحمد أبا الشلعلع ابن عبد الله القداح . ويمتاز أحمد بالمقدرة الفائقة ، ولذلك انتشرت الدعوة في عهده بشكل أثار مخاوف العباسيين وأنعش قلوب الاسماعيلية حتى اعتقدوا قرب ظهور المهدي . ويمتاز عهد الإمام الحسين بانتشار الدعوة الاسماعيلية في اليمن على يد تابعه ابن حوشب ، وفي بلاد المغرب على يد الداعين الحلواني وأبي سفيان ، وبين القرامطة على أيدي أبناء القداح ، وفي بلاد فارس وخراسان على أيدي أبناء القداح أيضاً (٦) .

Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 35-36. (١)

Ibid., p. 40. (٢)

(٣) الداعي عماد الدين : زهر المعاني ص ٦٣ .

Ivanow : The Rise, p. 36. (٤)

Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 30. (٥)

(٦) الداعي إدريس : عيون الأخبار في ٣٦-٧٧ pp. The Rise of the Fatimids, (٦)

وقد استطاع الإمام الحسين أن يبلغ ذلك النجاح ، لأن الدولة العباسية قد أخذت الضعف يدب في جميع أجزائها ، ولأن الخلفاء لم يعد لهم ذلك النفوذ الذي كانوا يتمتعون به في العصر العباسي الأول . ولذلك أحدثت بهم الثورات ، حتى إنهم لم يستطيعوا التفرغ للقضاء على الإمام الحسين وعلى دعوته .

وقد نتساءل كيف استطاع الإمام الحسين البقاء في سلبية آمننا مطمئنا دون أن تناله يد العباسيين والسنين ؟ الواقع أن جود الحسين وكرمه وثروته الضخمة ، وبذله الأموال الطائلة ، كان لكل هذا أثر يذكر في تهدئة أعدائه وكم أفواههم . هذا إلى ادعائه أنه هاشمي ، وتفانيه في إظهار حبه للهاشميين بسلبية ، وإمعانه في التخفي ، وتفاني أنصاره في طاعته - كل ذلك قد ساعد على إقرار الدعوة في سلبية خاصة وفي كافة أنحاء العالم الاسلامي عامة . واليك هذا الوصف الرائع الذي أمدنا به محمد اليماني عن سلبية :

« وكان (الحسين) يعيش قوما من أهل سلبية هاشميين من ولد عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان يظهر لهم أنه عباسي . . . وكانت الأموال والذخائر تحمل من كل بلد من قبل الدعاة إليه إلى سلبية . وكان الامام قد حفر سردابا في الأرض من الصحراء إلى جوف داره بسلبية طوله اثنا عشر ميلا . وكانت الأموال والذخائر تحمل على الجمال ، فيفتح لها باب السرداب في الليل ، وتنزل فيه بأحمالها عليها ، حتى تحط في داخل الدار وتخرج في الليل ، ويعمى على باب السرداب بالتراب فلا يدري به أحد . وكانت الأموال عظيمة ، حتى يقال : إنه ما كسب المهدي - قدس الله روحه - بعد أن فتح الله له إلا نحو ما خلف بسلبية ، (١) . هذه الوسائل استطاع الأئمة المستورون وحججهم أن يلقوا شيئا غير قليل من النجاح .

وكان أبو محمد عبيد الله المهدي حجة للإمام الحسين في أخريات حياته ، لأنه من سلالة القداح - على ما سيأتي - ولأنه اتخذ مستودعا لنقل الإمامة من الحسين إلى ولده أبي القاسم الذي ولي الخلافة بعد عبيد الله المهدي وتلقب القائم . وصفوة القول أن

(١) محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٨

الأئمة المستورين اتخذوا سلبية منذ أوائل القرن الثالث مركزا رئيسا لدعوتهم . واتخذوا من ضعف الدولة العباسية ، واضطراب بلاد الشام خاصة فرصة سانحة لتحقيق أغراضهم . وعلى الرغم من تولية ابن طولون مصر ، وعمله على تنظيم شئون بلاد الشام ، فقد عرف عنه أنه كان يعطف على الشيعة ، حتى لقد نسب البلوى — مؤرخ سيرة ابن طولون — إلى الإسماعيلية . ونستطيع أن نقول إن اتخذوا سلبية مركزا للأئمة الإسماعيلية وحججهم قد حول الشرق الأدنى وبلاد المغرب إلى معسكرات إسماعيلية . ولا غرو فإن قرب سلبية من العراق وبلاد العرب ، وخاصة بلاد البحرين واليمن ، قد ساعد الإسماعيلية على المناداة بقرب ظهور المهدي ، وتسابق القرامطة وابن حوشب — داعي اليمن — وأبو عبد الله الشيعي ، داعي بلاد المغرب في سبيل تكوين دولة إسماعيلية ، وتم لهم ذلك في بلاد المغرب على ما سنرى . وهكذا استطاع هؤلاء الأئمة وحججهم أن يديروا دفعة الدعوة لإدارة محكمة دون أن يناهضهم أذى أو تلحق بهم سيوف العباسيين . ولما تولى عبيد الله المهدي أمر الدعوة ، كان هؤلاء الأئمة قد مهدوا له السبيل ، وأزالوا ما اعترضه من العقبات ، وقد تم نجاحه المنقطع النظير على أيدي الأئمة الذين سبقوه .

٣ — نواب الأئمة الإسماعيلية من بيت القراح^(١)

(١) ميمون القداح :

كان ميمون القداح أول من اتخذ الأئمة المستورون حجة ونائبا لهم . وقد رأينا أن جعفر الصادق جعله حجابا وسترا على حفيده محمد بن إسماعيل^(٢) أول الأئمة المستورين . وتذكر المراجع السنية المعتدلة ، والمصادر الاثنا عشرية أنه كان راوية للإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وأنه كان مولى لها^(٣) ، كما ينسب أحيانا إلى عتيل بن أبي طالب .

(١) القداحة تطيب العين من الماء النازل بها ، وقد برع ميمون وابنه عبد الله في هذه المهنة . ويبدو أنه اتخذ القداحة وسيلة لجذب الأتباع .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦

(٣) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du (٣)

Bahrain, vol. ii. p. 10.

ويذكر الكاشي في كتابه « معرفة الرجال » أن ميمونا يسمى ميمونا القداح المكي مولى محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وتخلو المراجع السنية ، فتذهب إلى القول بأن ميمونا كان ثوريا ديصاني المذهب ، شعوبيا خطرا يعمل على هدم الإسلام ويؤلف الكتب في ذلك ، حتى إن كتابه « الميزان » إنما وضعه في نصرة الزندقة (١) ، وأنه كان خُرميا يدين بعقائد مزدك ، وتقرن هذه المراجع اسمه باسم أبي الخطاب المتشيع الغالى .

أما المراجع الاسماعيلية ، وخصوصاً الظاهرية منها ، فلم تكن تذكر عنه شيئاً كما هو الحال مع القرامطة مع أنهم من أهم فروع الاسماعيلية . غير أن كتب الحقائق الاسماعيلية تناولت ميمونا وابنه في شيء من الإيضاح ، فأكدت ارتباطه بجعفر الصادق وإخلاصه له حتى جعله حجاباً على حفيده وحجة له ، وأرجعت نسبه إلى سلبان الفارسي ، مخالفة في ذلك المراجع السنية التي تنسبه إلى ديسان . وتكاد تجمع مراجعهم على أن ميمونا كان من أشياع جعفر الصادق ، كما كان حجة حفيده محمد ابن اسماعيل ، وأنه لاقى كثيراً من المحن في سبيل مولاه ونجاح مذهبه الجديد (٢) . وعلى الرغم من الاختلاف الذي قام بين السفين والاثنى عشرية والاسماعيلية ، فإننا نلاحظ أموراً أهمها :

أولاً : أن ميمونا القداح كان معاصراً لجعفر الصادق ، وكان مخلصاً لأبناء اسماعيل .

ثانياً : أن بعضاً يجعله مكياً ، وبعضاً آخر يجعله أهوازيًا . وهذا صحيح إلى حد ما . فإن ميمونا كان يقيم في بادىء أمره بمكة ؛ فلما فر إمامه وسيدده محمد بن اسماعيل من الحجاز إلى الأهواز فر معه ، فسمى مكياً لبقائه بمكة حيناً ، وأهوازيًا لبقائه بالأهواز حيناً آخر .

ثالثاً : ولا يبعد أن يكون ميمون محدثاً وراوية . غير أننا نستبعد أن يؤلف كتابه « الميزان » ، في نصرة الزندقة ، ونستطيع أن نقول إنه من الممكن أن يكون

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ الورقة ٢٥ .

(٢) أنظر ما ذكرناه عن إمامة محمد بن اسماعيل ص ٢٦ - ٤٠ .

نقد ألف هذا الكتاب في نصرته المذهب الإسماعيلي ، الذي يعتقد كثير من السنيين أن مبادئه إلحادية محضه .

رابعاً : لا نستطيع أن نتفق مع الذين ذهبوا إلى أن ميمونا كان أول من أسس المذهب الباطني في الإسلام ؛ ومع ذلك فليس من شك في أنه أول من ساهم في إقامة صرح المذهب الإسماعيلي ، وهو مذهب باطني كما نعلم .

خامساً : على أننا لا نتفق مع من ذهبوا إلى القول بأن ميمونا كان ديسانياً ثنويًا ، ونعتقد أن هذه رواية رماه بها أعداء المذهب الإسماعيلي (١) .

ولذلك نرى ميمونا يذهب إلى فلسطين ، وينصرف إلى النسيك ابتغاء جذب الأشياع إلى مذهبه ؛ ولا بد أن يكون قد رحل إلى تلك البلاد مع إمامه المستقر محمد بن إسماعيل ، الذي تذهب المراجع إلى القول بأنه قصد سورية في أخريات حياته ، ثم قصد ميمون بعد ذلك طبرستان مع محمد بن إسماعيل أيضاً ، واستطاع أن يضم إلى صفوفه جماعة من المخلصين لإسماعيل بن جعفر وابنه محمد . ويصح أن نسمي تلك الجماعة التي كونها ميمون « الميمونية » نسبة إليه . أو الإسماعيلية الأوائل

(١) إن تحديد مولد ميمون ووفاته من المسائل التي يكتنفها الغموض والابهام ، إذ أنه على الرغم من أنه عاصر جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ كما عاصر حفيده محمد بن إسماعيل ، لا نستطيع تحديد الزمن الذي توفي فيه . على أن النصوص التي بين أيدينا توضح في جلاء أنه عاش في عهد الرشيد ، ومات بعد وفاة موسى الكاظم سنة ١٨٣ هـ . يتضح ذلك من فرار ميمون من مكة إلى الأهواز التي اتخذها وطنًا ثانيًا له . وقد رأينا أن ذلك قد حدث في عهد الرشيد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذهب رشيد الدين Blochet : Le Missianisme, pp. 89-90 إلى أن جعفر الصادق ألحق ميمونا القداح بحفيده محمد بن إسماعيل ، وأنه ذهب معه إلى طبرستان ، مدعياً أن محمدًا هذا هو الأب الحقيقي لولده عبد الله . ونعتقد أن هذه الرواية إن صحت فأنها تنهض دليلًا على أن وفاة ميمون القداح كانت بعد وفاة محمد بن إسماعيل ، لأنه لا يستطيع أن ينسب ابنه عبد الله إلى الإمام محمد بن إسماعيل في حياته ، أي أن هذا الانتساب لا يصح أن يوجد في حياة المنتسب إليه . وهو محمد بن إسماعيل ، لأن ميمونا غير محمد بن إسماعيل ، وعبد الله القداح غير عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل . بهذا إلى أن بعض المصادر اثنا عشرية تذكر أن محمد بن إسماعيل قد حظى عند الرشيد بعد موت عمه موسى الكاظم ، أي بعد سنة ١٨٣ هـ ، فأننا نستطيع أن نقول إن ميمونا القداح مات في أواخر القرن الثاني الهجري لا في

أوائله كما ذهب إليه إيفانو Ivanow وبرنارد لويس Bernard Lewis

وهؤلاء كانوا يتكفونون — على ما يبدو — من قول الخطائية ، والمباركية (١) وغيرهم من الجمعوية والمخلصين للذهب الإسماعيلي الجديد (٢). ويقول ابن الأثير (٣) في هذه الجماعة التي كونها ميمون حوله : « وتفرقت هذه الطائفة في البلاد وتعلوا الشعبذة ... والنجوم والكيمياء . فهم يحتالون على كل قوم بما ينفع (٤) عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد ، . وإذن كون ميمون جماعة دأبها التقية والتأثير في قلوب الناس ، وهما أهم مميزات المذهب الإسماعيلي .

وفي سبيل تكوين مذهب جديد عمل ميمون على الاتصال بالشخصيات البارزة في ذلك الحين . وينسبون إليه أنه لما قبض العباسيون عليه أخريات عهد أبي جعفر المنصور ، كون — وهو في السجن بالكوفة — مبادئ المذهب الإسماعيلي الجديد ، بالاتفاق مع أحد كبار عصره ، وأنه كان في الوقت نفسه من كبار أحرار الرأي ومن تلامذة الفلسفة اليونانية ، شأنه في ذلك شأن كثير من المتشيعين ، واستغل على ما ذكره أوليري ، التعاليم الأرسططاليسية ، وتعالم الأفلاطونية الحديثة ، ووضعها في قالب إسلامي جديد ، وضع ذلك كله فيما أسماه المعنى الباطن للقرآن (التأويل) (٥) ، ولم يكن كتابه الميزان في نصرة الزندقة إلا وسيلة لتحقيق هذه السياسة الجديدة .

وأما ما ذهب إليه فامور (٦) من أن ميمونا القداح هو محمد بن إسماعيل نفسه فقول مردود ، لا اعتراف الإسماعيلية أنفسهم في كتبهم السرية خاصة أن محمد بن إسماعيل غير ميمون ، وأن هذا حجة وذاك إمام ، وأن ميمونا من نسل سليمان الفارسي ومحمد بن إسماعيل من نسل علي وفاطمة إلى غير ذلك .

(١) المباركية أتباع المبارك مولد إسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل . ويقال إنه اتصل بعبد الله القداح أيضا .

(٢) Ivanow : The Alleged Founder of Ismailism, p. 105.

(٣) ج ٨ ص .

(٤) أي بما يروج عتدهم ويتفق مع مصلحتهم .

(٥) ولا غرو فان محمد بن إسماعيل ، إمام ميمون ، ويعتد من أعظم أساتذة التأويل بين الإسماعيلية خاصة .

(٦) Polemics, pp. 70—1

وهكذا أوجد ميمون القداح حركة سرية عملية منظمة ، ترمى إلى إحاطة الأئمة من أبناء إسماعيل باستار كشاف من التخفي والتستر ، والمناداة بأحقيتهم بالإمامة ، فلم تعجب هذه المبادئ الكثير من السنين . حقا يعتبر عبد الله بن ميمون القداح المؤسس الحقيقي لهذه الحركة الاندفاعية النفعية ، واسكن ميمون هو الذى ألقى بذورها . وقد تعهد أبناء ميمون هذه الحركة وساهموا الى حد كبير فى رفع منارها ، واستطاعوا على مر الزمن أن يحولوها من المبادئ النظرية إلى أشياء عملية . وبفضل هذه الأسرة وتعاون أفرادها مع أئمتهم ، تكونت الدولة الفاطمية ، حتى إننا نستطيع أن نسمى — فى غير غلو أو إسراف — تلك الفترة المعروفة بدور الست الأول^(١) ، الدور القداحى .

(ب) عبد الله بن ميمون

يعتبر عبد الله بن ميمون من أعظم حجج الأئمة الإسماعيلية فى دورهم الأول ؛ ويلقب بالقداح ، لأنه كان — كأبيه — يشتغل بالقداحة . وقد أحاط بتاريخه كثير من الغموض والمبالغات ، حتى لقد اعتقد بعض أنه لا وجود له إلا فى خيال بعض المؤرخين ، ولكننا سنرى أنه شخص تاريخى له مكانته عند الإسماعيلية . يذكر معظم المراجع السنية أن عبد الله ديسانى المذهب كأبيه ، وأنه شعوبى^(٢) من غلاة الشيعة ، وأنه لما مات أبوه ميمون ادعى الانتساب^(٣) إلى على من طريق إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه لم يشتغل بالقداحة إلا لجذب الأشيع^(٤) ، وتحقيقا لسياسة المجوس فى هدم الإسلام ، وأنه اتخذ علم الفلك (النجامة) وسيلة للتغريب بالمسيحيين^(٥) . وكان مغرضا فى تشييعه^(٦) لارتداده عن العلويين وعن الإسلام

(١) وتبدأ باستتار محمد بن إسماعيل بعد سنة ١٤٨ وتنتهى بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) المتظم لابن الجوزى ، المنشور فى

Revista degli Studi Orientali (1930.) p. 264.

(٣) الجوينى : جهان كوشا ، ورشد الدين : تاريخ المغول فى كتاب

Lewis : The Origins of Ismailism, p. 60.

(٤) النيرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ، ورقة ٢٢ ، ٢٣

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧

(٦) Sayyed Ameer Ali : The Spirit of Islam, p. 326.

بعد ذلك (١) ، ولاغتصابه الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل وادعائه الإمامة لنفسه (٢) . ويعتبره الذهبي محدثا ومولى لجعفر الصادق . ويعتقد الكثير من السنيين أنه قام بدور هام في تاريخ الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثالث ؛ فيرى ابن النديم (٣) والنويري (٤) وغيرهما أنه اتصل بأحد الشعوبيين بعد منتصف القرن الثالث الهجري ، ويقول بعض إنه كان معاصرا لجعفر الصادق (٥) .

أما مراجع الاثنا عشرية فتجعل من عبد الله راوية لجعفر الصادق ، كما كان أبوه من قبل . فيقول الطوسي (٦) : إنه كان محدثا ، ويذكر لنا الأشخاص الذين روى عنه ، كذلك ذكر الكاشي في كتابه « معرفة الرجال » ، أن عبد الله كان راوية لمحمد الباقر وجعفر الصادق ، ويسميه « ابن ميمون القداح المكي » . وكذلك يجعلون منه مؤلفا ، ويذكرون له من الكتب كتاب « مبعث النبوة » وكتاب « صفات الجنة والنار » (٧) . ويؤكد يجمع هؤلاء على أن عبد الله كان معاصرا لمحمد الباقر وابنه جعفر الصادق في أوائل القرن الثاني الهجري ، وأنه كان محدثا ، حتى لقد ذكر بعض أنه كان محدثا اثنا عشريا ، وأنه ظل على وفائه للإمام موسى الكاظم ، على أن هناك مرجعا اثنا عشريا آخر يتفق مع ما أورده السنيون فيقول : إن عبد الله اغتصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل ، ثم دعا لابنه لا لنفسه (٨) . ولكنه مع ذلك لم يرمه بالإلحاد أو الزندقة أو الشعوبية أو غير ذلك مما رماه به السنيون .

على أن المراجع الإسماعيلية وخاصة الباطنية منها ، تحوط عبد الله بكثير من

(١) أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ص ١٥٦ - ١٥٧

(٢) نظام الملك : سياحة نامه ج ٢ ص ٢٦٨

(٣) فهرست ص ٢١٧

(٤) نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٢ ، ٢٣

(٥) أبو العلاء : رسالة الغفران ص ١٣

(٦) فهرست كتب الشيعة ص ٩٧

(٧) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 22-23

(٨) تبصرة العوام ص ١٨٦

مظاهر الإجلال . فقد رأينا الداعي إدريس في كتابه زهر المعاني يذكر أن عبد الله كان حجة للامامين عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن عبد الله . بل يعتقد بعض الدعاة أن عبد الله كان حجة محمد بن إسماعيل — وهو غير معقول بالطبع — ويرى الإسماعيلية فوق ذلك أن عبد الله من سلالة سلمان الفارسي (١) ، وكذلك نرى في دستور المنجمين (٢) أن عبد الله كان حجة الإمام محمد بن إسماعيل : ويتفق بعض المراجع الإسماعيلية مع مراجع الاثنا عشرية في أن عبد الله من أصحاب محمد الباقر وجعفر الصادق . ويتفق مؤلف كلامي پير (٣) الإسماعيلي مع مراجع الإسماعيلية القديمة في أن عبد الله كان حجة الأئمة في دور الستة . ويعتبره دعاة الدرزية « أساس » الأئمة الإسماعيلية ، أي كالإمام المساعد في حياة كل نبي ناطق .

بما ذكره الإسماعيلية نرى أن عبد الله كان كأبيه شخصا محترما في نظرهم ، وأنه خلف أباه ميمونا في رئاسة الدعوة . وليس معنى ذلك أن الأئمة لم يكن لهم معه وجود أو عمل ؛ وإنما نعني بذلك أن رئاسة الدعوة العملية كانت في يد عبد الله بن ميمون القداح ، الذي كان الساعد الأيمن للإمام المستور ، والعنصر المحرك للدعوة . وبما ساعده على الظهور ما كان يحوط الإمام المستور من مظاهر الإيمان في التخفي . وبما ورد في هذه المراجع جميعها نستطيع أن نقف على أمور كثيرة أهمها :

أولا : إن عبد الله بن ميمون القداح كان شخصية ممتازة لها مكانتها في نفوس العلويين حتى أسدوا إليه قيادهم : وأما ما ذهب إليه السنيون من أنه كان يحرض دعائه على العلويين فيقول لأحدهم : « ولا ترحم علويا ، فلو تمكن علوى كتمكن غيره من الانتباه للقينا منه جهدا ، وغير بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الخير بما هو أكثر مما غيره جده . وإياك والإغضاء عن تجده من ولد علي : يعني قتله إذا تمكنت من قتله (٤) » . فإن دل ذلك على شيء . فإنما يدل على إمعان عبد الله وإمعان دعائه في التقية التي أتقنها الشيعة عامة والإسماعيلية منهم خاصة . هذا إلى أن مارماه به السنيون من تحريضه الدعاة على العلويين قد يحدث في مراتب الدعوة العليا ، حيث

(١) أنظر ما كتبه عن الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(٢) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 202

(٣) نشره إيفانو ص ٦٨ .

(٤) النوري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٨

يعطلون فيها الأئمة عن العمل ، ويخرج فيها المستجيب عن حظيرة الإسلام ، بل عن مذاهب الشيعة ذاتها ، كما أننا لا نستطيع أن نصدق ما ذهب إليه أبو العلاء المعري من أن عبد الله ارتد عن المذهب الإسماعيلي ، وأنه كان يقول (١) :

هات اسقني الخمر يا قنبر فليس عندي أنتى أنشر
أما ترى الشيعة في فتنة يغرها من دينها جعفر
قد كنت مغرورا به برهة ثم بدا لي خبر يستر
ومما ينسب إليه قوله :

مشيت إلى جعفر حقة فالفيتة خادعا يخلب
يجر العلاء إلى نفسه وكل إلى حبله يجذب
فلو كانت أمرك صادقا لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا سما عمر فوقكم يخطب
لأن ذلك لو صح لما تخلف الإسماعيلية عن التصدي له وإثباته في كتبهم .

ثانيا : لم تذكر المراجع الإسماعيلية أن عبد الله انتهى إلى بني عقيل بن أبي طالب . وهذا يشير الشك فيما ذكره أخو محسن حين يقول : إن عبد الله القداح كان يقول لبني عقيل : أنا من ولد عقيل بن أبي طالب ، داع إلى محمد بن إسماعيل (٢) . لأن ذلك القول لم تؤيده المصادر الأصلية . ويبدو لنا أن عبد الله لجأ إلى بني عقيل لخموة من العباسيين ، لأنه كان يدعو إلى بني عمهم ، فاعتقد بعض أنه انتهى إليهم . ولو فرضنا صحة هذا الزعم فإن ذلك لا يعدو أن يكون لو نأ من ألوان التويه الذي برع فيه عامة دعاة الإسماعيلية .

ثالثا : وكذلك لا نستطيع أن نتفق مع القائمين بأن عبد الله كان ثنويا أو خرميا ، لأن شهرته كمحدث ، وتعشق الأئمة الإسماعيلية له وتعلقهم به ، وامتداح مؤلفي الإسماعيلية أخلاقه ، كل هذا يمنعنا من أن نجاري القائمين بثويته . أما إذا كان القائلون بذلك قد قصدوا أنه كان ينادى بمبادئ قريبة الشبه من مبادئ المجوس

(١) أبو العلاء : رسالة الغفران ص ١٥٦ - ١٥٧

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٦ الورقة ٢٣

والثنوية فان هذا لا يبدو بعيد التصديق ، لأن نظريتي العقل المكلّي Raison
Universelle والنفس الكلّية Ame Universelle وحلول النفس الكلّية في الإمام
والعقل المكلّي في النبي ، تشبهان في كثير من النواحي نظريتي إله الخير وإله الشر
عند الثنوية .

رابعا : وهنا نسأل : هل كان عبد الله بن ميمون يعاصر محمدا الباقر وجعفر
الصادق في أوائل القرن الثاني الهجري ؟ أو أنه عاش في القرن الثالث حتى قابل
دندان الشعوبي بعد سنة ٢٦٥ هـ ثم انتقل بعد ذلك إلى سلمية ؟ . واذن كيف يمكن
التوفيق بين القول بأن عبد الله توفي منتصف القرن الثاني الهجري ، وبين القول
بأنه توفي في سنة ٢٧٠ هـ ؟

على الرغم من قلة الوثائق التي تحت أيدينا نستطيع أن نقول : إن عبد الله
مات في النصف الثاني من القرن الثالث أو حول منتصفه على الأقل . يدلنا على
ذلك أمور منها :

أولا : أن عبد الله القداح ، على ما ذكرته المراجع الإسماعيلية ، كان حجة أو
حجابا لعبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الذي عاصر الرشيد وخلفاءه ، كما كان حجة
وحجابا لأحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الذي عاصر المأمون وخلفاءه كذلك .
واذن فقول أيفانو وبرنارد لويس ومن لف لف لهما إن عبد الله كان يعيش في القرن
الثاني فقط لا يتفق وما ذهب إليه كثير من الإسماعيلية .

ثانياً : بما ذكره أبو المعالي في كتابه بيان الأديان ، نستطيع أن نقول إن ميمونا
القداح وزميليه الحقوا عبد الله بمحمد بن إسماعيل بعد وفاته في الوقت الذي كان فيه
عبد الله حدثاً (١) ، وأن ذلك الإلحاق كان في أواخر القرن الثاني بالطبع ، لأن محمد
ابن إسماعيل مات بعد وفاة عمه موسى سنة ١٨٣ هـ — على ما رأينا . ومعنى هذا
أن عبد الله كان في أوائل القرن الثالث في دور الشباب ، وبهذا لا نستبعد عليه أن
يشارك في الثورات التي قامت في وجه المأمون ، كما لا نستبعد عليه أن يتصل وقد بلغ
الشيخوخة بمحمد بن الحسين (دندان) في سنة ٢٦٥ أو بعدها .

ثالثاً : يذكر النيسابوري أن الإمام عبد الله الأكبر فر إلى سلمية ، وأن

من ذعاته أبا محمد زكرويه بن مہرويه صاحب قرامطة الشمال (١)، الذين ثاروا على العباسيين في الشام في أواخر حكم الطولونيين، وأن زكرويه نفسه قتل في سنة ٢٩٤ هـ على ما تذكره المراجع السنية. وإذا كنا قد سلمنا، أن عبد الله القداح كان حجة عبد الله الأكبر ابن محمد بن اسماعيل، بل وحجة ابنه كذلك، أفليس من المعقول أن يعاصر عبد الله القداح الحجة زكرويه داعي الامام عبد الله الأكبر؟ ثم كيف نوافق بعد هذا برنارد لويس على أن زكرويه بن مہرويه - أبا محمد الكوفي - يعاصر من عاصر عبد الله القداح في القرن الثاني، على حين أن أبناءه قد ثاروا على العباسيين بعد ذلك بقرن أو يزيد (٢)، وعلى حين أنه هو نفسه لم يمت إلا في سنة ٢٩٤ هـ؟

وبهذا نرى أن عبد الله القداح لا بد أن يكون مولده في أخريات حياة أبيه ميمون، أي في أواخر القرن الثاني لا في أوائله (٣)، وأن الحياة قد امتدت به وأصبح من المعمرين حيث مات في سنة ٢٧٠ هـ، وقد طوى في حياته نحو قرن من الزمان، وعاصر الثورات الكثيرة في عهد المأمون والمعتصم، ورأى بعينه ضعف هيبة الخلافة العباسية على يد الأتراك، فأحكم أمور الدعوة، ووضع لها أسسا متينة كانت سبب نجاح الإسماعيلية وبقاء دعوتهم إلى اليوم.

(ح) أثر عبد الله بن ميمون في نهضة المذهب الإسماعيلي

استغل عبد الله بن ميمون القداح حالة التفكك الذي اعتري الشيعة بانقسامهم على أنفسهم إلى حنفية وكيسانية وحسنية وحسينية، وفلسك العباسيين بهم، وتمزيقهم إياهم أيدي سبا، فعمل مع أئمتته الإسماعيليين، على جمع شمل فلول الشيعة في جماعة ثورية بجرئة. كما انتهز فرصة وجود مؤلفي جعفر الصادق وانقسامهم على أنفسهم، إلى جماعات كثيرة، وحاول أن يجمع هؤلاء كلهم تحت رايته؛ فضم جميع فرق الجعفرية، وأهمها الخطائية، إلى جماعته واستطاع أن يكون من هذه الفرق المبعثرة والمزيج المضطرب جماعة تخلص لإسماعيل بن جعفر.

(١) ويقصد بهم أتباع زكرويه الذين حاربوا في العراق الغربي وبادية السامرة ثم في بعض مدن الشام.

(٢) النيسابوري: استتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ م) ص ٩٣

(٣) أما ذكر اسمه مقرونا باسم أبيه في عهد الصادق فقد يكون المقصود به أخا ثانيا له.

كما عمل عبد الله على أن يضم العناصر الثورية إلى جماعته ، وكان يتوصل إليها بشتى الطرق . ومن هؤلاء ذلك الشعوبى محمد بن الحسين ويكنى دندان . فقد استطاع عبد الله أن يصل إلى قلبه عن طريق الشعوبية وتأثير النجوم والسحر والطب في نفسه . ومن الوثيقة التى أوردها النويرى عن مقابلة دندان هذا لعبد الله بن ميمون القداح ، نرى أن عبد الله كان يروج الدعوة قبل ذلك الوقت ، بدليل قوله لدندان فى نحو سنة ٢٦٥ هـ : « إن لى أصحابا وأتباعا أبهم فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر ^(١) . كما أنه حين قبل منه هبته المالية الضخمة التى لم تقل عن مليونى دينار ، فرق المال ، فى كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان وسلمية من أرض حمص ^(٢) . أسنا نفهم من ذلك كله أن الدعوة فى سنة ٢٦٥ هـ كانت منتشرة فى سلمية وحمص وطالقان فارس ، وما إليها ؟ وهذا يتفق تماما مع ما ذكرته المراجع الإسماعيلية من أن الدعوة كانت رائجة فى تلك البلاد منذ عهد محمد بن اسماعيل . وأهم من هذا كله ما يذكره النيسابورى من أن الذى ذهب إلى سلمية أولا هو عبد الله الأكبر وذلك قبل سنة ٢٦٥ هـ ؛ أى أنه فى الوقت الذى تقابل فيه عبد الله القداح مع دندان كانت الدعوة رائجة فى سلمية على يد الأئمة وحججهم ودعاتهم . وإذا ليس عبد الله القداح هو أول من حظ رحاله من الإسماعيلية فى تلك البلدة الشامية .

وقد شمر عبد الله عن ساعد الجدى فى نشر هذا المذهب وهو بالأهواز حتى سنة ٢٦٥ هـ حتى اشتهر أمره ، ففر إلى عسكر مُسكرم - إحدى ضواحي مدينة الأهواز - فهاجمه المعتزلة ومعتدلو الشيعة وجنود الخلافة العباسية ^(٣) . ومن ثم لجأ إلى بنى عقيل ابن أبى طالب بالبصرة فأكرموا وفادته . إلا أن العباسيين لم يتركوه آمنا هنالك ، فلم يربدا من الفرار إلى سلمية حيث استقر بها مع إمامه المستور حتى مات . ولا بد أن يكون فراره من الأهواز ثم وصوله إلى سلمية بعد سنة ٢٦٥ هـ ، كما أن فراره إلى سلمية دون سواها دليل آخر على رواج الدعوة بها قبل ذلك .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٣

(٢) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢١ ص ٢٣

(٣) لكن لماذا هاجمته الفرق الإسلامية كالمعتزلة ... الخ ؟ ألا يدل ذلك على تسرب بعض المبادئ التى كان عبد الله يقوم بنشرها ، فمدتها هذه الفرق كفرا وزندقة ؟ .

(٥) أثر عبد الله بن ميمون في نشر الدعوة

ويذهب بعض المؤرخين السنيين إلى القول بأن عبد الله بن ميمون بذل جهوده في وضع مشروع ديني سياسي خطير ، وكان غرضه الأول هدم الإسلام وإقامه دولة إسماعيلية ، فعمل أبواباً عظيمة من المكر والحيلة والخديعة على بطلان الإسلام . وكان عارفاً عالمياً بجميع الشرائع والسنن وجميع المذاهب كلها ويدعى أنه على صدق هو وأهل مذهبه ، وغيرهم ضال مغفل . وكان عبد الله يريد بهذا أن يجعل المخدوعين آلة يستمد من أموالهم بالمكر والخديعة ؛ وأما في الظاهر فإنه يدعو إلى الإمام من آل البيت ، محمد بن جعفر ليجمع الناس بهذه الحيلة ، (١) . وعلى الرغم من غلو أخى محسن في اتهام عبد الله القداح بشتى التهم ، يؤكد لنا أنه لم يخرج على سادته الأئمة الإسماعيليين ، وأن مشروعه كان قائماً على الخداع . ولكي يصل إلى تحقيق أغراض المذهب الإسماعيلي سلك طرائق لم تعجب السنيين الذين اعتبروها إلحاداً وكفراً ، وخاصة حين قال بنبوة محمد بن إسماعيل سابع النطقاء ، ونادى بالتأويل ، وقال كعامة الإسماعيلية : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، صاحب التنزيل وعلى بن أبي طالب صاحب التأويل ، والتأويل لباب التنزيل . وعلى الرغم من دفاع الإسماعيلية بأن التأويل لم يعطل شريعة محمد ، بل إنه نوع من الشروح ومعرفة الباطن ، فإن السنيين يعتبرون هذا خروجاً عن الإسلام . يقول ميور (٢) : « كان عبد الله يدعو إلى نظام يقصد من ورائه أن يجمع جميع الأديان في دين عام ، ويسميه الدين السابع ، أو دين محمد بن إسماعيل ، .

والواقع أن مشروع عبد الله القداح كان قذا في نوعه ؛ فقد استغل فيه العناصر المختلفة ، واعتمد على عنصرى الشعوبية والتشيع ، وعلى التأويل وفكرة الجماعة السرية ، تلك التي تستطيع أن تلعب بأقوى العواطف الإنسانية ، وتؤثر في الضعف البشرى ؛ وتضم بين صفوفها جميع المتدمرين من كل نوع ، في صورة مؤامرة ترمى إلى

(١) المقريزى : انعاظ الخنفا ص ١٢

(٢) The Caliphate, p. 558.

هدم النظام القائم (١)، والذي لاشك فيه أن عبد الله عمل على الاستفادة من التجارب الماضية، فلم يهتم بتكوين جماعة من صنف واحد، بل رأى أن يكون مذهبه موافقا لجميع الناس، فيتشقه الشيعة والمجوسى والسنى والقبلى واليهودى، لأنه يعمل لإسعاد الجميع وتخليصهم مما يؤلمهم (٢). وساعده على ذلك أن العصر العباسى الثانى كان موافقا لآخرها بالفرص: فالدولة العباسية ضعيفة، والرعايا حائقون، والطوائف المختلفة ثائرة، والنهضة العلمية رائجة؛ فاستغل عبد الله ذلك كله، واستطاع أن ينال قسما كبيرا من النجاح فى ناحيتى المذهب: النظرية والعملية.

ويمتاز مشروع عبد الله القداح بأمر كثير، أهمها:

التدرج: كانت الدعوة الإسماعيلية التى وضع أساسها عبد الله بن ميمون القداح، تعتمد على التدرج والسير فى خطوات متتالية ثلاث عقول المدعويين. ولذلك ألف دعائه الكتب فى التدرج مثل كتاب «البلاغات السبعة» — الذى ألفه أحد دعاة عبد الله، وهى: كتاب البلاغ الأول للعامة، وكتاب البلاغ الثانى لمن يفوق هؤلاء قليلا، وكتاب البلاغ الثالث لمن دخل فى المذهب سنة، وكتاب البلاغ الرابع لمن دخل فى المذهب سنتين، وكتاب البلاغ الخامس لمن دخل فى المذهب ثلاث سنين، وكتاب البلاغ السادس لمن دخل فى المذهب أربع سنين، وكتاب البلاغ السابع، وفيه تنمى المذهب والكشف الأكبر (٣). وهذا ما جعل المدعويين متعطشين دائما إلى التطلع لما فوق الدرجة التى وصل إليها كل منهم، مما كان يبعث القوة والنشاط فى الدعوة نفسها، ولا غرو فقد كان عبد الله من كبار علماء النفس، فوجه غريزة حب الاستطلاع توجيها غريباً.

(١) Nicholson: Lit. Hist. of the Arabs, p. 271.

(٢) وقد صدق دى بور فيما ذهب إليه من أن عبد الله، «كان يبتال فى اجتذاب بعض باظهار الشعبة والنخريق، وفى اجتذاب بعض باظهار الزهد والعبادة والعلم. كان عليه أبيض اللون لأنه كان يزعم أن دينه دين النور الخالص الذى ستخرج الفوس إليه بعد مطافها على هذه الأرض». وكان يدعو إلى احتقار الجسد والاستماتة بالماديات، وإلى اشتراك جميع أعضاء الجمعية المتأخين فى الخيرات، وإلى تضحية النفس فى سبيل الجماعة، وإلى أن يكون الانسان ماليا لرئيسه مطيعا له حتى الموت، لأن تفاوت طبقات الجماعة يقتضى بهذا، «تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٩٧»

(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٨

السرية : وكذلك لجأ عبد الله في مشروعه إلى السرية ، كيلا يتعرض لخطر العباسيين والعلماء السنيين ، والشعب السني كذلك . فكان العهد الذي يأخذه الدعاة على المستجيبين قائما على ألا يفشى أحد منهم سرا ، وإلا أصبح خارجا على الملة والجماعة ، واستيحت أمواله ودماءؤه . ولم نذهب بعيدا وقد استغل الإسماعيلية . أئمتهم وحججهم ودعاتهم مبدأ السرية هذا ؟ فنادوا بالامام المستور للوصول إلى قلوب العامة يملئونها بالأمل في الخلاص مما هم فيه بظهور المهدي أو الامام المستور حين تسمح له الفرصة . هذا بالإضافة إلى أن عبد الله قد أدرك ماسوف يحيط به من الأخطار إذا ما حاول تحقيق أغراضه السياسية والدينية ، فكان حتما عليه أن يلجأ إلى السرية يستمد منها العون ليصل إلى ما تصل إليه نفسه (١) .

وهكذا أدت تلك الوسائل إلى نتائج مذهشة تتلخص في أن جمهورا عظيما من الناس كانوا يعتقدون مذاهب مختلفة ويعملون جميعا في اتحاد وثيق لتحقيق غاية لا يدركها سوى عدد قليل منهم (٢) .

الاعتماد على الفلسفة : ولانتشار فلسفة اليونان في الشرق وقتئذ ، عمل عبد الله القداح على استغلال مبادئ الأفلاطونية الحديثة ، ليصل إلى تعليم الاتباع كثيرا من المبادئ الإسماعيلية . فنظرية العقل السكلي والنفس السكلية ، وحلولها في الناطق (النبي) والاساس (الإمام) مأخوذة كلها عن أصل يوناني . ونظرية خلق النفس السكلية من العقل الأول نظرية يونانية كذلك (٣) . وكان لهذه التعاليم أثر بالغ في نفوس السنيين الذين آمنوا في رمى عبد الله القداح بالإلحاد ، ورمى مشروعه بالزندقة . وهكذا كان المستجيبون مختلفين في المذاهب والمشارب ، منهم الفيلسوف والداعي والجندي والتاجر وغير ذلك .

إعداد الدعاة : كما أدرك عبد الله القداح أهمية تنظيم الدعاة إلى مذهبه الجديد . ولذلك كرس جهوده في سبيل إعداد جماعة من الدعاة الذين مرنوا على فنون الإلقاء والتأثير في النفوس ، وإجادة فنون التخفي . فنراهم تجارا ومتصوفين تارة ، وزراعا

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 3.

(٢) Dozy : Essai sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 262.

(٣) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khalifate, p. 13.

وصناعا وعلما تارة أخرى . واشترط في دعائه أن يكونوا على شيء كبير من الذكاء ، ليسهل عليهم تفهم حال المدعويين . وكان يحتم عليهم التظاهر بالعلم والمعرفة كي يجذبوا القلوب إليهم ، ويحتم عليهم اللجوء إلى التأويل إذا ما أخرجوا ، كما كان يختارهم من ذوى الأصوات الحسنة لزيادة التأثير في تلاميذهم . وعلى الجملة كان هؤلاء الدعاة — كما يقول رشيد الدين (١) — « فصحاء ذوى جاذبية في الحديث ، يمتازون بالبلاغة والذكاء والتعقل ، وقد عين عبد الله للدعاة مساعدين يعملون على زعزعة عقائد الناس . فإذا كان عمل الداعي أخذ العهد على المستجيبين ، ونشر الدعوة الإسماعيلية بينهم ، فإن عبد الله أوجد بجانبه المأذون المكسر لمجادلة الأضداد وإظهار ما في عقائدهم من ضعف ، وترغيب المدعويين إلى الدخول في المذهب الإسماعيلي (٢) ، بما يوحى إلينا بأن عبد الله أوجد هيئات علمية منظمة ، وخصص جماعة منهم لتدريب الدعاة ، وجماعة لتلقيهم فنون الجدل ، وآخرين لتدريبهم على فنون التخفي وغير ذلك . وعلى الرغم من خلو مراجعنا الإسماعيلية من كل ما يتعلق بمشروع عبد الله ، فإن نتائج أعماله والطرق التي كان يسلكها الدعاة بين القرامطة وفي فارس واليمن وسواها ، تؤكد جميع ما ذكرناه . كما اتخذ عبد الله من الدعاة في الأقاليم المختلفة جواسيس ينبئون به كل ما يحدث فيها ، مستعينين بحمام الزاجل . ولذلك خفي أمره وأمرهم على الحكومات القائمة . بل لقد كان لعبد الله ودعائه في بغداد نفسها أبراج الحمام الزاجل ، فظهروا بسبب ذلك أمام العالم بالقدرة على الإتيان بالمعجزات ومعرفة الغيب وإجادة فنون الشعوذة (٣) »

الاستعانة بالتأويل : وترجع محاولة عبد الله استخدام التأويل إلى رغبته في إحاطة جماعته وأئمة بهالة من التقديس والإجلال ، وبعبارة أخرى ، رغب عبد الله في ربط جماعته بعضهم ببعض برباط لا ينقسم ، فجعل الاتباع يؤمنون بأن الأئمة وحججهم هم وحدهم الذين يستطيعون فهم حقائق الأشياء وبواطنها ، كما أنهم

(١) J. R. A. S. (1930), p. 518.

(٢) محمد بن نوح : الأزهار ج ٢ ص ١٢٥ (من رسالة الدكتور محمد كامل حسين)

(٣) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. II. p. 23.

يستطيعون بهذه الوسيلة تفسير القرآن حسبما يريدون ، مدعين أن ذلك من عمل
الإمام المستور ، وأنه لا يفهمه إلا طبقة الدعاة والحجج ، فيزداد التفاف الناس
حولهم . كما كان عبد الله يقول بأن فهم التأويل مقصور على عقول الخاصة ، وأن
الشرعة الإسلامية وتكاليفها وقف على ضفاف العقول . ومن هذا نرى أن التأويل
نوع من الفلسفة المذهبية ، أريد به بعث الأمل والحيوية في نفوس طائفة الإسماعيلية .
وهذا ما جعل دوزي يقول (١) : « قرر عبد الله أن يكون حكام فرقتة من خاصة
المستجيبين ، كما قرر بقاء عامة الإسماعيلية على ولائهم لحكامهم ، وذلك بفضل دين
قاس وواجبات شرعية قاسية كذلك » . ويعتقد بعض أن موجد التأويل بين الإسماعيلية
هو محمد بن إسماعيل ، حتى سموه صاحب التأويل كعلي بن أبي طالب ، على أن ذلك
لم يمنع عبد الله من أن يوجه التأويل الوجهة التي يريدونها .

المناداة بنظرية الإمام المستور : كما نادى عبد الله القداح بنظرية الإمام المستور ،
بدعوى أن هذا الإمام مصدر العلم والعرفان ، وأن الوصول إليه لا يكون إلا عن
طريق حجة عبد الله القداح . وإنما قال عبد الله بذلك ليضع في يديه وفي أيدي
سلالته قوة لا تحصى . كما أخذ يملأ قلوب أشياعه بالأمل بقرب ظهور الإمام المستور
أو المنقذ من ولد علي ، فعل كل هذا لإثارة الناس على حكوماتهم . وفي الحق أن
عبد الله القداح أراد أن يتمتع بالتقديس الذي يتمتع به الأئمة ، وهذا هو السبب
الذي جعله يقول : إنه بالنسبة لمحمد بن إسماعيل وابنه عبد الله ، كهرون بالنسبة لموسى
عليهما السلام (٢) .

كما تمكن من قوله بنظرية الإمام المستور من أن يجذب هو وأبناؤه كثيرين من
الشيعة الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلي ، لأن هؤلاء سيمولون انتظار إمامهم
الذي غاب ولم يعد ، ويرمون أنفسهم بين أحضان الإسماعيلية ، لأن إمام هؤلاء
حتى يترقب الفرصة للظهور ، وسيكون نجاح تلك الفكرة عظيم الأثر في عهد أبنائه .
على أن عبد الله أخذ ينادى بالمبدأ الإسماعيلي القائل : إن الإمام يدعو لنفسه إن كان

Essai sur l'Hist. de L'Islamisme, p. 267. (١)

Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 273. (٢)

ظاهراً ، فإن اختفى ترك الأمر لنوابه ، وبذلك خلق عبد الله مبدأى الستر والظهور .
حياً فى الزعامة وتشبيد المذهب الإسماعيلى (١) .

هكذا وضع عبد الله بن ميمون القداح مشروعه : ملأه بالعناصر المختلفة ،
فظهر فى ثوب الملحد ، لأنه أراد أن يجعل من المذهب الإسماعيلى ديناً سابغاً بدل
الإسلام ، الدين السادس عندهم ، وأن يجعل من إمامه محمد بن إسماعيل نبياً سابغاً
بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أتباعه طبقة ممتازة لا قعياً بأوامر الشريعة .
وظهر بثوب الشعوبى باستغلاله العناصر المناهضة للعباسيين ودينهم ، كما ظهر بثوب
الفيلسوف العالم ، واستغل الفلسفة والتأويل لأغراضه السياسية ، كما ظهر بثوب
المتشيع المخلص لاختلاصه لأئمة العلويين إخلاصاً لا حد له ، وإشادته بمحمد بن
إسماعيل ، وبمظهر المتشيع تشيعاً قبيحاً بمبادئه - فى درجات الدعوة العليا - بالثورة
حتى على الأئمة أنفسهم ، ومحاولته تركيز جميع أعمال الدعوة فى يديه وأيدى أبنائه ،
بما جعله يبدو فى رأى بعض شخصاً مادياً نفعياً . وهكذا نجح عبد الله - من الناحية
النظرية - فى وضع أساس مذهبه ودعوته .

نجح عبد الله فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى كثير من البلاد الإسلامية ؛ إلا
أنه وإن لم يكن كل ثمارها ، فقد رأى بعينه ما بلغته من نجاح فى جهات كثيرة :
فقد أرسل ، وهو بالاهواز (أى قبل سنة ٢٦٥ هـ) الحسين الأهوازى ، الذى
يعتقد بعض أنه ابنه ، إلى سواد الكوفة ، حيث التقى بمحمدان قرمط (٢) . ومعنى
ذلك أن عبد الله القداح هو الذى وضع أساس الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة
وهو فى الأهواز ، مما يبعث على الاعتقاد بأن شهرة عبد الله فى نشر الدعوة إنما
وضحت للعباسيين فى ذلك الحين ، فطاردوه ، ولكنه استطاع أن يفر منهم ، ويتخذ
طريقه إلى سلمية .

(١) الدكتور طه أحمد شرف : تاريخ الإسماعيلية العباسية ج ١ ص ٤١

(٢) وعلى الرغم مما يذكره بعض المراجع من أن الحسين الأهوازى صحب عبد الله فى هربه من
الأهواز إلى البصرة فسلمية . لا يمنعنا هذا من القول بأن عبد الله فى أثناء إقامته بالأهواز قد أرسله
إلى سواد الكوفة ، خصوصاً إذا علمنا أن الامام عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل وابنه أحمد وحفيده
الحسين ، كانوا قد اتخذوا من سلمية مركزاً أساسياً قبل ذلك الوقت بكثير .

ويذهب نظام الملك (١) إلى القول بأن غلام جعفر الصادق الذي يدعى «المبارك» هو الملقب «قرمط»، وأن عبد الله نجح في التغرير به. ومن الواضح أن مباركا هذا غير حمدان قرمط مؤسس الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة؛ إلا أن عبد الله القداح استطاع أن يجذب المباركية، أتباع المبارك (٢) إلى جماعته؛ كما استطاع في الوقت نفسه أن يمهّد الدعوة في فارس وخراسان، بإرساله الداعي «خلف» إلى بلاد الري وطبرستان، وإرساله ابنه الثالث «علي» إلى الطالقان. ومن هذا نرى أن تسمية أتباع عبد الله بالمباركية أو القرامطة أو الخطائية، تسميته ناقصة، وإنما التسمية الصحيحة هي «الإسماعيلية»، لأن عبد الله استطاع أن يوحد بين هؤلاء وأولئك.

والأمر الذي يلفت النظر حقا أن السكوفة وسوادها كانت في عهد عبد الله القداح مركزا لنشاط الداعي المبارك وأتباعه؛ فكأنه كان يمهّد الطريق لحمدان قرمط ولقرامطة السواد؛ كما كانت الأهواز وقوهستان مركزا لنشاط عبد الله نفسه. ولم يكتف هذا بذلك، بل أخذ يوفد دعاته إلى البلاد النائية في أنحاء فارس وخراسان. ونستطيع أن نقول إن عبد الله قسم العالم الإسلامي إلى مناطق رئيسة، وجعل على كل منها واحدا من أبنائه أو أحد كبار دعاته المشهورين. وخلاصة القول أن الدولة الفاطمية قامت على يد أحد أحفاد عبد الله في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ، كما قامت دولة القرامطة في البحرين على أيدي دعاته ودعاة أبنائه، كما لاقت الدعوة الإسماعيلية شيئا غير قليل من النجاح في اليمن وغيرها. ومن ذلك نرى أن عبد الله القداح هو المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي.

(١) Siasset Nameh, vol. II. p. 265.

(٢) يقول الأشعري (ج ١ ص ٢٦) إن المباركية يلقبون بمحمد بن إسماعيل الإمام، فهم إسماعيلية إذن، غير أنهم يفترون عن إمامية عصرهم في اعتقادهم أنه «مات وأن الإمامة في ولده من بعده» على حين يرى إسماعيلية عصرهم «أنه لم يموت ولا يموت حتى يملك». والواقع أن الرأي الأول هو السائد بين الإسماعيلية.

(هـ) خلفاء عبد الله بن ميمون

١ — عرفتهم بالائمة

اعتاد أئمة الإسماعيلية ، منذ أيام جعفر الصادق ، أن يعينوا نوابا عنهم . أى حججا لهم - كما رأينا - واعتاد الأئمة أيضا أن يكون هؤلاء الحجج من سلالة ميمون القداح ، الذين يرجعون - كما يعتقد الإسماعيلية - إلى سليمان الفارسي . فلو ط عليه السلام ، وأن ينتهم في الإسلام وقبله كان بيت الأئمة المستودعين . ومن ثم كان لزوما على الأئمة الإسماعيليين أن يتخذوا حججهم من بين هؤلاء النواب . يتضح ذلك من تنصيب ميمون القداح وابنه عبد الله حججيين لمحمد بن إسماعيل وأبنائه حتى الإمام أحمد بن عبد الله - على ما رأينا - وهذا يجعلنا نعتقد أن الإمام الحسين بن أحمد ، قد اتخذ حجته من بين أفراد ذلك البيت . وقد يوضح هذا ما ذكره الداعي الخطاب بن الحسين في كلامه على الأئمة المستورين ، منذ أيام محمد ابن إسماعيل إلى قرب ظهور المهدي فيقول : فأودع إسماعيل ، حجته المنصوبة بين يديه مقامه لولده ، وأقامه سترأ عليه وقدمه بين يديه ، واستكفله إياه إلى بلوغه أشده - سلام الله عليه - فلما بلغ أشده تسلم وديعته . ثم جرى الأمر في عقبه خلفا عن سلف ، حتى انتهى الأمر به إلى علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل (١) . وقد رأينا قصر وظيفة ، والحجة ، على بيت القداح ، وخلفاء عن سلف ، في عهد الأئمة المستورين الثلاثة الأوائل ، مما يوحي إلينا بأن الذي خلف عبد الله القداح في رتبة ، وحجة ، الإمام ، هو أحد أبنائه لا أحد العلويين .

ويذهب الداعي إدريس (٢) إلى أنه « كان حجة ثالث الخلفاء (٣) (أى الحسين بن عبد الله محمد بن إسماعيل) أحمد الملقب بالحكيم من ولد مولانا الحسين بن علي بن أبي طالب صلعم ؛ تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون - قدس

(١) غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٦

(٢) زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٤

(٣) يقصد بالأئمة الخلفاء الذين ولوا محمد بن إسماعيل وهم : عبد الله الأكبر ، الخليفة الأول ، وأحمد بن عبد الله الخليفة الثاني ، والحسين بن أحمد الخليفة الثالث .

الله روحه - وهو أحمد الحكيم ، الحجة الجليل قدرها ، العظيم خطرها ، وأرفع الحجب وأسماها ، وألطفها وأعلاها ، . ونرى أن عبارة « من ولد مولانا الحسين ، يجب أن تكون وصفاً لثالث الخلفاء ، لا لكلمة « الحكيم » ، التي تشير إلى أحمد . ونستطيع أن نقول ، إن المقصود بأحمد الحكيم ، أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . والدليل على ذلك سلسلة النسب التي يذكرها الدرزية في رسائلهم حيث يعدون المهدي سعيد الخير بن أحمد بن عبد الله القداح . وسعيد الخير هذا هو حجة الإمام من نسل علي بن أبي طالب ، مع أن الدرزية إسماعيلية ، مغرقون في عقائد المذهب الإسماعيلي ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن سعيد الخير كان حجة للحسين بن أحمد أو لعلي بن الحسين الذي يسميه الدرزية « المعلن » ، وأن عمه أحمد بن عبد الله القداح كان حجة للإمام الحسين كذلك . وبالإضافة إلى هذا كله ، لا نعرف شيئاً عن هذا الحجة المسمى أحمد الحكيم الذي يرجع نسبه إلى الحسين بن علي ، وإنما أفاضت المراجع في القول عن أحمد بن عبد الله هذا .

٢ — شخصية أبناء عبد الله بن ميمون

اشتهر لعبد الله أبناء ثلاثة ، قام كل منهم بدور هام في تقوية الدعوة الإسماعيلية ، وهؤلاء هم أحمد والحسين وعلي . أما أحمد فتذهب المراجع السنية إلى أنه ولد بسلبية ، وهو قول مردود ؛ لأن عبد الله القداح لم ينتقل إلى سلبية إلا بعد سنة ٢٦٥ هـ . وتولى أحمد هذا رئاسة الدعوة بعد سنة ٢٧٠ هـ . ويظهر أن ذلك الخطأ التاريخي راجع إلى أن كثيراً من المراجع يذهب إلى أن الحسين بن عبد الله أنجب في سنة ٢٦٠ هـ ولداً بسلبية ، هو سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، الذي عرف بعد ذلك باسم المهدي ؛ فخلط بعض المؤرخين بين أحمد وبين سعيد هذا (١) .

(١) يفرق بعض بين أحمد بن عبد الله ، وبين محمد بن عبد الله المعروف بأبي الشلمع ، مع أن أحمد هو نفعه محمد أبو الشلمع على ما ورد في رسائل الدرزية . وقد ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن محمداً أبا الشلمع كان وصياً على سعيد بن الحسين ، على حين أن عبد الله القداح توفي سنة ٢٧٠ هـ ، وتولى بعده ابنه أحمد ، واستمر حتى ٢٨٠ هـ . فلما توفي في ذلك الوقت أقيمت مقابله حجة الدعوة في يد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، الذي كان قد بلغ العشرين من عمره ، والذي كان عمه أحمد .

وقد نقل عبد الله بن ميمون القداح الدعوة في أخريات حياته من دور التأسيس والتكوين وخلق المبادئ النظرية إلى دور العمل ، واعتمد على أبنائه في ترويج هذه الدعوة للأئمة المستورين المستقرين بسلبية ، لجعل على غربي العالم الإسلامي أكبر أبنائه وأحبهم لديه ، وهو الحسين ، وجعل مقره سلبية مع الأئمة المستورين . ومن ثم كان الإسماعيلية وقتئذ ينظرون إلى القائم بالدعوة من أبناء القداح هنالك نظرة تفوق نظرهم لأقرانه . ولا غرو فهو في حجة الإمام المستور ، صاحب الزمان . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من سنة الإسماعيلية أن يتسمى دعايتهم وحججهم بأسماء الأئمة . ولذلك آثر عبد الله أن يكون ابنه الحسين في حجة الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، ليحيط إمامه بستر كثيف من السرية والغموض ؛ وهذا وحده هو السبب الذي حدا بالمؤرخين السنيين إلى أن يخلطوا بين الحسين بن عبد الله القداح ، وبين الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكبر ، فنسبوا إلى هذا تارة وإلى ذلك تارة أخرى التزوج من المرأة اليهودية ، وتنصيبه ابنها في رياسة الدعوة وإمامتها (١) ، وهو قول لا يستند إلى أساس تاريخي صحيح .

ابن عبد الله وصيا عليه قبل سنة ٢٨٠ هـ . وهذا يدلنا على أن عمدا أبا الشلمع الوصي على سعيد هو نفسه أحمد بن عبد الله .

أما الحسين بن عبد الله ، فقد كان أكبر أبناء أبيه ، وكان أبوه يعتمد عليه ، ويسمى دائماً في أن يحمله في رياسة الدعوة أي ليصبح حجة الإمام مثله ، ولذلك جعله في حجة الإمام المستور (أحمد بن عبد الله ثم الحسين بن أحمد) في سلبية . وأما ما ذهب إليه ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) من أن الحسين هذا هو ابن أحمد بن عبد الله ، وأنه تولى رياسة المذهب الإسماعيلي بسلبية ، فقول مردود لأن أحمد هو الذي تولى رتبة الحجة بعد أبيه دون الحسين ، ولأن عامة المراجع تنكأ تتفق على أن عبد الله القداح كان له ابن يدعى الحسين توفى في حياة أبيه بعد سنة ٢٦٠ هـ ، نقل محله أخوه أحمد (الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي ج ١ ص ٤٨) . يؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم (فهرست ص ٢٦٥) حين يقول في عبيد الله : « ثم قام بالدعوة بعد ذلك سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح » ، وإذن فالحسين هو ابن عبد الله وليس حفيده .

(١) ينقض ذلك الادعاء نفسه بنفسه ، لأن الحسين ، سواء أكان هو الإمام أم الداعي فانه لا يستطيع أن يقوم بذلك ؛ إذ لا يصح للحسين الإمام الذي يرغب في تزعم العالم الإسلامي أن يترك أقاربه وأبناءه ويهب الامامة لابن يهودي . كما لا يمكن الحسين الداعي أن يفعل ذلك مع وجود أخويه أحمد وعلي وسواهما . ثم إنه يترتب على ذلك أن يكون هذا الابن اليهودي ، الذي أصبح المهدي صغيراً جداً

على أن الحسين بن عبد الله مات في حياة أبيه ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل حدث ذلك قبل فراره من الأهواز أو في خلاله أو بعدة ، وإنما الذي نعرفه على وجه التحقيق أن عبد الله عهد بمعسكر سلبية الرئيس إلى ابنه أحمد بعد موت الحسين (١) ، وأنه اتخذ من مدن العراق - وخاصة السكوة وبغداد - مركزاً أساسياً لبث الدعوة . وفي الحق أن المعسكر الأوسط لم يكن أقل شأنًا من المعسكر الغربي وهو سلبية ، فإن أحمد كان يعمل في معسكره بمدن العراق ، على حين كان عبد الله بن ميمون القداح - يعمل في إقليم الأهواز ؛ فراه تارة في ساباط أبي نوح ، من قرى الأهواز ، ونراه تارة أخرى في عسكر مُسكرم - إحدى ضواحي هذه المدينة - أو في مدينة الأهواز نفسها . غير أنه بعد وفاة ابنه الحسين وفراره هو نفسه من الأهواز ، اضطر أن يركز قواه في سلبية ، واستمر بها حتى مات بعد سنة ٣٧٠ هـ . ومعنى هذا أن أحمد بقي في معسكره بالعراق حتى وفاة أبيه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى سلبية . فكان سعيد بن الحسين كان في وصاية جده في تلك المدة (أى من سنة ٢٦٠ إلى سنة ٣٧٠ هـ تقريباً) ، ثم أصبح بعد موت جده تحت وصاية عمه أبي الشاملع (أحمد بن عبد الله) .

ولا يبعد أن يكون عبد الله القداح ، قد قصد سلبية بعد موت ابنه الحسين ، وخلقها من المحرك الأول للدعاية بها ، وخوفه على الإمام المستور من بقائه بسلبية وحيداً ؛ بمعنى أن خروجه من الأهواز لم يكن خوفاً من العباسيين والفرق الإسلامية فقط ، بل كان للمحافظة على سلامة النظام الذي وضع أساسه لحفظ كيان الدعوة الإسماعيلية .

أما المعسكر الثالث من معسكرات الدعوة فكان في الطالقان (٢) بخراسان . وقد

== وقت هربه من سلبية إلى بلاد المغرب ، مع أنه كان رجلاً كامل الرجولة ، ومعه القائم الذي يعتبره بعضهم ابناً له ، والذي سنراه يقود الجيوش بعد عشر سنوات تقريباً .

(١) وكان قد عهد إلى أحمد بن عبد الله برياسة الدعوة في قلب المملكة الإسلامية ، وخاصة العراق .

(٢) تطلق كلمة « طالقان » ، على بلدين أحدهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، والآخرى بلدة وكورة بين قزوین وأهر .

أقام فيه عبد الله ابنا ثالثا كان على اتصال دائم بالقرامطة في سواد الكوفة . يقول ابن النديم (١) : « وأقام قرمط بكواذي (قرب بغداد) ، ونصب له عبد الله بن ميمون رجلا من ولده يكاتبه من الطالقان ، وسنرى الدور الخطير الذي سوف يمثله ذلك القداحي في تنظيم الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة ؛ إذ أنه ما كاد يعلم بانتفاض حمدان قرمط وصهره عبدان على ابن أخيه سعيد بن الحسين وإمامه الحسين بن أحمد ، حتى تأمر على زكرويه بن مهرويه ، الداعي القرمطي النشيط ، على قتل عبدان . وإن نهاية قداح الطالقان بجهولة تماما ، وإن كان النويري يرى أنه صاحب الناقة المشهور الذي قتل على أبواب دمشق سنة ٢٩٠ هـ ، وسنرى بطلان هذا الرأي .

٣ — مرى نشاط أبناء عبد الله بن ميمون

الواقع أن نشاط أبناء القداح يبدأ في حياة أبيهم ، ويتنهي بتقليد حفيده سعيد ابن الحسين سنة ٢٨٠ هـ رتبة حجة الإمام . أما متى بدأ نشاطهم بالضبط فإننا لا نعرفه ، ولكننا لا نستطيع أن نقول ، إنه بدأ قبل مقابلة عبد الله بن ميمون القداح دندان كاتب عبد العزيز بن أبي دلف في سنة ٢٦٥ هـ ، وإن أبناء القداح هؤلاء استطاعوا في ذلك الوقت أن ينشروا المذهب الإسماعيلي بين القرامطة ؛ إلا أنهم ضاعفوا جهودهم بعد هذه المقابلة ، وبعد أن أخذ أبوهم من دندان الهبة المالية الضخمة التي ساعدتهم على مضاعفة العمل . كما ساعد على نجاحهم ثورة صاحب الرنج (٢٥٥-٢٧٠ هـ) ، وانهماك العباسيين في الصراع معه . وقد نشرت الدعوة الإسماعيلية على أيدي أبناء عبد الله بن ميمون في خراسان وفارس ، وبين القرامطة ، وفي بلاد اليمن وبلاد المغرب . ولولا قيام الدولة الطولونية في مصر والشام ، لظهرت آثار ذلك النشاط السريع ، لأنه على الرغم مما عرف عن ميل أحمد بن طولون إلى الشيعة عامة ، استطاع إقرار الأمور في بلاده . ولذلك ضاعف عبد الله بن ميمون القداح وأبناؤه والأئمة الإسماعيلية جهودهم في نشر الدعوة في البلاد البعيدة عن مركز القوة السنية ، في بغداد بالعراق ، وفي القطائع بمصر .

(١) الفهرست ص ٢٦٥

ومما يدلنا على انهماك أبناء القداح في نشر الدعوة الإسماعيلية ما يعزونه إلى أحمد ابن عبد الله من أنه هو الذي أرسل الحسين الأهوازي إلى القرامطة . فيرى أخو محسن : « أنه لما صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديسان بعد أبيه ... بعث وهو بسلبية الحسين الأهوازي داعية إلى العراق ، فلقى خمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة » (١) . غير أننا لانستطيع أن نصدق كل ما أورده أخو محسن ، لأن أحمد بن عبد الله لم يتول رئاسة الدعوة إلا بعد قيام المذهب الإسماعيلي بين القرامطة في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، كما أن عبد الله لم يمت إلا بعد أن استقر هذا المذهب بين القرامطة في السواد . وإذن فإن إرسال أول داع للقيام بنشر هذه الدعوة للمذهب الإسماعيلي بين القرامطة كان على يد عبد الله ابن ميمون القداح .

ويعتقد بعض المؤرخين أن الحسين الأهوازي الداعي الإسماعيلي الأول الذي قام بنشر المذهب الإسماعيلي بين القرامطة ، هو الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح . وإذن فنخرج الحسين إلى سواد الكوفة إنما كان بأمر أبيه عبد الله القداح ، وهذا لا يحول دون مساعدة أحمد بن عبد الله لأخيه الحسين ، مما يؤكد نشر الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة في حياة عبد الله بن ميمون . أما قول ابن عذارى عن عبد الله هذا : « إنه صحب قرمطا ودعاه إلى مذهبه فطارعه على ذلك » ، فإنه يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عبد الله هو أول من أرسل الدعاة لنشر المذهب الإسماعيلي بين القرامطة . ولكن ابن عذارى قد جانب الصواب باعتباره أن عبد الله بن ميمون القداح هو الذي قام بالدعوة بنفسه بين القرامطة ، ثم لحظه بين عبد الله هذا وبين الحسين الأهوازي الذي كان أول من دعا للمذهب الإسماعيلي بين القرامطة .

ولكن متى حدثت هذه الحركة من جانب القداحية ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن قبل قيام ثورة صاحب الزنج بكثير ؛ لأن الدعوة الإسماعيلية في ذلك الحين لم تكن قد نظمت من الناحية العملية التنظيم الكافي . ولا بد أن يكون ذلك قد تم بعد قيام تلك الثورة ، وليس في أوائل العصر العباسي الأول ، أو في سنة ٢٧٨ هـ كما ذهب إليه بعض . وإذا نستطيع أن نقول إن هذه الحركة أخذت طريقها إلى القرامطة في

(١) النيزي : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٣٢ ورقة ٥٥

الوقت الذي قامت فيه ثورة الزنج ، لأنهم ينسبون إلى الحسين الأهوazy أو إلى حمدان قرمط ، أنه اتصل بصاحب الزنج وحاول الاتفاق معه على أن يمهده بمائة ألف ضارب بسيف . ولا نستطيع أن نتصور رفض صاحب الزنج هذا العرض المفيد إلا إذا افترضنا أنه كان من القوة بمكان عظيم . ولا يمكن أن يكون كذلك إلا في أخريات عهده ، أي قبيل سنة ٢٧٠ هـ ، وذلك في عهد إمامة الحسين بن عبد الله بن محمد ابن إسماعيل .

كما أن انتشار الدعوة في بلاد اليمن إنما حدث على يد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح في عهد أبيه ، أو بعبارة أخرى ، أن أحمد بن عبد الله لم يكن حين نظم الدعوة في بلاد اليمن حجة الإمام المستور ، بل كان نائباً عن أبيه الحجة . ومهما يكن من شيء فقد تم على يد أحمد بن عبد الله إرسال الحسين بن حوشب^(١) مع ابن فضل الجندى إلى بلاد اليمن في سنة ٢٦٧ هـ . وقد رأينا كيف استطاع الإمام الحسين ابن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل أن يحوله من مذهب الإمامية الإثنا عشرية إلى مذهب الإمامية السبعية أو الإسماعيلية . وترى المراجع السنية أن الذى حول أبا القاسم بن حوشب إلى المذهب الإسماعيلي هو أحمد بن عبد الله ، لكننا نرى أن الإمام الحسين هذا هو الذى قام بذلك ، لأن ابن حوشب حين يصف مقابله للإمام يذكر أنه تقابل مع شخص مسن ، ولم يكن أحمد بن عبد الله كذلك . أما الذى تم على يديه إرسال ابن حوشب إلى بلاد اليمن هو وزميله ابن فضل ، فهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . ويهمنى هنا أن نقف على هذه الأمور :

إن ابن حوشب وابن فضل كانا من الإمامية الإثنا عشرية ، مما يدل على أن الإثنا عشرية كانوا دائماً منهلاً تنهل منه الدعوة الإسماعيلية ، حتى إن كبار دعايتها ورجالها كانوا من الإثنا عشرية . ولا غرو فإنه من السهل على المرء أن ينتقل من مذهب شيعى إلى مذهب شيعى آخر ، ثم إن الشخصيات الجريئة التى كانت لها مطامع تستطيع أن تحقق آمالها كاملة فى ظل إمام حتى يترقب الفرصة للظهور ، وعلى عكس ذلك يقفون مكتوفى الأيدي مع إمام منتظر لا يعرفون عنه شيئاً .

(١) يسميه المنصورى : رستم بن الحسين بن حوشب بن زاذان النجار ، كما يسميه صاحب كتاب "انتشار الامام" ، أبا القاسم الحسن بن فرح .

وإن ابن فضل وصل إلى الكوفة في أوائل سنة ٥٢٦٧ هـ ، وكان وصوله معروفاً لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . فما السبب في ذلك ؟ يظهر أن أحمد بن عبد الله والأئمة المستورين كانت لهم باليمن عيون . ومن البلاد التي نشروا فيها عيونهم وعدن لاهه ، في بلاد اليمن . ويلوح أنها كانت مركزاً أساسياً للإسماعيلية قبل أن يقدر إليها ابن حوشب . وكان لأحمد بن عبد الله وأئمة بها طيور تأتيه بأخبارها ، ولا يبعد أن يكون أحمد بن عبد الله قد عرف بوصول أحمد بن فضل عن طريق هذه الطيور . ومعنى ذلك أن المذهب الإسماعيلي كان منتشراً في بلاد اليمن بجانب انتشار المذاهب الشيعية الأخرى . ومن ثم أخذ أحمد بن عبد الله بن ميمون يعد ابن حوشب - قبل مجيء ابن فضل الجدني - للذهاب إلى بلاد اليمن ويقول له : « يا أبا القاسم ، إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من قبل اليمن فإنه يكون ثابتاً لثبوت نجم اليمن » (١) .

وقد اختلف المؤرخون في الشخص الذي عهد لابن حوشب وابن فضل بالسفر إلى اليمن : فمن قائل ، إنه الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وهذا غير مقبول كما تقدم . ومن قائل إنه ميمون القداح نفسه ، وهو قول لا يحتاج في بطلانه إلى رد ، لأن ميمونا القداح كان حجة محمد بن إسماعيل ، فلا يعقل أن يكون حجة لحفيد ابنه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل . ومن قائل إنه الإمام الحسين هذا . وليس هناك ما يمنعنا من تصديق هذا القول ، إذ أنه لا يتنافى مع وجود أحمد بن عبد الله بن ميمون في رئاسة الدعوة من الناحية العملية . وإذا كان الإمام الحسين قد شارك في إرسال هذه السفارة فإن هذا يدل على أن الأئمة لم يظلوا ساكتين في دور هجرتهم . وإن جذب ابن فضل اليمنى - أو اقتناصه إلى الدعوة الإسماعيلية كما كانوا يقولون - قد حدث في الكوفة بالقرب من مشاهد أهل البيت عقب أداء فريضة الحج بمكة ، مما يدلنا على أن الأئمة الإسماعيلية وحججهم ودعاتهم كانوا يترقبون المستجيبين عند تلك المشاهد ، ثم اقتناصهم هنالك . ونحن لا نوافق ابن خلدون فيما ذهب إليه من أن إرسال ابن حوشب مع ابن فضل كان من سلبية ، لأن ابن حوشب يصف لنا رحلته وخروجه من الكوفة إلى القادسية فمكة .

(١) الخافي : كشف اسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٥٢ - ٥٣

وكان وفد السفارة إلى اليمن يتكون من ابن حوشب وابن فضل دون سواهما .
أما القول بأن عبيد الله المهدي خرج معهما ، فإنه يبدو بعيد التصديق ، إذ لم نجد
دليلاً واحداً يؤيد ذلك . يقول ابن البطريق^(١) : « لما ترعرع عبيد الله سيره أبوه إلى
اليمن في سنة ثمان وستين ومائتين ، والمهدي يومئذ طفل عمره ثمان سنوات » .

كما أن سلوك أحمد بن عبدالله القداح والإمام الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد
ابن إسماعيل يدل على ذكاء نادر المثال ، وعلى مقدرة في إدراك مافى نفوس الرجال ،
والإمام تام بحالة البلاد الإسلامية ، فقد أخذ أحمد بن عبدالله الموائيق على ابن فضل ،
لما كان يخشاه من طموحه ، وقال له : « الله الله بصاحبك ! وقّره ، واعرف له حقه ،
ولا تخالفه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك ، وإنك إن خالفته لم ترشد »^(٢) . كما أمر
ابن حوشب بالاستتار والاعتماد على التأويل في نشر المذهب الإسماعيلي ، واتخاذ
التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه ، وأمره أن يقول بقرب ظهور المهدي^(٣) وقال لهما :
« أبعثكما إلى اليمن تدعوان إلى ولدي هذا ، فسيكون له ولذريته عز وسلطان »^(٤) ،
لأن « أهل النجوم والحساب (كانوا) يذكرون ظهور المهدي بالله ، ويبشرون
بدولته »^(٥) . ولا غرو فقد كانت الأحوال مهيأة لهم في بلاد اليمن لا انتشار التشيع بها ،
وضعف حكماها ، ووهن ذلك الرباط الذي كان يربطها بالعباسيين . وهكذا استطاع
سفيرا الإسماعيلية إلى اليمن — ابن حوشب وابن فضل — أن يثالا قسماً كبيراً من
النجاح ، وأن يملك معظم البلاد الجبلية فيها . ولم يمض عامان حتى احتل ابن حوشب
جبل مسور من أعمال صنعاء ، واتخذ له منه دار هجرة ، وتسمى منذ سنة ٢٧٠ هـ
« منصور اليمن » . ويرجع الفضل إلى تلك الحركة في إقامة دولة الصليحيين بعد قرنين
تقريباً . ولذلك فإنه لما أرسل ابن حوشب إلى أحمد بن عبد الله بعد ذلك ، وقد
أصبح حجة الإمام ، يخبره بما فتح من البلاد ، ويتحفه بالكثير من تحف اليمن ، قال
أحمد لابن أخيه سعيد : « هذه دولتك قد أقبلت ، ولكن لا أحب ظهورها إلا من » .

(١) صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٦

(٢) الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

(٣) Quatremère : Memoires (J.A., 1836) p. 148.

(٤) الباعى إدريس : زهر المغانى (من المنتخب) ص ٦٥

(٥) الحمادي اليمني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

المغرب^(١)، . ولا يقل نجاح ابن فضل في بلاد اليمن عن نجاح زميله ابن حوشب .
وعما يدل على مدى نشاط أحمد بن عبد الله القداح ورجاحة عقله ، ما قام به في
سبيل نشر الدعوة في بلاد المغرب ؛ إذ يلوح لنا أنه هو الذي أرسل الداعيين الحلوانى
وأبا سفيان إلى تلك البلاد ، وانتهمز — هو وإمامه الحسين بن أحمد — بعد بلاد
المغرب عن بغداد ، وانتشار التشيع بها ، وأرسلهما لنشر الدعوة وتمهيد الأمور
للهدى فيها ، أو بعبارة أدق لإعداد العدة لإقامة دولة إسماعيلية هنالك . وليس
صحيحاً ما يدعيه بعض من أن الذي أرسل هذين الداعيين إلى إفريقية (تونس
الآن) هو جعفر الصادق في سنة ١٤٥ هـ ، لأن أبا عبد الله الشيعى تقابل في سنة
٢٧٨ هـ في مكة ، مع حجاج كتامة ومنهم من أخذ على الحلوانى وأبي سفيان .
فهل يعقل أن يعاصر هؤلاء جعفر الصادق في منتصف القرن الثانى ، وابن حفيده
الإمام الحسين في أواخر القرن الثالث ؟ . الواقع أن ما ذكره صاحب كتاب
« دستور المنجمين » ، وسواه ، إنما قيل حبا في الأئمة بنسبة قيام الدولة الفاطمية إلى
جهود الإمام جعفر الصادق . على أن كثيرا من مؤيدى الفاطميين ينسبون ذلك إلى
سلف عبيد الله : فقد ورد في كتاب عقد الجمان^(٢) : « واعلم أن الدعاة بالمغرب كانوا
يدعون إلى محمد الحبيب - والد عبيد الله - وكان يسمى الهادى ، وكان بسلمية » .
فهذا القول ينطبق على الإمام الحسين بن أحمد وحجته أحمد بن عبد الله القداح .
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أشار بعض أعلام المؤرخين إلى أن ابن
حوشب هو الذى أرسل الدعاة قبل أبي عبد الله إلى المغرب . فيقول العمري :
« كان قد أرسل ابن حوشب قبل ذلك دعاة إلى أرض المغرب ، فأجاب أهل كتامة » ؛
ولم نعرف أن هناك دعاة أرسلوا إلى المغرب قبل أبي عبد الله سوى الحلوانى وأبي
سفيان . أضف إلى ذلك أن النصوص التى تذكر أن جعفرا الصادق هو الذى
أرسلهما يتناقض بعضها مع بعض . من ذلك ما عزي إلى جعفر الصادق أنه قال لهذين
الداعيين : « قولوا لكل شيء باطن ، واذهبوا بالمغرب أرض بور فاحرثاها وأكرياها »^(٣)

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢ .

(٢) اليمنى : عقد الجمان ج ١٨ ورقة ١٥٣ .

(٣) أكرى الأرض : جعلها صالحة للزراعة . ويقصد هنا إعداد المغرب للدعوة الإسماعيلية .

حتى يأتي صاحب البذر (١) ، فإن فكرة الباطن ، وفكرة صاحب البذر لم تكن قد نبتت في عهد جعفر الصادق . وليس هذا وحده . بل يكاد المؤرخون يجمعون على أن ابن حوشب لما علم بموت هذين الداعيين أعد أبا عبد الله لنشر الدعوة بعدهما وقال له : « إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك » (٢) .

من هذا كله نستطيع أن نقول ، إن إرسال الحلواني وأبي سفيان كان على يد ابن حوشب في عهد أحمد بن عبد الله القداح ، وإن ذلك لابد أن يكون بأمر الإمام الحسين وحجته أحمد بن عبد الله القداح ؛ لأنه لا يعقل أن ينفرد ابن حوشب بأمر دونهما . كما نستطيع أن نفهم اجتهاد هؤلاء جميعا في نشر الدعوة الإسماعيلية في البلاد النائية ، فقد أدركوا نجاحها في بلاد اليمن ، ومن ثم عملوا على أن يضعوها موضع التجربة كذلك في إفريقية . كما نرى أيضا أن إرسالها يجب أن يكون بعد سنة ٢٧٠ هـ ، حيث نجح ابن حوشب في أداء مهمته وتسمى « بمنصور اليمن » . ومن ثم خلق ابن حوشب من اليمن مستودعا هاما من مستودعات الدعوة الإسماعيلية .

كما دل إيفاد أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب على كثير من المهارة السياسية التي كان يتحلى بها رؤساء الدعوة في سلبية ، حجبوا كانوا أم أئمة . ولكن من الذي أرسل أبا عبد الله إلى تلك البلاد ؟ يبدو أن الذي أرسل الحلواني وأبا سفيان هو نفسه الذي أرسل أبا عبد الله إلى المغرب ، كما أن إرساله إلى المغرب لم يكن من سلبية مباشرة ، بل كان عن طريق اليمن . وبما بلغت النظرة في سفارة أبي عبد الله أن رئيسي الدعوة (الإمام والحجة) قد اختارا بلاد اليمن لتكون مدرسة لتعليم دعاة المغرب ؛ فقد رأينا ابن حوشب يرسل الحلواني وأبا سفيان وينصح لهما بأن يبتعد كل منهما عن صاحبه ، وأن يقولوا : لكل ظاهر باطن ، ويحتميا بالتأويل ، ويمهدا بعملهما لظهور المهدي ودولته . وها هو ابن حوشب يمثل الدور نفسه مع أبي عبد الله الشيعي . فما الذي حمل رؤساء الدعوة على إرسال أبي عبد الله إلى ابن حوشب دون

(١) صاحب البذر : يشير إلى من ستقوم على يديه الدولة الإسماعيلية المنشودة ، أي كأنهما كانا يمهدان السبيل لأبي عبد الله الداعي .

(٢) المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٥ ورقة ١٤٥

توجيهه إلى المغرب مباشرة ؟ يظهر أن رؤساء الدعوة بسلبية كانوا يثقون في ابن حوشب ثقة لاحد لها حتى لقبوه المنصور ، وشبهوه بفجر الدعوة الذي مهد لشمسها بالظهور ، فقالوا فيه : « كان (ابن حوشب) بمثابة الفجر المتنفس ، وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة ، وأثار حنادس الظلمة » (١) .

كما ينسبون إلى أحمد بن عبد الله القداح أنه قال لأبي عبد الله حين أرسله إلى ابن حوشب : « امثل سيرته ، وانتظر إلى مخرج أفعاله فاعمل بها ، ثم اذهب إلى المغرب » (٢) . ولا يبعد أن يكون رؤساء الدعوة قد استعانوا بابن حوشب في تعليم دعاة المغرب ، للتشابه العظيم بين اليمن وتلك البلاد ، فإن كلا منهما بعيد عن مركز الخلافة العباسية ؛ كما انتشر التشيع في كل منهما انتشارا كبيرا ، وفيهما سادت الفوضى ، ومن ثم رأى رؤساء الدعوة بسلبية أن يستفيدوا من خبرة داعي اليمن في تثقيف دعاة المغرب .^٥

وشئ آخر جدير بالملاحظة ، هو أن أبا عبد الله الداعي كان قد أخذ العهد على نفسه ، وأقر بارتباطه بالإسماعيلية دون أن يرى إمامه أو حجته أحمد بن عبد الله القداح ، أو يعرف شخصيهما ، وإنما أخذ هذه الدعوة عن أحد المقربين إليهما ، وهو الداعي أبو علي ، الذي أسندت إليه الدعوة بمصر بعد ذلك . وأن أبا عبد الله قد أوفد من سلبيه إلى بلاد اليمن جنوبا (سنة ٢٧٨ هـ) ، فبقى فيها عاما واحدا ثم توجه إلى بلاد الحجاز ، وحط رحاله في المغرب في أوائل سنة ٢٨٠ هـ . ومعنى ذلك أن أبا عبد الله خرج وهو يدين بطاعة الإمام الحسين الإسماعيلي وحجته أحمد بن عبد الله القداح . واستقر ببلاد المغرب وهو يدعو إلى هذا الإمام تحت رئاسة حجته سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو عبيد الله المهدي . فلما استودع الإمام حجته سعيدا الإمامة ليكون سترًا على ابنه القائم ، أخذ أبو عبد الله يدعو إليه وحده ، ولا نستطيع أن نوافق القائلين بأن عبد الله القداح هو الذي أرسل ابنه إلى المغرب ، لأن عبد الله لم يقم بشئ من هذا . يقول صاحب أنباء الزمان : « بعث عبد الله بن ميمون القداح ، وهو مولى جعفر بن محمد الصادق ، إلى إفريقية الدعوة ،

(١) الخطاب بن الحسين : غابة المواليد (من المنتخب) ص ٢٦

(٢) المنصوري : زبدة المكرة في تاريخ الهجرة ج ٥ ورقة ١٤٥

ولدّه سعيداً . وقد غير اسمه وقال : أنا عبيد الله بن الحسين بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، (١) . وإن هذه العبارة لتبدل دلالة قاطعة على مدى جهل قائلها بالحقائق التاريخية الصحيحة .

من هذا نرى أن أحمد بن عبد الله رأى بعينه نجاح الدعوة الإسماعيلية العظمى ؛ فقد امتدت في عهده حتى شملت بلدانا مختلفة : فمؤلاء القرامطة ينتشرون في سواد الكوفة وجنوبي فارس ؛ وهذه الدعوة الإسماعيلية تنتشر في بلاد اليمن على يد ابن جوشب وزميله ابن فضل الجدني ، كما تروج في بلاد المغرب على يد داعييه الحلواني وأبي سفيان . وهكذا جنى أحمد كثيراً من ثمار ما غرسه أبوه عبيد الله القداح ، وسيجنى سعيد ابن أخيه ثمار ما غرسه هو . وهكذا نجحت الدعوة الإسماعيلية التي أقامها ميمون القداح ، ونعم سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح بذلك النجاح .

٤ — انتقال زعامة الإسماعيلية إلى عبيد الله

(١) عبيد الله الحجة :

يسمى عبيد الله أبا محمد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، ويسميه بعضهم سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ فيعتبره أصحاب التسمية الأولى من سلالة ميمون القداح ، ويعتبره أصحاب التسمية الثانية من سلالة إسماعيل ابن جعفر الصادق . وسنرى أن التسمية الأولى هي الصحيحة .

آلت زعامة الدعوة الإسماعيلية من الناحية العملية إلى سعيد هذا منذ مات أحمد ابن عبد الله القداح في سنة ٢٨٠ هـ ؛ فآلت إليه تبعاً لذلك رتبة حجة الإمام المستور . وقد علمنا أن سعيداً هذا ولد في سنة ٢٥٩ هـ ، أو على الأرجح في سنة ٢٦٠ هـ ، وأنه كان تحت وصاية عمه أحمد أبي الشلعل بن عبد الله القداح . فلما مات هذا في سنة ٢٨٠ هـ كان عمر سعيد عشرين سنة أو يزيد ؛ فلم يكن في حاجة إلى وصاية ، بل تقلد أمور الدعوة كحجة للإمام . ولا بدع في ذلك ، فإن وظيفة الحجة أصبحت وظيفة تقليدية في بيت ميمون القداح منذ عين جعفر الصادق ميموناً فيها ، واستمرت

هذه الوظيفة مقصورة على هذا البيت أكثر من قرن ، وقام هؤلاء الحجج بوظيفتهم في رئاسة الدعوة خير قيام ، حتى أثاروا إعجاب الأئمة العلويين وتقديرهم .

وإذن عهد إلى سعيد الحجة هذا تنظيم الدعاية ، وترويج المذهب الإسماعيلي في كافة أرجاء العالم الإسلامي ؛ فقد ورث عن عمه أحمد بن عبدالله تراثا ضخما : كان عليه أن يحفظ شخص الإمام العلوي الحسين بن أحمد في سلبية ، ويحيطه بذلك الستار الكشيف من التخفي ، كما فعل آباؤه القداحيون مع الأئمة العلويين المستورين منذ أيام محمد بن إسماعيل . وكان عليه أن يتعهد الدعوة في بلاد اليمن والمغرب ، ويتصل بزعماء الدعوة هناك باسم الإمام . وكانت بلاد اليمن والمغرب أشد اتصالا بالإمام نفسه من اتصال قرامطة السواد به . لذلك نرى كثيرا من المراجع الإسماعيلية تشيد بدعاة هذه البلاد ، كما كان عليه — كرئيس للدعوة — أن يتصل بقرامطة السواد ، أي سواد الكوفة وهي الأراضي الزراعية فيها ، وأن يدعوهم في صراحة إلى الإمام ، ويعلم لهم أنه حجته . ولهذا سنراهم ينتفضون عليه حين يخلع ثوب الحجة ويرتدي ثوب الإمام . ويبدو أن ارتباط رئاسة الدعوة في سلبية بالبلاد الشرقية كان أكثر غموضا ؛ ومع ذلك كانت الدعوة التي مهد لها عبدالله بن ميمون القداح في خراسان وفارس قد أثمرت ، وأصبح على رأسها جماعة من الدعاة العلماء الذين سنتناولهم بالبحث في الكلام على جهود عبيد الله الخليفة في تلك البلاد . وإذن لمن كان سعيد هذا حجة ونائبا ؟ يرى أصحاب كثير من المراجع الإسماعيلية — وهي عمدتنا هنا — أن سعيدا كان حجة للإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(ب) عبيد الله الإمام

أما انتقال إمامة الدعوة الإسماعيلية إلى سعيد هذا ، فإنه يكون فصلا شائكا في تاريخ الإسماعيلية خاصة ، وفي تاريخ المسلمين عامة ، لما اكتنفه من شكوك وأحاطة من غموض ؛ إذ كيف يتحول الحجة إلى إمام ؟ وكيف يصبح أحد سلالة القداح إماما إسماعيليا يتمتع برتبة النطق والإمامة اللتين كان يتمتع بهما الأئمة العلويون ؟ وهل استبد سعيد بالأمر دون الأئمة الحقيقيين ، فدعا لنفسه دونهم ؟ أو هل نستطيع أن نعتبر الخلفاء الفاطميين من سلالة القداح ، فنوافق منافسيهم حين يرمونهم بذلك ؟

وإذا كانوا من القداحية ، فلماذا يدافع عنهم دعائهم ، وينسبونهم إلى علي وفاطمة ؟
الحق أننا نستطيع فهم هذا الموضوع إذا أوضحنا الظروف التي أحاطت بتزول
الإمام الحسين بن أحمد ، لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وأوضحنا المبادئ
الإسماعيلية التي ساعدت على هذا التحول ، وشرحنا في الوقت نفسه ما أحاط بهذا
النزول من اختلاف بين أنصار المذهب الإسماعيلي .

ومن أظهر المبادئ الإسماعيلية التي كانت لها دخل كبير في هذا التحول ، مبدأ
التبني الروحاني ، فإن الإسماعيلية يؤمنون بهذا المبدأ إيماناً قوياً ، فتراهم يقولون
كثيراً : إن فلاناً ابن فلان ، يقصدون بذلك بنوته الروحانية لا الجسدية . كما
يقولون إن فلاناً أبو فلان ويقصدون الناحية الروحانية . وهذا ما حدا بالعالم
ماسينيو إلى القول بأن تلقيب أبي الخطاب ، أحد زعماء الإسماعيلية الأوائل ، بلقب
أبي إسماعيل ، يتصد منه الأب الروحاني لإسماعيل بن جعفر الصادق . وخير دليل على
صحة هذا ، ما نراه في رسائل إخوان الصفا ، التي ذهب بعضهم إلى القول بأنها من
تصنيف أحد الأئمة المستورين ، حيث يذكر فيها كثيراً الابن الروحاني والأب
الروحاني ، بل قد يروون أحاديث لتقرير هذا المبدأ ، فيقولون إن الرسول قال في
سلمان الفارسي « سلمان مني أهل البيت » وغير ذلك . حتى لقد قال نصير الدين
الطوسي (١) في بنوة سلمان هذا لعلي بن أبي طالب إنها بنوة روحانية ، كما قال إنه
يوجد بجانب البنوة الروحانية أو الجسدية بنوة مشتركة جسدية وروحانية معا ،
وضرب لكل منها أمثلة تكشف لنا عن اتجاه الإسماعيلية السياسي . فيرى الطوسي
أن المستعلي (٢) بن المستنصر ابن جisman فقط له . وإنما لجأ إلى ذلك لينفي عنه دعواه
الإمامة ، ويرى أيضا أن الحسين بن علي بن أبي طالب ابن لعلي من الناحيتين

(١) لجأ هذا العالم إلى النزارية الإسماعيلية في الموت - جنوبي بحر قزوين - في أخريات حياتهم
خوفاً على نفسه من الخليفة العباسي المستنصر ووزيره ابن العلقمي . ومدح الإسماعيلية ، وأشاد بزعمائهم
في كتابه « أخلاق ناصري » ، وساعد هؤلاء في الاستيلاء على قلاع الدعوة في المشرق ، ومات
في سنة ٦٧٢ هـ .

(٢) هو حفيد بدر الجمالي ، ثار عليه أخوه نزار ، فانتصر عليه بمساعدة خاله الأفضل شاهنشاه
في سنة ٤٨٨ هـ ، فنادت جماعة بإمامة نزار وسموا النزارية ، ومن تسلمهم اغا خان الحلي ، ونادت جماعة
أخرى بإمامة المستعلي وسموا المستعلية . ومن أنصارهم اليوم جماعة البهرة في الهند خاصة .

الروحانية والجسمانية معا ، وفي هذا إقرار من الإسماعيلية للحسين بالإمامة .

وإذا صح ذلك فإنه لا يبعد أن يقول الإسماعيلية ببنوة أبناء القداح — من الناحية الروحانية ، للأئمة المستورين ، خصوصا لأنهم يرجعون نسبهم إلى سليمان الفارسي — كما رأينا في الكلام على الأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية — وأنه إذا كان سليمان ابنا روحانيا لعلي بن أبي طالب ، فليس هناك ما يمنع أحفاده من الأئمة الإسماعيلية من تبني أحفاد سليمان الفارسي ! ثم لم نذهب بعيدا ؟ ألم تر ما قاله رشيد الدين في كتابه جامع التواريخ عن انتساب عبدالله القداح إلى محمد بن إسماعيل ، حيث ادعى ميمون أنه ابن روحاني للإمام محمد هذا ، وأنه الوارث الحقيقي لمحمد ابن إسماعيل في إمامته ، وأن الإسماعيلية لم يعارضوه في دعواه هذه ؟ ومعنى هذا أن الإسماعيلية يوافقون على مبدأ انتقال الإمامة من الأئمة الحقيقيين إلى تلامذتهم . ومن حسن الحظ أننا عثرنا على كثير من النصوص التي تؤيد ما ذهبنا إليه من انتقال الإمامة من شخص إلى آخر عن طريق البنوة التعليمية أو الروحانية . من ذلك ما ذهب إليه الداعي إدريس عماد الدين في كتابه زهر المعاني^(١) من أن الإمام الحسين الإسماعيلي استودع سعيد الخير الإمامة ليردها إلى ابنه القائم ، وأن سعيدا هو المهدي ، الذي كان شمس الله الطالعة ، وآيته الساطعة ، والحجاب الأعظم ، والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعة ، ومسلمها إلى القائم بأمر الله ، ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته ؛ وهو خليفته ، القائم منه كعلي جده — أمير المؤمنين — من محمد رسول الله الأمين . ألسنا نرى أن القائم بأمر الله لم يكن ابنا جسمانيا لسعيد الخير — المهدي — ثم ألا يعتبره هذا المؤلف الإسماعيلي المشهور ابنا لعمه ينتسب إليه بالتعليم والإفادة ، مع أن العم غير الأب كما نعلم ؟

ولم يكن هذا التبني الروحاني جديدا في تاريخ الشيعة ، بل إنه من الممكن جدا عند الشيعة أن تنتقل الإمامة من شخص إلى آخر بطريق التفويض ، سواء أكان المنقول إليه قريبا للناقل أم غير قريب . من ذلك ما رأيناه في تفويض الإمام الحسين بن علي أخاه محمد بن الحنفية في أمر الإمامة ، إذ أودعه إياها إلى حين يشب

(١) ص ٦٧ (من المنتخب) .

ابنه علي زين العابدين ، ولذلك سمي محمد بن الحنفية حينئذ إماما بالتفويض . وأهم من ذلك انتقال الإمامة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى العباسيين . فالعباسيون - تمشيا مع هذه النظرية - أئمة عن طريق التفويض ؛ وبذلك يكون قيام الدولة العباسية قد استند إلى نظرية إسماعيلية هي الإمامة بالتفويض . وإذا صدقنا ذلك عن العباسيين فلم لا نصدقه عن أبناء القداح ، حجج الأئمة المستورين ؟ وإذن لا نستبعد صحة ما ورد في النصوص الإسماعيلية بل السنية ، التي تنسب عبيد الله المهدي إلى ميمون القداح ، وتؤكد أن عبيد الله كان حجة ثم استودع الإمامة حينما سيكون سترًا وحجابًا على الإمام الحقيقي القائم بأمر الله . ولا غرو فقد أكد لنا ذلك ما أورده رشيد الدين ، وما ورد أيضا في كتب الباطن عند الإسماعيلية وخاصة كتب الدرزية .

على أن هناك مبدأ إسماعيليا آخر ، لا يقل أثره عن مبدأ التنبؤ الروحاني ، ذلك هو مبدأ الاستيداع الإمامي الذي اتخذته الإسماعيلية وسيلة لتأييد مذهبهم ، فإنهم يعتقدون أن هناك أئمة استيداع إنما يقومون بحمل الوديعة دون نقلها إلى سواهم ، وأنهم يتمتعون بها طول حياتهم . وكان لنظرية الاستيداع الإمامي أثرها في تاريخ الشيعة عامة ، والإسماعيلية منهم خاصة ؛ فإن هؤلاء يعتقدون أن الحسن بن علي بن أبي طالب كان إماما مستودعا ، حمل الوديعة لينقلها من بعده إلى أخيه الحسين . ولا نغلو إذا قلنا إن نظرية الاستيداع الإمامي تنطبق على محمد بن الحنفية ، الذي حمل الوديعة (الإمامة) من أخيه الحسين ، لينقلها إلى مستحقها علي زين العابدين . وليس هذا وحده بل يرى الإسماعيلية أن موسى الكاظم كان إماما مستودعا ، حمل الإمامة من أخيه إسماعيل ، ثم أعطاها محمد بن إسماعيل .

وكذلك كان لنظرية الاستيداع الإمامي أثرها في تاريخ الإسماعيلية . ونعتقد أن ميمونا القداح وسلالته من بعده ، كانوا أئمة استيداع ؛ فكان سعيد بن الحسين إماما مستودعا ، حمل الوديعة من الإمام الحسين ، ليحفظها ثم ينقلها إلى ابنه القائم . وبهذا نستطيع أن نقول إن إمامة أبناء القداح ليست بعيدة الاحتمال أو التصديق ، ما دامت مبادئ الإسماعيلية تؤكد ذلك وتجيّزه .

وهناك بعض الأدلة التي تؤيد انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، منها :

أولا : وهو مما نسرله ، أن كثيرا من كتب الباطن الاسماعيلية أو كتب الحقائق ، كما يستدلونها ، قد ظهرت في مكتبات العالم ، فكشفت لنا هذا الغموض ، وأتارت الطريق للباحث غير المتحيز ؛ فقد كرت في وضوح أن المهدي لم يكن ابن الامام المستور الحسين بن أحمد ، كما لم يكن الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدي ، وإنما كان ابن الامام المستور الحسين بن أحمد ، وأن المهدي حمل الوديعة من الامام الحسين وردها عند وفاته إلى ابنه القائم ؛ فكان هذا الخليفة (القائم) أول خليفة فاطمي من سلالة علي الحقيقيين . ومعنى ذلك أن السنين الذين ينكرون نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة ، كانوا على حق حين ذهبوا إلى القول بأن عبيد الله من سلالة القداح ؛ ولكنهم لم يكونوا على حق في قوتهم : إن جميع الفاطميين من سلالة القداح . ولستنا مغالين فيما ذهبنا إليه ؛ فهذا كتاب غاية المواليد ، الذي يعد من كتب الحقائق عند الاسماعيلية يقول : « إنه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله في أرضه علي بن الحسين صلوات الله عليه ! يريد بلاد المغرب ، حتى كان في بعض الطريق ، فأظهر الغيبة (١) ، واستخلف حجه سعيد (٢) الملقب بالمهدي سلام الله عليه ! فثبت قواعد الدعوة وجرى عليهما من ضدهما (عدوهما) بسجلماسة من العمال بالمغرب ماجري ، ووقى الله وليه — سلام الله عليه ! كيد ، لما كان من زحف أبي عبد الله عليه وظفره ، واستخرجه ولى الله سلام الله عليه من سجنه . فلما حضرت المهدي النقلة سلم الوديعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الامامة في عقبه (٣) . »

وقد يعترض بعض فيرى أن المهدي قد يكون ابن الإمام الحسين ، وأن عبارة غاية المواليد لا تؤكد أنه من سلالة ميمون القداح ، بل هو حجة فقط ، والحجة قد يكون علويا وقد يكون قداحيا . على أننا نرى أن وظيفة الحجة للامام المستور قد أصبحت وظيفة تقليدية تقريبا في بيت القداح منذ عهد محمد بن إسماعيل وميمون القداح ، كما أن رسائل الدرزية الاسماعيلية تؤيد أن عبيد الله من سلالة القداح وتذكر أن اسمه سعيد .

(١) أي حضرته الوفاة بدليل خروج المهدي مع القائم فقط من مسلية .

(٢) في نسخة لأن سعيد الخير .

(٣) غاية المواليد (من المنتخب) ص ٣٧ .

وليس الخطاب بن الحسين ، صاحب غاية المواليد ، هو الذى ذهب هذا المذهب ، بل إن الداعى إدريس عماد الدين البغى ، المؤلف الاسماعيلى المشهور ، يؤكد هذه الحقيقة ، وهى أن القائم ليس ابنا حقيقيا للمهدى - كما رأينا - ويرى أن المهدي كان إماما مستودعا للقائم ، ولكنه يقول إن المهدي ، سعيد الخير ، كان أخا للإمام المستور الحسين بن أحمد . إلا أن سلسلة النسب عند الدرزية تؤكد أن سعيدا من نسل القداح . هذا بالإضافة إلى أنه أقر على نفسه حين انتقض حمدان قرمط عليه بأنه من ولد القداح ، وأنهم جميعا أئمة . وقد أدى هذا الإقرار إلى انفصال قرامطة السواد عن الدعوة الاسماعيلية . وإذن فسعيد الخير عند الداعى إدريس هو سعيد المهدي عند الداعى الخطاب ، وهو سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح عندنا . يقول الداعى إدريس (١) : « ثم إن الإمام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدي في كنفه ، فأظهر النقطة في سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير ، وتسمى بالإمامة بأمر الناص عليه ، ستر على ولي الله وإخفاء لمقامه عن أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعة ، ستر على ولي الله ولده القائم من بعده » . ويقول هذا الداعى في موضع آخر : « ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية — سلام الله على وليها — بالمهدية ، وظهر أهل الكهف من كهف التقية ، وآن الأجل ، وانقضى المهل ، سلم الإمام المهدي إلى ولده (٢) القائم رتبته ، وأدى إليه وديعته وأمانته ، وأظهر الغيبة ، وانتقل لجوار ربه والقدوم عليه » .

من هاتين العبارتين نرى أن المهدي لا يمت إلى الأئمة الإسماعيليين بصلة القرابة . وثمة شيء آخر ، هو أن الدرزية — وهم طائفة من طوائف الإسماعيلية — يرون أن المهدي من معدن غير معدن من سبقة من الأئمة المستورين ، ومن لحقه من الخلفاء الفاطميين ، أو بالأحرى من فرع غير الفرع الذى ينتمى إليه الخليفة القائم ، فيجعلون المهدي في رتبة الرسل ، والقائم وأباه في رتبة الآلهة . وقد ورد في كتابهم « النقط

(١) زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٦ ، ٧١

(٢) لو قصد بكلمة « ولده » ، ابنه الحقيقى لا التعاملى ، لتعارضت هذه الكلمة مع عبارة « أدى إليه وديعته » ، لأن أدام الوديمة لا يكون من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر .

والدوائر، (١) : ولما ظهر الناطق سعيد المهدي، وأعطاه الميعل (أى الإمام المستور) الوديعة الذى (كذا) هو القائم تعالى يريه، وهو فى ظاهر الأمر طفل، حاشاه من الآبوة والبنوة. فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة، وهى السلطة، والخلافة الباطنة، وهى دين التأويل، والإمامة المجازية التى تظاهر الرب بها، وهى بالحقيقة لقائم الحق - صلى الله عليه وسلم ! قيل إن المهدي مات .

وليس هذا كل شيء، بل إن رسالة تقسيم العلوم للدرزية تؤكد انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح، كما تؤكد أن ميمونا القداح وأبناءه من بعده كانوا أئمة استيداع حلوا من محمد بن إسماعيل - ناطقهم السابع - محل الإمام على بن أبى طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم . وتسمى المهدي سعيدا، وتنقى ارتباطه نسبيا وقرابة من الأئمة الفاطميين، مما يؤكد بطلان ما ذهب إليه النيسابورى فى كتابه «استتار الإمام» (٢)، والداعى إدريس فى كتابه «زهر المعاني» (٣) أن سعيدا الخير، أخو الإمام الحسين المستور. ومهما يكن من شيء فقد ورد فى رسالة تقسيم العلوم مانصه : «وقام محمد صلى الله عليه وسلم، وأساسه على بن أبى طالب ... وظهر ناطق غيره وهو محمد بن إسماعيل، وإلى خلفاء المستودعين. وهو إلى أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله ابن ميمون القداح، وهو من ولده سعيد بن أبى الشلعلع المهدي، . وورد فى موضع آخر : «أن عبيد الله هو ابن أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وأن مولانا الميعل أمره بالبقاء فى خدمة مولانا القائم» (٤). وهذا يؤكد نفى انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ثانياً - انتقاض حمدان قرمط على سعيد بن الحسين :
سنرى أن قرامطة السواد، وعلى رأسهم حمدان قرمط زعيمهم الأول، وصهره عبدان القرمطى المؤلف الإسماعيلي، ينتقضون على سعيد بن الحسين بن عبد الله

(١) (طبعة سييد) ص ٧٤

(٢) ص ١٥ (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦)

(٣) ص ٧٠

(٤) De Sacy : Exposé, vol. I. pp. 72—3.

القداح ؛ لأنه - في نظرهم - دعا إلى نفسه دون الأئمة المستورين ، وذلك أن عبد الله القداح وابنه أحمد كانا يعترفان في صراحة بأنهما حجتان للأئمة المستورين The Concealed Imams . وأما سعيد فقد غيّر هذا النظام ودعا إلى نفسه ، حتى إنه لما وردت كتبه إلى حمدان قرمط ، « أنكر ما فيها وتبين فيها ألفاظا قد تغيرت ليس هو على النظام الأول (١) » . والحق أن هذا التغير في سلوك سعيد بن الحسين ، راجع إلى ما كان من نزول الإمام الحسين عن الإمامة له عن طريق الإيداع - على ما رأينا - فلم يكن سعيد قد استبد بالامر دون الأئمة المستورين ، ولكن قرامطة السواد عز عليهم أن يتقمص الحجة رتبة الإمام . ولذلك سار حمدان واتصل بسعيد في سلبية ، « وسأله عن الحجة وعن الإمام بعده ، الذي يدعو إليه ، فقال : (سعيد) ومن الإمام ؟ قال حمدان : محمد بن اسماعيل بن جعفر ، صاحب الزمان الذي كان أبوك (يريد أحمد بن عبد الله القداح) يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن اسماعيل لأصل له ، ولم يكن الإمام غير أبي ، وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه (٢) » .

أليس في هذا الانتقاض الدليل على أن سعيد بن الحسين من سلالة القداح ؟ الواقع أن هذه العبارة تبين في وضوح فكرة الامام والحجة ، وكيف أن الحجج لم يكونوا حتى ذلك الوقت من سلالة محمد بن اسماعيل ، بل إنها تبين شيئا آخر هو أن الامام المستور لم يكن معروفا للقرامطة ، على حين أن الذي كان يتراسل معهم ويتصل بهم ، هو الحجة الذي كان يقر في مكاتباته معهم بأنه نائب عن الامام لا إمام . ونستطيع أن نحدد زمن ذلك الانقلاب الذي حدث بين القرامطة ورؤساء الدعوة في سلبية فنقول ، إنه كان قبيل هرب المهدي من سلبية ، حيث لم يستطع البقاء في مخبئه ودار هجرته ، لأنه انضم إلى العباسيين في عدائهم له عدو اسماعيلي . خطير هو القرامطة ، الذين أصبحوا فيما بعد خطرا على شخصه وعلى مذهبه ودعوته . أضف إلى ذلك أن انتقاض حمدان قرمط قد أحدث هزة عنيفة بين القرامطة ،

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٠

(٢) نفس المصدر والجزء والورقة

وظهر بسبب ذلك فرع قرمطي آخر ، هم قرامطة الشمال أتباع زكرويه بن مهرويه الذى قتل حمدان قرمط ، ذلك الفرع الذى ساعد على زوال دولة الطولونيين ، كما ساعد فى الوقت نفسه على خروج سعيد بن الحسين من سلبية . فقد أدرك سعيد استحالة بقائه فى سورية مع قرامطة السواد الحانقين عليه ، ومع قرامطة الشمال الذين عز عليهم أن يخرجهم سعيد من رئاسة الدعوة بالكوفة ، تخاف انتقاضهم عليه . ولذلك آثر العافية فى الحرب ، والفرار إلى اليمن أو المغرب ، كما سيأتى . ومعنى ذلك أن انتقاض حمدان قرمط — الإسماعيل المتطرف — على رئاسة الدعوة التى تنتمى إلى بيت القداح قد أدى فى النهاية إلى فرار المهدي من الشام إلى أقصى شمال المغرب حيث ألقى عصا تسياره فى سلجاسة .

ثالثا : تصرّح الحسن الأعصم (١) القرمطي بأن الفاطميين من أبناء ميمون القداح ، مع أن القرامطة كالدرزية فرقة هامة من فرق الإسماعيلية . ولم يتعرض المعز لدين الله فى رده المشهور على الحسن الأعصم لهذه الطعنة . حقيقة إن العباسيين والبويعيين هم الذين أثاروا الحسن الأعصم على سادته الفاطميين ، حتى جعلوه يخطب على منابر الشام للعباسيين ويذم الفاطميين ، وصحّح أيضا أن الحسن الأعصم حنق على المعز لتدخله فى شئون بلاده الداخلية ، وحجزه عنه الضريبة السنوية التى كان الإخشيدون فى الشام يدفعونها إليه . ولكن هذا كله لا ينهض دليلا على أن الحسن الأعصم رماهم بالباطل ، لأن المعز ، وهو على ما كان عليه من البلاغة والعلم ، كان يستطيع أن يدحض ما قاله الحسن الأعصم . وهكذا كان الحسن يقول من فوق منابر دمشق : « هؤلاء (أى الفاطميون) من ولد القداح ، كذابون بمخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدهم القداح » (٢) .

وليس فيما ذهب إليه الحسن الأعصم لبس أو غموض ، إلا أننا نرى خطأه

(١) هو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي ، تولى زعامة القرامطة سنة ٣٥٩ هـ بعد أن فتك أبوه بأبناء أبي طاهر الجنابي من ذرية الفاطميين وحليفهم . ثار على المعز لدين الله وعلى ابنه العزيز ، وكاد يفتح مصر نفسها . ولم يخذل ثورته إلا بعد انتصار العزيز عليه فى سنة ٣٦٦ هـ وموته هو فى سنة ٣٦٧ هـ ، حيث عاد القرامطة إلى حظيرة الفاطميين من جديد .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤

من ناحيتين : الأولى ، أن الفاطميين جميعا ليسوا من أبناء القداح ، وأن المهدي وحده هو الذي ينتمى إليهم حقا ، والثانية : أنه يجعل القرامطة أصلا والفاطميين فرعاً لهم حين يقول : « ومن عندنا خرج جدهم القداح » . فلم يكن القداح — ميمونا كان أو عبد الله — قرمطياً ، بل كان أحد مؤسسي المذهب الإسماعيلي ، وعن أبنائه أخذ القرامطة . وكان الأولى به أن يعكس الآية فيقول : وعليه تخرج أجدادنا القرامطة . وعلى الرغم من ذلك كله إن إنكار الحسن الأعصم نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة ، وإلحاقهم بالقداح فيه شيء من الصحة ، لأنه يتفق والحقائق التاريخية التي أوردناها من قبل عن عبيد الله المهدي .

هذا أهم ما يمكن أن يقال في تأييد فكرة قداحية المهدي . ولكن هل اتفق الإسماعيلية جميعاً على تلك الحقيقة ، وهي أن مهديهم لا يمت إلى علي وفاطمة بصلة القرابة ؟ الواقع أن كتب الظاهر جميعها تكاد تخلو من هذا ، بل تؤكد أن المهدي من سلالة الرسول ، وأنه علوي لحماً ودماً . ونرى في كتاب « افتتاح الدعوة الزاهرة » لآبي حنيفة النعمان المغربي ، وفي غيره من الكتب الظاهرية ما يؤكد ذلك . ولعل السر في هذا يرجع إلى اعتقاد الإسماعيلية — الذين برعوا في استخدام التقية — أن هذه الكتب سيطلع عليها العامة والخاصة منهم ، ومن غيرهم . لذلك آثروا إبقاء جوهر مذهبهم ومبادئهم في طي الكتب ، ولم يشاموا أن يتكلموا عن الاستقرار والاستيداع الإمامي ، أو يوضحوا لنا كيف تم انتقال الأمر من الأئمة المستورين إلى حججهم . أضف إلى ذلك أن كثيراً من المراجع الإسماعيلية الظاهرية (١) تختلف فيما بينها في ذكر أسماء الأئمة ، وخصوصاً سلف عبيد الله ، فيسميه بعض محمد الحبيب ، ويسميه بعض آخر الحسين أو علياً إلى غير ذلك ، مما يدلنا على أن مؤلفي كتب الظاهر إنما كانوا يؤلفون حسب مقتضياتهم السياسية ، فإن الدعوة في مراتبها الأولى كانت تنحصر منحنى الظاهر ، ويختلف الدعاة أنفسهم في

(١) تنقسم مراجع الإسماعيلية قسمين : ظاهرة exoteric وهي المراجع التي في متناول الجميع سواء أكانوا من كبار الإسماعيلية أم من عامتهم . بل قد يباح للسفهاء أحياناً أن يطلعوا عليها . والمراجع الباطنية ، أو السرية esoteric وتسمى أحياناً كتب الحقيقة ، وهي تتناول أسرار المذهب الإسماعيلي ، ولذلك لا يباح الإطلاع عليها إلا لخاصة أتباع المذهب الإسماعيلي .

ذكر أسماء أئمتهم ، ويخاطب السني بما لا يخاطب به الشيعي ، واليهودي بما لا يخاطب به المسيحي ، والمجوسي بما لا يخاطب به المسلم ، وهكذا .

ولذلك فإن كتب الظاهر كانت تخاطب الناس في حدود هذه النظم الظاهرية . أما كتب الباطن فكانت على تقيض ذلك ؛ إذ يعتقد الإسماعيلية أنها من كتب الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خاصتهم . ولذلك أخفوها ، وعدوا إباحتها الإطلاع عليها — لغير خاصتهم — جريمة وكفرا (١) . ولولا تسرب بعض هذه المراجع وتداولها بين الناس ، لما استطعنا أن نعرف شيئا عن حقائق المذهب الإسماعيلي وأسراره .

ورب معترض يقول : لقد ثار أبو عبد الله الداعي وأخوه أبو العباس وكبار كتامة وقتلوا على المهدي . ألم يكن من المعقول حينئذ أن يرموه بأنه خارجي لا يمت إلى العلويين بصلة ؟ على أننا لم نرهم يعترضون عليه في شيء من جهة النسب ، وإنما كرهوا منه استبداده بالامر ، فهووا على الناس أنه ليس المهدي . الواقع أن أبا عبد الله لو كان يعلم هو وأنصاره أن القائم بأمر الله هو الإمام الحقيقي لنادوا به إماما في ثورتهم على المهدي ، لكننا نعلم أن فرقة الإسماعيلية جماعة سرية ، وأن نقل الإمامة من شخص إلى آخر ، أو استبداعها ، في إمام لتقلها إلى إمام ، إنما هو أمر محوط بالأسرار والكتمان لا يطلع عليه إلا خواصهم . فليس من الضروري إذن أن يعلم أبو عبد الله هذا السر ، خصوصا أنه كان داعيا لم يصل إلى مراتب الدعوة العليا ، التي قيل إنها كانت سبعة في زمن عبد الله بن ميمون القداح ثم بلغت تسعا . ويبين لنا سرية هذا الأمر ما ورد على لسان أحد دعائهم حين يقول : « فلم يطلع أحد عليه ولا وقف على سر الله فيه إلا الخلفاء الأبرار ، المصطفون الأخيار . العارفون لسر الله في أوليائه ، المطلعون على معرفة ما أظهر لهم من أصفياه » (٢) .

ورب معترض يقول أيضا : إن أبناء القداح اشتهروا بالطموح ، وقد امتلأت

(١) حدثنا الأستاذ ما سنيون عن الدكتور حسين الحمداني النهروني فقال : إن هذا الدكتور أخبره أن أباء أهانه إهانة بالغة ، وطرده ، فعاث عيشة فقر مدقع ، لأنه نشر بعض كتبهم ، وكتب مقالات لم يسلك فيها مصلك البهرة في النقية . ولم تستقر حياة هذا العالم الإسماعيلي إلا بعد وفاة أبيه .

(٢) الداعي عماد الدين : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٦ .

بطون الكتب بذلك ، فلا يعقل أن يتركوا الخلافة بعد أن ظفروا بها ، أو بالأحرى ، كان من المحال عليهم أن يهدوا الأمر لغيرهم . ومن دراستنا لأفراد هذا البيت نستطيع أن نقول إنهم ظلوا جميعاً على إخلاصهم لبیت إسماعيل ، ولو شعر الأئمة المستورون بميلهم إلى الزعامة والجاه ، أو إلى الاستبداد بالأمور دونهم ، لما أبقوا عليهم يوماً واحداً . وما أحسن ما قاله الداعي إدريس الإسماعيلي (١) : « وأشار المهدي بالله إلى محمد القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، ونشر لأهل دعوته فضله المبين ، وأدى إليه أمانته ، وسلم إليه رتبته ، وأعطاه وديعته التي استودعها الله إياه ، لم يجعل لسائر أولاده فيها نصيباً ، بل أقر الحق في مقره ، وجعله في مستقره » .

وأما كيفية انتقال الإمامة إلى سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، فيمكن أن نقول : أنه لما بدا للأئمة المستورين في سلبية خطر الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩هـ — ٢٨٩هـ) عليهم ، حيث أخذ يوالي البحث عنهم ، تحتم على الإمام الحسين أن يحفظ الإمامة من الضياع ، فعهد بها إلى حبيته سعيد . والواقع أن هذا نوع من الحيلة لحفظ الإمامة والدعوة ، وليست هذه سنة جديدة جرى عليها الإسماعيلية ، فقد لجأ جعفر الصادق إلى المحافظة على محمد بن إسماعيل ، كما لجأ إليها الأئمة المستورون في الدور القداحي ، أو دور الستر .

ويختلف العلماء من الإسماعيلية في الإمام الذي نزل للمهدي عن الإمامة : فيرى أكثرهم أنه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل (٢) ، ويرى غيرهم أنه علي ابن الحسين (٣) . إلا أننا نستطيع أن نقول إن مجرى الحوادث — على ما أوضحنا في كلامنا على الأئمة — يجعلنا نعتقد أن الإمام هو الحسين لا ابنه علي ، خصوصاً أن هذا الزمن القصير لا يتسع لأن يلي الإمامة فيه إمامان هما الإمام الحسين ثم ابنه الإمام علي ، الذي ولد له الإمام أبو القاسم وهو القائم بأمر الله فيما بعد . ونحن نعلم أنه كان قد تزوج قبل خروجه (٤) من سلبية سنة ٢٨٨هـ ، وهذا لا يمكن أن يتحقق في هذه الفترة القصيرة .

(١) زهر المعاني ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٥

(٣) الخطاب : غاية المواليد ص ٣٦

(٤) الباني : سيرة جعفر الخائب (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ١٠٨

على أن هناك خلافا آخر أشد من هذا ، ذلك أن مؤلفات الاسماعيلية خاصة كلها أو معظمها يذكر سعيد الخير على أنه المهدي . وقد رأينا كتب الدرزية ، وهي من الكتب السرية عند الاسماعيلية ، تسمى المهدي سعيد الخير كذلك . إلا أن هناك بعض العلماء من الاسماعيلية الآخرين يفرقون بين سعيد الخير وبين المهدي نفسه فيقولون : إن سعيدا آخر المهدي ، وإن الإمام الحسين استودعه الإمامة ، فحاول انتزاعها من أخيه ، لولا وفاة أبنائه جميعهم ، وإدراكه آخر الأمر أن الإمامة ليست من حقه ، فرد الوديعة إلى مستقرها . يقول النيسابوري (١) ، وكان معاصرا للمعز والعزیز : « ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو والد المهدي وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدي ع م . فلما أتته نقلته استودع له أخاه سعيد الخير ، إذ كان ولده يومئذ في حال الطفولة . واستبد سعيد بالإمامة ونص بها على ولده ، فهلك الولد ، ثم نص على ولده الثاني فهلك . وكان له عشرة أولاد ، فلم يزل ينص على كل واحد منهم إلى أن هلكوا بأجمعهم ، فعلم حينئذ سعيد الخير أن الحق لا يفارق أهله ، فتاب وأناب إلى الله ، تبارك وتعالى ! وجمع دعائه وأعلمهم أنه مستودع للمهدي — صلوات الله وسلامه عليه ! وسلم إليه الإمامة ، واعترف له بالوديعة . وتنصل إليه مما تقدم منه قبل ذلك ، وصارت الإمامة إلى المهدي ع م . فقال الشاعر :

الله أعطاك التي لا فوَّقَها وكم أرادوا منعها وعوَّقَها

عنك ويأبى الله إلا سَوَّقَها إليك حتى طوَّقوك طوَّقَها ،

فكيف يمكننا إذن أن نوفق بين هذا ، وبين ما نعرفه من أن عبيد الله المهدي هو نفسه سعيد . وقد يسأل البعض : هل سعيد الخير هذا هو الذي ثار عليه حمدان قرمط ؟ وقد ذكرنا من قبل أن الذي قابله عبيدان — داعي حمدان وصهره — ادعى الانتساب إلى ميمون القداح ، ولم يذكر انتسابه إلى الحسين بن أحمد العلوي . وإذن نفترض افتراضا آخر ، وإن لم يقل به أحد من قبل ، وهو أنه لا يبعد أن يكون سعيد الخير هذا ، وهو الذي ذهبنا إلى أنه المهدي ، قد حاول الاستبداد بالأمر دون القائم ، إلا أنه عدل عن ذلك فيما بعد ، بسبب موت أبنائه جميعا ، وإدراكه آخر الأمر أنه اقتأت على حق القائم بأمر الله ، صاحب الحق الشرعي ، وخصوصا أننا

(١) استنار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٥ — ٩٦ .

رأيناه في سجاله ليس معه سوى القائم . وإن صح هذا الاقتراض استطعنا أن نذهب إلى القول بأن سعيد الخير — المهدي — قد حاول ذلك وهو بسلبية ، أي قبل سنة ٢٨٨ هـ ، حين فر منها مع القائم ولم يكن معها الا حفنة من الدعاة . وإذا كان الاسماعيلية المواليون له يقولون : « ان له أبناء كثيرين ، لم يجعل لواحد منهم في الامامة نصيباً ^(١) » ، حتى إننا لم نسمع عن واحد منهم بعد ذلك ، فإن هذا يقوى الشك عندنا في أن سعيد الخير هو المهدي لا أخوه .

وهكذا أصبح سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح إماماً : وكان تربعه على عرش الإمامة في وقت ازدهرت فيه الدعوة أيما ازدهار ، حتى كثرت التنبؤ بظهور المنتقد من أهل البيت . ولم يكن هذا المنتقد سوى سعيد هذا . على أن مهمته كانت شاقة عنيفة ، إذ كان عليه أن يفر من اضطهاد الأعداء وتجسسهم عليه ، كما كان عليه أن يربط بين بحار الدعوة — أي أقاليمها الرئيسية — برباط متين ، وأن يوجه الدعوة الاسماعيلية توجيهاً عملياً ، حتى يستطيع إقامة الدولة الاسماعيلية الفاطمية المنشودة . وقد استطاع سعيد أن يضطلع بهذا كله ، على ما سنفصله بعد .

(١) الداعي عماد : زهر المغان (من المنتخب) ص ٧٠

الباب الثاني

عبيد الله

منذ تولى زعامة الدعوة الاسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية

١ — موقف عبيد الله من أنصار الدعوة الاسماعيلية

أصبح سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح حجة الامام المستور ، وهو الحسين ابن أحمد . وعلى الرغم من أنه كان الرئيس الفعلي للدعوة الاسماعيلية ، كان وجود الامام بجانب الحجة يحد من نفوذ هذا الأخير كرئيس ديني سياسي لجماعة ثائرة تسعى لقلب النظام القائم من جميع نواحيه . غير أنه بنزول الحسين عن الامامة لسعيد وإيداعه إياها ليسلمها لابنه القائم بعد وفاته ، اجتمعت الرياستان الروحية والزمنية في يد هذا الزعيم الشاب ، أو بعبارة أخرى تركزت في شخصه وظيفتان كبيرتان من أسمى وظائف الدعوة الاسماعيلية وهما : رتبة الامام والحجة . فأصبح سعيد بذلك المهيمن على شئون الدعوة قاطبة . ومن ثم عمل على أن يربط أنصار الدعوة بشخصه وخصوصا القرامطة . أنصار حمدان قرمط ، والحوشب أنصار ابن حوشب في اليمن ، والمغاربة أنصار أبي عبد الله الداعي ، « فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه » ، ولكنه استطاع أن يحارب بمن أطاعه من عصاه .

(١) موقف عبيد الله من القرامطة

١ — من القرامطة في سواد الكوفة

تكونت جماعة القرامطة كفرقة من فرق الإسماعيلية ، قبل أن يتربع سعيد على عرش الحجابة ثم الإمامة بأكثر من ربع قرن . وكان الداعي الحسين الأهوازي -

على ما رأينا — أول داع إسماعيلي فيهم . وقد استطاع في عهد عبد الله بن ميمون القداح أن يبعث الدعوة في سواد الكوفة ، ويستميل إليه حمدان قرمط الذي تنسب إليه هذه الفرقة ومعه جماعة كبيرة . وبما ساعده على ذلك أن حمدان كان على رأس جماعة يؤمنون بنظرية المهدي ، حتى اعتقد بعض أنهم بقايا الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية وأبنائه من بعده . وكانت سلبية تغذي القرامطة بالمبادئ والدعاة من حين إلى حين ، كما استطاع هؤلاء القرامطة أن ينشئوا لهم في سواد الكوفة دار هجرة (سنة ٢٧٧ هـ) كانت مثالا احتذاء للإسماعيلية الآخرين ، وخاصة في بلاد المغرب واليمن ثم البحرين ، كما استطاعوا بعد قليل أيضا أن يزعموا العباسيين . ولو انضم هؤلاء إلى صاحب الزنج في ثورته (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) لقضوا على الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري .

ولما أصبح سعيد بن الحسين ، الحجة ، واستقل بالإمامة ، كانت الدعوة الإسماعيلية بين القرامطة منتشرة فقط في سواد الكوفة وفي جزء من جنوب فارس الغربي . وكان من أثر تولية سعيد الإمامة أن تغير تنظيم الدعوة بين القرامطة ، فثار حمدان قرمط عليه . وكان لثورته نتائج بعيدة المدى ؛ منها إلقاء بذور الدعوة الإسماعيلية في بلاد البحرين على الخليج الفارسي غربا ، على يد أبي سعيد الجنابي رئيس الجنابية ، وتكوين جماعة قرمطية أخرى عملت على أن تتربع على عرش الدعوة القرمطية لتحل محل قرامطة السواد ، وهؤلاء هم قرامطة زكرويه بن مهرويه أو قرامطة الشمال .

وتعتبر ثورة حمدان قرمط أول امتحان لمقدرة سعيد كزعيم ديني ؛ فقد عز على حمدان زعيم القرامطة ، أن يرى على عرش الإمامة داعيا لا يمت إلى العلويين بنسب . كما عز عليه أن يفاجأ بهذا الانقلاب دون سابق معرفة بذلك . ويدعى المؤرخون السنيون أن بني القداح ادعوا الانتساب إلى عقيل بن أبي طالب ، وأنهم ظلوا على ذلك الادعاء ، حتى تولى سعيد رئاسة الدعوة ، فخرج على تقاليد أسرته ، وادعى الانتساب إلى علي بن أبي طالب عن طريق محمد بن إسماعيل (١) . والحق أن ادعاء أسرة القداح بالنسب إلى عقيل بن أبي طالب كان - إذا صح - نوعا من التقية ،

شأنهم في ذلك شأن أئمتهم المستورين ، الذين ادعوا في سلبية أنهم من بني هاشم العباسيين ، واستطاعوا بفضل ذلك أن يمدوا للدعوة حتى أحرزوا كثيرا من النجاح .

وأما ادعاء سعيد النسب الى محمد بن اسماعيل ، فلم يكن بسبب طموحه ، كما ذهب اليه الشريف أخو محسن^(١) ، بل كان تلبية لنداء واجبه الديني ، كما كان تلبية لنداء إمامه المستور ، وحفظا لكيان جماعته . ويظهر أن حمدان قرمط لم يستطع أن يستسيغ هذا الانقلاب ، كما لم يستطع أن يفهم نظرية الاستقرار والاستيداع ، أو على الأقل لم يقم سعيد القداح بإيضاح هذه النظرية للقرامطة . ولا عجب في ذلك ، فإن رئيسهم حمدان قرمط كان بقارا لا يستطيع فهم هذه النظريات . على أننا نرى أن سفيره الى سعيد كان عبد الله الداعي العالم النشط . وهل يرجع ذلك الى أن سعيدا كان يريد إبعاد حمدان وعبدان عن زعامة الدعوة بالعراق ، وأن يعين بدلها شخصا يثق به ؟ أو بعبارة أخرى ، هل كان سعيد يريد أن يولى على عرش الدعوة بالعراق شخصا يؤمن بالحركة الانقلابية الجديدة التي أحدثها الإمام الحسين بتولية سعيد بن الحسين الإمامة ؟ الواقع أن سعيدا قد ولى على العراق داعيا جديدا - كما سنرى - ومنحه السلطة المطلقة هنالك^(٢) . إلا أن هذا التغيير قد يكون نتيجة لانتقاض حمدان لا سببا له . فهل يرجع ذلك الانتقاض إلى أن حمدان قرمط من الكيسانية ، وأنه قد أصبح يحن إلى مبادئهم ، فانتهاز فرصة انتقال الإمامة من بيت على إلى بيت القداح ، فانتقض على الدعوة الإسماعيلية ؟ ولكن هذا الافتراض ، رغم وجاهته ، يقف في وجهه بقاء القرامطة في السواد على إخلاصهم لمحمد بن إسماعيل حتى عهد أبي طاهر الجنابي (٣٠٥ - ٣٣٢ هـ) . ومهما يكن من شيء فقد دل انتقاض حمدان قرمط على سعيد الخير على أن هناك شيئا من عدم الاستقرار في الدعوة الإسماعيلية ، كما دل في الوقت نفسه على أنه كان هناك بعض زعماء من القرامطة يخشى بأسهم .

اختفى حمدان من ميدان الدعوة الإسماعيلية ، ولا نعلم عنه بعد ذلك شيئا ، فهل قتل ؟ وإذا كان كذلك فمن الذي قتله ؟ وإن اختفاه بعد ذلك الانتقاض وفي ذلك

(١) من العلويين العلماء الذين نبغوا في القرن الرابع الهجري

(٢) الديسابورى : امتتار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٦ .

الوقت بالذات يدل على أن سعيداً ، أو على الأقل أنصاره ، قد تخلصوا منه (١) ، أو هل عاد حمدان قرمط إلى حظيرة الإسلام على المذاهب السنية ؟ لو أنه فعل ذلك لما سكنت المؤرخون السنيون . وبين لنا هذا الحديث الذي دار بين عبيد بن علي بن عبد الله القداح (أو ابنه) عقيدة القرامطة بعد انتفاضهم ، إذ عرفناه «عبيد بن أنهم قد قطعوا الدعوة ، وأنهم لا يعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم وادعى نسبه من عقيل بن أبي طالب كذبا ، ودعا إلى المهدي ، فكنا نعمل ذلك . فلما تبيننا أنه لا أصل لذلك ، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر تبنا إلى الله عما تحملنا ، وحسبنا ما كفرنا أبوك ، فتريد أن تردنا كفارا ؟ انصرف عنا إلى موضعك (٢) .

على أن ارتداد القرامطة عن المذهب لم يكن عاما ، لأن زعماءهم لم يستطيعوا اقتلاع مبادئ هذا المذهب من البلاد البعيدة ، ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم ، لأنها كانت قد امتدت في سائر الأقطار وامتد شرها (٣) . ولكن ألم يكن سعيد يتوقع حركة كهذه يقوم بها القرامطة ؟ وإذا كان كذلك فما الجهود التي بذلها في هذه السبيل ؟ يبدو أن سعيداً كان يتوقع ثورة القرامطة عليه ، ولذا أوجد في معسكر حمدان وعبيد بن جماعة من دعاة الهزيمة ممن يوافقونه ويخالفونهم . يتضح ذلك من مخالفة الداعي ابن مليح لرئيسه حمدان حين حاول إرساله إلى سلطنة ليتعرف أمر سعيد . ولو كان ابن مليح على رأي أستاذه حمدان لأجاب طلبه .

ولم يكن هذا كل ما كان يعول عليه سعيد ، فقد عين في رئاسة دعوته داعيا جديداً يثق به . حقا لم تذكر المراجع الاسماعيلية كلمة واحدة عن حمدان قرمط ، وكانهم بذلك يتجاهلون الدور الخطير الذي قام به في نشر الدعوة الاسماعيلية بين القرامطة ، ولكنهم يذكرون أن أول عمل قام به المهدي حين أصبح إماماً أنه ولي داعيا جديداً ،

(١) كان ذلك في سنة ٢٨٦ هـ أو قبلها بقليل ؛ لأن ذكره اختفى منذ هذه السنة تحت ضغط أتباع حمدان وعبيد بن .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٠ . مما يدلنا على أن السنيين كانوا يعتقدون تكفير

بنيت القداح ويردوهم بأنهم ثرية ، على عكس ما يعتقد الاسماعيلية .

(٣) نفس المصدر والجزء والورقة

ولا بد أن يكون هذا التعيين الجديد قد تم بعد انتفاض حمدان قرمط عليه ، ليستطيع مواجهة موقفه الجديد . ولذلك نرى هذا الداعي يتدخل في شئون الدعوة بالعراق ، فيعزل من يشاء ويولي من يشاء ، مما يدل على أن رد المهدي على حمدان وأنصاره كان سريعا وحازما . يقول النيسابوري^(١) : « فأول ما عمل المهدي ع م بعث في طلب أبي الحسين بن الأسود الى مدينة حماة ، وكان رجلا عاقلا فقال : يا أبا الحسين ! قد قدمتك على جميع الدعاة ، فمن قدمت فهو المقدم ، ومن أخرت فهو المؤخر وكان الدعاة يأتون الى أبي الحسين ويؤدون إليه زكاتهم وهداياهم ، فيوجه بها أبو الحسين إلى المهدي وكان أول ما قام به أبو الحسين أن عزل أبناء زكرويه عن سواد الكوفة . مما يدل على أن تعيينه قد تم بعد حادث انتفاض حمدان .

ولم يكن ما فعله المهدي كافيا لاقرار أمور الدعوة في بلاد العراق ، لا سيما إذا علمنا أنه كان هناك في الطالقان زعيم قداحي آخر ، هاله انتفاض حمدان على الدعوة أو على قريبه سعيد ، فقدم العراق وحاول اجتذاب حمدان وعبدان وإعادتهما إلى حظيرة هذه الدعوة . غير أن رد عبدان عليه كان ينطوي على الغلظة والشدّة ، مما جعل ذلك القداحي يتآمر مع زكرويه على قتل عبدان ، ويقلده رئاسة الدعوة بسواد الكوفة متخطيا زعامة قريبه سعيد . فكان قداح الطالقان جعل بذلك من نفسه الرئيس الأعلى للدعوة ، كما جعل من زكرويه نائبا عنه في العراق^(٢) . ومعنى ذلك أن سعيدا واجه خطرا مزدوجا من قرامطة حمدان وعبدان ، ثم من قرامطة عمه علي بن عبد الله بن ميمون القداح وزكرويه بن مهرويه . ولا ندرى أكان قداح الطالقان قد اعتزم الثورة على ابن أخيه سعيد ، أم أنه رأى أن يقوم بهذا العمل السريع إنقاذا للموقف الخطير الذي أصبح فيه زعماء سلبية . إلا أننا نستطيع أن ندرك من إقصاء بيت زكرويه عن رئاسة الدعوة بالكوفة ، ثم من تشكك المهدي في إخلاص أبناء زكرويه ، بأن ما حدث على يد علي بن عبد الله بن ميمون القداح كان على غير هوى المهدي .

(١) استتار الامام (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٢٦) ص ٩٦

(٢) شرح زكرويه لأنصاره موقف هذا القداحي منه ، . . . فنرفهم أنه ابن الحجة ، وأن الحجة توفي وأن ابنه هذا يقوم مقامه ، فأجلوه وعظموه النويري : ج ٢٣ ص ٧٠

ولهذا نرى أن ثورة حمدان قرمط كانت بعيدة الأثر ، فقد فككت وحدة القرامطة ، وأدت إلى تكوين فرع قرمطي جديد بزعامة زكرويه ، وعلى بن عبد الله ابن ميمون قداح الطالقان . على أن موقف ذلك الفرع من عبيد الله المهدي الإمام ، لم يتضح تمام الوضوح ، على الرغم من وجود جماعة أخرى من أنصار حمدان قرمط ظلت على ولائها لمحمد بن إسماعيل والدعوة الإسماعيلية . وقد بقي هؤلاء مستقلين عن قرامطة زكرويه في الشمال وقرامطة أبي سعيد الجبائي في البحرين . وقد أدى هذا الفريق واجبه كفرع من فروع الإسماعيلية ، فثاروا على العباسيين بسواد الكوفة في سنة ٢٨٧ هـ ، كما ثاروا في سنة ٢٨٩ هـ بزعامة أبي الفوارس أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، وكانوا في هاتين الثورتين عنيفين كل العنف ، كما كانوا مستقلين عن القرامطة الآخرين .

ويدلنا رد الداعي أبي الفوارس على الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) على إغراق هذه الجماعة في حب العلويين ، كما يدلنا في الوقت نفسه على الجرأة والإقدام اللذين امتاز بهما قرامطة السواد . فانظر إلى هذا الحديث الذي دار بين أبي الفوارس والخليفة المعتضد العباسي : قال المعتضد : « هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم ، وتعصمكم من الزال ، وتوفقكم لصالح العمل ؟ فقال له : يا هذا ! إن حلت روح إلميس فما ينفعك ؟ فلا تسل عما لا ينفعك ، وسل عما ينفعك . فقال (المعتضد) : فما يخصني ؟ قال : أقول : إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي ، فهل طلب الخلافة ؟ أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر ، وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ، ولا أدخله فيهم ، فماذا تستحقون اسم الخلافة ، وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها (١) ؟ . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل إننا نشاهد في سنة ٢٩٥ هـ ، أي قبل قيام الدولة الفاطمية بسنة واحدة ، ثورة خطيرة تقوم في سواد الكوفة على يد خليفة أبي الفوارس — ويدعى أبا حاتم البوراني — رئيس البورانية الإسماعيلية . وهذا يدلنا على أنه كانت هناك جماعة من قرامطة السواد ، ظلت على ولائها لمحمد بن إسماعيل ، وأنها كانت من أخلص الناس لحمدان قرمط . فهل نفهم من هذا

(١) المنصوري : رتبة الفكرة ج ٥ ص ١٢٨

أنهم لم يعودوا إلى حظيرة سعيد الخير الإمام ؟ الواقع أنهم أفادوا سعيدا فائدة جمّة حين شغلوا جيوش العباسيين عنه من سنة ٢٨٧ إلى سنة ٢٨٩ هـ ، حتى استطاع الإفلات من سلبية آمنّا . كما شغلوهم هم وغيرهم من القرامطة في سنة ٢٩٥ هـ . وبذلك لم يستطع العباسيون إنقاذ الأغلبية الذين تعرضوا لهجمات الإسماعيلية العنيفة بقيادة أبي عبد الله الداعي من قرامطة الشمال .

والآن ننتقل إلى الكلام على موقف قرامطة زكرويه بن مهرويه من سعيد الخير . كان أبو محمد زكرويه بن مهرويه من كبار دعاة حمدان قرمط ، وكان يخضع مباشرة لصهره عبدان الرئيس الثاني للدعوة الإسماعيلية بين قرامطة السواد . فلم يكن زكرويه أول داع إسماعيلي بين القرامطة — كما زعم المقرئ (١) . ويبدو أن زكرويه كان من تلامذة مدرسة القرامطة الأولى ، حتى عده النيسابوري (٢) الإسماعيلي من دعاة عبد الله الأكبر ، أي من دعاة عبد الله القداح الحجة ؛ ولذلك فإن حمدان لما انتقض على سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وجد على بن عبد الله ، الذي كان بالطالقان ، فيه الرجل الذي يعول عليه ، فأحله محل حمدان قرمط في رئاسة الدعوة بالسواد ، على ما تقدم .

وهنا نقف قليلا لنترى سعيدا الخير حائرا في سلبية أمام حالة التقاتل التي أوجدها انتقاض حمدان عليه . لذلك لم يقر عمه عليا ، قداح الطالقان ، على ما فعل ، كما لم يرض عن تعيين زكرويه أو أبناءه على الكوفة ، بدليل ما قام به داعي دعائه أبو الحسين من عزل أبناء زكرويه عن الكوفة . ولكن كيف نفسر قول النيسابوري (٣) : « لما مات أبو محمد - زكرويه - داعي الكوفة ، وكان قد خلف ثلاثة أولاد ، وهم أبو القاسم (صاحب الناقة) وأبو مهزول (صاحب الشامة) وأبو العباس ، وكان معهم زوج أختهم فقتلوه ، وقالوا له : أنت مبغض لنا ومخالف على مولانا . وصاحت أختهم وقالت : قتلتم زوجي ! فقالوا : نعم ! لأنه منافق . تخلع أبو الحسين (داعي الدعاء) أبا القاسم بن أبي محمد عن دعوة الكوفة ، فغضب أبو القاسم وإخوته

(١) اتعاظ الخنفا ص ١٠٧

(٢) استنار الامام ص ٩٣

(٣) المصدر نفسه ص ٩٦

غضباً شديداً ، وكتبوا إلى المهدي صلوات الله عليه يقولون : لم نزع أبو الحسين منا دعوة الكوفة بلا ذنب ولا خيانة ؟ فلم يرد عليهم المهدي جواباً . واجتمع الإخوة الثلاثة ، وتحالفوا وتعاهدوا على أنهم ينحدرون إلى سلبية فيقتلون ابن البصري ، هذا الذي كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا تتركه ، وقالوا : حتى ينقطع ذكر علي بن أبي طالب من الدنيا ، ونقتل بعده أبا الحسين ، وإلا وشينا بذلك إلى أعمال الشام ، ؟

من ذلك نرى أن أبناء زكرويه قاموا بعمل يستحقون عليه ثناء المهدي ، ولكنهم قوبلوا بعكس ما كانوا يؤملون : قتلوا زوج أختهم لأنه مخالف للمهدي ، ولا نعرف أنه كان هناك بين القرامطة مخالف غير حمدان وعبدان . ولما كانت المراجع السنية الكثيرة التي بين أيدينا تؤكد أن قتل عبدان كان على يد زكرويه وأنصاره ، فلا يبعد أن يكون عبدان زوجاً لابنة زكرويه . ثم لماذا لم يقابل المهدي هذا العمل بالتقدير وإنما قابله بعزل فاعليه ؟ يبدو أن المهدي أقدم على ذلك ، لأن زكرويه وأبناءه لم يفعلوه بأمره بل بأمر سواه ، فاعتبرهم منتقضين عليه كحمدان وعبدان سواء بسواء . ثم ما المقصود بعبارة ابن البصري ؟ يظهر من سياق هذه العبارة أنه المهدي . وبهذا يتفق الإسماعيلية مع الطبري وعريب بن سعد وسواهما (١) في إطلاق اسم ابن البصري على المهدي . كما نفهم من منطوق تلك العبارة مدى الاضطراب الذي أصاب هذه الدعوة في العراق ، والعلاقة السيئة التي قامت بين إسماعيلي هذه البلاد ورياسة الدعوة في سلبية . وهنا نلاحظ أن النيسابوري يذكر في شيء من التأكيذ أن زكرويه لم يكن حياً في ذلك الوقت أي في سنة ٢٨٦ هـ ، مع أنه حارب العباسيين ، ودوخ جيوشهم في العراق وفي البادية حتى قتل في سنة ٢٩٤ هـ . ويبدو أن النيسابوري اعتقد موت زكرويه في الوقت الذي اختفى فيه .

وإذا كانت هذه هي آراء الإسماعيلية في الاتجاهات الجديدة بعد موت عبدان واختفاء حمدان وانتقاضه على سلبية ، فإن السنيين يذهبون إلى القول بأن زكرويه لما قتل عبدان ، تتبعه قرامطة السواد (وهم أنصار حمدان وعبدان) ، فاضطر إلى الاختفاء في مطمورة (حفيرة في الأرض) بإحدى قرى سواد الكوفة ، وأمعن

في التخلي منذ سنة ٢٨٦ هـ (١). ويرى ابن خلدون أن استخفاءه كان راجعا إلى تتبع جيوش العباسيين له ، وإخفاقه في اجتذاب أحياء كلب إلى دعوته الجديدة (٢). والواقع أن هذين السبيين معا هما اللذان حملاه على الاستخفاء . ويصح أن نضيف سببا ثالثا ، هو رغبته في أن يقوم بتمثيل دور الأئمة المستورين ؛ فيعمل وهو في مخبئه ، حتى يستطيع بذلك أن يحتفظ لدعوته الجديدة بالحوية والقوة ما دام الرأس المفكر فيها لم يمسه أحد بسوء . أضف إلى ذلك خوفه من أن يناله ما نال حمدان على يد رؤساء الدعوة بسلبية . وبهذا نرى أن ذكرويه قد ثار على قرامطة السواد ، وأغضب رؤساءه في سلبية ، ونخالفه القوم إلا أهل دعوته (٣) .

وجه ذكرويه نشاطه نحو الشام ، فلم يتجه جنوبا خوفا من نشاط أبي سعيد ، كما لم يستطع الإبقاء على دعوته في بلاد السواد ، حتى لا يعترضه الفرع القرمطي الرئيس ، وهم أتباع حمدان الذين ظلوا على ولائهم له وللدعوة الأساسية . ومن ثم وجه أبناءه ولاسيما أبا القاسم يحيى (صاحب الناقية) وأبا مهزول (صاحب الشامية) إلى بادية السماوة وبلاد الشام . ولا غرو فقد كانت بادية السماوة في قبضة جماعة من الأعراب الذين اعتنقوا المذهب الإسماعيلي ، كما كانت بلاد الشام نفسها في حالة من الضعف لا تستطيع معها مقاومة أو نصالا . ولم يكن للعباسيين نفوذ أو سلطان في هذه البلاد ، لأنها كانت في قبضة الطولونيين الذين دب إليهم الضعف واءتراهم الوهن أيضا في عهد هارون بن خمارويه . أضف إلى ذلك أن أهالي تلك البلاد كانت لهم دراية وإلمام بالمذهب الإسماعيلي ، منذ اتخذ الأئمة المستورون سلبية موطنًا ودار هجرة . فلا يبعد أن تكون الدعوة الإسماعيلية قد أخذت تتسرب من سلبية إلى بعض مدن الشام ، وأنه قد أصبح لها أنصار وأتباع في كثير من المدن الشامية وباديتها (٤) .

فهل كان اتجاه أبناء ذكرويه إلى بلاد الشام دليلا على رغبتهم الخالصة في الاتصال برئيسهم الأكبر في سلبية ؟ لقد حاولوا الاتصال بالمهدي غير مرة ، واعتذروا له عما فرط منهم ، وأعلنوا أنهم يريدون أن يكونوا دولة الفاطميين المنشودة في

(٢) التبري : نهاية الأدب ج ٢٣ ورقة ٧٠ ، ٧١

(٢) البرج ٤ ص ٥٦

(٣) المقرئ : انماط الخفاص ١١٥

(٤) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية في الحياة السياسية ج ١ ورقة ١٠٢

بلاد الشام نفسها . هذا ما حاول الأستاذ إيثانو (١) الذهاب إليه ؛ ولكن المراجع الإسماعيلية تنفي ذلك ، وتذهب إلى الإسراف في لعن أبناء زكرويه . ودليل آخر هو أن سعيدا الخير إنما خرج من سلمية خوفا من أبناء زكرويه ، وأنه لم يستمع لاعتذاراتهم المتتالية ، مما يدلنا على عدم ثقته فيهم . كما أن الحسين بن زكرويه عمل على التخلص من جميع أقارب سعيد الخير ، حتى إنه لم يُبق له منهم عينا تطرف . ولو كان من أنصاره لما فعل ذلك .

والذي نلاحظه في حركة أبناء زكرويه ، أنهم كانوا على قدر كبير من الذكاء ؛ فقد استغلوا حالة الانحلال السياسي في تلك البلاد ، وتأثير المذهب الإسماعيلي فيها ، فنادوا بإمامة محمد بن إسماعيل وانتموا إليه . ومن قائل إنهم ادعوا نبوته ، ومن قائل إنهم زعموا أن أباهم حجة الإمام المستور ، وإنهم فروا من وجه العباسيين ، ولجئوا إلى قبائل بني كلب الذين اعتنق كثير منهم هذا المذهب ، وتفاؤوا في طاعتهم ، واعتقدوا أنهم يعاونون بذلك أبناء الرسول ، وسموا أنفسهم الفاطميين . ولا بد أنهم كانوا قبل ذلك موالين لرياسة المذهب ، وأنهم أسندوا رياستهم إلى « يحيى بن زكرويه » ، وهو أبو القاسم بن أبي محمد ، الذي استغل هذه الظروف المواتية ، وأدعى أن النصر حليفهم ، وأن نافته مأمورة ، إن تبعوها ظفروا وإلا أخفقوا . ومن ثم سمي « صاحب الناقة » ، وسماه أنصاره « الشيخ » ، فتمكن من قلوب أنصاره في بادية السماوة منذ سنة ٢٨٩ هـ . يقول الطبري (٢) : « إن يحيى تسمى بمحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وزعم أن أباه المعروف بأبي محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع ، فأتوا زواله وتسموا الفاطميين ودانوا له » . ونحن نشك كثيرا فيما ذكره الطبري ؛ لأن محمد بن إسماعيل أنجب عبد الله الرضا ، وهو عبد الله الأكبر ، الذي اعتبره الإسماعيلية الإمام الثاني من الأئمة المستورين . إلا أن عبارة الطبري تشير في الوقت نفسه إلى فكرة الحجة والإمام ، وتبين أنه لو صدق أبناء زكرويه ، لكان أبوهم حجة قد حل من أئمة الدعوة العلوية محل أبناء القداح ، وفي ذلك معنى الثورة الصريحة على سعيد الخير . وإذا كان يحيى قد أعلن هذا وهو بادية السماوة في سنة ٢٨٩ هـ ، فقد اشتهر منه سعيد رائحة الشر ، ومن ثم

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, p. 91

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨

غادر قصوره وأهله بسلمية ، واتجه جنوباً مع إمامه المستقر أبي القاسم (القائم بأمر الله) وبعض المقربين إليه من الدعاة .

ويتفق مؤلفو الإسماعيلية معنا في اعتقادهم أن مجيء أبناء زكرويه إلى بلاد الشام كان السبب المباشر لهرب سعيد الخير من سلمية ؛ فقد رأيتهم يتآمرون فيما بينهم على قتله وقتل كبير دعائه أبي الحسين . ولا يبعد أن يكون ما ذهب إليه الطبري صحيحاً من ناحية أنهم ادعوا أن أباهم داع لمحمد بن إسماعيل ، وأنهم لا يعترفون بإمامة غيره ، أي بإمامة سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ؛ بل لقد اعتبروه خارجاً على المذهب نفسه . يدلنا على ذلك تلك العبارة القيمة التي أوردها النيسابوري الإسماعيلي في كتابه استنار الإمام^(١) ، حين يتكلم على علاقة أبناء أبي محمد زكرويه مع المهدي فيقول : ولما اتصل خبر مجيئهم « بدعاة بغداد . . . وجماعة من الشيعة ، كتبوا إلى المهدي (ع م) أن بني أبي محمد قد عزموا على قتلك ، وقتل أملاك . فإني كنت قاعداً فقم ، فإنهم زحفوا إليك ، وهم عازمون على قتلك ، فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وشوا بك إلى « هارون بن ، أحمد بن طولون . وهم يقولون إنك مخالف للمذهب ، ويشهرون أمرك . فاعمل على خلاص نفسك ، ولا تقم ساعة واحدة ، ، وذلك مما دعاه إلى الفرار . ولم يكن هؤلاء القرامطة إذن يرمون من وراء حركتهم هذه إلى تكوين دولة تخضع لسعيد الخير ، وإنما كانوا يريدون قتله وقتل أهل بيته ؛ فلما لم يتمكنوا منه قضوا على جميع أسرته .

ولا يهمنا أن نتتبع هنا حروب أبناء زكرويه في بلاد الشام ، وإنما يهمنا جلاء بعض المسائل الغامضة لتوضيح العلاقة بين المهدي وقرامطة الشمال . ومن هذه المسائل :

أولاً : أن المراجع الإسماعيلية تذكر أن سعيداً القداح خرج من سلمية قبل وصول أبناء زكرويه إلى الشام في أواخر سنة ٢٨٩ هـ بسنة واحدة ، وأنه قضى هذه المدة أو ما يقرب منها وهو يختلف إلى مدن سورية وفلسطين ، ولا سيما الرملة التي بقي بها حتى تمت هزيمة يحيى بن زكرويه وأخيه الحسين بن زكرويه في أوائل سنة ٢٩١ هـ . ومعنى ذلك أن المهدي خرج من سلمية في سنة ٢٨٨ هـ ، واستمر بالرملة . فهل كان

(١) مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

سعيد يقف تلك الوقفة الطويلة رجاء نجاح أبناء زكرويه في احتلال الشام ، ثم يعود هو إليهم ؟ أو أنه أراد أن يجلس على عرش أقامه منافسوه من أبناء زكرويه ؟ إننا نشك كثيرا في ذلك ، لأن الحسين بن زكرويه اتصل به في سنة ٢٨٩ هـ وهو في مدينة الرملة ، وحاول إغراءه ليعود إلى سلمية ، في الوقت الذي كان أخوه يحيى ابن زكرويه (أبو القاسم) على حصار دمشق . فإذا قال ابن زكرويه ؟ وبماذا أجاب المهدي ؟ قال ابن زكرويه للمهدي : « يامولانا ! أخرجنا من بلدنا أنا وإخوتي ، ندور عليك . فالحمد لله الذي جمع بيننا وبينك . أخى (يقصد أخاه يحيى المكى أبا القاسم) قدم بالعسكر ، وحصر دمشق وتركتته على أخذها . فارجع فقد استقام لك الأمر ، فما جئنا من بلدنا إلا لترضى عنا ، ولا تمكن ساخطا علينا . وهذا من فعل أبي الحسين الذي أقلقنا وأقلقك ، فإن كنت لا تمضى أنت ، فكتب كتابا إلى أخى ليرضى عني ، فإنه ساخط على (١) . »

ولو أن الحسين بن زكرويه كان موضع ثقة المهدي ، أو أنهما كانا على وفاق ، لأجابه على الفور وانتقل معه إلى دمشق . وإنما الذي فعله المهدي ، أنه كتب إلى أخيه يحيى بن زكرويه كتابا قال فيه : « ارض عنه ، ولا تؤذه بشيء ، وأنا قادم في إثر كتابي (٢) . » ، كما أرسل إلى داعي دعائه أبي الحسين كتابا آخر يطلب فيه أن يمنحه بعض المال . ومع ذلك لم يعبأ المهدي ولا داعي دعائه بهؤلاء .

ويظهر أن ما فعله الحسين (أبو مهزول) بن زكرويه كان خدعة حربية ، رمى من ورائها إلى الحصول على شخص المهدي والتخلص منه بعد ذلك ، أو أنه كان يرمى إلى الحصول على رسالة منه يستغلها في إثارة حماسة أتباعه من القرامطة . ولا يبعد أن بنى زكرويه لما رأوا احتدام الصراع بينهم وبين طنج بن جف — أبي محمد الإخشيد صاحب مصر — وكان على دمشق من قبل هارون بن خمارويه ، وأن المصريين سوف يمدونه بالمال والرجال ، رأوا أن يستغلوا شخص المهدي وماله ، فإنهم قبل الذهاب معهم إلى دمشق قالوا : إنه ناثمهم وحجتهم ، واتخذوه تكأة للحصول على كل ما تصبو إليه نفوسهم ، وإلا أخذوا منه مالا يستعينون به

(١) النيسابورى : استنار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٨ .

(٢) المصدر نفسه .

على الفتح ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، أخذوا منه رسالة تدل على رضائه عنهم للتأثير في الذين لا يزالون على حب المهدي ، حتى لا يكونوا من عوامل هزيمتهم . وإذا صح ما ذهبنا إليه ، دل على مهارة أبناء زكرويه . وقد أفاد يحيى بن زكرويه (أبو القاسم) وأخوه الحسين (أبو مهزول) من تلك الرسالة ؛ إذ وافق أنصار يحيى ، وكان عامتهم من إسماعيلية المهدي وصنائع أبي الحسين داعي دعائه ، على تولية الحسين عهد أخيه . ولم يلبث أن قتل يحيى على أبواب دمشق على أيدي الجنود المصريين ، وعلى رأسهم بدر الحماني قائد أحمد بن طولون ، وذلك في أوائل سنة ٢٩٠ هـ ، وتسلم الحسين (أبو مهزول) زمام الأمور بين قرامطة الشمال .

أما المراجع السنية فتذهب إلى القول بأن أبناء زكرويه نادوا بالاشتراكية وحملوا د موالى بنى العليص (وهم فرع من قبيلة كلب) على صريحهم (رؤسائهم) ، فقتلوا جماعة منهم واستنزلوهم (١) . وقد انتصروا هم ومن انضم إليهم من الكلبيين على والى الرصافة في سنة ٢٨٩ هـ (٢) . ومن ثم توغلوا في بلاد الشام نفسها ، فلم يستطع طنج بن جف والى الشام أن يصدهم ، فهزموا جيوشه في مواقع متكررة ، حتى ضربوا الحصار على دمشق في العام نفسه سبعة أشهر ، إلى أن قتل على أبوابها يحيى ابن زكرويه . وهكذا لم يتعرض المؤرخون السنيون للعلاوة القائمة بين المهدي وهؤلاء القرامطة ، ولم يذكروا أين كان يختفي المهدي وقتئذ ، كما لم يذكر دور الذي قام به الحسين بن زكرويه مع المهدي . وكل ما قالوه إن يحيى بن زكرويه ضرب نقودا كتب على أحد وجهيها : « قل جاء الحق وزهق الباطل » ، وعلى الوجه الآخر : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » ، مما يدلنا على أن يحيى كان ينادى بأحقية العلويين ، وأن دعوته نالت كثيرا من النجاح حتى تهرمط أكثر من حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها (٣) .

وقد أخطأ كثير من العلماء السنيين فقالوا : إن يحيى بن زكرويه الذي قتل على أبواب دمشق ، هو على قداح الطالقان ، الذي اتفق مع زكرويه على قتل عبد الله

(١) الطبري : الأمم والملوك ج ١١ ص ٢٧٧

(٢) وصاية هشام : غربي الرقة ، بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية .

(٣) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٢٢ . والغوطة هي الكورة المحيطة بدمشق ..

والذهاب مع أبنائه إلى بلاد الشام (١).

ثانيا : وأنه بعد اضطلاع الحسين بأمور الدعوة القرمطية ، حاول اتخاذ حمص محل دمشق . وقد نجح في ذلك نجاحا يذكر ؛ لأنه نظم جيوشه ، وعين أقاربه والمخلصين في حبه عليهم : فجعل ابن عم له قائدا من قواده ، ولقبه المدثر وولاه عهده ، وعهد إلى قريب آخر بقتل أسرى المسلمين ، لئلا يكونوا عبئا عليه ، وغالى في التظاهر — على ما يتوله السنيون — بالإخلاص للمذهب الإسماعيلي ، فتسمى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وسمى ابن عمه المدثر عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل . ومما يلفت النظر حقا ، سرعة استيلائه على حمص ، إذ استطاع قتل حاميتها المصرية ، واتخذها قاعدة لنشاطه وقوته ؛ بل تذهب المراجع الإسماعيلية إلى القول بأن أهلها كتبوا ، إلى أبي مهزول : أن أقدم علينا ، ودع دمشق ، فإننا في طاعتك . فقدم حمص ، وخلي عن دمشق (٢) . ذلك أن أهل حمص كانوا أكثر استعدادا لتقبل المذهب الإسماعيلي . ولا غرو فإن سلمية — المقر الرئيس للأئمة الإسماعيلية المستورين — أقرب منها إلى دمشق . ومن ثم خطب على منابرهما ، وتلقب بلقب

(١) ولا يمكننا أن نوافق على هذا للأسباب الآتية :-

(أ) إن الديري ، وهو الذى ذكر ذلك ، ذكر في موضع آخر أن زكرويه أكد بأنه أرسل ابنه يحيى والحسين إلى بلاد الشام فقتلا هناك (المقرئى : انماط الخفايا ص ١١٥) .

(ب) وإن على بن عبد الله القداح (قدام الطالقان) كان من الذكاء بحيث لم يلق بذهمه في مداع الحروب ، وكانت الطريقة المناوفة عند زعماء القضاة أن يعملوا في الخفاء إلى أن تحين الفرصة للظهور . ولا تصور أن يفعل هذا من تمكن يدهاته من القضاء على زعماء من ذوى الشأن ، كعبدان قرمط وصبره عبدان ، ومن تمكن في نفس الوقت من النجاح في تكوين حزب قوى جديد برواية زكرويه . استطاع أن يقف في وجه الطولونيين والعباسيين معا .

(ج) إذا كان من الثابت أن يكون يحيى هذا قد دعا إلى نفسه وانتمى إلى محمد بن إسماعيل ، وأن أخاه الحسين قد دعا إلى نفسه أيضا ، وانتمى إلى محمد بن إسماعيل ، وأفرغ مرة أنه أخو يحيى ، فكيف يعقل أن يصدق أنصاره القرامطة ذلك ، إذا لم يكن معروفا لديهم أن يحيى اقتول على أبواب دمشق . هو أخوه بالطبع . أضف إلى ذلك أن المراجع الإسماعيلية المماصرة تؤكد أن المقتول بيد الجنود المصرية على أبواب دمشق هو يحيى بن زكرويه ، وليس قدام الطالقان . وهكذا انتهى هذا الدور باخفاء أبناء زكرويه في استمالة المهدي ، وعجزهم عن الاستيلاء على دمشق ، لاتخاذها قاعدة لملك جديد .

(٢) النيسابورى : استنار الامام ص ٩٩

أمير المؤمنين . وفي هذا التلقيب دليل آخر على ثورته على النظام الإسماعيلي وعلى المهدي نفسه . كما جعل يكاتب عماله بذلك ، واستطاع أن يكوّن في الشام حكومة قرمطية ثائرة عاصمتها حمص ، وسمى أنصاره «المؤمنين» ، وسمى المسلمين «الكافرين» . والواقع أن هذه سنة الإسماعيلية الذين يسمون أنفسهم «الموحدين» وغيرهم الكافرين والفاسقين .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الحسين يكتب لأنصاره : «من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي ، المنصور بالله ، والناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعي إلى كتاب الله ، الذاب عن حريم الله ، المختار من ولد رسول الله (١)» .

كما يخيل إلينا أن الحسين بن زكرويه كان كأخيه قد اعتمد اعتمادا كلياً على الإسماعيلية الذين كانوا قد استجابوا لسعيد الخير ، فإن أخاه أبا القاسم يحيى بن زكرويه تمكن من جذب قلوب جماعة من قبائل كلب ، لأنهم كانوا يدينون بالمذهب الإسماعيلي . وهكذا وقع اختياره عليهم دون القبائل ، وكانت الدعوة تدعو فيهم ، وكانوا من دعوة أبي الحسين (٢) ، داعي دعاة سعيد الخير . كما نراه يعتمد عليهم ويبيجلهم ، حتى إنه لما قبض على الداعي أبي الحسين وضيق عليه (في سنة ٢٩٠ هـ) وشهره هو وابنه ، وأركبهما جملاً ، وكبأهما بالحديد ، وأتاه مشايخ القاصيين فقالوا له : إن هذا الرجل الشيخ ، نحن من دعوته ، فلا تحدث فيه حدثاً . فقال لهم : ما يناله منا مكروه (٣) . . وكذلك كان الرجال الذين أخرجهم في العسكر لحرب محمد بن سليمان الكاتب القائد العباسي ، محبين للمهدي ، وكانوا من دعوة أبي الحسين (٤) . من هذا كله نرى أن أنصار قرامطة الشمال كانوا من أتباع المهدي ، ومن استجابوا لسلبية لا للكوفة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن علاقة هذا الفرع العدائية الهجومية ضد المهدي لم تكن قد بدأت بعد .

وأما موقف الحسين بن زكرويه العدائي من المهدي فيبدأ منذ ناقت نفسه إلى

(١) العيني : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ١٠٦

(٢) أنيسابوري : استقار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٠

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٣

أخذ سليمة ، ومنذ قتل داعي دعاة المهدي (أبا الحسين) في منتصف سنة ٣٩٠ هـ . ذلك أنه ترك حمص في رعاية أنصاره ، ويمم شطر سليمة . وليس من شك في أن الحسين كان يشوى الشر في اتجاهه هذا ، ويخشى بقاء أبي الحسين داعي الدعاة . ولذلك كان يهيمه ألا يفلت هذا منه ، فلما هرب تتبعه حتى أدركه ، ولم يستمع لنصائح أتباع أبي الحسين . ومن الغريب أن الحسين ، بعد أن قتل داعي المهدي ومثل بالهاشميين العباسيين في سليمة ، أرسل إلى المهدي يستميله للحضور إليها ، ويخبره في الوقت نفسه أنه قتل وأضداده ، ومن كانوا سبياً في تشتيت أهله وأقاربه . وهكذا بعث إلى المهدي كتاباً سراً يقول له فيه : إني قتلت أعداءك الذين عملوا على خروجك ، ودفع ابن عمك ، وولده إلى العراق في الأول ، فأقدم ولا تتأخر (١) .

لو أن هناك ثقة متبادلة وحبا متبادلاً بين الفريقين ، لما تأخر الحسين في أن يمد لدولة المهدي ، ويمثل الدور الذي سوف يمثله أبو عبد الله الشيعي . ونحن نقر ما قاله النيسابوري : « وكان ذلك مكيدة منه ليطمئن المهدي إليه حتى يرجع » . ثم بماذا نفسر ذلك الرد اللين الذي بعث به المهدي إليه ؟ أكان يخشاه فيظهر له الود على حين كان يخافه حتى لا يفشى للناس سره وهو بالرملة ؟ أم أنه اضطر إلى البقاء بالرملة هذه المدة الطويلة لا يظهر حقيقته عليه حتى لا يعيبه بقصوره ولا بأهله ؟ يدل على هذا أنه حين رآه يعيب بهؤلاء جميعاً غادر بلاد الشام . ومهما قيل في نفور المهدي من الحسين هذا ، فإنه لم يظهر له وهو بالرملة شيئاً يثيره ؛ ولذلك رد على كتابه بتلك العبارة التي يتظاهر فيها بحبه له وثقته به ، وفيه يقول : « قد أحسنت فيما عملته ، ولو لم تفعل هذا ما كنت من شيعتنا وأوليانا ؛ وأنا قادم على إثر كتابي هذا إن شاء الله (٢) » .

ويم نستطيع أن نفسر أيضاً قوله : إنه قادم إليه من فوره ، على حين أن الحسين ظل ينتظره أربعة أشهر كاملة ؟ وبماذا نفسر اعتقاد الإسماعيلية أن المهدي أنقذ حياته بامتناعه عن الذهاب إلى سليمة حيث يقولون : « لما قرأ الفاسق كتاب المهدي

(١) النيسابوري : استنار الإمام ص ١٠٢

(٢) المصدر نفسه

فرح به وأطمعه فيه ، وأبى الله أن يتم للفاسق أمه ، وأن لا يبلغ المهدي ما هو أهله (١) ، والذي نعتقده أن الحسين لم يكتف بقتل داعي دعاة المهدي ، بل كان يطمع في قتل المهدي نفسه ، وأن دعاة المهدي في بغداد كانوا على حق في تصويرهم أبناء زكرويه ، ووصفهم بالغدر والميل للفتك بالمهدي . لذلك لما طال انتظار الحسين وصول المهدي دون جدوى ، وأدرك أن الجيوش العباسية قادمة إليه ، عمل على التخلص من الدعاة المخلصين للمهدي ، فأخرجهم في عسكره لحرب محمد بن سليمان ؛ ولم يبق بجانبه إلا نفر يسير منهم ، لا يخشى بأسهم ، ثم انقض على سلمية وعلى قصور المهدي ، فقتل أهله وأسبابه وحاشيته . ومن هؤلاء جارية المهدي وابنه منها ، وأبى إليه بجميع من في ذلك القصر من صغير وكبير من الرجال والنساء ، فقتلهم كلهم وكانوا ثمانى وثمانين نفساً (٢) .

وكان من أثر سياسة الحسين الخرقاء أن حلت به الهزيمة أمام جيوش محمد بن سليمان ، قائد العباسيين في موقعة « تمنع » ، على ما يقوله السنيون ، أو « السيل » (٣) ، على ما يقوله الإسماعيليون . وذلك أن الحسين وجه كل جهوده للقضاء على العلويين بسلمية ، ولم يحفل بمقابلة محمد بن سليمان الكاتب ؛ فلم يخرج للقائه ، وترك قواده يلاقون قضاهم المحتوم ، مع أنه كان يحذر به أن يكون في طليعة جيشه . أضف إلى ذلك أن كثيراً من رجاله الموالين للمهدي ، قد شكوا في تصرفاته فحذروه — وهم بالجيش — سوء عاقبة الإقدام على ما يضر المهدي وأسرته . وما يدل على ارتياب الدعاة فيه ، هذه العبارة التي وردت على لسان أحد هؤلاء الدعاة حين دخل أبو الحسين قصر المهدي : « قال الدعاة الذين كانوا في عسكر الفاسق لأبي محمد الداعي : أنت مدل على هذا الرجل ، فأعرف ما يريد بهذا القصر ، وعرفه أن صاحب هذا القصر له في رقابنا بيعة ، وأبو الحسين دعانا لصاحب هذا القصر . ودخل إليه أبو محمد ... فقال له : يا هذا الرجل ! إني رسول الجماعة إليك . لأنهم يقولون لك إن صاحب هذا القصر له في رقابنا بيعة ، فلا تحدث فيه حديثاً ولا تؤذهم بشيء (٤) » .

(١) النيسابوري - استنار الامام (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) ص ٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٥

(٣) وتقع على مقربة من حماة

(٤) النيسابوري : استنار الامام ص ١٠٤

ثالثا : أننا لا يهمنا أن نتبع حركات الحسين حتى قبض العباسيون عليه وفتكروا به ، ولا أن نبحث أثر هذه الموقعة في إضعاف الطولونيين ، ولا أثر حركة أبناء زكرويه في بلاد الشام عامة ، كما لا يهمنا أن نذكر الجهود التي بذلها أخوه الثالث وبعض أنصاره بعد ذلك ، لأن هذا كله لا يدخل في نطاق هذا البحث . إنما يهمنا أن نقول إن الحسين كان حربا على المهدي وهو بالشام ، كما كان حربا عليه بعد القبض عليه . وكأنه قد آلمه ، بعد أن قبض العباسيون عليه ، أن يقات المهدي بحشاشته ، فوشى به ، وأمد العباسيين بجميع المعلومات التي تساعد على القبض عليه . ولذلك أجاب الحسين العباسيين حين سألوه عن الشخص الذي يدعو إليه بقوله : « ما أنا من أهل الرياسة ، ولا من أهل القرامطة ؛ إنما أمرني بالخروج رجل هو فلان بن فلان ، من مدينة سلمية ، يعني المهدي ع م . وهو من صفته كذا وكذا ، بصفته وحليته ، وكسبته صفته على ما وصف ، (١) .

وفي الحق أن هزيمة الحسين حملت المهدي على مغادرة الرملة ، بعد أن مكث بها عامين . وفي أوائل سنة ٢٩١ هـ ترك بلاد الشام التي درجت فيها الدعوة الإسماعيلية منذ قرن تقريبا ، وآوت جميع أئمة الاستتار . ومن ثم زال عهد زعامة سلمية ، وقضى المهدي بعد ذلك خمس سنوات مغتربا متألما . فإنه لما فر من الرملة قصد المغرب ، وألقى به في غياهب سجون سجلماسة ، حتى جملة أبو عبد الله من السجن إلى العرش في سنة ٢٩٦ هـ .

وهكذا لقي سعيد الخير من قرامطة السواد ومن قرامطة الشمال ما آلمه وأقضى عليه مضجعه ؛ فغادر مسقط رأسه سلمية ، ولم يستطع أن يستمرى سياسة هؤلاء في بلاد الشام ، ولكنه لم يستطع أن يحتج عليها ، وظل قابعا مترددا في مدينة الرملة ، حتى حلت الهزيمة بصاحب الشامة ، وعيث بأهل المهدي وأقاربه ، فكان ذلك آخر عهده بالمشرق . وبهذا نرى أن قرامطة الشمال لم يقوموا - كما ادعى برنارد لويس - بوحى من الأئمة أنفسهم ، لكي يمهّدوا السبيل وينزلوا من أمامهم العقبات (٢) ، بل قاموا يطلبون الأمر لأنفسهم ، فكان نصيبهم الإخفاق (٣) .

(١) النيسابوري - استتار الامام من ١٠٦

(٢) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, p. 74.

(٣) Lamemrise : Islam Beliefs and Institutions, p. 159.

٣ — من قرامطة البحرين :

وأما موقف سعيد الخير من أبي سعيد الجنابي (١) (٣٠١ هـ) مؤسس دولة القرامطة بالبحرين ، فلا نعرف عنه كثيرا قبل قيام الدولة الفاطمية . غير أننا لا ننكر أن قيام دولة القرامطة في البحرين على يد أبي سعيد ، يرجع إلى حد كبير إلى حركة حمدان قرمط وانتقاضه على سلمية ومن بها . فقد كان أبو سعيد من أخلص الناس لحمدان قرمط ، ومن كبار دعاة في جنوب فارس الغربي ؛ وقد صادف هناك شيئا غير قليل من النجاح . إلا أن مصاعب كبيرة اعترضته ، فقبض على ما جمعه من المال ، واتخذ من الخزائن والعدد ، وأفلت بحشاشته . فلم يزل في خفية حتى كتب إليه حمدان قرمط من كراذى (بالقرب من بغداد) بالشخص إلى ما قبله ؛ ولم يكن رآه . فلما عاينه رأى فيه نافذا فيما يكلفه ، ورأى أن ما دار عليه ليس من سوء سياسته ، اسكن وجوه (٢) وقعت كالضرورة (٣) .

وفي الوقت الذي دعا فيه حمدان أباسعيد الجنابي . حدث الانتقاض على سلمية ؛ فمن قائل إن حمدان قرمط عين أباسعيد على الدعوة في القطيف وبلاد البحرين ، فظل هذا على إخلاصه له ، حتى سعى أتباعه - على ما ذهب إليه دى ساسي (٤) - القرامطة .

(١) نسبة إلى جنابة على الخليل الفارسي شرقا .

(٢) أمور أو ظروف فوق مقدوره .

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٠ .

(٤) نرى أن الداعي أبا زكريا العماسي ، قد يكون على المذهب الاسماعيلي على عقيدة حمدان وعبدان . فلما انتفضا على الدعوة وأرسلوا أباسعيد بعبادى وعقائد إسماعيلية جديدة ، قتل زكريا العماسي ، لأنه لم يعد على رأيه . ولا بد - إن صح ذلك الافتراض - أن يكون أبو سعيد قد اتفق مع حمدان على ذلك قبل مجيئه إلى القطيف ، وإلا اعتبر غاربا عليه ، كما لا يبعد أن يكون حمدان وعبدان قد طلبا إلى زكريا - داعيهم على القطيف - الخروج على الدعوة الأولى التي يرأسها أبناء القداح . فلما لم يجيئهما إلى ما طلباه منه أرسلوا إليه أباسعيد فقتل به .

ولا يبعد أن يكون قداح الطالقان قد عمل هو وزكريا بن مهرويه على إرسال أبي سعيد إلى بلاد القطيف ، فقتل هذا أبا زكريا العماسي لبقائه على طاعة عبدان وحمدان . وقد يؤيد ذلك ، بحجج شخص . يدعى يحيى بن المهدي إلى القطيف بعد ذلك ، واتصله بأبي سعيد ، وإخلاص هذا له . ومن المحتمل جدا —

نسبة إليه ، ومن قائل إن الذي أرسله إلى إقليم البحرين هو قداح الطالقان - علي بن عبد الله القداح . وإلا كيف نفسر قتله أبا زكريا الصهامي داعية عبدان في بلاد القطيف (١) ؟

وسواء أكان أبو سعيد قرمطيا يدين بالطاعة لحمدان أو لذكرويه ، فإن تعيينه على القطيف والبحرين ، قد تأثر لحد كبير بالعلاقة الرئيسية بين سلبية من جهة وبين سيده حمدان قرمط من جهة أخرى . وما يسترعى النظر حقا ، أن أبا سعيد كان يعمل وهو أشبه بملك مستقل ، حتى إن ابن فضل الجدني حين ثار على ابن حوشب وعلى عبيد الله المهدي ، ادعى أنه فعل ما فعله أبو سعيد فقال : « إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ، ولي بأبي سعيد الجنابي أسوة ، لأنه خلع ميمونا وابنه (٢) ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسي (٣) » . من ذلك نرى أن أبا سعيد لم يتقيد في سياسته بزعماء الدعوة الإسماعيلية ، وذلك يعلل فتور العلاقة بينه وبين الدولة الفاطمية الناشئة ، لأنه لم ينفذ مطالبها على النحو الذي كانت تؤمله منه .

(ب) موقف عبيد الله من أنصار الدعوة

في اليمن والمغرب وفارس

لم تكن رئاسة الدعوة بسلبية تهتم بنشر الدعوة بين القرامطة وحدهم ، بل كان اهتمامها بنشرها في بلاد اليمن والمغرب وفارس لا يقل شأنًا عن ذلك ، حتى إنها وضعت في رئاسة تلك الأقاليم الرئيسة ، أو على حد تعبير الإسماعيلية «بحار الدعوة» ، دعاة من الأفاضال الذين خلدوا أسماءهم في عالم الدعوة .

== أن يكون يحيى بن المهدي هذا على ما ذكره بعض هو على قداح الطالقان . وما يؤيد هذا الرأي محاولة ذكرويه في أخبار حبياته الاتصال بأبي سعيد الجنابي ، ولو لم يكونا على وفاق لما حاول ذلك أو فكر فيه .

(١) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, vol. i, pp. cxxx, vi-vii.

(٢) يقصد أحمد بن عبد الله القداح وابن أخيه سعيد الخير .

(٣) الحمادي النعماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

١ — في بلاد اليمن

في بلاد اليمن ضاعف ابن حوشب وابن فضل جهودهما في نشر الدعوة الإسماعيلية، وفتح البلاد السنية، وضمها إلى بلاد الدعوة. وقد نجحا في ذلك نجاحا كبيرا، حتى لقب ابن حوشب «منصور اليمن»، واستطاع ابن فضل أن يستولى على أقاليم كثيرة أهمها إقليم صنعاء. وبما لا شك فيه أن ابن حوشب كان يدعو إلى الإمام الحسين بن أحمد. فلما ولى عهده أو نقل الإمامة — مؤقتا — إلى سعيد الخير، عن طريق الاستبداع الإمامي، لم ينتقض عليه كما انتقض حمدان قرمط من قبل، ولم يثر عليه كما ثار زكرويه وأبناؤه، بل إنه لما كتب له الإمام... بالعهد لعبيد الله، وأذن له بالحرب، قام بدعوته وبثها في اليمن، وجيش الجيوش، وفتح المدائن... وفرق الدعاة في اليمن وعمان واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب^(١)، وكان يرسل — فوق ذلك — الإمام وولى عهده، حتى إن الحسين حين أدرك نجاح ابن حوشب قال لسعيد الخير: «هذه دولتك قد أقبلت، ولكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب^(٢)».

وبفضل جهود ابن حوشب انتشرت الدعاية على ما رأينا في بلاد المغرب على يد داعييه الحلواني وأبي سفيان أولا، ثم على يد أبي عبد الله الداعي ثانيا. كما تعاون ابن حوشب مع سلبية في نشر الدعوة بمصر، فتكون بها — تبعا لذلك — جماعة من الإسماعيلية كانوا من حاشية النوشري، وإلى مصر بعد سقوط الطولونيين؛ فساعدوا المهدي على الإفلات، وهو في طريقه إلى المغرب. ولا يخفى أن كثيرا من المصريين كانوا على عقيدة الإسماعيلية في الوقت الذي مر سعيد الخير بمصر، حتى إنه لجأ — على ما سئرى — إلى الاختفاء في دور كثير منهم. وقد حدث كل هذا بفضل تعاون ابن فضل مع سلبية في ذلك الوقت.

وكان عبيد الله حين فراره من سلبية يقصد بلاد اليمن، حيث كان يقيم ابن حوشب

(١) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٣٠

(٢) عمارة اليمن: تاريخ اليمن ص ١٤٢

الذى أطلق عليه الإسماعيلية ، فجر الدعوة المتنفس (١) . وما زاد في عظمة مركز ابن حوشب أن « باب أبواب المهدي » ، أى كبير دعائه ، كان أستاذا لابن حوشب . يقول جعفر الحاجب ، وكان في صحبة المهدي حين فراره من سلمية : « وأمرنا المهدي بالأخذ في أهبة السفر والخروج معه ، وأظهر لنا أنه يريد اليمن (٢) ، ويؤكد أبو حنيفة النعمان المغربي (٣) قاضى قضاة الفاطميين في المغرب ، وداعيتهم الأكبر ، أن المهدي لما وصل إلى مصر في سنة ٢٩١ هـ ، كان يأمل أن يقصد اليمن ، وأن الذين صحبوه كانوا جميعا على هذا الاعتقاد .

ولكن إذا كان في نية سعيد الخير أن يقصد اليمن ، فما الذى منعه من تنفيذ تلك النية ؟ من المحتمل جدا أن يكون رسل العباسيين وجواسيسهم قد سبقوا إلى تلك البلاد ، أو أن بعض أخبار هرب المهدي إلى اليمن قد عرفه العباسيون . كما لا يبعد أن يكون لما ذكره ابن عياش ، الذى نزل المهدي في داره بمصر أثر في امتناع المهدي عن قصد اليمن . فقد قال ابن عياش للنوشري عامل العباسيين على مصر ، حين سأله عن حقيقة المهدي المختفى عنده : « أما الرجل النازل على فوائله لا وصل إليه شيء إلا ما يصل إلى » ، لأنه رجل هاشمى شريف تاجر ، من وجوه التجار ، معروف بالفضل والعلم واليسار . والذى أتى الرسول في طلبه ، قد أعطيت خبره أنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة (٤) . وما يجعلنا نميل إلى الأخذ بهذا الرأي أن المهدي عدل عن قصد اليمن بعد وصوله إلى مصر .

على أن هناك من يقول : إن جماعة من الدعاة الذين يضمرون الكراهة والبغضاء للمهدي ، قد قصدوا اليمن ، فأفسدوا عقول كثير من أهلها ، وعلى الأخص الزعيم الثانى ابن فضل ، مما جعل المهدي لا يرحب بفكرة إقامة الدولة الفاطمية المنشودة في بلاد تضم أمثال هؤلاء المتأمرين . وهذا يدلنا على بعد نظر المهدي ؛ فقد كان للثورة التى أشعلها ابن فضل على ابن حوشب بعد ذلك ، أثرها في إضعاف الدعوة

(١) الخطاب : غاية المواليد ص ٣١

(٢) البنانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠

(٣) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ (من المنتخب)

(٤) البنانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣

الإسماعيلية في تلك البلاد ، بل في قلب مشروعات الفاطميين في بلاد المشرق رأساً على عقب . يقول أبو حنيفة النعمان المغربي (١) : « وكان تقدم بعض دعائه فقصده اليمين قبله وفسد أمره . فأتى إلى أبي القاسم ، صاحب دعوة اليمين ، فأراد أن يستزله فوجده ثابتاً في أمره ، فانصرف عنه إلى علي بن الفضل صاحبه ، وكان في ناحية من اليمين ، فاستماله ، فأفسده ، فكان يقال في ذلك الوقت : أتى عراقي إلى عراقي يطلب أن يسخر منه فلم يمكنه ذلك ، فأتى اليماني فسخر منه ، فانسلك علي بن الفضل من أمره وأمر أوليائه . . . فخارب أبا القاسم . . . واتصل ما كان من ذلك بالإمام ، ففكره دخول اليمين على هذه الحال . »

وعلى الرغم من عدم صحة كل ما أورده النعمان ، وخاصة أن ابن الفضل لم يقيم في وجهه علي بن حوشب إلا بعد قيام الدولة الفاطمية بأربع سنوات تقريباً ، تبين عبارته في وضوح أن هناك من هذا حذو حمدان قرمط وأنصاره ، بل هذا حذو زكرويه وأبنائه ، في الالتقاط على سعيد بن الحسين ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن تقليد سعيد الخير الإمامة قد أوجد حركات انقلابية بين الإسماعيلية ، وأن هذه الحركات لم تقتصر على القرامطة وحدهم ، بل شملت بعض دعاة اليمين (٢) .

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤١

(٢) لا ندري إذا كان النعمان يقصد بالعراقي الخائن « فيروز » ، الذي كان « داعي الدعوة وأجل الناس عند الامام وأعظمهم منزلة » والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده وهو باب الأبواب إلى الأئمة ، والذي انتفض على سعيد الخير حين علم أنه يقصد المغرب دون اليمين ، لأنه عز عليه أن يترك بلاد المشرق الأدنى ويقصد بلاد المغرب المفقرة ، كما عز عليه أن تصف زعامته أمام سيطرة أبي عبد الله الداعي في تلك البلاد . ولا غرو فان فيروز لم يكن على صلة وثيقة بأبي عبد الله الداعي ، مع أنه سيكون صاحب الزعامة المطلقة على تلميذه ابن حوشب داعي دعوة اليمين ، وعلى صهره أبي علي داعي دعوة مصر . فإذا كان النعمان يقصد ذلك الداعي فقد أخطأ ، لأنه فر من مصر إلى اليمين ، واستمر ردحاً من الزمن موضع تقدير ابن حوشب ، حتى أتى إليه الخبر من المهدي وأبي علي داعي دعوة مصر يحثانه على قتل فيروز . ولعلنا نشك في أن وصول رسائل المهدي وأبي علي إلى ابن حوشب إنما كان بعد خروج المهدي من مصر . يقول جعفر الحجاب : « خرج المهدي ع م من مصر وخالفه فيروز قبل خروجه من مصر ومضى إلى اليمين » ، أضف إلى ذلك أن ثورة علي بن الفضل على ابن حوشب كانت بعد سنة ٢٩٩ هـ — على ما سيأتي — أي أنها كانت ثورة على العرش الفاطمي ، ولم تكن إذا في الوقت الذي خرج فيه المهدي من مصر (٢٩٨ هـ) ، بل كانت بعد ذلك بنحو ثمانين سنة أو أكثر .

ومن المسائل الشائكة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية في اليمن ، اعتبار الأئمة الإسماعيلية تلك البلاد أما كن استراتيجية هامة للنهضة بالدعوة بعد قيام الدولة الفاطمية المنشودة في بلاد المغرب ، لأنه يسهل على الدولة الشيعية التي تقوم في بلاد المغرب ، أن تتحرك شرقا إذا ما أرادت أن تغزو العالم الإسلامي (١) ، وترث بغداد ، على حين أنه قد يتعذر عليها أن تفعل ذلك إذا قامت في بلاد اليمن ؛ إذ يصعب على الجيوش اليمنية ، مهما كان عددها وإعدادها ، أن تخترق بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال ، وأن تمر ببلاد من أوعر بلاد العالم وأكثرها فقرا في طرق مواصلاتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن مراجعنا الإسماعيلية أوضحت أن هناك أفكارا كانت تجول في أذهان كبار الدعاة والأئمة ، تتلخص في أنه إذا قامت الدولة الفاطمية في المغرب وتحركت بجيوشها نحو المشرق لفتح مصر وغزو العالم الإسلامي ، فإن اليمن تمدد بالنجدة ، وتلاقى جيوشها مع الجيوش المغربية في تلك البلاد ، وبعبارة أخرى يقوم إسماعيلية اليمن بمساعدة الفاطميين في الوقت الذي تقوم فيه القرامطة ، فتلتقي في مصر الجيوش الفاطمية المغربية بالجيوش الإسماعيلية القرمطية واليمنية . يتضح لنا ذلك مما ذكره اليماني في كلامه عن فرار فيروز إلى ابن حوشب ، وتبريره بقاءه في اليمن ، بادعائه « أن الإمام بعث به مشرفا عليه إلى أن يقدم من المغرب بالعساكر إلى مصر ، ويكتب إليه ليستقبله بعساكر أهل اليمن » .

== وعلى أية حال لم يصب النعماني كما لم يصب جعفر الحاجب في سيرته حين يدعى أن ابن حوشب قاتل ابن فضل وانتصر عليه ، وأن ذلك كان بسبب فيروز ، لأننا سنرى ما يخالف ذلك عند كلامنا على علاقة الخليفة المهدي بابن فضل . واذن نستطيع أن نقول ان المهدي لم يشأ أن يقصد بلاد اليمن في سنة ٢٩١ هـ . وعلى الرغم من نجاح الداعين - ابن حوشب وابن فضل - هناك ، لم تستطع الدعوة أن تغزو تلك البلاد ، كما أنها لم تستطع أن تتغلب على المذاهب السائدة فيها . أضف الى ذلك أن كلا من ابن حوشب وابن فضل كان يعمل مستقلا عن زميله في كثير من الأحيان ، وأن ابن فضل لم يشعر في ذلك الوقت بالتبعية لابن حوشب . ومن ثم كان من الصعب على المهدي أن يقصد بلادا لم تتوحد زعامتها تحت راية إسماعيلية واحدة ، فاستطاع أن تنبه الملك والسلطان كما فعل أبو عبد الله الشيعي (اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ ، ١١٥) .

(١) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

هذه فكرة جريئة ، ولا بد أنها جالت بخاطر المهدي ، فرددتها فيروز داعي دعائه
وباب أبوابه .

٢ - في المغرب

راجت الدعوة الإسماعيلية في المغرب رواجاً عظيماً على أيدي دعاة ابن حوشب
كالخلواني وأبي سفيان ، وتسمنت الدعوة هناك غاربها على يد داعيه وتابعه
أبي عبد الله الشيعي . وكان نجاحه سريعاً ، فقد خرج إلى المغرب ، وهو يدين بالطاعة
للإمام الحسين بن أحمد العلوي وحبته أحمد الحكيم بن عبد الله القداح ، ووصل
إلى المغرب وهو يدين بالطاعة للإمام الحسين وحبته الجديد سعيد بن الحسين بن
عبد الله القداح ، وهو سعيد الخير . ولسنا بصدد بحث عوامل نجاحه السريع ، ولا
بصدد شرح صراعه مع منافسيه من زعماء البربر وملوك الأغالبة ، وإنما يهمنا أن
نبين الرابطة التي كانت بينه وبين سعيد الخير منذ توليته عرش الإمامة إلى حين توليته
عرش الخلافة .

كان لفكرة المهدي أثرها في بلاد سادها الجهل ، وملاها تعسف الحكام السنيين
ألما وضجراً . وكانت الأحاديث تكثر في بلاد المغرب بقرب ظهور المهدي ، وأن
الشمس ستشرق من مغربها ، أي أن دولة العلويين المنشودة ستقوم من بلاد المغرب ،
ولم يكن إرسال الخلواني وأبي سفيان إلا للتمهيد لهذه الفكرة ، وحرث الأرض
صاحب البذر ، الذي يبذر بذور الدولة ويهد لإقامتها . لذلك كان أبو عبد الله
يتغنى للكتاميين بقوله : «أنا صاحب البذر ، الذي ذكره لكم أبو سفيان والخلواني» .
وفي الحق أن نجاح أبي عبد الله في بلاد المغرب يرجع لحد كبير إلى حسن علاقته
بالمهدي وإشادته بفضله . ولم يكن التفاف المغاربة حوله إلا لأنه كان يخبرهم بأنه
البشير للمهدي ، وأنه ملا قلوبهم بالأمل في امتلاك الأرض جميعها إذا ما رفعوا
السيف في وجه أعداء المهدي . وقد وضع للكتاميين من الأحاديث والتنبيؤات
ما أثار حماسهم ؛ فمن قوله لهم في فج الأخيار : «هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم» .
ولقد جاء في الآثار ، أن للمهدي هجرة تنبؤ عن الأوطان ، ينصره فيه الأخيار ، من
أهل ذلك الزمان ؛ قوم اشتق اسمهم من الكتان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا

الفج سمي فج الأخيار . والواقع أن أبا عبد الله كان يستغل اسم المهدي في نشر دعوته ، وكان في الوقت نفسه يخاص له الإخلاص كله .

ومما لا مرأ فيه أن تأميم سعيد بن الحسين على يد إمامه الحسين بن أحمد العلوي ، لم يثر في نفس أي عبد الله من الحنق ما أثاره بين القرامطة . فظل على ولائه لسلمية ، وأخذ يرسل رسله وهداياه إلى الإمام الحسين المستقر أولا ، ثم إلى الإمام المستودع سعيد الخير ثانيا ، مما جعل الأول يتنبأ للثاني بقرب قيام دولته في المغرب ، فيقول له : « هذه دولتك قد أقبلت ، ولكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب » . ويقول أيضا : « إنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة تنبؤ بها عن الأوطان ، وتلاقى محنا شديدة ، مشيرا بذلك إلى رحلته إلى بلاد المغرب ؛ ولذلك آثر الإمام المستودع — سعيد الخير — بلاد المغرب على اليمن ، لحسن العلاقة التي كانت قائمة بينه وبين أي عبد الله داعي بلاد المغرب ، حتى إننا نراه في سفره يصحب رسل أي عبد الله ، فكان — كما يقول أبو حنيفة النعمان المغربي (١) — « معه بعض السكتاميين الذين كانوا ينفذون إليه » . ويقول جعفر الحاجب في رحلة المهدي : « إنه كان مع المهدي جماعة من السكتاميين الذين كانوا ينفذون إلينا إلى سلمية (٢) » . كل هذا يجعلنا نقول في كثير من الاطمئنان : إن اتجاه المهدي إلى بلاد المغرب كان بوحى من أي عبد الله الشيعي . يقول المقرئ (٣) : « وسير أبو عبد الله إلى عبيد الله بن محمد (٤) رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له ، وأنه ينتظره ، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص » . ويقول النيسابوري (٥) : « ومع ذلك كانت كتب أي عبد الله تترى تطلبه حيثما نزل ، فكاتب إليه أن أقدم فقد استقامت لك العساكر » .

وإذا صح ذلك ، فما هي الدوافع التي دفعت بأبي عبد الله إلى طلب المهدي ليقم بجواره ، مع أن ذلك قد يحدث من نفوذه ؟ الواقع أن أبا عبد الله كان يعتقد أن ظهور

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤٢ .

(٢) الباني (سيرة جعفر الحاجب) ص ١١٦ .

(٣) الخطط : ج ٢ ص ١١

(٤) يقصد محمد الحبيب الذي يقال إنه هو الحسين بن أحمد العلوي .

(٥) كتاب استنار الامام ص ١٠٦ .

المهدي بين ظهري أنصاره يشجذ عزائمهم ، خصوصا أنه كان قد انتهى من صراعه مع المغاربة ، في السنة التي خرج فيها المهدي من سلبية وبدأ صراعه مع دولة الأغلبة ، أي أنه بدأ حربه مع دولة منظمة ، لها جيشها الثابت الدائم ؛ وهذا يحتاج إلى مؤازرة معنوية ، قد يجدها في وجود المهدي بجانبه . لذلك كان يؤكد لأنصاره أن المهدي سيفاجئهم بالظهور بينهم . ويبدو أن كثيرا من أنصار أبي عبد الله قد جزعوا من سجن المهدي في سجناسة ، وخافوا على حياته ؛ إلا أن أبا عبد الله كان يؤكد لهم ولجميع أصحابه ، الذين استجابوا لدعوته ، أن الله سبحانه يحفظ المهدي ويقيه ، ويدفع عنه ، حتى يظفروه ويعز نصره . وكان من أثر ذلك أن « قويت بصائرهم ، وخلصت نياتهم » (١) .

على أن اتجاه المهدي إلى بلاد المغرب ، وتحقيق أبي عبد الله من وجوده في شمال إفريقية ، جعله يحزم بقرب ظهوره ، ويستغل ذلك في الخط من شأن أعدائه الأغلبة . فكان الدعاية إلى المهدي وهو في سجنه بسجناسة ، أثره الفعال في التفاف الناس حوله . ولهذا كان من أهم ما كان يذيعه بين الناس : « المهدي يخرج في هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فيأطوب لمن هاجر إلى وأطاعني » (٢) . كما جعل « يغري الناس بأبي مضر زيادة الله ويعيبيه » (٣) ، ويذكر كرامات المهدي وما يفتح الله له (٤) . وهكذا كان الاتصال السري بين أبي عبد الله وإمامه في سلبية أو في طريقه إلى المغرب أو في سجنه بسجناسة ، أثره الكبير في التفاف الناس حوله ، ثم في نجاحه بعد ذلك .

وعلى الرغم من سجن المهدي بسجناسة في أقصى بلاد المغرب . كان أبو عبد الله على اتصال دائم به ، حتى إنه لما انتصر على زيادة الله في حربه الأولى معه ، بشره بذلك . يقول ابن خلدون : (٥) « وكتب الشيعي بالفتح إلى المهدي ، مع رجال من

(١) النعمان : شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٣٣

(٢) المنصوري : زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٥

(٣) المصدر نفسه

(٤) المقرئ : الخطوط ج ٢ ص ١١

(٥) المعبر ج ٤ ص ٣٥

كتامة أخفوا أنفسهم حتى وصلوا إليه ، وعرفوه بالخبر . ويقول المنصوري (١) :
« وعظم أمر أبي عبد الله ، واستقرت دولته ، وكتب . . . كتابا إلى المهدي وهو
في سجن سجلاسة يبشره ، وسير الكتاب مع بعض ثقاته ، فدخل السجن في زى
قصاب يبيع اللحم ، فاجتمع به وعرفه ذلك . وهذه الأمثلة تدل على ما كان هنالك
من اتصال بين رئاسة الدعوة في منفاه وبين رجالها ، كما تدل في الوقت نفسه على
الطرق المحكمة التي كان يتبعها الدعاة في سبيل الاتصال برؤساء الدعوة .

ومع أن أبا عبد الله كان يجب أن يقيم إمامه في شمال إفريقيا ، ليتخذ من قربه
منه ، مع أنه كان مسجوناً ، وسيلة للتأثير في أنصاره ، إلا أنه كان يشفق عليه ،
ويخاف على حياته ؛ حتى إنه لما قضى على آخر جيوش الأغالبة ، وفر زيادة الله إلى
المشرق ، لم يشأ أن يتسرع في ذكر اسمه ، وإعلان خلافته ، خوفاً على حياته . لذلك
أمر « بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة (٢) » .
وضرب السكة منقوشاً على أحد وجهيها « بلغت حجة الله » ، وعلى وجهها الآخر
« تفرق أعداء الله » . وكتب على السلاح « عدة في سبيل الله » ، ونقش على خاتمه الذي
يختم به « فتوكل على الله إنك على الحق المبين (٣) » ، وعلى خاتمه الذي يستخدمه في
الطبع على السجلات « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » . وإذا
ركب نودي في الخيل « يا خيل الله اركبي » ، وكتب على أنفاذ الخيل « المملك لله » ، وعلى
أعلامه أي بنوده « سيزم الجمع ويولون الدبر (٤) » . كما أن الخطباء لما طلبوا منه أن
يذكر لهم اسم من يخطبون له . لم يذكر اسم أحد ، ولم يعين أحداً (٥) .

وقد يسأل بعض : هل كان أبو عبد الله يجهل اسم المهدي حتى لا ينادى باسمه ؟
أو أن المهدي أمره بذلك ، حتى لا يتسرب شيء عن شخصيته ، فيكون في ذلك نهايته ؟
أما أن أبا عبد الله لم يكن يعرف اسم المهدي ، فهذا غير معقول ، بعد أن رأيناه

(١) زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٨

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٦

(٣) سورة النحل آية ٧٩

(٤) سورة القمر آية ٤٥

(٥) البهائي : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٣

من تبادل القواد والرسائل بينهما . حقيقة أن أبا عبد الله لم يكن قد رأى المهدي مطلقاً ، ولكن عدم رؤيته إياه ليس معناه أنه يجهل اسمه أو حقيقة ، كما لا يبعد أن يكون عبيد الله هو الذي أمره بذلك .

لم يكن أبو عبد الله يعمل على تكوين ملك لنفسه أولاً ، بل إنه أظهر منتهى الإخلاص في خدمة سادته من الأئمة ، حتى انتهى به الأمر إلى تكوين دولة لهم في سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يكن كآبي سعيد الجنابي يعمل مستقلاً أو شبه مستقل ، أو كعلي بن الفضل الذي أسكرته نشوة الانتصار والتملك ، فخرج عن مألوف جماعته ، ونادى بالثورة على الفاطميين والإسلام جميعاً . بل لم يكن أبو عبد الله كالقرامطة الذين ملأ الحقد نفوسهم حين رأوا حجة ، إمامهم يحل محل الإمام ، فانتقضوا على الإمامة الجديدة ، وحاربوها في غير هوادة ، وإنما كان أبو عبد الله يعمل - منذ وطئت قدماه بلاد المغرب - في إخلاص للفاطميين ، ويعرض نفسه وصحته للفناء في سبيل إمامه ومذهبه . كان يعمل لتشديد ملك ، وإقامة دولة ، وخلق خلافة ، لكنه لم يكن يطمع في رياستها ، فلما دنت له القحطوف سلبها إلى مستحقها وهو المهدي ؛ لذلك كان حتماً عليه أن يبذل ما في طاقته لإحضار المهدي من سجلماسة سليماً معافى . وإن أشد أيام أبي عبد الله وأحلكها كانت تلك الأيام التي قضاها بعد أن أزال دولة الأغلبة ، وأسس دولة إسماعيلية قوية في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، كان هو نائب رئيسها . وكان يعنيه أن يرى المهدي فوق عرشه ، وإلا انتقض عليه جميع من حملوا السيف معه . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم هذا الملك الجديد ، واستمر ينظمه وعينه ترنو إلى ذلك الرجل الذي كان محبوساً بسجلماسة لثلاثة أشهر (١) .

خرج أبو عبد الله بجيش ضخم من إفريقية (تونس) قاصداً بلاد المغرب الأقصى إلى سجلماسة ، نخافته جميع القبائل المغربية . وهو في طريقه إلى تلك المدينة ، فسلمت قيادتها إليه . وكان أبو عبد الله يستطيع أن يسحق بجيشه الكبير ملك بني مدرار ، ويستولي في زمن قصير على حاضرتهم سجلماسة ؛ ولكنه رأى ألا ياجأ إلى السيف إلا إذا أعجزته الحيلة ، فأرسل إلى الياسع بن مدرار يستأينه ويطمئنه ،

(١) البنانى : سيرة جعفر الحاجب (من المنتخب) ص ١٢٣ . دخل أبو عبد الله رقادة في

رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وخرج منها إلى سجلماسة في شوال من السنة نفسها .

ويقسم له أغاظ الأيمان أنه لم يأت لحربه ، وإنما فعل ذلك ليحفظ على المهدي حياته . يقول أبو حنيفة النعمان (١) : « وأرسل أبو عبد الله رسلا من الخدم إلى اليسع بن مدرار ، وكتب إليه كتابا يؤمنه من جانبه ، ويتلطف له فيه ، ويذكر أنه إنما قدم لحاجة ، ولم يقدم للحرب ، ووعده بالجيل من نفسه ، والبر والإكرام ، وأكد ذلك له وبالغ فيه . فلما وصلت الرسل بكتابه إليه رى به بعد أن علم ما فيه ، وأمر بقتلهم فقتلوا . كما أن أبا عبد الله لم يذكر لليسع أية إشارة عن اسم المهدي ، حتى لا يثير حفيظته وحنقه عليه ، وإنما لجأ إلى الملاينة والتورية ، فكتب من جديد لليسع بخبر المهدي ، « وأنه إليه جاء ، ويسأله ترك التعرض له ، ويعده بالجيل » (٢) . بل لقد أرسل الداعي إلى اليسع ثلاث مرات ، وتناسى جفاهه وقتله رسله ، كل ذلك ليحكم الحصار حول سجلماسة ، ولا يثير كراهية صاحبها اليسع .

وقد لجأ أبو عبد الله إلى السيف حين أعجزته الخيل وأخفقت السياسة . ومن حسن الحظ أن المهدي لم يكن هو الشخص الوحيد الذي يدعو له أبو عبد الله بسجلماسة ، حتى إن اليسع أمسك عن الفتك به . وعلى أية حال ، فقد أحاط أبو عبد الله بسجلماسة ، وحاربه اليسع ساعة ، ثم حال الليل دون احتلال الجيش الإسماعيلي هذه المدينة ، « وبات أبو عبد الله ومن معه تلك الليلة في غم عظيم ، لا يعلمون ما صنع بالمهدي (٣) » ، على حين كان اليسع ومن معه من أقاربه قد أفلتوا بحشاشاتهم .

على أن جعفر الحاجب ، الذي شاهد كل هذه الحوادث في سجلماسة ، يقول إن اليسع أخرج المهدي ، وتمكن من الإفلات ، في الوقت الذي كان فيه أبو عبد الله وأنصاره مشتغلين باستقبال المهدي . ثم أحضر القائم ، وكان مسجوناً في منزل غير منزل المهدي ، كما أحضرت حاشية المهدي ، الذين شاركوه في بأسائه وضرائه ، ومنهم جعفر الحاجب ، وتبعوا اليسع ، وقبضوا عليه وقتل .

وهكذا سر الناس سرورا عظيما ، حتى كادت تطيش عقولهم ، وحف المؤمنون بالمهدي والقائم ، والدعاة يمشون حولهما ، وأبو عبد الله يمشي بين يدي المهدي ويقول :

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٤

(٢) شرح الأخبار ص ٣٣

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٥

« هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون ، ويحمد الله ويشكره ، ويبيكي من شدة الفرح ، (١) . وهكذا تكلمت أعمال أبي عبد الله الشيعي بالنصر والظفر ، وأقام دولة الفاطميين المنشودة ، وانتهى في اليوم نفسه ذلك الدور المعروف بدور الستر، أو بدور الأئمة المستورين ، ودخل تاريخ الإسماعيلية في طور جديد هو دور الظهور، أي ظهور الأئمة الإسماعيلية ، الذين بدءوا يجهرون باسم الخلفاء الأئمة . ووصل المهدي - كما سنرى - إلى إفريقية في أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، ولم يبق أحد من العرب والعجم من وجوه الناس وغيرهم إلا استقبلوا المهدي عم ، يوم دخوله إفريقية (٢) . »

٣ - في فارس

اتخذت الدعوة الإسماعيلية طريقها إلى فارس منذ هرب محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومعه حجته ميمون القداح ، من الحجاز إلى شرق المملكة الإسلامية . وكان للجهود الجبارة التي بذلها عبد الله بن ميمون القداح حجة الإمامين المستقرين : عبد الله الرضا وابنه أحمد ، أثر كبير في تلك البلاد . واشتهر من دعائه هناك داع يسمى « خلفا » ، استطاع أن يكوّن في بلاد الري جماعة من الإسماعيلية سميت « الخلفية » نسبة إليه . وكان يشرف عليها بنفسه تارة ، ويشرف عليها ابنه أحمد بن خلف تارة أخرى . وبفضل هذه الجهود الأولى انتشرت الدعوة الإسماعيلية في الري وطبرستان وآذربيجان ، وانضم إليها بعض الوجوه الممتازين في العلم والأدب خاصة . فمن هؤلاء الداعي غياث ، الذي استعان بأدبه ، وألف كتابا أسماه « البيان » ، نحا فيه منحى الإسماعيلية جميعا في التأويل ، فأوّل - كالإسماعيلية - معاني الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من التكليفات الشرعية ، كما كانت له مواقف حاسمة في مناظرة العلماء السنيين . وقد تمكن الداعي غياث بفضل بيانه من الوصول إلى قلوب سامعيه ، فانتحل كثير مذهبهم ، وأقبلوا على دعوته جماعات . وكان يطلق على أشياعه اسم « الخلفية » أحيانا ، و « الغياثية » أحيانا أخرى (٣) .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٥

(٢) البياضي : سيرة جعفر الحاجب ص ١٣١

(٣) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٧٢

ذاع صيت الداعي غياث في الوقت الذي أسندت فيه رئاسة الدعوة وإمامتها إلى سعيد الخير ، وهو عميد الله . وبينما كان صاحب الشامة (الحسين بن زكرويه) يفتك بأفراد بيت المهدي في سلمية ، كان الداعي غياث يدعو له في المشرق ويحاول أن يجذب إلى إمامه كبار الأمراء والحكام ، فاستقر بمرور الوقت بخراسان ، وتمكن من جذب الأمير الحسين بن علي المروزي إلى المذهب الإسماعيلي . وكان لهذا الأمير نفوذ لا يحد في خراسان ، وخصوصا في بلاد الطالقان وهرات والغور . وكانت الدعوة الإسماعيلية بفارس تمتاز بأمر ثلاثة :

الأول : ميل الفرس إلى الدعوة الإسماعيلية لما كان بينهم وبين العلويين الحسينيين من علاقة طيبة ، بلما بينهم من صلة النسب من جهة ، ولرغبة كثير من الفرس في الانتقام من الأمويين والعباسيين من بعدهم من جهة أخرى ، ثم لأنه يسهل على كثير منهم أن يحققوا مآربهم الشعوبية عن طريق التقرب من أهل بيت علي ، بعد أن عجزوا عن طريق العباسيين .

الثاني : أن القائمين بالدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد كانوا من العلماء ، فلم يكن كبير الدعاة هنالك يبيع نشر الدعوة إلا لمن كان ضليعا في العلم والمعرفة ، وذلك بسبب انتشار الثقافة بين الفرس . ومن ثم اتخذ الداعي غياث من الفيلسوف أبي حاتم معروف النيسابوري نائبا عنه في نشر الدعوة الإسماعيلية . وكان أبو حاتم هذا من العلماء الفلاسفة ، كما كان شاعرا ، عالما بتاريخ العرب وفلسفة اليونان . ولذلك كان تأثيره في العامة عظيما كتأثير أستاذه غياث .

الثالث : رواج نظرية المهدي في تلك البلاد . ولا غرو ، فقد شغلت هذه النظرية أذهان الفرس ، وآمنوا بها إيمانا جعلهم ينضون تحت لواء الإسماعيلية بسهولة تامة ، ليحققوا من ورائها آمالا كبارا كانت تجيش في صدورهم . غير أن الدعاة هناك كانوا يسرفون في الإيمان بها ، حتى كانوا يحددون موعد ظهور المهدي . ولا بدع فقد كانت الإمامة تنو ببيصرها إلى الناحية الغربية من المملكة الإسلامية ، لا إلى الناحية الشرقية . وقد أخطأ الداعي معروف ، كما أخطأ زعيمه غياث ، في تحديد كل منهما موعدا لظهور المهدي ، فلما لم تتحقق نبوءتهما انفض كثير من حولهما ، واشتد السنيون عليهما ، واتخذوا من ذلك ذريعة للنكاية بالإسماعيلية في الري .

وخراسان ، واتهموا غياثا وتلميذه بالكذب ، بل لقد انضم إلى السنيين في هذا جماعة من الشيعة الذين كانوا يخلصون لعلى وأبنائه جميعا . فكان من أثر ذلك أن فرغياث (١) . ولا بد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ٣٩٦ هـ ، أى قبل ظهور المهدي .

غير أنه من حسن حظ الداعي أبي حاتم معروف النيسابوري ، أن مات آخر سلالة الداعي الأول خاف ، فترك هذا أمور الخلفية إلى أبي حاتم ، فذاع صيته في عالم الدعوة ، وعمر طويلا ، حتى إنه عاصر المهدي حين كان حجة وإماما مستورا ، كما عاصره حين أصبح خليفة .

وبما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء العلماء الدعاة كانوا يناصرون نظرية المهديّة قبل قيام الدولة الفاطمية ، وينادون بقرب ظهور المهدي الذي سيملا الأرض عدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، لجذب الناس إلى الالتفاف حول منقذهم المنتظر وحول دعائهم . فلما قامت الدولة الفاطمية ، وظهر المهدي ، باسم الخليفة الفاطمي ، عمل هؤلاء العلماء على إحاطة الأئمة الخلفاء بهالة من التقديس ، حتى لقد وصلوا بهم إلى درجة العبادة . وعلى أية حال كان لهذه النهضة المذهبية في فارس في عهد عبيد الله أثر بعيد ، حتى لقد أصبحت هذه البلاد بعد قرنين مستودعا هاما لجماعة الزارية ، أتباع نزار بن المستنصر ، الذين أنشأهم الحسن الصباح ، ومن سلاطنتهم أغا خان اليوم .

٣ — رحلة عبيد الله إلى بلاد المغرب

لم تعد سلبية منذ أن ولي الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) مكانا صالحا لإيواء الأئمة المستورين ، كما لم يعد الإمام الإسماعيلي المستودع المستور ، يتمتع بما كان يتمتع به أئمة الاستقرار قبله ؛ فثار القرامطة في وجهه . هذا بالإضافة إلى أن رواج الدعوة الإسماعيلية راجا كبيرا في كل من اليمن وبلاد المغرب ، قد آذن بقرب زوال عهد سيادة سلمية ، إذ كان لابد للإمام المستور من أن يظهر ، ولدور الستر من أن ينتهي ، وللمذهب الإسماعيلي من أن ينهض على أئمة خلفاء . لكل

(١) طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ١٦٠

هذه الأمور بدأت رحلة المهدي — سعيد الخير — في سنة ٢٨٧ هـ ، وانتهت بإخراجه من سجن سجلماسة ، وتربعه على عرش الخلافة الإسماعيلية في أوائل سنة ٢٩٧ هـ .

ويمكننا تقسيم رحلة عبيد الله من سلمية إلى رقادة إلى مراحل أربع :

(١) من سلمية إلى الرملة :

وفي هذه المرحلة نتناول أسباب هجرة المهدي من سلمية . وقد أشرنا إلى تلك الأسباب عند كلامنا على علاقة المهدي بالقرامطة في دور الإمامة ، وخصوصا قرامطة الشمال وقرامطة السواد ، وعند كلامنا على أبي عبد الله الشيعي ، وموقف المهدي منه . والحق أن ثورة القرامطة على سعيد بن الحسين ، وإغراء أبي عبد الله إياه بالذهاب إلى بلاد المغرب — كان ذلك كله من أسباب هجرته . أضف إلى ذلك تنبيه الدولة العباسية إلى خطورة مركز سلمية في القرن الثالث الهجري ؛ فقد أدرك كل من المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) والمكتفي (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) أن الدعوة لإمام إسماعيل مستورة قد بلغت ذروتها : فهاهي ذي بلاد السواد تموج بأتباعه على الرغم من أنها كانت تقع تحت سمعه وبصره ، وهاهو ذا ابن حوشب وزميله ابن فضل يستوليان على أحسن بقاع اليمن ويبشران بقرب ظهور المهدي من واد إسماعيل ، وها هو ذا أبو عبد الله الشيعي ينشر الدعوة لذلك الإمام الإسماعيلي المستور ، ثم يأخذ بتلايبب دولة الأغلبية المتداعية . وليس هذا وحده ، بل لقد أدرك العباسيون أن حركة كهذه قد اختمرت في فارس وخصوصا في الري وطبرستان وخراسان ، أدركوا هذا كله ، كما أدركوا أن نشاط الإسماعيليين يزداد في سلمية في حزم وتؤدة . فلم يكن بد إذن من أن يعمل العباسيون على القضاء على هذه الحركة قبل أن يستفحل خطرهما . ومما ساعد العباسيين أن أحد ولادة سلمية من قبلهم قد ثارت شكوكه حول ذي مقام كبير في هذه المدينة ، واعتقد أنه هو الذي تروج الدعوة باسمه في كافة أنحاء العالم الإسلامي . وكان ذلك الوالي صادق الفراسة ، لأن هذا الكبير لم يكن سوى المهدي نفسه الذي تزعم مركزه بعد انتفاض حمدان عليه ، ومحاولة أبناء زكرويه الفتك به . لذلك أدرك الإمام الإسماعيلي استحالة بقائه في سلمية ، وعزم على الهرب .

منها . وسرعان ما عمل دعاة المهدي ببغداد على عزل والي سلبية^(١) ، ولفقوا نظره إلى الخطر المزدوج من العباسيين ومن أبناء زكرويه ، وبعثوا إليه بهذه الأخبار ، على أجنحة الطيور ... فسبقت كتب الدعوة إلى سلبية قبل التركي^(٢) ، أي الوالي . وكان بقصور المهدي عدد كبير من الأهل والأقارب والأتباع ، فلم يستطع أن يصحبهم في فراره ، واختار جماعة ممن برعوا في فنون الحيلة والتخفي ، وترك داعي دعائه أبا الحسين لتنظيم شؤون الدعوة في سلبية ، وأخذ معه ولي العهد ، أبا القاسم الإمام المستقر ، وفيروز باب أبوابه ، وجعفر الحاجب ، الذي كتب سيرته محمد اليماني ، وأبا العباس محمد بن أحمد بن زكريا أخا أبي عبد الله الشيعي ، واثنتين أخري . أما نساء قصر المهدي ، فلم يأخذ منهن سوى أمه وابنتيه وابنتي أخيه ، وقهرمانته . وترك قصوره تموج بأهله^(٣) . وقد قيل إنه لم يأخذ سوى أبي القاسم واثنتين أخري ، أحدهما جعفر الحاجب^(٤) .

وكان خروج عبيد الله المهدي من سلبية وقت العصر ، كما كانت وجهته مدينة حمص . وقد استعان ببعض أتباعه من زعماء العرب ، فرافقوه ليلا حتى حط رحاله بحمص في اليوم التالي ، ومنها قصد طرابلس الشام . ويرى النيسابوري^(٥) أنه قصد الرملة بعد أن بقي في طرابلس يوما واحدا دون أن يمر بدمشق . ويبدو أن جعفرا الحاجب أصدق من النيسابوري ، لأنه كان في حاشية المهدي ، فيذكر أنهم حطوا رحالهم بدمشق ، ثم قصدوا طبرية ، إلا أنهم اضطروا إلى مغادرتها فورا ، ويمموا شطر الرملة ، واستقروا بها من رجب سنة ٢٨٩ هـ إلى منتصف سنة ٢٩١ هـ .

(١) كان والي سلبية هذا تركيا ، هاله وجرد رجل هاشمي في سلبية ، وقد سمع بأذنيه تهاوس الناس عليه ، وتحقق منهم ، أن هذا فعله في كل من يلى البلد (سلبية) حتى يردم له خولا وعبيدا ، لأنه يرى له بأس عظيم . ويقال إنه يملك المشرق والمغرب ، وله في كل بلد داع ، وأمواله أكثر من أموال الخليفة ،، (سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٩) . ولما بدا جشع هذا الوالي ، أمر المهدي دعائه في بغداد بالعمل على عزله من سلبية ، فلما عزل أسر بتشككه هذا للخليفة المعتضد .

(٢) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ص ١١٠ ، ١١١

(٤) النيسابوري : اختصار الامام ص ٩٧

(٥) المصدر نفسه

كانت رحلة المهدي سريعة ، فإنه لم يستقر هو وأصحابه في بلد ما أكثر من يوم واحد ، وربما كانوا لا يمكنون ساعة واحدة ، كما كانت الحال في طبرية . وكانت هذه الرحلة منظمة تنظيمًا دقيقًا ، فبينما يصحب رجل النساء بعض خواص المهدي ، إذا بجماعة آخرين يشرفون على الأمتعة ، ويسير غيرهم في ركابه دون أن يظهروا اتصالهم به (١) . ومن أهم ما يسترعى النظر حقًا في هذه الرحلة نظام الجوسوسية الإسماعيلية الدقيق ، فقد كان المهدي يعرف في دقة تامة ، الخطر الذي يتعرض له عن طريق حمام الزاجل ، فيعرف أخبار العباسيين وأخبار أتباعه في سلبية ، يعرف هذا كله بفضل دعائه المقيمين (٢) . من ذلك أنه عرف بعد مغادرته دمشق أن رسول الخليفة العباسي سيصل إليها بعد حين ، ووجد الداعي المقيم في طبرية ينتظره على الطريق ليقول له : « يامولانا ! إن كتاب الداعي المقيم بدمشق وصل إليه على جناح طائر ، يعرفه فيه أن الرسول ورد من بغداد إلى عامل دمشق في طلبنا اليوم الذي خرجنا فيه ، ويسألنا ألا ننزل بطبرية لكيلا يدركنا » (٣) .

وهذا نوع دقيق من أنواع الاتصال بين رئاسة الدعوة وبين الانصار ، مما يجعلنا نعتقد أن رئاسة الدعوة ، سواء في سلبية أو في أثناء رحلة المهدي ، كانت تتصل بالاتباع بشبكة محبوكة الحلقات متصلة الأطراف ، من البريد الجوي عن طريق حمام الزاجل ، الذي برع في استخدامه دعاة الإسماعيلية المقيمون ، كما نعتقد أن جماعة الإسماعيلية كانت في ذلك الحين منظمة تمام التنظيم ، حتى أصبحت مثل أعلى للجاسوسية المنظمة في العصور الوسطى . ولسنا نغلو إذا قلنا إن الجمعيات السرية اليوم وهيئات الجاسوسية في كافة أنحاء العالم ، تلاميذ لتلك الجاسوسية الإسماعيلية .

ونخيل إلينا أن خطوات هذه الرحلة كانت قد درست دراسة وافية ، فلم نجد

(١) الباقى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١١

(٢) الداعي المقيم هو الذى يتبع عليه البقاء في بلد ما ، وإليه يرجع الفضل في تنظيم الاتصال بينه وبين رئاسة الدعوة ، بل بينه وبين غيره من الدعاة المقيمين في المدن الأخرى ، وأخذ المهدي على المدعيرين . أما الداعي السيار فهو المتنقل .

(٣) الباقى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢

ثمة صعوبة اعترضت المهدي في طريقه إلى المغرب إلا تغلب عليها ، بفضل هذه الخطة المحكمة . وها هي ذي الدولة العباسية قد عرفت أنه كان يقيم بسلمية وأنه فر منها ميماشطر الجنوب ، فتتبعته في دمشق وطبرية والرملة . ومع ذلك لم تستطع أن تنال منه غرضاً ؛ كل ذلك كان راجعاً إلى هذه الجاسوسية المنظمة ، وإلى إخلاص دعاة له . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كان المهدي وغيره من أئمة الإسماعيلية وحججهم ودعاتهم يعملون على جذب بعض الحكام إليهم . فبينما نرى بعض الحكام الذين دخلوا في خدمة العباسيين ، يتظاهرون بأنهم يدينون بالعقائد السنية ، إذا هم يدينون في الباطن بعقائد المذهب الإسماعيلي ، وينتصرون لقضية الإسماعيلية ، ويشايعون المهدي المنتظر ، ويعملون على نجاح دعوته . وكان عامل مدينة الرملة من قبل الطولونيين من أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي ؛ فقد كان إسماعيلياً يتستر على المهدي وعلى حاشيته . وفيه يقول جعفر ، وهو من الذين صحبهم المهدي في رحلته كما تقدم : « كان مأخوذاً عليه ، فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي ع م كيف يخدمه ، ورفع المهدي فوق رأسه ، وقبل يديه ورجليه (١) » . ولذلك لما وردت إليه رسالة والي دمشق وفيها وصف دقيق للمهدي ، كتب هذا الوالي إليه يقول : « بأنه ما رأى هذا الرجل ، ولا هذه الصفة ، ولا علم بجوازه ، إن كان قد جاز . وإن لم يكن قد جاز ، فنحن نترصده على كل طريق إن شاء الله (٢) » . وكان من أثر ما أظهره هذا العامل من إخلاص ومحبة أن جدد المهدي بيعته .

وبما يسترعى النظر في هذه المرحلة الأولى من رحلة المهدي ، اهتمام الإسماعيلية - أئمتهم وعامتهم - بعلم النجوم ، الذي كان له أثر بعيد في نفوس كثير من الخلفاء الفاطميين . فقد أكد المهدي لسامعيه غير مرة أنه سيكون صاحب دولة ، معتمداً في ذلك على بعض الظواهر الفلكية ؛ ومع أن هذه أمور قد يلجأ إليها بعض الزعماء لتشجيع الأشياع وإثارة حماسهم ، فإنها كانت تقابل من المهدي ومن أتباعه على أنها حقائق ثابتة . ولا غرو ، فقد بشر المهدي تابعه ، عامل الرملة ، بأنه سيقضي على العباسيين ، واستغل بعض الظواهر الفلكية ، فقال : إنها أمارات على قيام دولته . ويذكر جعفر

(١) الباقى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢

(٢) المصدر نفسه ص ١١٢

الحاجب أن عامل الرملة تألم أشد الألم ، حين قرأ رسالة العباسيين بالقبض على المهدي ، وبكى : « فقال له المهدي : طب نفسا وقر عينا ، فولدى نفسى بيده ، لا وصلوا إلى أبدا ، ونملكنا أنا وولدى (أى النائم الإمام المستقر ، والابن التعلیمی للمهدي) نواصى بنى العباس ، ولتدوسنّ خيولى بطونهم . فلا تخش على شيئا بما ترى ... وسقطت فى تلك الليلة نجوم ؛ فخرج المهدي والقائم والعامل والجماعة إلى سطح دار العامل ينظرون وقد انقلبت المدينة بصراخ الناس ، والابتهاال إلى الله عز وجل ... فرأيت المهدي ع م قد شد يده على يد العامل وقال : هذه النجوم لأحدى دلائلى . ومن بعض علاماتى (١) . »

(ب) منه الرملة إلى القسطنطينية

خرج عبيد الله من الرملة (٢) بعد انتصار محمد بن سليمان الكاتب على الحسين بن

(١) النجاشي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢

(٢) الواقع أننا نرى أنفسنا أمام نصوص قيمة متعارضة ؛ فان جعفر الحاجب ، وقد شاهد بعينه تلك الحوادث ، يؤكد أن قافلة الحرب لم تمكث بالرملة سوى يوم وليلة من سنة ٢٨٩ هـ ، على حين يؤكد النيسابورى الاسماعيلى أن المهدي استمر سنتين (من رجب سنة ٢٨٩ إلى منتصف سنة ٢٩١ هـ) وأنه لم يفادر الرملة بفسطاط إلا بعد لحاق الهزيمة بابى مهزول الحسين بن ذكرويه فى أوائل ص ٢١١ هـ . إذن كيف نوفق بين ما ذكره جعفر الحاجب من أنهم خرجوا من الرملة فى رجب سنة ٢٨٩ هـ ، وما ذكره النيسابورى من أن خروجهم من الرملة كان بعد نحو عامين ؟ والذي يبدو لنا أن جعفر الحاجب لم يشأ أن يذكر بقاء مولاة فى الرملة هذه المدة الطويلة ، حتى لا يعيط اللئام عن اتصاله بالقرامطة ، لأن الاتصال بالقرامطة ، والتقرب إليهم - ولو ظاهريا - كان من الأمور غير المرغوب فيها عند الاتقياء خاصة . أما النيسابورى فقد ذكر ما ذكره على حقيقته ، وبرأ فى الوقت نفسه مولاة المهدي عن الاتصال بالقرامطة .

وقد نسأل بعد ذلك : هل كان محمد بن سليمان أو عيسى الزوشرى - اللذان تقابل معهما المهدي فى مصر - على حكم مصر سنة ٢٨٩ هـ كلاهما بل كان الطولونيون لا يزالون يحكمون مصر فى ذلك الوقت ، ولم يتول محمد بن سليمان أو عيسى الزوشرى تلك البلاد إلا بعد أن قضى محمد بن سليمان على القرامطة أولا ثم على الطولونيين فى مصر ثانيا . وكان قضاؤه على الطولونيين وتخريبه مدينة القطائع فى سنة ٢٩٢ هـ . وإذن يكون ما ذكره النيسابورى فى كتابه استتار الامام (ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠) ، صحيحا ، وما ذكره جعفر الحاجب (سيرة جعفر ص ١١٢ ، ١١٣) على العكس من ذلك .

زكرويه القرمطى ، المعروف عند الإسماعيلية بأبى موزول ، وبعد أن تحقق المهدي من أن القرامطة أفنوا أسرته وأدله في سلبية ، وأن بقاءه في الشام قد أصبح أمرا محفوفا بالمخاطر . وليس من شك في أن المهدي كان وهو بالرملة ، على اتصال دائم بدعائه في الأقاليم المختلفة ، وخصوصا بتلك الأقاليم التي مر بها . وليس من شك أيضا في أن وجهة المهدي لم تكن معروفة لاتباعه على وجه التحقيق ؛ فقد كانوا جميعا يعتقدون أنهم سيلقون عصا تسيارهم في بلاد اليمن ، عند داعيهم المخلص ابن حوشب ، ومن ثم خرج المهدي في رحلة من الرملة ميما شطر مصر في منتصف سنة ٢٩١ هـ . وتمتاز تلك المرحلة من رحلة المهدي بأمور منها :

أن المهدي وجد له في مصر أشياء كثيرة ؛ فها هو داعيه المقيم ، أبو علي ، صهر باب أبوابه فيروز يستقبله بها ، ويختار له من ينزل عنده من الأشياع ذوي المكانة . وقد وقع اختيار الداعي على ابن عياش ، لما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند ولاية مصر ، وما كان من إخلاصه للمذهب الإسماعيلي وأنصاره . وقد استطاع ابن عياش أن يمويه على والى مصر وقتئذ (وهو محمد بن سليمان الكاتب ، أو عيسى النوشري) ، ويحول دون القبض على المهدي . وليس من شك في أن المهدي كان على اتصال وثيق بداعيه أبى على الذى وضع له برنامج الإقامة في تلك البلاد ، والذي كان موضع ثقته . ولا غرو ، فإن أكثر دعاة المهدي من قبله ، ومن ثم تقدم إليه المهدي ع م قبل دخوله مصر بأن لا ينزله عنده ، ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند ابن عياش (١) .

كما كان أنصار المهدي بمصر يساعدونه على التستر بشتى الطرق ؛ ولذلك أقام مستترا في زى التجار ، فأتت الكتب من بغداد إلى صاحب مصر بصفته ، والأمر بطلبه والقبض عليه ، وإلى العامل بها . وكان بعض أهل خاصة ذلك العامل وليا مؤمنا (أى إسماعيليا أو على الأقل يعطف على الإسماعيلية ، وانظنه ابن عياش) : فأسرع إلى المهدي ع م بالخبر ، وأمره بالتستر ، ولطف في أمره إلى أن خرج من مصر (٢) .

(١) اليمنى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣

(٢) النعمان : افتتاح الدورة الزاهرة ص ٤١ (من المنتخب)

وقد بذلت الخلافة العباسية في هذه المرحلة جهودا كبيرة للقبض على المهدي ، ولكنها لم تستطع ، لما اتخذته من كافة وسائل الحيلة والحذر ، وما قدمه له أنصاره من معونة . وهكذا فانه لما جاءت أوامر بغداد إلى والي مصر بالقبض على المهدي ، وأرسلت أوصافه اليه ، تمكن أنصاره من إيهام الوالي أن عبيد الله لم يعد أن يكون رجلا هاشميا يحترف التجارة ، وأن الشخص المقصود قد فر إلى اليمن . ولم يكن الوالي وفيا للعباسيين ، فنظر إلى الأمر من ناحية الشككية وحدها ، وأمر بالقبض على بعض غلمان المهدي وقرره ، وضربهم ضربا خفيفا . وإنما فعل ذلك ، خوفا من أصحاب الأخبار . وقد خصص العباسيون عشرة آلاف دينار لمن يدل على المهدي ، مما جعل مركزه في مصر محفوقا بالآخطار .

يؤيد ذلك القول هاتان الحكايتان اللتان ذكرهما أحد أحفاد أبي علي الداعي المقيم بمصر ، وقد نقلهما المقرئ في كتابه المقتنى الكبير عن المسيحي قال : « وأخبرني ... ابن محمد بن أبي علي الداعي ، أن الإمام المهدي صلى يوما الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ، ومعه أبو علي الداعي . فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم الإمام وقال له : قد حصلت لي عشرة آلاف دينار ، فقال له : وكيف ذلك ؟ : قال : لأنك الرجل المطلوب ، فضحك المهدي ، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذي ضرب بيده إلى كفه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أنني إذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه ، كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ بيده ، وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ، فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة » (١) .

هذا ، ويقص علينا المسيحي حكاية أخرى نقلها عن هذا الداعي (٢) نفسه ونقلها للقارى . أيضا قال : « وكنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الإمام المهدي ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل أوى رجلا صفته كذا وكذا ، ونعته كذا — ووصف صفة المهدي — ومن أتى به فله عشرة آلاف

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر (نقلا عن المقرئ : المقتنى الكبير ورقة ٢١٨)

(٢) يقصد أبا علي ، داعي المهدي المقيم بمصر .

دينار حلالا طيبا ، فقال المهدي : يا أبا علي ! المقام بعد هذا عجز ؛ ثم ركب الجسر وسرت معه ، وسأله أن أرحل معه إلى بلاد المغرب ، فقال : علي من أذع ، من لي ههنا ؟ فبكيت ، فأشدني شعر امرئ القيس :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأبقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما تحاول ملكا أو نموت فنُعدرا

وقد رأينا أن المهدي فكر — وهو بمصر — في قصد بلاد المغرب ، وذكرنا ذلك في شيء من الإسهاب . ويهمننا هنا أن نقول إن المهدي فقد رجلا من خيرة أعوانه ، خرج من معسكره لينضم إلى صفوف أعدائه ، فألمه ذلك أشد الألم ، وعز عليه أن يكون النفاق نهاية داعي دعائه وباب أبوابه فيروز . وقد عبر المهدي عن ألمه لداعيه المقيم بمصر وهو أبو علي ، حين طلب هذا منه أن يصحبه إلى بلاد المغرب فقال له : إني لأعجب من رجلين مؤمنين : أحدهما تغمه فرقتنا ، والآخر تغمه صحبتنا (١) . وقد قرر المهدي الرحيل من مصر بعد أن بث العباسيون العيون

(١) وهناك مسألة يجب تناولها ، وهي : في عهد من من ولاية مصر كانت هذه الحوادث ؟ يخطئ كثير من العلماء بين كل من الخليفة المعتضد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) والمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ، ويرون أن هذه الحوادث كانت في عهد المعتضد . والصواب أنها كانت في عهد المكتفي ، الذي قضى على قرامطة الشمال في بلاد الشام . والذي لا نشك فيه أن مرور المهدي بمصر لم يكن في عهد الطولونيين ، بل كان في الفترة التي تلت سقوط دولتهم مباشرة ، وذلك على يد محمد بن سليمان . ونحن نعلم أن هارون بن بخارويه قتل في صفر سنة ٢٩٢ هـ ، وأن محمد بن سليمان بقي في مصر منذ ذلك الوقت حتى اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها ، بعد أن أقام فيها أربعة أشهر تقريبا ، وأن الذي خلفه في ولاية مصر هو عيسى النوشري . إلا أن هذا الوال لم يبق في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر ، حيث اغتصب منه الأمر ابن الخليلج — أحد قواد الطولونيين — الذي ولي مصر ثمانية أشهر ، استرد عيسى النوشري نفوذه بعدها .

وتختلف المراجع السنية في شخص الوالي الذي قابله المهدي في مصر : فيرى المقرئ (خطط ج ١ ص ٢٢٧) أن محمد بن سليمان ألقى القبض على المهدي ، ولكنه أطلق سراحه بعد إرشائه بالمال . ويرى ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) أن عيسى النوشري هو الذي ألقى القبض على المهدي . وتكاد تنحصر أقوال المؤرخين في محمد بن سليمان وعيسى النوشري ، مما يجعلنا نجزم بأن المهدي لم يمر بمصر في عهد ابن الخليلج ، وبالأول في عهد ولاية عيسى النوشري الثانية (من سنة ٢٩٣ إلى سنة ٢٩٧ هـ) ، وبخصوصنا أننا رأينا المهدي يخرج من الرملة في منتصف سنة ٢٩١ هـ ، وأن محمد بن سليمان يشهد مهرجان —

عليه ، حتى كادت تصيبه سهامهم ، وبعد أن قبض على بعض أتباعه وضربوا بالسياط ، وبعد أن أيقن المهدي مما أصابه أبو عبد الله الشيعي من نجاح في بلاد المغرب (١) .

(ح) من الفسطاط إلى طرابلس

أخذت رسل أبي عبد الله الشيعي تفد على عبيد الله منذ خرج من سلية . وقد تأكد أبو عبد الله من زوال دولة الأغالبة ، بعد أن مات عاهلهم إبراهيم بن الأغلب في سنة ٢٨٩ هـ ، وتولى بعده ابنه أبو العباس الذي اضطربت أمور الأغالبة في عهده ، وتأكد المهدي أن دولته قائمة ، فخرج من مصر وقصد بلاد كتامة ، يمكن يسمى الطاحونة في طريقه إلى طرابلس .

وقد عانى المهدي وصحبه في هذه المرحلة صعابا جمة ، بدأت بهجوم عيسى النوشري عليه قبل أن يغادر حدود مصر . وذلك أن العباسيين لم يكتبوا بما قام به محمد بن سليمان للقبض على المهدي ، بل اتهموه بالرشوة ، ونهب مال مصر ، وولوا عيسى النوشري مصر . ولما كان كثير من حاشية هذا الوالي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي ، فقد حذروا عبيد الله مما قد يحيق به من خطر العباسيين ؛ فتزيا بزي التجار ، وخرج من الفسطاط . إلا أن النوشري لحق به ، وقبض عليه ؛ لكنه أطلقه لما كان يظهره من تقوى وورع ، أو لأنه رشاه بمال كثير .

وتعزو بعض المصادر نجاح عبيد الله في الإفلات من النوشري إلى حادث طريف .

— التمثيل بصاحب الشامة في بغداد ، ثم يعود بعد ذلك إلى مصر لاقضاء على الدولة الطولونية . من ذلك نرى أن محمد بن سليمان هو الذي رشاه المهدي ، وغرر به أنصاره ، وأنه لم يقبض عليه ، كما ذهب إليه المقرئ وغيره من المؤرخين ، وإنما الذي قام به هو تذيب بعض أتباعه خوفا من أصحاب الأخبار . على ما ذكرنا . وأن النوشري هو الذي قبض عليه بعد خروجه من مصر . على ما نرى . ونخلص منه المهدي بالمال أو بالخديعة . ونكون بهذا قد اتفقنا مع مصادرنا الإسماعيلية التي تذهب إلى القول بأن وال مصر كان يعترف عليه ، ومع مصادرنا السنية كذلك . والخلاصة أنه إذا كان عبيد الله قد دخل مصر في عهد ولاية محمد بن سليمان فقد خرج منها في عهد النوشري .

انظر كتاب دور الفاطميين في مصر ، ص ٧٨ - ٧٩

(١) الباني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٤ - ١١٥

يتلخص في أن أبا القاسم ، ولي عهد المهدي ، كان قد نسي كلبا له في الدار التي كان النوشري قد حبس المهدي ورفاقه فيها . ولما كان أبو القاسم يعتز بهذا الكلب ، اضطرب المهدي ومن معه إلى العودة للبحث عنه ؛ فلما رأى النوشري ذلك ، وكان قد عزم على اللحاق بالمهدي من جديد ، قال لأصحابه : « قبحكم الله ! أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه ، فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبا لكان يطوى المراحل ويخفي نفسه ، ولا كان رجوع في طلب كلب ، وتركه (١) » . والحق أن أبا القاسم كان جد مغرم بكلاب الصيد ، حتى إنه بعد خروج المهدي من دمشق سنة ٥٢٨٩ هـ اشترى كلبة سلوقية ، وأجبر رجال القافلة على البقاء حتى تم له شراؤها ، وكادت قافلة المهدي تقع في قبضة العباسيين بسبب ذلك ، مما جعل المهدي يحذر من معه مغبة التواني والإبطاء بسبب المساومة في شراء هذه الجرورة السلوقية البيضاء ، ويقول لهم : « اليوم يرد الرسول إلى دمشق في طلبنا » (٢) .

ولم تقف متاعب عبيد الله عند هذا الحد ، فقد هجم على القافلة التي كان فيها وهي في طريقها إلى طرابلس جماعة من البربر عند الطاحونه (٣) ونهبوها ، ونهبوا بعض متاع المهدي . وكانت عنده كتب وملاحم (٤) وآبائه (٥) ، وكان أسفه عليها أشد من أسفه على غيرها مما ضاع له (٦) . ويدلنا على ذلك أن أبا القاسم (القائم) حين استردها في غزوته الأولى على مصر (٣٠٠ - ٣٠١ هـ) قال المهدي : « لو لم تكن هذه الغزوة إلا لرد هذه الكتب لكان ذلك فتحا عظيما ، وسر باسترجاعها سرورا عجيبا » ، ويسمى الإسماعيلية هذا اليوم الذي طورد فيه المهدي وقافته « يوم السلب » . ولم يقف رفاق المهدي مكتوفي الأيدي أمام هجوم البربر على المهدي ؛ فقد قاوموهم مقاومة شديدة جرح فيها أبو العباس أخو أبي عبد الله . وسنرى كيف يكون انتقام

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣

(٢) البهائي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١١

(٣) الطاحونة : موضع في بركة بين مصر وطرابلس

(٤) الملاحم : التفتوت عن الحوادث المستقبلية .

(٥) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٤

(٦) البهائي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥

حياة ، قائد المهدي على مصر ، من هؤلاء البربر بعد ذلك . وقد حدث ذلك كله قبل وصول المهدي إلى طرابلس .

وكانت الصحاب التي لقيها عبيد الله في طرابلس تفوق تلك التي عاناها في مصر ، لأنها قلبت برنامجها الذي كان قد أعدده رأسا على عقب . ذلك أنه لما وصل إلى طرابلس ، بعث إلى داعيه أبي عبد الله الشيعي يبشره بقرب ظهوره ، ويخبره أنه في طريقه إليه . ومن هؤلاء الرسل الذين حملوا بشرى وصول المهدي إلى المغرب ، أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي وجماعة من الكتاميين الذين اعتمد عليهم أبو عبد الله في نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية في المغرب . غير أن زيادة الله الأغلب قبض على أبي العباس بالقيروان ، وعذبه عسى أن يقر على المهدي فلم يقر . وليس هذا فقط ، بل إن زيادة الله أرسل إلى عامله بطرابلس يأمره أمرا لا هوادة فيه بالقبض على المهدي أو التاجر . ولكن عبيد الله وصل هذا الوالي وأمدّه بأموال كثيرة ، فأرسل إلى زيادة الله يخبره بأن هذا التاجر قد أدلت منه وأنه لم يدركه .

ويجدر بنا أن نقرر هنا أن عبيد الله أصبح أكثر تعرضا للقبض عليه . فقد وقع الحسين بن زكرويه القرمطي — صاحب الشامة — في قبضة العباسيين سنة ٢٩١ هـ ، لأن هذا القرمطي كان يعرف عبيد الله ، ويعرف مكان اختبائه في الرملة . فلما نقل هذا القرمطي أخبار أبي عبد الله إلى العباسيين ، ضاعف هؤلاء جهودهم في استقصاء أخباره ومطاردته والقبض عليه ، وأيقنوا أن التاجر ، الذي أفلت من مصر في عهد ولاية النوشري لم يكن غير عبيد الله ، وأنه لم يتصد بلاد اليمن كما زعم بعض . ومن ثم تتبعوه أنى سار ، وكادوا يقبضون عليه ، لولا ما أوتي من ذكاء وحيلة وبعد نظر ، وما كان ينفقه من أموال اشترى بها ضمائر ولاية العباسيين وعمالهم . وهكذا ، كان قصد المهدي إلى أبي عبد الله ببلاد كتامة ، ولكن بلغه أن السكتب وصلت إلى زيادة الله — صاحب المغرب — بطلب المهدي وصفته ، وأنه أفلت منهم بمصر (١) . وقد أخبر عنه من كان في صحبته من التجار ، فذكروا أنه تخلف عنهم بطرابلس ، وأن أبا العباس كان من رفقاته . وبهذا أصبح المهدي

(١) البنان : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٦

معروفا للخاص والعام في طرابلس والقيروان ، وأنه الشخص المطلوب من العباسيين ، وأنه إن بقي في طرابلس فسوف يقبض عليه ، وإن ذهب إلى القيروان تحقق الأغلبة أنه صاحب أبي عبد الله وقبضوا عليه وقتلوه .

إزاء هذه الصعاب قرر عبيد الله أن يفلت بحشاشته ، وألا يتجه إلى كتامة من طرابلس ، حتى لا يثير شكوك الأغلبة . ومن حسن حظه أنه كان قد أرسل وهو بمصر ، جعفر الحاجب إلى سلبية ، فأحضر له مالا ونيرا كان قد طمره فيها ، واستطاع هذا الداعي المخلص أن يصل بهذا المال إلى طرابلس ، فتشجع المهدي وقرر عدم المسير إلى القيروان ، وقصد قسطنطينية رأسا (١) .

(٥) مهم طرابلس إلى سجلماسة

لم يغادر عبيد الله مدينة طرابلس ، إلا بعد أن أدرك خطورة مركزه ، ولم يقصد القيروان لأنها كانت تحت سماع الأغلبة وبصرهم ، بل قصد قسطنطينية ، وكان يرجو أن يلاحق منها بأبي عبد الله الشيعي . غير أنه عدل عن رأيه حين أدرك تشمير زيادة الله الأغلب في البحث عنه والقبض عليه . والواقع أن عبيد الله لم يغير رأيه ويعدل عن الاتجاه نحو كتامة ويقصد سجلماسة إلا بعد أن ألقى عصا تسياره بتوزر ، أحد بلاد قسطنطينية . ولا بد أنه لم يغير اتجاهه إلا بعد أن وصلته أخبار تحذره المسير في هذا الطريق ؛ لذلك نراه يلح على رئيس القافلة بأن يسير من توزر إلى سجلماسة على غير موعد ، ويتفوه لانتصاره بعبارات نفهم منها أن رسل زيادة الله سوف تلحق به في « توزر » إذا لم يبرحها . ومن ثم أفلت عبيد الله من هذه القافلة قبل وصول رسل زيادة الله إلى توزر بيوم واحد . وكانت رحلة عبيد الله من توزر إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى شاقة حقا ، فقد فقد الاتصال المباشر الذي كان ينشده بأبي عبد الله الشيعي . هذا إلى أن البلاد التي قصدتها بلاد صحراوية قاحلة . ولخوفه من زيادة الله ، وتحذير دعائه له ، أرشى الأدلاء فكانوا يواصلون السير ليلا ونهارا ، حتى كلت قوى رجال قافلته التي استطاعت أن تقطع في ليلة واحدة مالم تكن تستطيع قطنه في ليال عدة . والواقع أن رسل زيادة الله الأغلب وصلوا إلى توزر بعد أن

(١) قسطنطينية : في إقليم تونس ، وهي كورة كبيرة من مدنها توزر .

خرجت القافلة التي كان بها عبيد الله في طريقها إلى سجلماسة ، وأنهم لم يستطيعوا اللحاق به . يقول ابن الأثير (١) : «ولما سار (عبيدالله) من قسطينية وصل الرسل في طلبه ، فلم يوجد ، ووصل إلى سجلماسة فأقام بها ، وفي كل ذلك العيون في طريقه» .

أسباب نجاح عبيد الله في فراره

وقد نسأل عن الأسباب التي سهلت على عبيد الله سبيل الفرار وقطع هذه المسافات الشاسعة في بلاد الأعداء دون أن تناله أيديهم . الحق أن هذا النجاح يرجع إلى أسباب كثيرة ، نذكر منها :

أولاً : الاضطراب الذي ساد البلاد التي مر بها ؛ فقد خرج من سلبية بلاد الشام تاركاً القرامطة يأخذون بتلابيب الطولونيين والعباسيين في هذه البلاد ، مما سهل عليه الفرار إلى الرملة . أضف إلى ذلك أن الدولة الطولونية كانت في دور الاحتضار حين بدأ عبيدالله رحلته ، كما زاد الاضطراب في مصر نفسها عقب زوال هذه الدولة ؛ ويرجع ذلك إلى كثرة تعيين الولاة بها ، وضعف شأنها ، حتى إن أحد الثوار استطاع أن يحكمها ثمانية أشهر ، وهذا يدلنا على أن جميع الظروف في مصر والشام كانت مهيأة لحرب عبيد الله . على أن حالة إفريقية (بلاد تونس الحالية) كانت أسوأ منها في مصر والشام ، لأن دولة الأغالبة قد هزمت ، ودب الضعف في صفوف أمرائها . واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يوجه إليهم أعنف الضربات ، فأفقرت خزائهم من المال وبلادهم من الرجال ، وأشر بينهم القوضى والاضطراب . وفي وسط هذه الأحوال السيئة كان عبيدالله يقوم برحلته .

ثانياً : انتشار التشيع في البلاد التي مر بها عبيدالله ؛ فقد كان لتركيز المذهب الإسماعيلي جهوده غربى المملكة الإسلامية خاصة أثره في تكوين جماعات أو بيئات تعطف عليه في بلاد الشام ومصر وطرابلس وتونس . وقد انتشرت في القرن الثالث تنبؤات عن قرب ظهور المهدي ؛ ولذلك نرى الذين يعاونون المهدي على الحرب من سلبية إلى حمص ، من العرب الذين يؤمنون بحب العلويين ، كما نرى المهدي يجد في

دمشق والرملة ومصر عددا غير قليل يخلصون لدعوته ، ويساعدونه على الفرار . ولا غرو ، فقد كان لجهود داعي دعائه فيروز ، و « داعيه على طريق مصر » وهو أبو الحسين - وداعي مصر المقيم وهو أبو علي - أثر كبير في نشر المذهب الإسماعيلي بين الناس ، حتى إن حاشية عيسى النوشري - والى العباسيين على مصر - كانت من الإسماعيلية أو على الأقل ممن يعطفون عليهم . كما كان لانتشار التشيع بين وزراء الأغلبية أثر كبير في تهاون القائمين بالبحث عن المهدي ، حتى استطاع أن يفلت منهم أخيرا .

ثالثا : الجاسوسية المنظمة ؛ وهي أهم العوامل التي ساعدت عبيد الله على الفرار ؛ فقد كان يهيمه أن يظل خبره سرا مكتوما ، وأن يعرف دعائه الذين سيمر بهم جميع حركاته صغيرها وكبيرها . وقد أجاد هو وأنصاره استخدام حمام الزاجل في مراسلاتهم ، كما كان دعائهم السيارة من أكبر عوامل التجسس التي ساعدت عبيد الله على الإفلات من الشام ومصر خاصة . وقد رأينا عبيد الله يعلم وهو في طريقه - من داعيه المقيم في دمشق - أن يرسل العباسيين تبحث عنه في دمشق ، وأنهم سائرون في إثره . كما رأينا داعيه المقيم بطبرية يستحثه على الفرار منها إلى الرملة ، لأن الأعداء يلاحقونه ، ووجد في مصر وفي بلاد المغرب كل عون من جاسوسيته المنظمة التي كانت تفوق في إتقانها حد الوصف . ونستطيع أن نتصور ما كان يحدث للمهدي من اضطراب في أثناء هربه لو لم تساعده هذه الجاسوسية .

رابعا : المال : وكان لسكثرة ما أنفقه المهدي من الأموال أثر كبير فيما أصاب من نجاح . حقا كانت سلمية تنص بالأموال التي تأتيه من أشياعه الكثيرين عن طريق دعائه في كافة أرجاء العالم الإسلامي ؛ فكان يأتيه خمس صاحب الزمان ، والجزى ، والتبرعات وسواها من فارس والعراق واليمن والمغرب وغيرها . فامتلات خزائنه بالمال ، حتى لقد قالوا : إن ما كان له بسلمية كان يفوق بكثير ما حصل عليه في عهد خلافته . وقد استغل المهدي هذا المال أحسن استغلال ؛ فجعل ينفق وهو في طريقه إلى المغرب ذات اليمين وذات اليسار ، حتى كم الأفواه ، فلم يستطع أن ينال العباسيون منه غرضا . ألم يسكت عبيد الله بماله الكثير محمد بن سليمان والى مصر ، ويفعل مثل ذلك مع خليفته عيسى النوشري ، الأمر الذي

ساعده على الفرار من الشرق الأوسط إلى بلاد المغرب ؟ وقد رأينا كذلك كيف
كم فاه والى طرابلس المال فتركه يأخذ طريقه إلى سجلماسة . وهكذا . كان كلما حل
بلدا أفضل على العامل عليه ، ووصله وأهدى إليه ؛ فمنهم من لم يعرفه وأكرمه
لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه إليه ، ومنهم من عرفه ذلك
وحذره ، (١) . ولما كان المهدي يعرف أثر المال في النفوس ، تظاهر بمظهر التجار
من ذوى اليسار ، وأكثر من شراء السلع حتى يحبك مؤامراته على الأغلبية ، كما
حببها على العباسيين وولاتهم في مصر والشام . ولم يكتف بما حمله معه من الأموال ،
بل بعث في طلب أحمال أخرى غيرها أرسلت إليه من سلبية ، وكانت خير عون له
وهو في طريقه من طرابلس إلى سجلماسة ، وبعد استقراره بها .

خامسا : طرق التخفي : كان لطرق التخفي التي نهجها عبيد الله ورفاقه أثرها
البالغ في وصوله سالما من المشرق إلى المغرب ، فنراه يدعى تارة أنه هاشمي وأخرى
أنه تاجر ، وثالثة أنه من الأشراف . ولم يشأ أن يرهق رحله بالأحمال ؛ فوزعها
بين الاتباع وفرق بعضهم عن بعض . أضف إلى ذلك إيمان أتباعه به إيمانا
لا حد له ؛ فقد كانوا يعذبون أحيانا بقضم أظافرهم وقطع أجسامهم ، ومع ذلك
كانوا لا يقرون بشيء . من ذلك ما فعله زيادة الله مع أبي العباس محمد بن
زكريا أخى أبي عبد الله الشيعي ، فقد عذبه عذابا لا طاقة لأحد به ، ومع ذلك ظل
صامتا لا ينبس ببنت شفة . وكذلك نرى اليسع بن مدرار يعذب أتباع عبيد الله
عذابا لم نسمع بمثله ، من قلع الأظافر ، إلى تأريق دائم ، إلى تحريق ، دون أن ينال
منهم غرضا ؛ ثم نرى عبيد الله يترك نسائه في عهدة بعض رجاله المخلصين ، فيسلكون
سبلا غير السبل التي كان يسلكها هو ، ونرى رجاله موزعين هنا وهناك ، يجتمعون
سرا ويفترقون سرا . وبفضل هذا كله نال عبيد الله ما ناله من نجاح .

(هـ) عبيد الله في سجلماسة

لما دخل عبيد الله سجلماسة اتبع طريقته المعهودة ، فأغدق على واليها اليسع بن مدرار ، حتى إنه كان « يوجب حقه وتعظيمه » (١) . وكان يخصه ويكرمه ويوجب حقه . واستأجر عبيد الله في الوقت نفسه دارا تليق بشخصه ، كما اتصل ببعض أهالي القيروان ، وأوفده إلى أبي عبد الله الداعي ، وتراسل معه عن طريقه كما تقدم ، واشترى بعض المالك لخدمته . كل هذا يدلنا على أن المهدي أقام بسجلماسة حرا طليقا فترة من الزمن (٢) .

وعلى الرغم من أن زيادة الله الأغلب أخذ يرسل كتبه إلى اليسع ، يقول فيها إن عبيد الله هو الرجل المقصود ، ويغريه بالقبض عليه ، تركه حرا في بيته ، حتى إن أنصاره وأعوانه كانوا يتصلون به . إلا أن هذه المعاملة الطيبة تبدلت بعد انتصار أبي عبد الله على الأغلبة وإزالة دولتهم في سنة ٢٩٦ هـ ، وعزمه على قصد سجلماسة ، فإن اليسع بدأ يتغير من ناحية المهدي ، لكرهيته أبا عبد الله ، فقرر عزل المهدي وفصله عن القائم ، وقبض على أعوانه وأنصاره ، وعذبهم عذابا شديدا .

وبهذا نرى أن الحرية التي نعم بها عبيد الله وأنصاره قد تبدلت . وعلى الرغم من هذا التشدد الذي بدا من اليسع ، كان المهدي يبعث بخادمه إلى ابنه القائم في داره ، وإلى أنصاره وعبيده في سجونهم ، فيستطلع أخبارهم . وقد وصف جعفر الحاجب (٣)

(١) الثمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٣

(٢) يقول الذهبي (افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٤) : « فلما قرب أبو عبد الله أرسل اليسع إليه ، فسأله عن نفسه وحاله ، وهل إليه قصد أبو عبد الله ، فاعترف له ع م بالنسب إذ لم يسمه إنكاره ، ولمز له في ذكر أبي عبد الله فقال : ما رأيته ، ولا أعرفه ، وكذلك كان لم يره ... وقال إنما أنا رجل تاجر ، وذلك أنه خاف على نفسه ، ورأى منه إنكارا لقدم أبي عبد الله ، وأنفة من دخول بلده فغلظ له في القول في ذلك ، فلزم كلامه الأول . فأنزل الله له بأكثر الهيبة في قلبه والجلالة في عينه ، فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله في دار ، وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله في دار أخرى ليفرق بينهما ، ويختبر قول كل منهما . وكان قهرهما واحدا ... وامتنع رجلا كانوا معهما بالعذاب ليقررا عليهما ، فلم يكن منهما إلا ما قلناه ... »

(٣) البيان : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٢

تلك الحالة بقوله : « والمهدي والقائم ع م مبجلان معظمان في منزلتهما ، قد هبهما الله عز وجل في عين صاحب سجلماسة ، وعظمهما في قلبه ، وإنما كانت صولته علينا ، يعذبنا كل يوم بالسوط » . والواقع أنه كلما اقترب أبو عبد الله الشيعي من سجلماسة أمعن اليسع في تعذيب أتباع المهدي ، حتى لقد أقر واحد منهم بعض الإقرار لهول ما لاقاه من التعذيب ؛ وقال أحدهم لمعذبيه : « يا قوم ! إن كان قد صح عندكم ما قيل فينا فاقتلونا وأريحونا من هذا العذاب الذي نحن فيه » (١) .

وتذهب بعض المصادر إلى أن أبا عبد الله لما اقترب من سجلماسة ، قتل اليسع عبيد الله في سجنه . ويظهر أن هذا الزعم لا يستند إلى أساس سليم . حقيقة عقد اليسع مؤتمراً من المقرين إليه ، حين أدرخوا جميعاً خطورة استيلاء أبي عبد الله على سجلماسة ، وبخاصة بعد قتل رساله إليهم ؛ فأشار بعضهم بقتل جميع المتهمين بالتشيع في حضرته ، ليفل من شوكة أبي عبد الله وأنصاره ، وأشار بعض آخر بالإحسان إليهم حتى لا يتعرضوا لخط أبي عبد الله وحنقه ، وأشار بعض آخر أيضاً بإخراج من يشتبه في أمرهم وإرسالهم إلى أبي عبد الله ؛ وفي ذلك الوقت يستطيع اليسع الإفلات بنفسه وبمن معه . ولا يبعد أن يرجع أبو عبد الله بالمهدي إلى إفريقية على جناح السرعة ، خوفاً على ملكه الجديد من أن يقع في يد زيادة الله الأغلب (٢) ؛ فأخرج رجلاً غير المهدي ، فلم يعبأ أبو عبد الله به . ولما خرج المهدي ، إليهم ، أخذ الفرح منهم كل مأخذ (٣) ، فانهز اليسع ومن معه هذه الفرصة وأمعنوا في الحرب . ثم أمر المهدي أبا عبد الله بفتح سجلماسة وتخليصها .

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣

(٢) يقول جعفر الحاجب في هذا الرأي الأخير (استنار الإمام ص ١٢٤) : « وقال له بعض من كان يثق به ويرجع إل رأيه : القوم قد أحاطوا بنا من كل جانب ، وليس لنا بهم طاقة . فان كنت قتلت هؤلاء القوم فتلوك بهم وقتلونا . والرأي لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال إليهم واحداً واحداً ، فمن كان منهم صاحب القوم اشتغلوا عنك وعنا وقت خروجه إليهم . فعند ذلك نجد نحن لاشتغالهم الفرصة للمرب ؛ ومع ذلك فانه إذا وصل إليهم صاحبهم ، لم يكن له ولا لهم اهتمام إلا القبول إلى إفريقية خوف أن يبلغ زيادة الله بن الأغلب الحارب من بين أيديهم أنهم انصرفوا من إفريقية إلى سجلماسة ، فيرجع إليها طمعا منه ، ليعد ما بين البلدين ، ويحشد بها العرب ويتحصن منهم ، فيصعب الأمر عليهم . فاذا انصرفوا عن البلد بصاحبهم ، رجعنا إليه » .

(٣) النجاشي : سيرة جعفر الحاجب ص ١٢٤ .

كان على عبيد الله بعد ذلك أن يعمل على إحضار الإمام المستقر — ولى العهد أنى القاسم . وقد وضع لذلك خطة محكمة تذرع بها لتخليصه ؛ وتناخص في أن يرسل أبو عبد الله إلى السجن من يطابق أتباعه ليدلوهم على موضع القائم . وقد عثر رجال أنى عبد الله عليه بشق النفس ، لأن السجن قد فُتِح وفر من كان به ، واهتدوا إلى عبيد المهدي الذين دلوهم على موضع القائم . ولم يحتفل المهدي بالبيعة له إلا بعد أن التأم شمل جماعته وأتباعه .

والذى يلفت النظر حقا ما حدث في اليوم الذى أخذت فيه البيعة للمهدي بسجلماسة ؛ فقد قلد المهدي أبا عبد الله سيفاً وخلع عليه ، كما خلع على أتباعه الذين حضروا بخلع وسيوف كان قد حملها معه من سلمية . ويعتبر يوم البيعة من أبهى أيام عبيد الله ؛ فقد جلس على سرير نفيم نصب له في ميدان كبير بسجلماسة ، ووقف ولى عهده — القائم — عن يمينه ملتصقا بالسرير ، وحوطها أتباعهما الذين حضروا معهما من سلمية ، وكانوا يسمون المكان الذى نصب فيه سرير المهدي « السماء » . وجعلوا على باب هذا المكان جعفرا الذى كان في صحبة المهدي ، وأطلقوا عليه اسم « الحاجب » منذ ذلك اليوم ، لأنه كان قائما « على باب السماء » . وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى المهدي أشياءه وأنصاره ثلاثة أيام كاملة . ثم رحل عن سجلماسة بعد أن قبض على اليسع وضرب بالسياط ، وقتل من معه . أما هو فلم يقتل لأنه وهبه للقائم ، فمات بعد قليل .

وكانت رحلة المهدي من سجلماسة إلى إفريقية رحلة ممتعة حقا ؛ فلم تكن كذلك الرحلة التي عانى فيها الأمرين من قبل . لقد خرج من سلمية لا يعرف له مستقرا ، يخشى القريب والبعيد ، ويتألم لحاله وحال من معه ، ويشفق على نفسه من الموت أو السجن . كان يعيش على الأمل المنشود ، ويسعى للملك سعى إليه العلويون من من قبل . أما اليوم فقد أصبح المهدي سيد إفريقية بلا منازع ، يخرج في حفل هائل من العساكر المظيمة التي لم يجتمع لملك قبله مثلها .

يمم المهدي نحو المشرق عائدا من سجلماسة إلى كتامة ، إلى البلاد التي ناصره أهلها ، إلى فج الأخيار ، حيث دار الهجرة ، والأموال الضخمة ، التي أودعها داعيه أبو عبد الله الشيعي . ومن هناك غادر المهدي هذه البلاد التي كانت يوما ما

نقطة ارتكاز للهجوم على الأغلبية حتى حط رحاله في إفريقية ، التي لم يبق أحد من أهلها إلا تلتفاه بالترحيب ، وأنخذ من مدينة رقادة قاعدة لملكه .

وهكذا انتهى الدور الأول من حياة عبيد الله بجلوسه على عرش الخلافة الفاطمية بإفريقية في أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، فترك حياة التخفي والاستتار ، ولم يعد ذلك الإمام المستور ، بل بدأ حياة جديدة : أصبح خليفة وإماما ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية تهرف إلى الالتفاف حول شخصه وملكه ومذهبه ، والدفاع عنها جميعا . ومنذ ذلك الحين أخذ المهدي يد سلطاناه شرقا وغربا ، ليقم ملكه على أساس متين ، ويجدد ملك علي بن أبي طالب ، ويحيي ما درس من خلافته ، ويعمل على تقويض دعائم الدولة العباسية المتداعية ، ليقم على أنقاضها دولة الفاطميين الفقية ، وإن لم يستطع أن يحقق جميع آماله الواسعة ، فقد وضع الخطة التي سار عليها خلفاؤه من بعده .

٤ — نسب عبيد الله

أسس عبيد الله — علي ما سنرى — دولة تعرف بالدولة الفاطمية . نسبة إلى فاطمة بنت الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، أو الدولة العلوية نسبة إلى علي . وتسمى أحيانا الدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله نفسه . وليس من شك في أن الدولة التي أسسها عبيد الله دولة إسماعيلية ، وأن خلفاءها قاطبة إسماعيلية ، وإنما الشك ينصب على شخصية عبيد الله : هو إسماعيل من سلالة إسماعيل ، أم هو إسماعيل من أنصاره لا من سلالته ؟

اختلف العلماء في نسب عبيد الله اختلافا كثيرا ، فهناك جماعة يرون صحة نسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وجماعة ينكرون صحة هذا النسب : فيرون أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، أو من سلالة موسى الكاظم . وبهذا نرى المؤيدين لنسب عبيد الله إلى علي وفاطمة ثلاث طوائف : طائفة تقول إنه إمام من الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية ، وطائفة تنسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وهم من الإسماعيلية ، وجماعة من السنين يرون صحة انتسابه لإسماعيل . أما المؤيدون لنسب عبيد الله لميمون القداح ، فهم قلة من الإسماعيلية أنفسهم ، والغالبية العظمى من العلماء السنين .

(١) نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة

امتثلت بطون الكتب الشيعية خاصة بأحاديث ، معظمها موضوع ، عن المهدي المنتظر ، وآمن بذلك الإسماعيلية والاثنا عشرية وكثير من السنيين . ولذلك يرون أن عبيد الله إمام من نسل الرسول ، وأنه المقصود بهذه الأحاديث ، وأن نسبه لا غبار عليه مطلقا .

١ — السنيون الذين يؤيدون صحة النسب

وهناك طائفة كبيرة من العلماء السنيين يشبّتون صحة نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة . ومن هؤلاء ابن الأثير وابن خلدون والمقرئزي . فيذهب المقرئزي إلى القول بأن الله لا يملك الدعى ولا ينصره ، وقد ملك الفاطميون نحو ثلاثة قرون (٢٩٦ — ٥٦٧ هـ) حيث يقول : « إن الكاذب لا يملك البلاد ولا يمكن له في الأرض » (١) . ويستدل المقرئزي بحديث لموسى الكاظم عن ظهور المهدي بالمغرب ، وانتشار الدعوة الإسماعيلية شرقا وغربا فيقول : « نقل عن أئمة آل البيت عليهم السلام الإشارة إلى أمر عبيد الله المهدي ، فمن ذلك أن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سئل عن ظهور القائم متى يكون ، فقال : إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالشرق . وكذلك كانت بداية أمر المهدي عبيد الله ، فإنه ابتداء من المغرب وانتهى أمره على يد بنيهِ إلى المشرق ، فإنه ظهر بسجلماسة سنة ٢٩٦ هـ ، وهي أقصى مسكون المغرب ، ودعى المستنصر ببغداد في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة . » (٢)

على أن تلك العبارة التي أوردتها المقرئزي لا تنهض دليلا على صحة ما ذهب إليه ؛ فإن هذا القول الذي ينسب إلى موسى الكاظم ، يراد منه أن ظهور المهدي سيكون أمرا واقعا يعرفه الخاص والعام ، وينتشر حتى يصل إلى أقاصى الدنيا ،

(١) المقرئزي : انماظ الحنفا ص ٣٠

(٢) يقصد بذلك ثورة أبي الحارث البساسيري على الخلافة العباسية ، وفتح بغداد ، وإقامته

الخطبة للمستنصر الفاطمي من ذى القعدة سنة ٤٥٠ إلى ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ .

وليس معناه قيام الدولة الفاطمية بالمغرب وإقامة الخطبة لها بالمشرق . ثم من ذا الذى يقول بأن الإمام موسى الكاظم أو سواه يعلمون الغيب الذى اختص به الله تعالى ؟ وأغرب من ذلك تحديد بعضهم السنة التى يظهر فيها المهدي ، وإرجاع ذلك التحديد إلى أحد الأئمة الاثنا عشرية ؛ فيقول المقرئى (١) : « إن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم كان يقول فى سنة أربع وخمسين ومائتين ، ستكشف عنكم الشدة ، ويزول عنكم كثير مما تجدون ، إذا مضت عنكم سنة اثنتين وأربعين ، يشير بذلك إلى البداية من تاريخ وقته ؛ فيكون المراد منه سنة ست وتسعين ومائتين ، أى بإضافة ٢٤ سنة إلى سنة ٢٥٤ هـ ، وهى السنة التى قامت فيها الدولة الفاطمية فى المغرب .

كما يستدل المقرئى على صحة نسب عبيد الله من اتجاه ميول بعض الأمراء المسلمين نحوه ، مثل نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان ، ومرداويج بن زيار الديلمي ، ويوسف بن أبي الساج أمير الرى ، مما لا يترك مجالاً للشك فى أن نسب عبيد الله إلى على وفاطمة كان أمراً معترفاً به فى ذلك الوقت (٢) . يقول المقرئى (٣) : « وبعث إليه نصر بن أحمد — أمير خراسان — يقول : أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مثونه ؛ فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه ، وامتثلت أمره ... الخ . وكتب إليه مرداويج الجبلى بمثل ذلك ، وكتب إليه يوسف بن أبي الساج ... وأنفذوا رسالهم مع الأموال ، فوقع على ظهر كتبهم : « الزموا مراكم ، لكل أجل كتاب » .

ويستند من يثبت صحة نسب الفاطميين من السنيين إلى قصيدة الشريف الرضى ، وكان من العلويين النابهي الذكر فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) صاحب محاضر الطعن فى نسب الفاطميين . وفى هذه القصيدة يثبت هذا العلوى صحة نسب هؤلاء الخلفاء فى مصر ، ويظهر عطفه عليهم . ويعلق ابن الأثير أهمية كبيرة على هذه القصيدة فى إثبات صحة النسب ؛ هذا إلى ما ينسبه بعض إليه من امتناعه عن توقيع المحضر الذى طعن فى نسب الفاطميين ، وصرفه عن المناصب التى كان يتقلدها

(١) انما الخطب ص ٣٠

(٢) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٧٣

(٣) المقفى الكبير - مخطوط - عن كتاب « الفاطميون فى مصر » ، للدكتور حسن ابراهيم ص ٧٤

من قبل العباسيين . وزاد ابن الأثير (١) هذه المسألة بيانا فقال ، إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا في أن الفاطميين من أولاد علي .

ومما جاء في قصيدة الرضى التي اعتمد عليها ابن الأثير كثيرا في إثبات نسب عبيد الله قوله : —

ما مُقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف كحى^(٢)
ولبابه مخلوق بي عن الضيـم كما راغ طائر وحشى^٣
أى عذر له إلى المجد أن ذ ل غلام فى غمده المشرقى^٤
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى^(٣) وبمصر الخليفة العلوى^٥
من أبوه أبى ومولاه مولا ي إذا ضامنى البعيد القصى^(٤)
لف عرقى بعرقه سيدا النـا س جميعا محمد وعلى^٥
إن جوعى بذلك الربع شبع وأوامى بذلك الظل رى^(٥)
مثل من يركب الظلام وقد أسـرى ومن خلفه هلال مضى^(٦)

والحق أنه لو ثبت ذلك الشعر لأحد العلويين ، لكان ذلك دليلا قاطعا على صحة نسب الفاطميين . لكنه ، على ما يظهر ، كان من صنع دعاة الإسماعيلية لتقوية مركز الفاطميين فى بلاد المشرق وفى العراق خاصة . يدل على ذلك أن الشريف الرضى نفى نسبة هذا الشعر إليه ، وأقسم الأيمان المغلظة أن هذه الأبيات لم تكن من نظمه . أضف إلى ذلك أنها لم ترد فى ديوانه كما لم يروها الرواة عنه . ولم يكن امتناعه عن إثبات ذلك الإقرار بكتابة فى محضر العباسيين إلا خوفا من دعاة مصر . يقول

(١) ج ٨ ص ٨ - ٩

(٢) كناية عن قدرته البلاغية وعزة نفسه ودليلا على تدمره من العيش فى بلاد العباسيين

(٣) الأعادى هنا هم العباسيون

(٤) يصرح باعترافه بصحة نسب الفاطميين ويرى أنهم أحبابه لأنه منهم ، وأن العباسيين أعداؤه . لأنهم غرباء عنه .

(٥) يتعنى أن يكون بمصر ويتنبا بالسعادة فيها ولو مع فقره .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٩ .

ابن كثير : « لما سمع الخليفة القادر بأمر الله هذه القصيدة انزعج ، وبعث إلى أبيه الموسوي يعاتبه ، فأرسل إلى ابنه ، فأنكر أن يكون قالها بالمرّة ، والروافض من شأنهم التزوير . فقال أبوه : إن لم تكن قلتها ، فقل أبياتا تذكر فيها أن الحاكم بمصر دعى لا نسب له ، فقال : إني أخاف غائلة ذلك . . . وترددت الرسائل من الخليفة إليهم في ذلك ، وهم ينكرون ذلك ، حتى بعث الشيخ أبا حامد الأسفرائني والقاضي أبا بكر الباقلاني إليهما ، فحلف لهما الأيمان المؤكدة أنه ما قالها ، (١) .

وقد أكد أبو الرضى نفي هذا الشعر عن ابنه ، ونسبه إلى أعدائه ، كما سجل الرضى ذلك على نفسه ، وأبدى خوفه من دعاة الإسماعيلية ، كما نرى ذلك في قول أبي الرضى : « أما هذا الشعر فما لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطه . ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه وعزاه إليه . » وأما امتناع الشريف الرضى عن تسجيل اسمه في محضر القادر فيرجحه قوله : « لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر . وأنكر الشعر ، وكتب خطه بأنه ليس بشعره ولا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يسطر خطه في المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخاف دعاة المصريين وغياتهم ، فإنهم معروفون بذلك (٢) .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة ، فقد دحض في مقدمته هذه الأقوال التي أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : « ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس ، تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفنتا في الشماتة بعدوهم . . . ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ، فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب ، لما دعا بكستامة للرضا من آل محمد ، واشتهر خبره ، وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابن أبي القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة ، واجتازا مصر ، وأنهما خرجا

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤

(٢) المقرئ : انما ص ١٦ .

من الإسكندرية في زى التجار^(١) .

والذى نلاحظه على هذه الأقوال :

١ — أنها تقوم على أساس العاطفة ، فلسنا نؤمن بما ذهب إليه المقرئى بأن عبيد الله من أصل فاطمى حقيقى ، لأنه أقام الدولة الفاطمية التى ملكت زمنطويلا ، والله لا يملك الظالم ؛ لأن الله قد يملك الظالم وقد لا يملكه ، إلى غير ذلك مما لا يصلح أن يكون أساسا للحكم الصحيح على صحة نسب عبيد الله إلى على وفاطمة .

٢ — أن أصحاب هذه الآراء يختلفون فيما بينهم فى ذكر سلسلة نسبهم ؛ فترى ابن الأثير يقول إن عبيد الله هو ابن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ويذكر فى الوقت نفسه سلسلة أخرى فيها أن عبيد الله بن عبد الله ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل^(٢) . ونرى ابن خلدون يأتى بأكثر من سلسلة واحدة للنسب ، يؤكد فيها جميعها أن عبيد الله من سلالة إسماعيل ، ويقول : إنه ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم . وهذه السلاسل تختلف كثيرا عما أورده المقرئى فى مقفاه الكبير حيث يقول : إن عبيد الله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، ونرى ابن النديم يورد سلسلة من النسب تتفق مع ما يذكره الإسماعيلية أنفسهم ، من أن عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر .

والحق أننا لو تفحصنا سلاسل النسب ، التى أوردها العلماء السنيون الذين يقولون بصحة نسب عبيد الله ، لبلغت المئات عدا ، وكلها تختلف فى ذكر أسماء الأئمة المستورين ، الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله ، بل فى ذكر عدد الأجيال التى تفصل بين هذين الإمامين ، وأن هذا الاختلاف إن دل على شىء فإنما يدل على عدم تحقق هؤلاء العلماء من شخصيات الأئمة المستورين ، مما يجعلنا لانميل إلى الأخذ بصحة كل ما ذهبوا إليه ؛ فهؤلاء العلماء إنما زادوا الموضوع غموضا .

٣ — وبتقصى آراء العلماء السنيين المؤيدين صحة النسب ، نستطيع أن نتحقق

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٨ .

أنهم كانوا يجهلون الحقائق عن أصول المذهب الإسماعيلي ونظمه السرية ، وأنهم لم يقفوا على حقيقة نظامي الاستقرار والاستيداع الإمامي . ولو عرفوا أن من نُظِمَ الإسماعيلية المحببة إليهم أن الإمام قد يكون مستقرا ، بمعنى أن الإمامة تستقر فيه ، وأنه ينقلها إلى سواه ، وأنه قد يكون مستودعا لهذه الإمامة ، بمعنى أنه لا يستطيع نقلها إلى سواه ، وأن المستودع من الأئمة قد يكون من بيت الإمام المستقر ، أو من غير بيته ، وربما لا يمت إليه بقراءة ، كأن يكون من نوابه أو من حججه وحججه — لو أنهم عرفوا ذلك لما غاب عنهم أن كثيرا ممن ذكروهم كانوا أئمة استقرار ، أو أئمة استيداع ، وأنه يمكن فصل هؤلاء عن أولئك . ولو فعلوا ذلك لما حدث هذا الاضطراب والغموض ؛ بل لو أنهم قرءوا أو عثروا على بعض كتب الحقائق عند الإسماعيلية لعلوا أن عبيد الله من أئمة الاستيداع (١) ، على حين كان أبو القاسم الذي تسمى بعد ذلك بالقائم لم يكن ابنه من الدم ، وإنما كان ابنه من جهة التعليم فقط .

٢ — الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة النسب

ليس من شك في أن غالبية الإسماعيلية يؤيدون نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة ؛ إلا أن هناك جماعة منهم يقولون إن عبيد الله من الأبناء الروحانيين للأئمة المستورين ، وإنه ، وإن كان إماما ، فإن إمامته إنما قامت لأنه استودع لينقلها إلى سواه ، فلم يكن والحالة هذه من الأبناء الحقيقيين للأئمة المستورين ، وإنما انتقلت الإمامة عن طريقه من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر ، وهؤلاء هم الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة .

وفي الحق أننا لا نجد عالما أو مؤلفا واحدا من الإسماعيلية الذين ألفوا كتب

(١) انظر ص ١٧ — ١٨

(٢) تكاد تتفق المراجع الإسماعيلية على أن عبيد الله بن الحسين النقي بن أحمد الوفي ، بن عبد الله الرضي بن محمد المكتوم ، على حين ترى صحائف الداودية أنه ابن الحسين الزكي بن أحمد النقي ابن عبد الله الرضي بن محمد الوفي .

الظاهر لا يربط نسب عبيد الله بمحمد بن إسماعيل ، ولذلك نرى القاضى النعمان المغربى (٣٦٥ هـ) يؤكد صحة نسب عبيد الله ، فى كتيبه الظاهرية ، كافتتاح الدعوة الزاهرة ، والداعى جعفر بن منصور اليمنى ، يؤكد نبوة عبيد الله الجسمانية للأئمة المستورين . ويكاد يتفق علماء الإسماعيلية ، الذين يؤيدون نسب عبيد الله ، على أنه ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبيد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، كما ذكرنا فى كلامنا على هؤلاء الأئمة المستورين فى الباب الأول من هذا الكتاب . ولكن هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم فى ذكر ألقاب هؤلاء الأئمة ، فقد يلقبون أحدهم بالتقى والوفى وغير ذلك ، مع أن هذا غير ذاك .

والصعوبة التى تعترض الباحث هنا ، أن بعضهم قد يذكر الألقاب ويهمل الأسماء ، مما يثير كثيرا من الغموض . مثال ذلك ما أورده صاحب كتاب دستور المنجمين - وهو من كتب الإسماعيلية (١) - عن الأئمة المستورين الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله ، فقد اكتفى بذكر ألقابهم ، فقال : هم الرضى والوفى والتقى . والواقع أن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، يكادون يتفقون على أن عبيد الله المهدي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ إلا أن جماعة ممن يدعون الانتصار للفاطميين يغفلون فى تأييد نسب عبيد الله إلى على . من ذلك محاولة مامور Mamour (٢) إثبات أن محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح ، وأن عبد الله بن ميمون القداح هو نفسه عبد الله الرضى . ولعل لما مور بعض العذر ؛ فقد ألف كتابه فى سنة ١٩٣٤ م ، ولم تكن كتب الإسماعيلية السرية خاصة قد انتشرت انتشارها اليوم . ومن ثم لم يقرأ مثلاً كتاب أسرار النطقاء ، للداعى جعفر بن منصور اليمنى ، أو كتابى عيون الأخبار ، وزهر المعانى ، للداعى عماد الدين إدريس المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، كما أنه لم يقرأ كتاب غاية المواليد للداعى الخطاب بن الحسين المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ، ليرى أن محمد بن إسماعيل يمثل فرعاً من

(١) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol.

ii, p. 204.

(٢) Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 68.

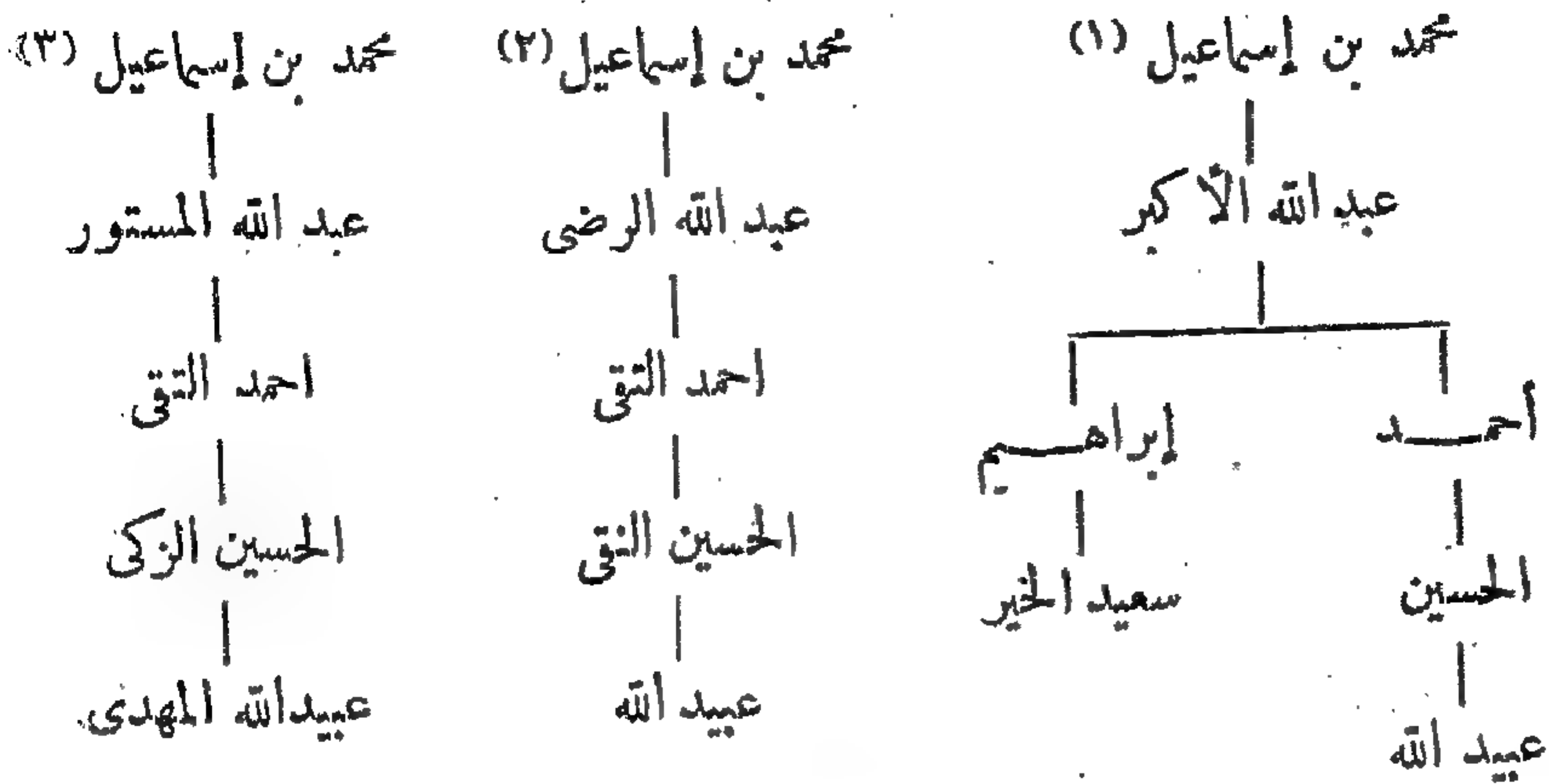
فروع الأئمة ، وأن القداح يمثل فرعا من فروع الحجج أو نواب الأئمة ، وأن هؤلاء غير أولئك ، وأن الإسماعيلية جميعا لا يوافقون «مامور» على ما ذهب إليه . ولا نستطيع أن نوافق على ما ذهب إليه مامور من القول بأن اضطهاد العباسيين للأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية قد أدى إلى اتخاذ هؤلاء أسماء مستعارة ، وأن اسم محمد بن إسماعيل المستعار هو ميمون . فقد رأينا أن الإمام محمد بن إسماعيل كان في صحبة ميمون القداح منذ أيام جعفر الصادق ، وأنه استمر معه في المدينة المنورة ، وهاجر معه أيضا . ثم هل نصدق مامور ، ومن يرى رأيه فيما زعموه ، ولا نصدق كتب الإسماعيلية الأساسية التي تنقض كل ما قالوه ، والتي تدل على أن مثل هذه الفروض وما ترتب عليها من نتائج لا يقوم على شيء من الصحة ؟ ومع ذلك هل يستطيع هؤلاء أن يفسروا بعض النصوص التاريخية التي تؤكد أن القداحية ليسوا علويين ، وإنما هم جماعة من كبار الدعاة ؟ فهذا الحسن الأعصم الإسماعيلي القرمطي يعلن من فوق منابر دمشق بأن المعز لدين الله من سلالة القداح (١) ، وأن القداح وأسرته كانوا كالقرامطة يدعون للأئمة المستورين . هذا إلى أن السواد الأعظم من الإسماعيلية ينفون انتساب الفاطميين إلى القداح وأبنائه ، ويذهبون إلى أنهم جميعا كانوا حجاجا للأئمة ، والأئمة غير الحجج بالطبع (٢) .

وقد أوضحت المراجع الإسماعيلية هذه الحقيقة الهامة ، وهي أن الأئمة المستورين لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم ، وأن عامتهم لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة . كما أن الدعاة كانوا يختلفون في ذكر أسمائهم كي يحيطوهم بسياج من المنعة والتخفي ؛ ومع هذا كله فإنهم يكادون يتفقون على ذكر أسماء الأئمة الحقيقيين في مؤلفاتهم الظاهرية والسرية ، ويتفقون كذلك مع بعض المعتدلين السنيين في ذكر أسماء أئمتهم المستورين . وهاك أهم سلاسل النسب عند مؤيدي نسب عبيد الله من الإسماعيلية :

(١) لا نوافق الأعصم على أن المعز من سلالة ميمون القداح إلا إذا تحققنا أن الخليفة القائم

ابن أبيي الله ، وهو ما لم نذهب إليه .

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية حتى سقوط بغداد ج ١ ص ١٨٨



ولكن هل كانت عقيدة انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل ذائعة في عهده ؟
نعم ! كانت هذه عقيدة الإسماعيلية قاطبة ، مع استثناء حمدان قرمط ومن على
شاكته ، ممن لم يوافقوا على إمامة حجة الإمام ؛ وهؤلاء كانوا قلة إذا ووزنوا
بغيرهم . هذا إلى أن كثيرا من مراجعنا ترجع إلى العصر الذي عاش فيه عبيد الله ،
أو أن مؤلفيها أخذوا عن عاصروا عبيد الله ، وهؤلاء جميعا ، إلا قليلا منهم ،
يقولون بانتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل وعلى وفاطمة .

انتساب عبيد الله إلى الموسوية

على أن هناك جماعة ألحقوا نسب عبيد الله بعلي وفاطمة عن طريق موسى
الكاظم ؛ فيعتبره بعض أبنا للحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند طائفة
الإمامية الاثنا عشرية ، وأخا للمهدي المنتظر (٤) ، ويعتبره بعض أبنا لأخي الحسن
العسكري (٥) ، كما يعتقد بعض أنه محمد المنتظر نفسه ، وهو الإمام الثاني عشر
عند طائفة الموسوية (٦) .

(١) النيسابوري : استتار الإمام ص ٩٥

(٢) الداعي إدريس : زهر الماني ص ٦٤

(٣) Fayzée : A Chronological List (J.B.B.R.A.S, 1934) p. 10

(٤) Fayzee : A Chronological List (J.B.B.R.A.S, 1934) p. 10

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣

(٦) Mamour : Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 93.

ونحن نشك كل الشك في أن تلك الأقوال كانت تجد لها مكانا في أدمغة المعاصرين لعبيد الله ؛ لأن فكرة الانتساب لإسماعيل والاستماتة فيها كانت ذائعة متسلطة على عقول المنتسبين إلى إسماعيل في ذلك الحين . بل إننا نجد حوارا حادا يدور بين مؤلفي الإسماعيلية ودعائهم في صدر الدولة الفاطمية . يتضح ذلك من كتاب « أسرار النطقاء » لجعفر بن منصور اليميني ، الذي عاصر المهدي والقائم والمنصور والمعز ؛ وفي هذا الكتاب ينحى جعفر بن منصور باللائمة على جماعة الموسوية ، لادعائهم إمامة موسى الكاظم ، كما يعيب عليهم القول بالإمام المنتظر ، لأنه مات ولن يعود ، وينقض إمامة أئمتهم الذين ولوا موسى الكاظم نقضا يدل على كراهية هؤلاء لأولئك ، كما يدل في الوقت نفسه على بعد تصديق إلحاق عبيد الله بموسى الكاظم ، في ذلك الحين على الأقل . وليس هذا وحده ، بل إننا نرى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي دعاة المستنصر ، يشيد باللائمة الإسماعيلية ويحيط شأن الأئمة الموسوية ، ويرميهم بالجهل والارتقاء في أحضان المعتزلة ، مما يوحى بأن الإسماعيلية كانوا حتى ذلك الوقت يناوئون الاثنا عشرية ولا يتقربون إليهم .

ولسنا نشك كذلك في أن إلحاق عبيد الله بالأئمة الاثنا عشرية إنما هو من صنع الإسماعيلية أنفسهم ؛ لأن الاثنا عشرية كانوا ، ولا يزالون ، ينتظرون إمامهم الثاني عشر ، ولو كانوا آمن يؤمنون بصحة انتساب عبيد الله الفاطمي إلى موسى الكاظم لكانوا عوناً للفاطميين ، ولانضموا إليهم في عهد وبعده . مع أننا نرى الاثنا عشرية الحديث يبغض الإسماعيلية الحديث ، بهريا كان أو أغاخانيا ، بغضه للسني أو أشد . ويخيل إلينا أن محاولة إلحاق عبيد الله المهدي بالأئمة الاثنا عشرية قد حدثت في أخريات الدولة الفاطمية ، وفي العصر الذهبي للنزارية . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى محاولة جعل المذهب الإسماعيلي ملائما للجميع ؛ بمعنى أنه ليس هناك اثنا عشرية أو إسماعيلية ، وهذا نوع من التقية والدفاع عن المذهب ذاته .

وإذا صح هذا فإنه يدل على صحة ما نسب إلى عبد الله بن ميمون القداح ، المؤسس الحقيقي للمذهب الإسماعيلي ، من أنه كان يحاول خلاق مذهب عام يتفق مع مشارب الجميع وميولهم ، وأن سياسته هذه قد تحققت بعد قرنين من زمانه . أضف إلى ذلك أن الاثنا عشرية كانوا قوة لا يستهان بها ، ولا سيما في فارس وخراسان .

فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يهدموا مبادئ الإسماعيلية وعقائدهم . لذلك تراءى للقاتمين بأمور الإسماعيلية في ذلك الحين أن يتجنبوا الصراع مع أبناء عموماتهم وأنصارهم . ولم تكن التقية أو الرغبة في تجنب الصراع مع الاثنا عشرية هي التي حدثت بالإسماعيلية إلى إلحاق رئيسهم ومهديهم بأئمة منافسيهم الاثنا عشرية ، بقدر ما سيطرت الرغبة الملحة في جذب أكبر عدد ممكن إلى صفوف الإسماعيلية ، لأن الاثنا عشرية كانوا في ذلك الوقت المعين الذي لا ينضب لإمداد الإسماعيلية بالأنصار ، ولأن كثيرا من مبادئهم لا يختلف عن مبادئ الإسماعيلية في شيء . لذلك لا يعدو انتساب عبيد الله إلى موسى الكاظم ، أن يكون نوعا من التطور المذهبي عند الإسماعيلية والاثنا عشرية :

كان القرن الخامس والسادس ، بل السابع الهجري ، مسرحا من مسارح ذلك الاندماج بين الإسماعيلية والاثنا عشرية ، حتى إن أعلام النزارية كانوا من الأئمة الاثنا عشرية . فهذا الحسن الصباح ، مؤسس الدعوة النزارية ، الذي يعد من أعظم الشخصيات في التاريخ الإسلامي ، كان إماما اثنا عشريا . ولا بد أنه حاول جذب كثير من أقرانه في المذهب ، وأنه حاول التوفيق في العقائد بين هؤلاء الإسماعيلية وأولئك الاثنا عشرية . ولا يقل سنان راشد الدين ، مقدم الدعوة في بلاد الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي ، عن زعيمه الأول الحسن الصباح . فقد كان اثنا عشريا نصيريا ؛ ولذلك تلوث المذهب النزاري في بلاد الشام خاصة بكثير من مبادئ النصيرية ؛ مما سهل على كثير من دعاة النزارية خاصة أن ينادوا بالاتصال بين الإسماعيلية والاثنا عشرية في شخص عبيد الله المهدي .

وقد شهدت مصر نفسها تزعم هذا المذهب الإمامي الاثنا عشري في أشخاص وزرائها العظام . فإن بيتي بدر الجمالي ، وطلائع بن رزيق ، كانا يدينان بمبادئ الاثنا عشرية ؛ وكثيرا ما حاول هؤلاء رفع شأن مذهبهم في مصر على حساب المذهب الإسماعيلي ، بل لقد تعدى تأثيرهم إلى الخلفاء الفاطميين أنفسهم ، حتى إن الخليفة المستنصر اتخذ من بدر الجمالي الاثنا عشري باب أبواب دعاته ، وجعل يشيد به لاتباعه فيقول للسيدة الملكة أروى الصليحية (١) : « وطالعي الوالد السيد الأجل

(١) هي نائلة ملوك الصليبيين ، وكانت رئيسة الدعوة الإسماعيلية في اليمن ، وتولت الحكم بعد وفاة زوجها المكرم الصليبي سنة ١١٧٩ هـ ، واستمرت لسان الدعوة الناطق هناك حتى سنة ٥٣٣ هـ .

أمير الجيوش ... بدرا المستنصرى ... فهو خليفتنا ، وباب دعوتنا ، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله ، القائم من أمورنا مقام الأساس ، لمشكلات الالتباس (١) . . . وكان أبناء ذلك الوزير أشد إمعانا منه في الإشادة بمذهبهم الاثنا عشرى .

وإنما أتينا بهذه الحقائق لنقيم الدليل على أنه منذ القرنين الخامس والسادس الهجرى ، كان تأثير الإسماعيلية فى الاثنا عشرية عظيما ، حتى إن بعض دعاة الإسماعيلية استطاعوا أن يجذبوا الاثنا عشرية إلى صفوفهم . كما لا يبعد أن يكون مصدرا انتساب عبيد الله إلى موسى الكاظم نوعا من نفي ارتباطه بسلالة ميمون القداح ؛ ونعتقد أن ذلك لون من ألوان الدفاع الرخيص .

وغنى عن البيان أن انتساب عبيد الله إلى الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية لا يقوم على أساس تاريخى صحيح ؛ فإن الموسوية غير الإسماعيلية بالطبع ، وأن الحركة التى أنجبت عبيد الله ، والتى قامت منذ أيام جعفر الصادق على يد الأئمة الإسماعيلية وأنصارهم لا تؤيد هذه الدعوى بحال من الأحوال .

وإليك نسب عبيد الله إلى موسى الكاظم :

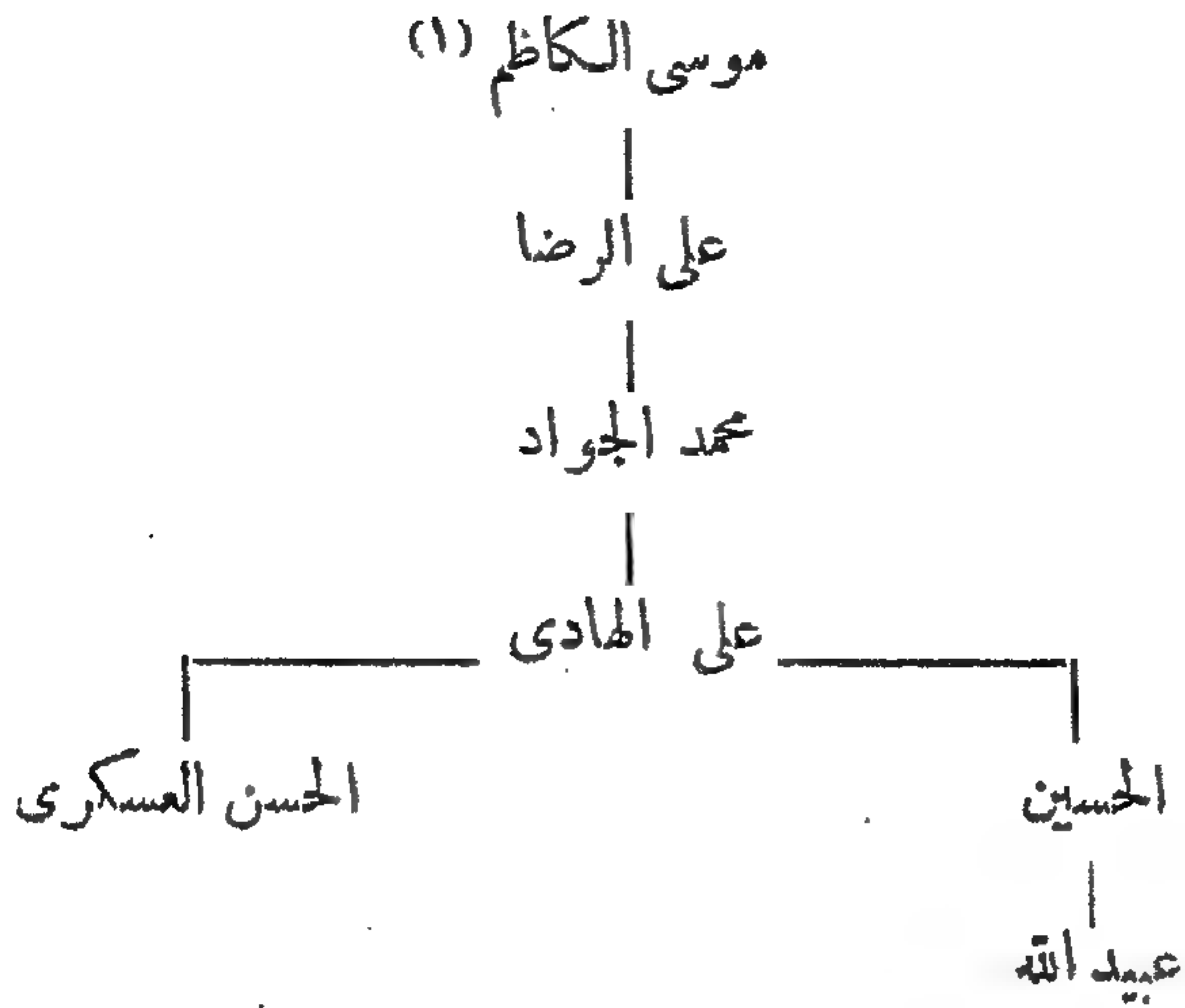
موسى الكاظم (٢)	موسى الكاظم (٣)	موسى الكاظم (٤)
على الرضا	محمد الوصى	على الرضا
محمد الجواد	احمد الوفى	محمد الجواد
على الهادى	القاسم التقى	على الهادى
الحسن العسكرى	عبد الله الرازى	الحسن العسكرى
محمد المنتظر (عبيد الله)	محمد المهدي (عبيد الله)	عبيد الله محمد المنتظر

Al-Hamdani : The Letters of Al-Mustansir (B.S.O.S, (١)
1943), p. 315

O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khaliphate, p.37. (٢)

Sirdar Ikbāl: Aga Khan (London, 1930), p. 240. (٣)

Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 95. (٤)



(ب) نسب عبيد الله إلى ميمون القداح

شغلت أسرة ميمون القداح مكانا كبيرا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية في دورها الأول ، وهو دور الستر ، واعتمد الأئمة العلويون عليهم اعتمادا تاما منذ عهد جعفر الصادق (١٤٨ هـ) ، واستمروا يغذون الدعوة بخــطـطهم ، ويرعونها بجهودهم ، حتى كان الأئمة — على ما رأينا — يكون إليهم جميع شئونهم الداخلية والخارجية . فكان ميمون القداح اليد المحركة للإمام محمد بن إسماعيل ، وكان عبيد الله بن ميمون اللسان الناطق ، واليد الباطشة لعبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل ، ولابته الإمام أحمد الوفى . واستطاع أحمد بن عبد الله القداح أن يكون مع الإمام الحسين التقي كما كان أبوه وجده مع الأئمة السابقين . وعلى يد أحمد بن القداح « الحجة » وإمامه الحسين ، راجت الدعوة رواجا كبيرا حتى شملت اليمن والمغرب وفارس وخراسان بل والعراق . كما لم تخل بلاد الشام ومصر من أنصار هذا المذهب . كل هذا جعل الإمام الحسين ينزل عن إمامته طواعية لحجته سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، لكي يردها لابنه أبى القاسم (القائم) إذا بلغ رشده ، ويقوم بجميع شئون المذهب والدعوة ، ويعمل على إقامة الدولة الفاطمية التي ظلوا ينشدونها أكثر من قرن ؛ حتى لقد استطيع المرء أن يسمى دور الستر بالدور القداحي .

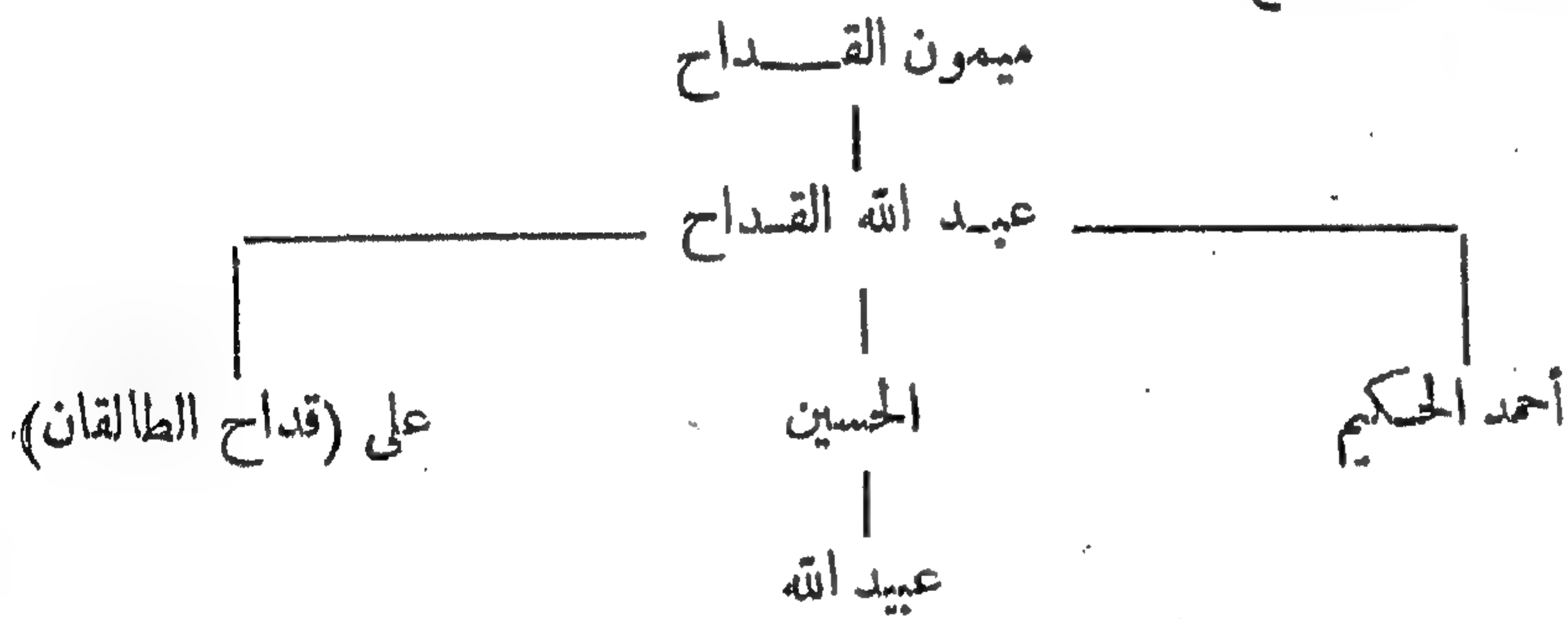
وقد ظل الناس لا يعرفون علاقة بيت القداح بالأئمة الإسماعيلية إلا عن طريق السنيين الذين اتخذوا من ذلك وسيلة للغرض من شأن هؤلاء الأئمة ، فرموهم بأقذع التهم ، ووصفوهم بأفحش الصفات - على ما رأينا - إلى أن وقعت بين أيدينا بعض كتب الإسماعيلية ، التي تتضمن شيئا غير قليل عن علاقة ميمون القداح وأبنائه بالأئمة الإسماعيلية ، وهي تؤكد بعض ما يعتقده السنيون من أن عبيد الله المهدي من سلالة ميمون القداح .

١ - آراء الإسماعيلية :

تناولنا في الباب الأول موضوع تأميم عبيد الله بشيء من التفصيل ، وبيننا بعض الأسس التي قام عليها هذا التأميم ، وقلنا إن من مبادئ الإسماعيلية أنهم إذا وجدوا إمامهم الحقيقي في خطر ، جاز لهم أن ينقلوا هذه الإمامة بطريق الإيداع إلى شخص يثقون به ، حتى ينقلها هذا بدوره إلى مستحقها عند ما تحين الفرصة بذلك . ويسمون هذا المودع ، أي الذي كان واسطة اتصال بين إمامين حقيقيين ، إماما مستودعا . ويعتقد بعضهم أن عبيد الله من الأئمة المستودعين . ويرى بعض المراجع الإسماعيلية - كما تقدم - أن عبيد الله جمع بين رتبة الحجة والإمام ؛ واستندت هذه المراجع إلى أن الإمام الحسين استغل مبدأ التبني الروحاني عند الإسماعيلية ، فاعتبر سعيدا (وهو عبيد الله) ولدا روحيا له ، وورثه الإمامة الوقتية ، كما اعتمد على مبدأ الاستيداع ، وهو إمكان نقل الإمامة من الإمام الحقيقي أي المستقر إلى شخص آخر لم يكن إماما حقيقيا أي مستقرا .

وقد أتينا ببعض النصوص الأصلية التي تثبت هذا الاعتقاد ، وتبين أن الخليفة القائم كان ابنا روحيا لعبيد الله ، أو بالحري ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته . كما أتينا بما يؤيد نزول الإمام الحقيقي لحجته سعيد الخير ، وأثبتنا أن سعيدا الخير (عبيد الله) قد احيى ، حتى إن الدرزية يجعلونه في مرتبة الإمامة ، على حين يجعلون الخليفة القائم وأباه من قبله في رتبة الألوهية ، ويأتون بسلسلة نسبه ، ويؤكدون أنه من أبناء ميمون القداح ؛ كما يجعل الحسن الأعصم الفاطمي - ومنهم عبيد الله - من القداحية . وقد أشرنا إلى ما هنالك من خطأ في تعميم الأعصم حكمه ، لأن

النصوص الأساسية تدحضه ، واستشهدنا بانتقاض حمدان قرط على سعيد الخير هذا ،
وقلنا : إن هذا الانتقاض من الحجج الدامغة ، التي تؤيد ما ذهبنا إليه من أن عبيد الله
من نسل القداخ ، ورددنا على ما يمكن أن يعترض به القائلون بأن عبيد الله إمام
إسماعيلي ، فنفيها أن يكون مقتضيا للإمامة ، أو أن آباءه كانوا يميلون إلى اغتصاب
حقوق الأئمة . واستبعدنا أن يكون أبو عبد الله الشيعي يعلم أن المهدي إمام مستودع ،
وأن القائم إمام مستقر ؛ لأنه لم يتدرج في الدعوة إلى آخر خطواتها ، وقلنا : إن تأميم
سعيد الخير كان نوعا من أنواع المحافظة على كيان الإمامة نفسه ، ولم يكن هدمها لها ،
على ما ذهب إليه من ينكر نسب عبيد الله . وخلصنا من ذلك كله إلى أن سعيدا لم
يكن ابنا جسمانيا للإمام الحسين بن أحمد ، أو أخا للمهدي ، بل كان حجة للإمام
الحسين ثم أضحى إماما فهديا (١) . فلما مات سلم الإمامة إلى القائم الإمام المستقر .
وإليك ثبوتا بوضوح هذا :



ومن الجدول الآتي نرى ارتباط الحجج بالأئمة المستورين

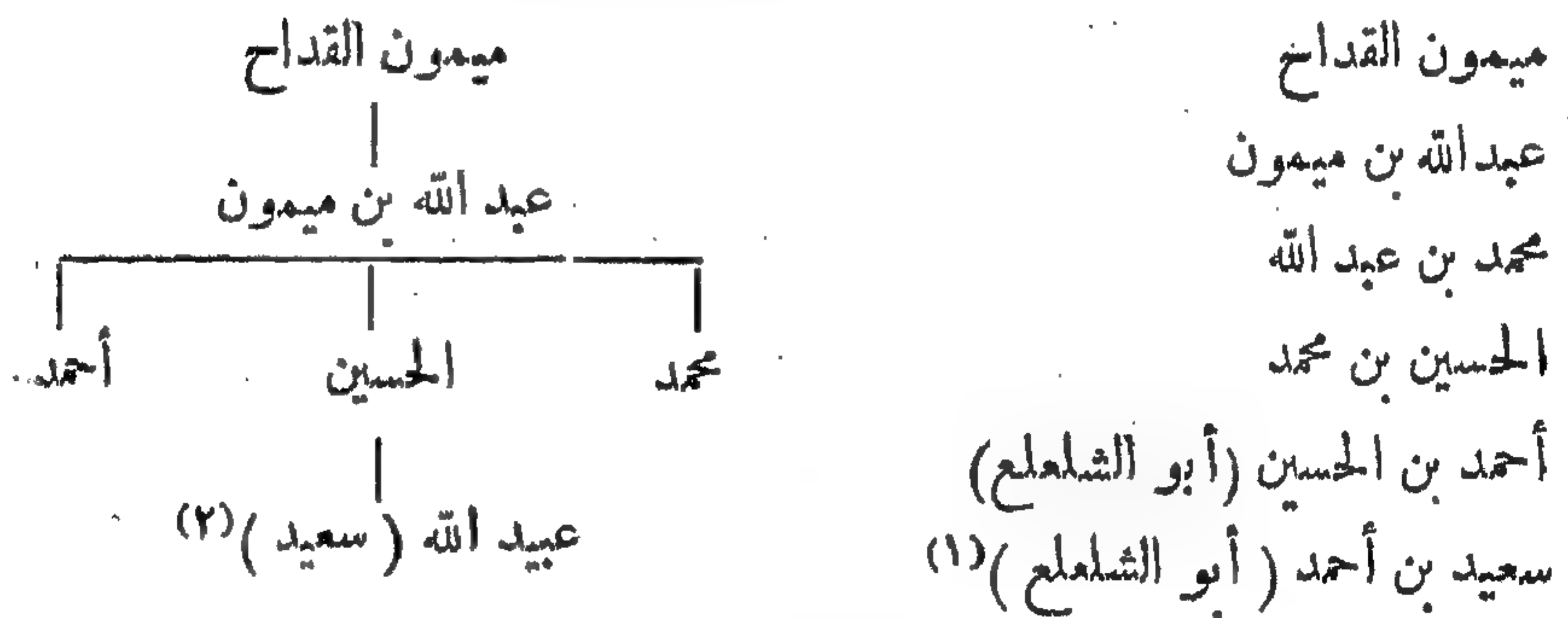
الإمام		الحجة	
محمد بن إسماعيل	١	ميمون القداخ	١
عبد الله الأكبر (الرضي)	٢	عبد الله بن ميمون	٢
أحمد بن عبد الله	٣	" "	٢
أحمد بن عبد الله	٣	أحمد الحكيم (٢)	٣
الحسين بن أحمد بن عبد الله	٤	سعيد الخير	٤
القائم الإمام لا الخليفة	٥	سعيد الخير	٤

(١) انظر ما كتبناه في تأميم عبيد الله .

(٢) هذا ما أمكننا أن نستنتجه من المصادر الإسماعيلية ، التي لم تذكر سوى أحمد الحكيم .

وأما سلسلة النسب التي تذكرها رسائل الدرزية ، فإنها تخالف مراجعنا الإسماعيلية الأخرى في عدد هؤلاء الحجج ، فتذكر بين عبد الله القداح وعبيد الله ثلاثة أجيال . وإذا علمنا أن عبيد الله كان حجة للإمام عبد الله الذي قصد سلمية بعد عهد الرشيد ، وأنه عاصر الإمام أحمد الذي عاش في عهد المأمون وخلفائه على ما ذكرنا في الباب الأول ، فإن المدة التي تفصل بين عهد عبد الله بن ميمون القداح وعهد عبيد الله المهدي لا يمكن أن تشمل ثلاثة أجيال .

ونعتقد أن ذلك الخطأ المادي الذي وقع فيه الدرزية ، راجع إلى أن عبد الله القداح لما استقام له أمر الدعوة ، استعان بأبنائه ، ومنهم أحمد الذي يسميه بعض محمداً أبا الشلعلع ، والحسين ، وأنه - على ما تقدم - وضع ابنه الحسين في معسكر سلمية ، وأحمد في معسكر الكوفة . فلما مات الحسين في حياة أبيه ، انتقل أحمد بن عبد الله إلى معسكر سلمية الرئيس ، فاعتقد الدرزية أن أبناء عبد الله القداح يمثلون ثلاثة أجيال مختلفة . والحق أنهم إنما يمثلون جيلاً واحداً ، لأن أحمد هو محمد ، وهو في الوقت نفسه أخو الحسين . ومهما يكن من شيء فإن سلسلة نسب عبيد الله على ما جاء في رسائل الدرزية تؤكد انتساب عبيد الله لميمون القداح برغم هذا الخطأ . وهاك نسب عبيد الله عند الدرزية مع تصحيح خطئهم .



الذي ذهبنا إلى أنه أحمد بن عبد الله ، وكان حجة للحسين وأبيه ، وسعيد الخير ، حجة للإمام الحسين ، ومستودع الإمامة للإمام أبي القاسم الذي تسمى بالقائم بعد وفاة عبيد الله ، والذي تؤكد المراجع الدرزية أنه قداحي .

(١) النقط والدوائر ص ٧٤ (نشره سيلك سنة ١٩٠٢) .

(٢) استنتجنا هذا من بحثنا في تاريخ أشخاص حجج الأئمة ، انظر الباب الأول

ولا يختلف الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة ، عن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة هذا النسب إلا في عدد الأئمة ، وفي شخص عبيد الله . ولذلك لا يذكر هؤلاء المنكرون عبيد الله ضمن أئمة الاستقرار ، كما يتضح من هاتين السلسلتين :

محمد بن إسماعيل	محمد بن إسماعيل
عبد الله الأكبر	عبد الله الأكبر
أحمد بن عبد الله	أحمد بن عبد الله
الحسين بن أحمد	الحسين بن أحمد
علي بن الحسين	القائم (الخليفة الفاطمي الثاني) (١)
القائم (الخليفة الفاطمي) (٢)	

٣ — آراء السنيين المعارضين :

ويرى السنيون المعارضون أن نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة غير صحيح ، ويذهبون - وهم على حق كما رأينا - إلى القول بأن عبيد الله ينتمي إلى الدعوة لا إلى الأئمة ، ويرمون أجداده بالزندقة تارة ، والمجوسية أخرى . فيرى عريب ابن سعد أن عبيد الله ينتمي إلى أحد الزنادقة الذين قتل بهم المهدي العباسي (١٦٩) ، أو أنه من سلالة أحد الدعاة الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعوة لأهل البيت . والحق أن عريب بن سعد ، مع قرب عهده بعبيد الله ، يخلط في عباراته خلطاً يدل على عدم تحققه من نسب عبيد الله فيقول : « إن عبيد الله المهدي بن عبد الله ابن سالم من أهل عسكر مكرم ... وسالم جده قتله المهدي (العباسي) على الزندقة ... وأن جده كان ينزل عند بني سهم بن بأهلة بالبصرة . وكان يدعى أنه يعرف مكان الإمام القائم ، وله دعاة في النواحي يجمعون له المال بسببه ؛ فوجه إلى ناحية المغرب رجلاً يعرف بأبي عبد الله الصوفي المحتسب ، (٣) . ولا نستطيع أن نصدق

(١) يكاد يجمع المؤرخون من الإسماعيلية على أن القائم بن الحسين لا على .

(٢) الخطاب : غاية المواليد ص ٣٦ (من المنتخب)

(٣) صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٢٧

ما قيل من إرسال جد عبيد الله المهدي أبا عبد الله إلى بلاد المغرب ؛ لأنه وصل إلى هذه البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري ، على حين أن جد عبيد الله كان يعاصر الخليفة العباسي المهدي ، الذي توفي سنة ١٦٩ هـ .

كذلك ذكر عطا ملك الجويني أن المهدي كان من سلالة عبد الله بن سالم البصري ، أحد دعاة الدعوة الإسماعيلية (١) . ويرى ابن النديم (٢) والنويري (٣) أن عبيد الله ينتمي إلى ميمون القداح ، إلا أن ابن النديم يرى أن عبيد الله هو ابن الحسين بن عبد الله القداح ، على حين يرى النويري أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله القداح . ولو حاولنا تقصي آراء السنيين القائلين بانتساب عبيد الله إلى ميمون القداح لبلغت آراؤهم المئات عدداً ، وذلك مما يخرج بنا عن نطاق هذا البحث . ونحن لا ننكر أن كثيراً من هذه المراجع السنية على شيء من الصواب .

على أن هناك من يغلو في دعوى انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، فيقولون إن الحسين أبا عبيد الله تزوج حين كان بسلمية من أرملة يهودي حداد ، وإن عبيد الله - سعيداً - كان ابن ذلك اليهودي ، فأحبه الحسين ورباه . ولما لم يكن له وارث عهد بالأمر إليه . ولكننا نشك في أن الحسين لم يكن له ولد ، لأنه إذا كان المقصود هو الحسين بن عبد الله القداح ، فقد رأينا في الباب الأول أن سعيداً هو ابن ذلك الحسين ؛ وإن كان المقصود الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن

(١) Blochet : Le Missianisme, p. 83.

وليس من شك في أن عريب بن سعد والجويني خلطوا بين عبد الله بن ميمون القداح وأبيه ميمون ، وبين عبد الله بن سالم وجده سالم ؛ لأن المعروف أن ميمونا اتهم بالزندقة في عهد أبي جعفر المنصور والمهدي ، وأن كلا من ميمون القداح وابنه عبد الله كان من دعاة الإسماعيلية ، حتى إن أوصاف عبد الله بن سالم البصري تتفق تماماً مع أوصاف عبد الله بن ميمون . وشيء آخر هو أن القرامطة الشماليين كانوا يسمون المهدي ، ابن البصري ، وقد ينمض هذا دليلاً على أن ابن البصري الذي يقصده القرامطة هو البصري الذي يذكره عريب والجويني ، وأن سعيد بن البصري لا يمت إلى العلويين بصلة النصب .

(٢) الفهرست ص ٢٦٥

(٣) نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٢ ورقة ٧

إسماعيل ، فإن المراجع الإسماعيلية تكاد تجمع على أن أبا القاسم (القائم) هو ابنه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى أما كان يوجد في بيت الحسين من يضطلع برياسة الدعوة الإسماعيلية بدل ذلك اليهودي ؟ ويظهر أن القول بأن عبيد الله من أصل يهودي قد ولدته كراهة العباسيين والعلماء السنيين للفاطميين ، خصوصاً وأنهم كانوا لا يرون غضاضة في الاستعانة بوزراء من اليهود كإبن بكس . ولو أخذنا برأى الذين يقولون بانتساب عبيد الله المهدي إلى عبد الله بن ميمون القداح ، لاستحال علينا أن نأخذ بالرأى القائل بأنه من أصل يهودي ، لما اشتهر عن هؤلاء من الطموح والميل إلى الزعامة . ولذلك لا يمكن أن يسمحوا لهذا الحسن أن يعيث بالدعوة التي قامت على أكتافهم وانتشرت بفضل جهودهم ، وأن يلقبها في يد لا تمت إليهم بصلة . ومهما يكن من شيء فقد رمى عبيد الله بأن أباه ، من نسل القداح الملحد المجوسي ، وقيل : كان والد عبيد الله هذا يهودياً من سلبية من بلاد الشام . وكان حدادا ، وعبيد الله هذا كان اسمه سعيداً . فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوي فاطمي ، وادعى نسباً ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العلويين ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه (١) .

ويظهر أن الذين ينسكرون صحة نسب عبيد الله أكثر اختلافاً من الذين يقولون بصحة هذا النسب ، مما يجعل الاهتمام إلى رأى قاطع في هذا الموضوع — عن طريقهم — من الصعوبة بمكان . فمن هؤلاء من يقولون إن عبيد الله من أصل يهودي — كما رأينا — ، ومنهم من يثبت أن عبيد الله أقر على نفسه أنه من أصل قداحي (٢) . ومنهم من يقول إن الحسين بن عبد الله القداح زوجه من ابنة عمه محمد أبي الشامع ، فأنجبت منه ولداً أسماه عبد الرحمن الذي تولى الخلافة بعده وتلقب بالقائم ، ومنهم من يقول إن سعيداً لم يكن يسمى عبيد الله ، فلما وصل إلى سجلماسة تسمى بذلك الاسم . يقول الباقلاني — من علماء القرن الخامس الهجري : « جد عبيد الله كان مجوسياً ، ودخل عبيد الله المغرب ، وأدعى أنه علوي ، ولم يعرفه

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) راجع ما ذكرناه عن مقابلة عبدان ، داعي حدان ، سعيد بن الحسين .

أحد من علماء النسب ، وكان باطنيا خبيثا حريصا على إزالة ملة الإسلام (١) .
وقد دفعت العاطفة الجامحة بعض من ينكرون نسب الفاطميين إلى القول
بأن اليسع بن مدرار — صاحب سجلماسة — سجن عبيد الله (سعيد بن الحسين) ،
ولكنه قتله حين حضر أبو عبد الله الشيعي إلى بلده ، فأخرج أبو عبد الله خادم
المهدي ، وادعى أنه هو المهدي (٢) . إلا أنه لا يمكن الأخذ بهذا القول ، لأن
اليدي التي قتلت عبيد الله تستطيع أن تقتل ولي عهده القائم . وليس هناك ما يمنع
أبا عبد الله من أن ينادي بالقائم على أنه المهدي المنتظر ، وبذلك يضع أبو عبد الله
الأمور في نصابها . كما يمنعنا من تصديق ما أورده الذهبي أن القائم ظل على وفاق مع
عبيد الله المهدي حتى سنة ٣٢٢ هـ ، وأنه كان ساعده الأيمن في الحروب التي شنها على
أعدائه في الشرق والغرب . ولو لم يكن عبيد الله هو المهدي نفسه ، لشق القائم عليه
عصا الطاعة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث . أضف إلى هذا أن المؤامرة التي أخذ
أبو عبد الله الشيعي يحكيك شراكها حول المهدي تؤيد ذلك ، ولم تكن هذه المؤامرة
في حقيقة الأمر إلا محاولة تزرع بها هذا الداعي لاسترداد ما فقده من نفوذ . ولو
كان عبيد الله المهدي قد قتل في سجلماسة ، لكان أول ما يرمى به من المتآمرين أنه
خادم المهدي وليس المهدي نفسه . ويدحض هذا ما بين أيدينا من المراجع
الإسماعيلية ، التي تتفق فيما بينها على أن شيئا من ذلك لم يحدث . ونستطيع أن نخلص
بما ذكره السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب إلى أمور أهمها :

أولا : أن هؤلاء المؤرخين يكادون يجمعون على أن عبيد الله من سلالة ميمون
القداح ، ويذكرون في الوقت نفسه أن ميمونا القداح وأبناءه كانوا من دعاة الأئمة
الإسماعيلية المستورين ، ثم اغتصبوا الأمر لأنفسهم .

ثانيا : يرى هؤلاء أيضا أن عبيد الله وآبائه كانوا من الزنادقة المجوس ، الذين
حاولوا تقويض دعائم الإسلام ، عن طريق التأويل تارة ، والقول بالباطن أخرى ،

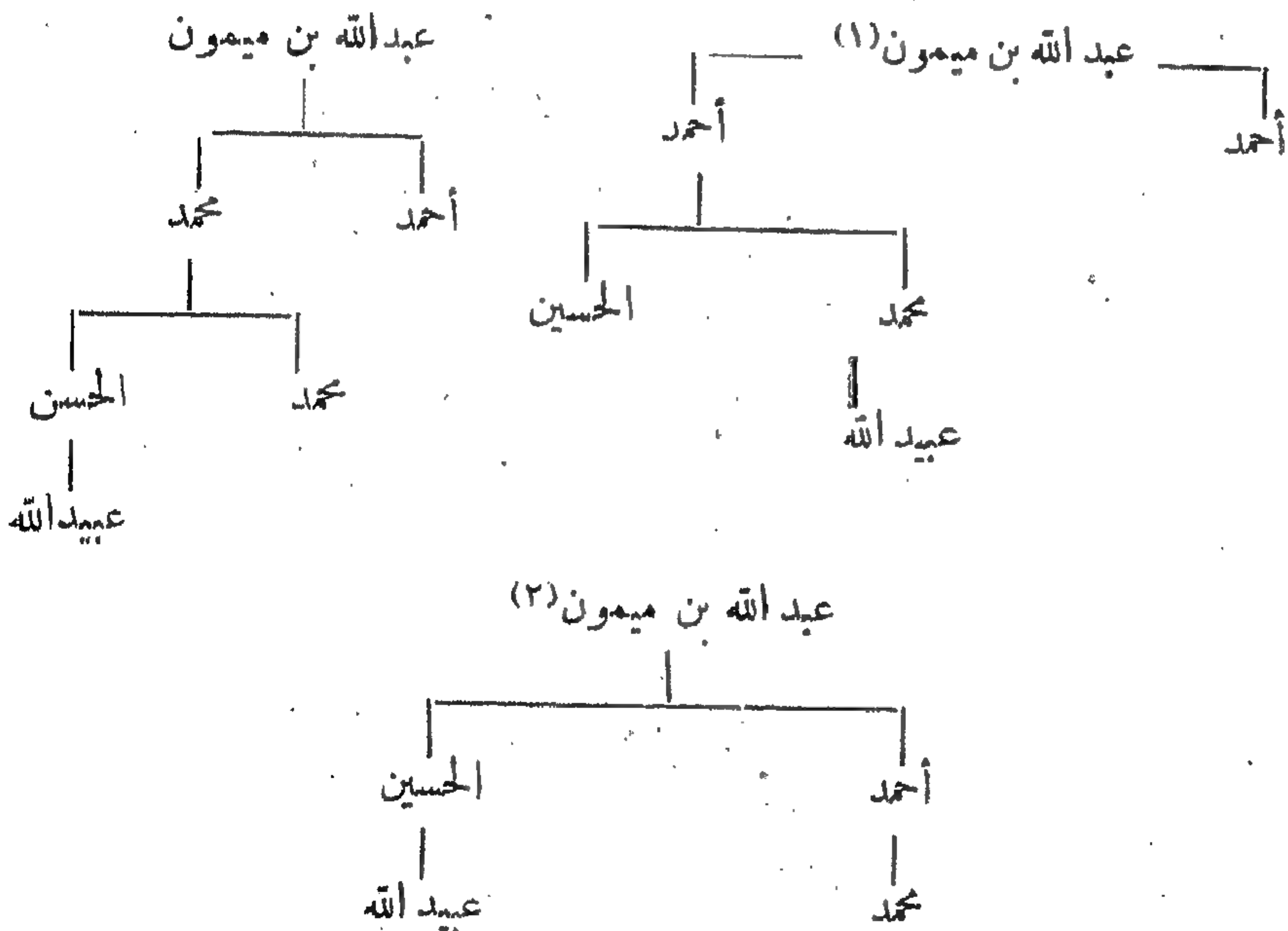
(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مخطوط ، ج ٣ ص ٨٥ . وقريب من هذا ما ورد في كتاب أبناء
الزمن (ص ٢٥) من أنه ، اتفق النسابون وأهل التاريخ على إعلان نسبهم ، وأنهم غير فاطميين .
ولمّا يرجع نسبهم إلى ميمون القداح مول جعفر الصادق ، ، .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مخطوط ج ٣ ص ٨٥

أو عن طريق محاولة إحياء عقائد المجوسية ، أو ما إلى ذلك .

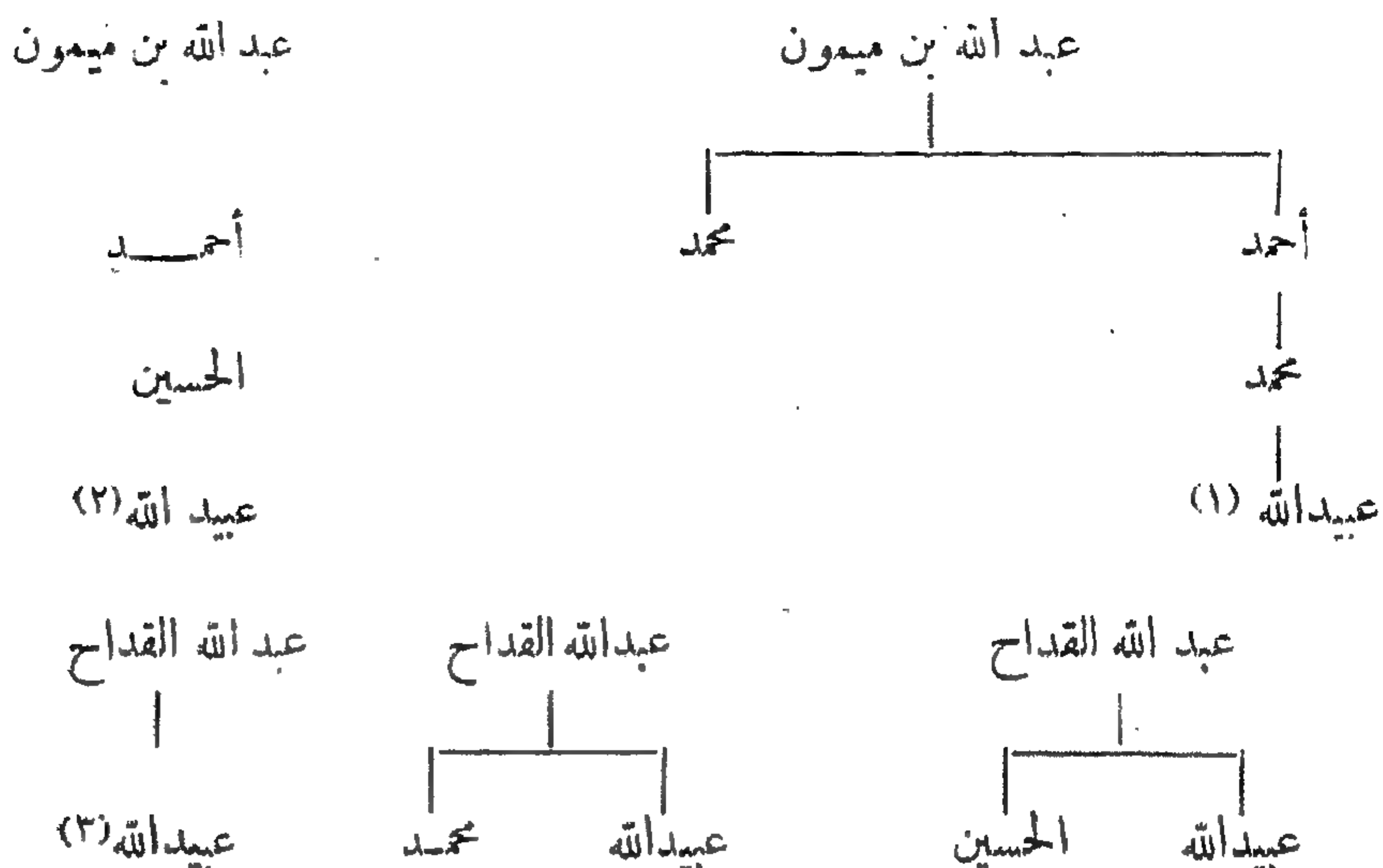
ثالثا : أنهم يرجعون عبيد الله إلى أصل يهودي ، ويذهب بعض إلى أنه قتل في سجلماسة . وسنرى أن المعارضين في صحة هذا النسب على شيء من الصواب ، فيما يتعلق بالأميرين الأول والثاني ، وأنهم لم يصبوا فيما ذهبوا إليه مما يتعلق بالامر الثالث .

رابعا : اختلف كثير من هؤلاء المؤرخين في ذكر أسماء آباء عبيد الله ، وفي عدد الأجيال التي تفصل بينه وبين جده عبد الله بن ميمون القداح ، المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري ؛ فيقول بعض إنها ثلاثة أجيال ، ويقول بعض آخر إنها جيلان ، ومنهم من يقول إنها جيل واحد فقط ؛ بل إن هناك من يعتقد أن عبيد الله هو ابن عبد الله القداح نفسه . وهاك أهم آراء السنين الذين ينسكرون صحة نسب عبيد الله المهدى ، على ما تراه في الجدول الآتي :



Mamour : Palemics on the Origins—pp. 137-9 (١)

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٥



والآن وقد استعرضنا نسب عبيد الله من جميع نواحيه ، نستطيع أن نتهدى إلى النتائج الآتية :

- ١ — يجب أن نطرح جانبا القول بأن عبيد الله المهدي من سلالة موسى الكاظم ، لأن هذا القول أقرب إلى الخرافات منه إلى الحقائق التاريخية .
- ٢ — إن ما ذكره الإسماعيلية الذين قالوا بصحة هذا النسب لا يجانب الصواب من ناحية الأئمة المستورين . أما عن انتماء عبيد الله إلى الإمام المستور الذي تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية قبله من ناحية القرابة ، فقد أصبح مثارا للشك ، بعد أن شهد شاهد بل شهود منهم على بطلانه . ونعتقد أن كثيرا من هؤلاء الكتاب الإسماعيليين الذين اعترفوا بصحة هذا النسب ، كانوا يعرفون حقيقة عبيد الله ، ولكنهم كانوا لا يريدون أن يثيروا الرعية عليهم إذا علموا أن مؤسس دولتهم الأول لم يكن من الفاطميين العلويين ، خصوصا وأن السواد الأعظم من رعايا الفاطميين كانوا لا يعرفون شيئا عن أصول المذهب الإسماعيلي ، التي قام عليها تأميم عبيد الله المهدي .
- أي إسناد الإمامة إليه — بمعنى أنهم لم يعرفوا نظامي الاستقرار والاستمرار

(١) Mamour : Polemics, pp. 137-9.

(٢) أنباء الزمن في أخبار اليمن من ٢٩ (مخطوط).

(٣) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ١٩

الإمامي ، والتبني الروحاني وغير ذلك من النظم الإسماعيلية الأساسية . وإذا كان كثير من الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله إلى علي وفاطمة عن طريق الفراية ، فإن بعضا منهم كانوا ، على العكس من ذلك ، يرون أن عبيد الله ينتسب إلى عبد الله القداح . ولكن هؤلاء لم يريدوا أن يثيروا في وجهه الفاطميين متاعب جديدة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن عبيد الله إمام حقا . فإذا أقروا بأنه من سلالة علي وفاطمة جعلوه أحد أئمة الاستقرار ، وإذا أرجعوه إلى أصله الحقيقي ، أي إلى أبناء ميمون القداح ، جعلوه في هذه الحالة أحد أئمة الاستيداع . والعامه لا تدرك أكان عبيد الله إمام استقرار أم إمام استيداع ، وإنما تعتقد أنه إمام من سلالة علي وفاطمة . وإذا علموا غير ذلك لما أحجموا عن شق عصا الطاعة على الفاطميين ، والغض من شأنهم ، وإثارة الفتن والقتال في وجههم .

٣ — أما ما يراه السنيون الذين يقولون بصحة هذا النسب ، فإنه على الرغم من أنهم استندوا فيما ذكروه إلى ما جاء في كتب الإسماعيلية ، وأنهم وصلوا في كثير من الأحيان إلى بعض ما وصل إليه الإسماعيلية أنفسهم في كتبهم السرية ، فإن ما ذكروه لا يمكن أن نعتمد عليه كثيرا ، لاختلافهم في أشخاص آباء عبيد الله ، ولأنهم كانوا على جهل تام بكثير من أساليب الدعوة السرية لهذا المذهب . ولو أنهم ألموا بهذه الأساليب لكان لآرائهم كثير من الاعتبار والتقدير . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يندفعون كثيرا ما وراء عواطفهم وميولهم ، على ما ذكره ابن الأثير والمقرئ وغيرهما . لذلك نستطيع أن نقول إن آراء السنيين الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله . لا تصلح لأن تتخذ أساسا للحكم في موضوع انتساب عبيد الله إلى علي وفاطمة ؛ وإن كان لهذه الآراء اعتبارها فيما يتعلق بالأئمة المستورين ، الذين جاءوا قبل عبيد الله .

٤ — إن المعلومات التي ذكرها السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب ، تمتاز بغزارة مادتها ، وكثرة إلمام أصحابها بالموضوع الذي نحن بصدد بحثه واستقصائه ، ولكنهم كانوا ينظرون إليه نظرة غير عميقة ، وإنما نظروا إليه نظرة تنطوي على الكراهية والمقت للفاطميين خاصة ، إرضاء لميولهم ورغباتهم من جهة ، وإرضاء للعباسيين السنيين وغيرهم من الأمراء ، من جهة أخرى . ولكنهم استطاعوا برغم ذلك أن يصلوا إلى بعض الحقائق ؛ فقد قرر أكثرهم أن عبيد الله ينتسب إلى

ميمون القداح ، وأثبتوا في الوقت نفسه أن أفراد أسرة القداح كانوا دعاة الأئمة المستورين ؛ وهذا ما ذهب إليه الإسماعيلية أنفسهم . وأما القول بأن هؤلاء القداحية قد استبدوا بالأمر دون الغلويين ، فإنه ينطوى على شيء غير قليل من المبالغة . وذكر هؤلاء السنيون في الوقت نفسه اعتناق أسرة القداح مبادئ الزندقة والمجوسية الخ . وفي الحق أنه على الرغم من هذه المبالغة والتفنن في تصويرها ، فهناك شيء من الحقيقة ؛ ذلك أن السنيين في جميع العصور كانوا ينظرون إلى المذهب الإسماعيلي نظرتهم إلى الزندقة والمجوسية وما إليهما . فإن هناك مذاهب يقول بها الأئمة الإسماعيلية وأنصارهم ، تنطوى على شيء كثير من التطرف والخروج على كثير من أصول الشريعة الإسلامية . من ذلك أنهم يقولون بنبوة محمد بن إسماعيل ، وأنه صاحب الشريعة السابعة ، أي شريعة التأويل .

وصفوة القول أن اتهام القداحية بالزندقة والمجوسية وغيرهما ، إنما هو اتهام قصد به النيل من المذهب الإسماعيلي ، والأئمة الإسماعيلية وأنصارهم . ولكننا نأخذ على السنيين الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله أنهم شوهوا الحقيقة ، بإسرافهم في الغرض من تبأن أسرة القداح ، ورميهم إياه بالإلحاد والمروق عن الإسلام . وليس بهذا نستطيع فهم الحقائق التاريخية .

أما الذي لا نستطيع أن نصدقه ولا أن نؤمن به ، فهو هذه المحاولات التي قصد بها نفى انتساب عبيد الله إلى بني القداح ، فإن فيما ادعاه هؤلاء الذين قالوا بأن عبيد الله من أصل يهودي نوع من التجنى ، لأننا لو علمنا أن المذهب الإسماعيلي ، في درجاته الأولى ، يرمى إلى جذب الناس إليه عن طريق التظاهر بالتقشف والورع والتقوى ، وإذا كانت التقوى تعتبر أساس المذهب الإسماعيلي ، ووسيلة لجذب الناس إليه ، فكيف يعقل أن يميل الناس إلى قبول مذهب يدعو إليه قوم من اليهود ؟ ثم كيف يعقل أن يحمل الفاطميون العالم الإسلامي على الإقرار بزعامتهم من الناحيتين الروحية والزمنية اللتين حاربوا العباسيين من أجلهما . ولا غرو فإن الفاطميين يدعون - وهم على حق - أنهم أولى الناس بالزعامة الروحية للعالم الإسلامي ، لأنهم ورثوها عن الرسول عليه الصلاة والسلام . بعد هذا كله نرى أن القول بأن عبيد الله من أصل يهودي نوع رخيص من الدعاية العباسية ، خصوصاً إذا علمنا أن أبناء القداح لا يستطيعون أن ينزلوا عن

الزعامة لغيرهم . وأن الزعامة الروحية التي كان الأئمة الإسماعيلية يسعون إلى تحقيقها تحول دون ذلك . كما تحول دون الأخذ بهذا الرأي المصادر الإسماعيلية الأصيلة ، التي تكلمت على الدعوة من الناحية السرية ، والتي أوضحت بطلان هذا الرأي .

ومثل ذلك أيضا القول بأن عبيد الله مات مقتولا على يد اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة ، لأن القائلين بذلك بنوا آراءهم على حقيقة يقصر بها الإسماعيلية ، وهي أن أبا عبد الله الشيعي لم يكن يعرف شخص المهدي . ولكن جهل أبي عبد الله بمعرفة زعيمه عبيد الله ، لا يجعلنا نحكم بأنه مات مقتولا ، وأن غيره وضع في مكانه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد دال القائلون بهذا القول على أنهم غير جادين فيما ذهبوا إليه ، لأنهم لو علموا أن رسل أبي عبد الله كانت ترد عليه تباعا في سلمية ، ثم وهو في طريقه إلى المغرب ، فإذا يكون موقف المهدي وموقف أبي عبد الله الشيعي لو أشاع الرسل أن هذا الشخص ليس إمامهم الذي نادوا بزعامته ، وقابلوه في سلمية وفي طريقه إلى المغرب ؟ وأمر ثالث هو : ما الذي يمنع أبا عبد الله الشيعي من أن يقر بالحقيقة لو أن عبيد الله قد مات ، فيقيم الإمام المستقر وهو القائم مقامه ؟ أما أنه يضع خادما موضع الإمام في الوقت الذي يكون فيه بين يديه إمام مستقر ، فإن ذلك يعتبر خروجا على المذهب الإسماعيلي الذي يقول بتعيين إمامه بالنص . ولا شك في أن القائم كان منصوبا على إمامته .

هـ — أما ما ذكره الإسماعيلية القائلون بأن عبيد الله من نسل ميمون القداح ، فإن ما ذهبوا إليه كان عن عقيدة راسخة ويقين ثابت . ولا عجب ، فإن هؤلاء قد أدركوا الحقيقة فذكروها مجردة عن كل ميل أو هوى ، رأوا أن عبيد الله كان إماما لكنه مستودع ، وأنه من سلالة العلويين روحانيا فقط ، وأنه ابن الأئمة التعليمي لا الجسماني ، كما رأوا أن الإقرار بهذه الحقائق لا يضير الدعوة ، ولا يضير الدولة ، وأدركوا عبث التماذي في التفسيرات التأويلية Esoteric Interpretation الخاصة بشخص عبيد الله . ومن ثم لجئوا إلى التصريح دون التلميح . وكان لما فعلوه أثره في إظهار الحقيقة ناصعة جليلة ، وهي أن عبيد الله من أصل قداحي ، وأن سائر الخلفاء الفاطميين من أصل علوي . وإذن فإن هؤلاء لم يبقوا ما قالوه ليعبدوا الشكوك عن الدولة الفاطمية . كما يقول بعض - إذ كيف يزِيلون الشكوك بإضافة شكوك أخرى ؟

ثم كيف نستطيع أن نفسر الحقيقة التالية : يأتي العباسيون ، المنافسون الخطرون للفاطميين ، في سنة ٤٠٢ هـ ، فيعلنون في محاضرة عامة ، أن الخلفاء الفاطميين ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ليسوا علويين . ثم يأتي علماء الإسماعيلية الذين لا يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، فيقولون إنه قداحي لا علوي . لا ! بل يكتب الدرزية وهم - كما نعلم - فرع من الإسماعيلية بعد ست سنوات ، يؤكدون انتساب عبيد الله إلى بني القداح . ومعنى ذلك أن هؤلاء الإسماعيلية إما أنهم ذكروا الحقيقة مجردة ، وإما أنهم أقروا العباسيين على دعواهم فيما ذهبوا إليه ، من أن الفاطميين من أصل غير علوي . ولا يمكن أن يدافع الإسماعيلية عن خصومهم ، أو أن يرموا أنفسهم بنفس التهم التي رماهم بها هؤلاء العباسيون . ومن ثم لا يساورنا الشك في أن هؤلاء الإسماعيلية الذين يؤيدون انتساب عبيد الله إلى ميمون القداح ، كانوا على حق فيما ذهبوا إليه .

من ذلك كله نستطيع أن نقرر هنا أن عبيد الله هو الإمام المستودع سعيد الخير ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وأنه كان كجده حجة للأئمة المستورين ، الذين عينوه إماما مستودعا ، لينقل الإمامة إلى أبي القاسم بن الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، الذي تلقب بالقائم حين ولى الخلافة بعد عبيد الله المهدى في سنة ٣٢٢ هـ . ونعتقد أنه لم يعد هناك ما يمكن أن نسميه مشكلة النسب الفاطمي ؛ فإن عبيد الله مستودع من نسل القداح . وبذلك يتفق بعض المصادر الإسماعيلية مع المصادر السنية القديمة والحديثة في نسبة عبيد الله إلى أبناء القداح ، وفي أن الفاطميين علويون نسبيا وقرابة إلا عبيد الله ، وأنه ليس في ذلك حط لعبيد الله أو للفاطميين ، لأنها الحقيقة المجردة أولا ، ولأن عبيد الله كان إماما مستودعا ثانيا ، وإن لم يكن من بيت علي وفاطمة . أما إخلاصه للأئمة الإسماعيلية والمذهب الإسماعيلي ، فلم يكن موضع شك أو ريب في يوم من الأيام .

الباب الثالث

عبيد الله المهدي والخلافة

قامت الدولة الفاطمية في إفريقية بعد أن قضى أبو عبد الله الشيعي على دولة الأغالبة سنة ٥٢٩٦ هـ ، فكان قيام هذه الدولة نهاية عهد استتار الأئمة ، الذي بدأ بمحمد بن إسماعيل ، وطورا من أطوار النزاع الذي قام بين العلويين الشيعيين والعباسيين السنيين ، والذي لم ينته إلا بقضاء هولاكو على بقايا الإسماعيلية في خراسان وطبرستان وقوهستان (٥٦٥٥ هـ) ، وعلى الدولة العباسية نفسها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

لم يقنع الفاطميون بتكوين دولتهم في بلاد المغرب النائية ، ولذلك لم يكن بد من أن ينتزعوا أهم بلاد العالم الإسلامي من جسم الدولة العباسية ، وأن يرثوا الإدارة بعد أن ضعفت شوكتهم ، ويضعوا جميع بلاد المغرب (تونس والجزائر ومراكش) في داخل نطاق إمبراطوريتهم المنشودة . وقد أدى هذا كله إلى صراع عنيف ، قام به عبيد الله في الشرق والغرب ، كما أدى إلى صراع سياسي عنيف آخر ، قام بين المهدي في المغرب والأمويين في الأندلس .

١ - علاقة عبيد الله بالعباسيين

أسباب هذا الغراء :

ويرجع هذا الغراء الذي قام بين التشيع Shiism والسنية Sunnism إلى عوامل كثيرة . فقد كان العلويون والشيعيون والمتشيعون جميعا يعتقدون أن عليا أحق بالخلافة من سواه ، فثاروا على الأمويين . ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اعتقد العلويون أنهم اغتصبوا الأمر منهم ، وحمل الإسماعيلية لواء الفريق المناوئ .

العباسيين ، وظلوا يعملون في الخفاء ، حتى أزالوا دولة الأغلبية ، وأقاموا دولة شيعية على أنقاضها ؛ واتخذوا من تلك الدولة نقطة ارتكاز أغاروا منها على ممتلكات العباسيين . وقد رأينا مادار من نقاش بين وزير المقتدر وأحد أتباع عبيد الله ، الذي نعى على العباسيين اغتصابهم الأمر من الفاطميين ؛ كما كان عبيد الله ، كعامة الإسماعيلية ، يعتقد أن العباسيين غير جديرين بالزعامة الروحية والسياسية ، لأنهم لم يغتصبوا الحق من أهلهم فقط ، بل أضحوا في نظرهم من الخارجين على الدين ، حتى قال داعيهم للمقتدر : « لانت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين » .

ولا ننسى أن الضرورة الملحة كان لها أثر كبير في تشكيل سياسة عبيد الله مع العباسيين ؛ فقد كانت إفريقية بلادا فقيرة معدمة ، لا تستطيع أن تمد دولة تريد أن تنزع العالم الإسلامي بالمسال والرجال ، وكان يفصلها عن العالم المتحضر في مصر والعراق وفارس وغيرها . الصحراء الغربية القاحلة . وقد رأى عبيد الله أن القيروان أو المهدية لا تصلح أن تكون قاعدة لإمبراطوريته المنشودة . ولذلك كان الصراع بين الفريقين أمرا لا مفر منه ؛ فعبيد الله يريد أن ينزع زعامة العالم الإسلامي من المقتدر العباسي ، وهذا يريد أن يحتفظ بتلك الزعامة مهما كلفه الأمر . ويدلنا على رغبة عبيد الله المهدية في ابتلاع بلاد المشرق ، تلك الآيات التي مدحه بها ابن سعدون الوريث جيلي (١) :

هذا أمير المؤمنين تضاعفت لقدمه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المخدور
والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور (٢)

وهناك أمر جدير بالنظر ، هو أن الدولة الفاطمية قامت عقب صراع عنيف شنه الكنتاميون بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي ، وأن هؤلاء الذين تعودوا شن الحروب والدفاع والهجوم خمس عشرة سنة ، لا يستطيعون الهدوء أو البقاء دون حرب . لذلك كان من الحنكة السياسية أن يعمل عبيد الله على استغلال هذا الروح

(١) يحتمل أن يكون هذا اللفظ نسبة إلى ورجلان ، وهي كورة بين شمال إفريقية وبلاد الجريد ، التي يسكنها قوم من البربر . انظر معجم البلدان لياقوت . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٧٢ هامش (١)

(٢) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٤٤

الحربى لمصلحة دعوته ومذهبه ، وفى سبيل إقامة دولة شاسعة الأرجاء يرث فيها دولة العباسيين . فكان عبيد الله يتشبه فى عمله بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ! حين أراد أن يشغل المسلمين بالحروب التى يجرون من ورائها المغنم ، ويشيدون للإسلام مجدا ودولة مترامية الأطراف .

وهكذا دل عبيد الله على مقدرة فائقة فى الناحية السياسية ؛ ولا غرو فقد رأى بعينه مؤامرة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وكثير من زعماء كتامة عليه ، ورأى فى الوقت نفسه أن قتل أبى عبد الله الشيعى (سنة ٢٩٨هـ) قد أحدث هزة عنيفة فى أركان هذه الدولة الناشئة ، فعمل على أن يشغل الناس بشن الحرب على العباسيين ، ومحاولة الاستيلاء على مصر واتخاذها قاعدة جديدة لمد نفوذه إلى بلاد العراق .

(١) استمرار نفوذ عبيد الله فى المشرق

اتخذ هجوم الفاطميين على العباسيين شعبا أربعا ؛ كانت الشعبية الأساسية تتركز فى الاستيلاء على مصر ، على حين وجه نشاطه نحو العراق مستعينا بالقرامطة ، ونحو بلاد المشرق كخراسان وسواها مستعينا بالدعاة العلناء ، ونحو بلاد المغرب ليرث الأدارسة ، ويقضى على البقية الباقية من الولايات السنية فى تلك البلاد . والواقع أن إغارة الفاطميين على مصر كانت لونا من ألوان الصراع الذى قام به الفاطميون فى وجه العباسيين .

١ — الهجوم الفاطمى على مصر

كانت بلاد المغرب أكثر البلاد صلاحية لنشر المذهب الإسماعيلى ، ولكنها لم تكن صالحة لإقامة دولة قوية . لذلك كانت مصر هى الهدف الذى تهدف إليه الدولة الفاطمية لإقامة دولة ترث العباسيين . وعلى الرغم من أن محاولات عبيد الله فتح مصر قد منيت بالإخفاق ، إلا أنه ورث خلفاء هذا الميل القوى للاستيلاء على هذه البلاد ، حتى انتهت هذه المحاولات بالفتح سنة ٣٥٨هـ . ولا يعزب عن بالنا أن الدعوة الفاطمية كانت قد أوجدت فى بلاد الشام ومصر واليمن جماعات تدين لها بالطاعة ، وأنه إذا ما توجهت جهود الفاطميين نحو مصر ، وجدوا فيها كل

عون . ولا يبعد أن يكون الفاطميون قد رموا من وراء احتلال القسطنطينية حاضرة مصر ، ثم دمشق حاضرة الشام ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة حاضرتي العالم الإسلامي من الناحية الدينية إلى مد نفوذهم إلى بلاد العراق . ولا غرو فإن من يحتل هذه المدن يسهل عليه احتلال بغداد نفسها (١) .

(١) الحملة الأولى :

كانت الحملة الأولى (سنة ٣٠١ هـ) بزعامة أبي القاسم ، ولي عهد المهدي والإمام المستقر ، وحباسة بن يوسف . وقد استولى الجيش الفاطمي المغربي على برقة ، ثم على الإسكندرية ، وتوغل في الوجه البحري ، حتى أصبح على مقربة من الجيزة ، ولكنه ارتد عن مصر بعد أن حلت به الهزيمة في مدينة مشطول ، القريبة من الجيزة . ويهمننا أن نلاحظ على هذه الحملة أموراً منها :

أولاً : أن الفاطميين كان لهم في مصر أنصار وأعوان ، لم يقتصروا على المستجيبين من الإسماعيلية ، وأن حركتهم شملت جماعة من السنين والقبط وسواهم . ومهما يكن من شيء ، فإن أبا علي الداعي المقيم بالمهدى بمصر ، كان يبذل جهوداً جبارة في جذب أهالي هذه البلاد إلى الفاطميين ، وأنه قام بنفس الدور الذي قام به أبو عبد الله مع المغاربة ، وإن حوَّش مع اليمنيين ، لنصرة المهدي ودولته . يدلنا على صحة هذا ما ذكره أحد الشعراء المعاصرين في قوله :

وأقبل (٢) جاهلاً حتى تخطى وجاز بحمله حمد التخطي
يكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلي
وكل كاتبوه وناقبونا وكل في البلاد له موطن (٣) .

ولذلك لما وصل أبو القاسم إلى الإسكندرية ، ألقى كثيراً من الخطب يحث فيها المصريين على الثورة في وجه العباسيين ، ويستميلهم إلى الفاطميين ، ويذكر فيها شيئاً غير قليل من عقائد المذهب الإسماعيلي . ولا بد أن تكون هذه الخطب

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) يريد : حباسة .

(٣) الكندي : كتاب الولاية والقضاء ص ٨٢ .

قد نالت إعجاب أنصار الفاطميين في مصر ، بخلاف السنين الذين لا يميلون إلى المذاهب الشيعية الغالية . وكانت مهمة ذكا (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ) الوالى العباسى الجديد ، أن يتبع الموالى للفاطميين ، وفسجن منهم كثيرين ، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم (١) .

ثانيا : أن الذى دافع عن مصر هم العباسيون ، إذ أرسل الخليفة المقتدر قائده مؤنسا الخادم ، بجيش لا يقل عدده عن أربعين ألف رجل (٢) . ومعنى ذلك أن حالة مصر كانت مضطربة بعد الطولونيين ، حتى إننا لم نسمع كثيرا عن نشاط ولايتها ، ووقوفهم في وجه الجيش الفاطمى . ولاغرو ؛ فإن الدولة العباسية كانت على الرغم من ضعفها ، في حالة تسمح لها بإرسال الجيوش خارج بلاد العراق ، بخلاف ما كانت عليه الحال عند ما غزا جوهر الصقلى مصر بعد ذلك بأكثر من نصف قرن (أى في سنة ٣٥٨ هـ) .

ثالثا : أن من الأمور الجديرة بالبحث في الحملة الفاطمية الأولى على مصر ، معرفة الرئيس الفعلى لتلك الحملة ؛ أهو أبو القاسم (القائم) ، أم حباسة . ابن يوسف الزعيم الكتامى ؟ لا شك أن حباسة هو الذى خرج على رأس الحملة من بلاد المغرب ، ثم فتح برقة وحده ، ولا يبعد أن يكون المهدي قد أعد جيشا برعامة حباسة ، ثم أمده بجيش بقيادة ولى عنده أبى القاسم ، فأدرك حباسة وهو على أبواب مصر (٣) . ويظهر أن أبا القاسم وحباسة تنافسا الزعامة ، أو أن خلافا نشأ بينهما ، وأن ذلك لم يرق عين المهدي ، فقتل حباسة عقب عودته (٤) . وقد ذهب ابن عذارى (٥) إلى القول بأن القائم كان يقلل من شأن حباسة ، وأنه أراد أن يعين غيره على رئاسة الجيش ، فعز عليه أن يكون جزاؤه هذا ، بعد اجتهاده في

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٦

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٦٠ . ويقول بعضهم إن عدد الجيش بلغ مائة ألف رجل .

(٣) الكندى : الولاة والقضاء ص ٢٦٩

(٤) عريب بن سعد : صلة تاريخ العايرى ج ١٢ ص ٥٣

(٥) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٧٣

الحرب ، وإحرازه هذه الانتصارات . فهرب مع قليل من أنصاره ، وتبعه المهدي . حتى قبض عليه وقتله .

رابعا : أن هذه الحملة ترتبط بحملة أبي سعيد الجنابي على البصرة . ذلك أن أباسعيد كان حتى قبيل سنة ٣٠٠ هـ يقف من العباسيين موقف الدفاع ، لكننا نراه يتبع إزاهم سياسة الهجوم ، مما يحملنا على الظن بأن حركته كانت بوحي من الفاطميين ، لإيقاع الارتباك في صفوف العباسيين ؛ إلا أن حملته هذه كانت ضعيفة ، فلم تحدث الأثر المرجو منها ، حتى إن القائد العباسي مؤنسا الخادم ، استطاع أن يحطم جيوش الفاطميين . ثم فسدت العلاقة بين المهدي و هجر ، أو بين الفاطميين والقرامطة ؛ فقتل أبو سعيد ، وعزل ابنه سعيد عن عرش القرامطة .

ونستطيع أن نقول إن عبيد الله أخفق في هذه المرحلة من مراحل الحروب ، التي شنها الفاطميون على العباسيين في مصر ، لأمور كثيرة ، منها : أن أباسعيد الجنابي لم يقيم بواجبه المذهبي ، الذي يحتمه عليه خضوعه للفاطميين ، وأن أنصار عبيد الله في مصر ، الذين كان يعول عليهم كثيرا . والذين أرسلوا إليه يرجونه أن يقوم بفتح هذه البلاد ، لم يقوموا بما كان ينتظره منهم . أضف إلى ذلك أن الجيش وصل إلى مصر بعد أن عانى كثيرا من آلام الجوع والعطش والمرض .

وقد يسأل المرء : أما كان يحسن أن يستعين عبيد الله بجيوش اليمن في حملته هذه ؟ نعتقد أن المهدي كان يفكر في ذلك ، وأنه كان من نهجه الأساسي أن يلتقي الجيشان المغربي واليمني في مصر — على ما رأينا . وإذا علمنا أن ابن حوشب كان في ذلك الحين في صراع عنيف مع ابن فضل — الداعي الإسماعيلي الثائر — أدركنا السبب في عدم طلب عبيد الله النجدة من إسماعيلية اليمن .

(ب) الحملة الثانية :

قضى عبيد الله ست سنوات (٣٠١ — ٣٠٦ هـ) في تنظيم أموره في الداخل ، وإعداد جيش يفتح به مصر . وقد أخذ في الوقت نفسه يعمل على تنظيم شؤون أنصاره في الخارج ، ولا سيما من كان منهم باليمن والبحرين ، فتدخل في شؤون اليمن ، وعزل أبناء ابن حوشب ، وولى غيرهم ، واعتقد أنه أصاب في تلك السياسة ، وأن تدخله هذا سيؤدي إلى الوحدة التي فطم عراها ابن فضل . لكن

سياسته هذه قد أدت في النهاية إلى عكس ما كان يؤمله ؛ فقد دب التنافس بين أنصاره هناك ، وأصبحت الدعوة الإسماعيلية كاللهة تأكل بنيتها ؛ ولم يمت عبيد الله المهدي حتى كانت الدعوة التي بدأها ابن حوشب في بلاد اليمن قد زالت أو كادت . ويخيل إلينا أن المهدي قد قطع الأمل في معاونة إسماعيلية اليمن له في حملاته على مصر ، بعد أن رأى ابن فضل يحارب ابن حوشب ويثور على الفاطميين ، والنفور يدب بين بيت ابن حوشب وبيت الشاوري ، داعي بلاد اليمن الجديد . إلا أن إخفاقه في هذه البلاد لم يحل دون إحرازه النصر على القرامطة ، حتى تمكن من قتل أبي سعيد - على ما قيل . ولما لم تعجبه توليته ابنه سعيداً ولا سياسته ، تدخل في شئون القرامطة ، وحملهم على إشعال نار الثورة على هذا الوالي الجديد ، ثم عين أخاه أبا طاهر مكانه ، بعد أن أخذ عليه العهود بأن يكون طوع بنان المهدي (٣٠٥ هـ) .

كان أول ما قام به أبو طاهر للدلالة على إخلاصه للفاطميين ، هجومه العنيف على إقليم البصرة . ثم محاولته الاتصال بالجيش الفاطمي في مصر - علي ما سنرى - حتى لقد خيل إلى عبيد الله المهدي ، أن الأمور قد تهيأت له في المشرق ، وأن أنصاره القرامطة لا يخذلونه اليوم كما خذلوه بالأمس .

وكان أبو القاسم الفاطمي الذي بويغ له بالعهد ، اليدالي لعبيد الله المهدي ؛ وقد أوفده إلى مصر على رأس جيش كثيف (١) استولى على الإسكندرية في أوائل سنة ٣٠٧ هـ دون عناء . ثم قصد الجزيرة حيث وقعت بينه وبين جنود مصر في جمادى الآخرة من هذه السنة موقعة قتل فيها عدد كبير من الفريقين . ولكن الفاطميين احتفظوا على رغم ذلك بقوتهم ، حتى إننا نراهم يفتحون الفيوم وغيرها بعد قليل . وعلى الرغم من استماتة حامية مصر في الدفاع أمام جنود الفاطميين ، كان المصريون في حاجة إلى معونة خارجية . وقد أدرك الخليفة العباسي المقتدر خطر الموقف في مصر ، ورأى أنه إذا لم يتداركها تززع كرمي خلافته ليتلقفه الفاطميون ، ولذلك أرسل قائده الكبير مؤنسا الخادم ، الذي انتصر على الفاطميين ، واستولى على سفنهم وأحرقها (٢) .

والواقع أن الحرب بين الفريقين كانت حرب حياة أو موت ؛ ولذلك تعددت

(١) كان خروج ابن القاسم من إفريقية في أواخر سنة ٣٠٦ هـ ، واستيلائه على الإسكندرية في صفر سنة ٣٠٧ هـ .

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع ص ٨٠ ، المقرئ : انماظ الخنقا ص ٤٣ .

المعارك بين القائم ومؤنس الخادم ، وكاد القائم ينتصر لولا أن فشا الوباء بين جنده ، وقلت المؤن بعد ضياع السفن ، فمات كثير من جنده . ولاهمية هذا الانتصار الذي أحرزه مؤنس الخادم أطلقوا عليه لقب المظفر . وقد بذل المقتدر قصارى جهده لمنع اتصال بلاد المغرب بمصر بحرا ، ولذلك أعد أسطولا مدربا على استخدام النفط وغيره من وسائل الإحراق ، واستطاع أن يقضى على أسطول المهدي الذي بلغ مائة سفينة (١) .

ولم تكن حرب القائم في مصر تعتمد على السيف وحده ، بل كان يستخدم الدعاية لمذهبه ، فيشيد بدينه ، ويغض من شأن العباسيين . ولا بدع في ذلك ، فإنه كان يعلم علم اليقين أنه كان يحارب جنود الحاميات العباسية لا المصريين ، بل كان على العكس من ذلك يعتقد أن المصريين يرحبون بمقدمه ويؤثرونه على العباسيين ، لأن هذه البلاد كانت منذ أيام الخلفاء الراشدين تدين بنجب على وأبنائه ، حتى إنها التفت حول محمد بن أبي بكر نصير على . ومن ثم وجه أبو القاسم الفاطمي القصاصد الكثيرة للمصريين يستحثهم فيها على الالتفاف حوله ، ويبين لهم ما فتحه من بلاد ليملا قلوبهم رجاء وأملا . وهكذا بدأت الحرب الكلامية بين العباسيين والفاطميين ؛ فإن مؤنسا الخادم ما كاد يرسل إحدى هذه القصاصد إلى الخليفة المقتدر العباسي حتى أمر شاعره الصولي (٢) المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبي القاسم ، ويدحض قوله ، فقام الصولي بما أمر به ، ونظم قصيدة على وزنها ورويها (٣) ، وملاها بالسباب والطعن في نسب الفاطميين ودينهم . ويخيل إلينا أن هذه القصيدة التي قالها أبو القاسم كانت نوعا من الدعاية للفاطميين ومذهبهم . يتضح ذلك من هذه الآيات التي ننقلها عن عريب (٤) :

أيأهل شرق الله زالت حلومكم أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع منن ؟ وحجكم بمن ؟ وغزوكم فيمن ؟ أجيئوا بلا كذب

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ .

(٢) أبو بكر الصولي من أحفاد إبراهيم الصولي الشاعر المشهور ، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ .

انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١-١٣ .

(٣) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ص ٨٣ .

(٤) صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٤٢ .

صلاتكم والحج والغزو ويلسكم
ألا إن حد السيف أشفى لذى الوصب
صبرت وفي الصبر النجاح وربما
إلى أن أراد الله إعزاز دينه
وناديت أهل الغرب دعوة واثق
لجأوا سراعاً نحو أصيد^(١) ماجد
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم
وأردفتها خيلاً عتاقاً يقودها
شعارهم جدى ودعوتهم أبى
فكان بحمد الله ما قد عرفتم
وذلك دأبى ما بقيت ودأبكم

بشراب خمر عاكفين على الريب
وأحرى بنيل الحق يوماً إذا طلب
تعجل ذو رأى فأخطأ ولم يصب
فتمت بأمر الله قومة محتسب
رب كريم من تولاه لم يخب
يبادونه بالطوع من جملة العرب
وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
رجال كأمثال الليوث لها جنب^(٢)
وقولهم قولى على النأى والقرب
وفزت بسهم الفلج^(٣) والنصر والغلب
فدونكم حرباً تضرم كاللهب

وقد رد شاعر العباسيين عليه فى تلك الأبيات :

عجبت ، وما يخلو الزمان من العجب
وجاء بملاحون من الشعر ساقط
تباعد عن قصد الصواب طريقه
ولو كان ذا لب ورأى موفق
فمن أنت يا مهدي السخافة والحنأ^(٤)
فلو كنت من أولاد أحمد لم يغب
ولو كنت منهم ما انتهكت محارماً
ولم تقتل الأطفال فى كل بلدة
وكم مصحف حرقته فرماده

لذى خطل فى القول أهدى لنا الكذب
فأخطأ فيما قال فيه ولم يصب
فما عرفت تأويل إعرابه العرب
لأقصر عن ذكر القصائد والخطب
أبلى ، فقد حقت على وجهك الريب
عن الناس ما تسووا إليه من النسب
يذبون عنها بالأسنة كالشهب
فتركب من أمارتهم شر مرتكب
مثار مسفى الريح من حيث ما تهب

(١) الأصيد : المائل العنق من الكبر ، وهو من صفات الملوك الامراء .

(٢) الجنب : ما يجنب أى يشد بجانب خيل الحرب ، ليركبه الفارس إذا حفر فرسه أو نعب .

(٣) الفلج : النصر والظفر .

(٤) الحنأ : القمخس .

كفرت بما فيه وبدلت آية^(١) وقضت^(٢) حبل الدين كفرا فما انقضت
وقد رويت أسيافنا من دمائكم فلم ينجكم منا سوى الجد في الحرب
تضيء بأيدينا وتظلم فيكم فكانت لنا نارا وكنتم لها حطب
فقل لي : أى الناس أنتم وما الذى دعاكم إلى ذكر الجحاجة النجب
أولئك قوم خيم الملك فيهم فشدت أواخيه^(٣) ومدت له الطنب^(٤)
أياهل غرب الله أظلم أمركم عليكم فأنتم فى نكوب^(٥) وفى حراب^(٦)
ولو كانت الدنيا مطية راكب لكان لكم منها بما حزتم الذنب^(٧)

ولا يهمننا أكانت قصيدة أبى القاسم الفاطمى قد قيلت قبل الحملة الأولى أم
الثانية أم بعدهما ، أم أنها أرسلت إلى بغداد أم إلى مصر ؛ وإنما يهمننا أن نقول إن
الفاطميين عولوا على مد نفوذهم فى الشرق . يدلنا على ذلك أن أبا القاسم حين قرأ
قول الصولى :

فلو كانت الدنيا مطية راكب لكان لكم منها بما حزتم الذنب
قال : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر وذنبه ورأسه إن قدرت ، أو
أهلك دونه^(٧) » .

ولم تقف هذه الحرب الكلامية عند هذا الحد ؛ بل إن القائم أرسل إلى الحجاز
يطلب من أهلها الدخول فى طاعته ، « ويعدهم بحسن السيرة فيهم ، فأجابوه : إن لهذا

(١) قضت الشئ : قطعه .

(٢) جمع أخية وآخية : وهى عود يذفن طرفاه فى الأرض ، ويبرز كالحلقة تشد فيها الدابة .
والمعنى عريقو الأصل .

(٣) الطنب : حبل طويل يشد به مرادق البيت ، جمعه أطناب .

(٤) نكوب نكوبا : عدل عن الشئ .

(٥) حرب : أى نقص وسوء حال .

(٦) عريب : صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٤٢—٤٣ .

(٧) المقرئى : اتعاطل الخنفا ص ٤٢ .

ألبيت ربا يدفع عنه ، وإن تؤثر على سلطاننا غيره (١) . وقد أثار هذا العمل الخليفة المقتدر ، فأرسل هذا الجيش إلى مصر على الفور (٢) .

وعلى الرغم من انهزام أبي القاسم الفاطمي في حملته الثانية على مصر ألقت هذه الحملة الرعب في قلوب الموظفين في هذه البلاد . ولا عجب فقد استولى على جزء كبير منها ، وقبض على خراجها ، ونهب الموظفون العباسيون باقى خراج مصر . يتبين ذلك من تلك العبارة التي قالها أحد موظفي خراج مصر : إنه « قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولى جملة ، ثم سار العلوى من إفريقية ، حتى تغلب على أكثر النواحي بمصر . . . فانصرف أكثر المال إلى أعطيات الجند ، ونفقات المساكن ، وانكسر باقيه لأجل استخراج العلوى ما استخراج من أموال النواحي المجاورة لمصر (٣) » .

وكان من عوامل إخفاق هذه الحملة أن الخطة التي وضعها المهدي لغزو مصر لم تنفذ بدقة ، فقد كان لزاما أن يلتقى جيش القرامطة بقيادة أبي طاهر الجنابي (٣٣٢ هـ) بجيش الفاطميين بقيادة أبي القاسم الفاطمي . ولكن مهارة مؤنس الخادم حالت دون نجاح هذه الخطة . وفي ذلك يقول ابن خلدون (٤) : « وصل أبو القاسم القائم إلى مصر ، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره ، فأعجله مؤنس الخادم عن انتظاره ، وسار من قبل المقتدر ، فهزمه ، ورجع إلى المهدي » . وبهذا نرى أنه لو تم للمهدي اتصال بعض الجيشين ببعض لفتح مصر سنة ٣٠٧ هـ ، واستطاع المهدي أن يظفر بفخر انتزاع مصر من العباسيين ، ويمتلك صدر الطائر ورأسه ، كما أراد . ولكن الخلافة العباسية كانت لا تزال على شيء من القوة ، على الرغم من ازدياد نفوذ قواد الأتراك الذين نبغ منهم جماعة يعتد بهم كمؤنس الخادم . ومهما يكن من شيء فقد استغرقت حملة المهدي الثانية على مصر سنتين وثمانية أشهر ، على ما ذهب إليه ابن الأثير (٥) .

(١) صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ .

(٣) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ص ٨٤ .

(٤) العبر ج ٤ ص ٨٩ .

(٥) الكامل ج ٨ ص ٩٨ .

(ح) الحملة الثالثة :

جد من الأحداث في بلاد المشرق مادعا عبيد الله إلى توجيه نشاطه إلى مصر من جديد ؛ فقد مات الخليفة المقتدر ، واضطربت أحوال العباسيين ، وانقسم قواد الأتراك في بغداد على أنفسهم بسبب ذلك . واتخذ المهدي من ذلك فرصة سانحة لمد نفوذه شرقا ، فاتفق مع تابعه النشيط أبي طاهر لإثارة الاضطراب في بلاد المشرق - كفارس أو سواها - في الوقت الذي تغير فيه جيوشه المغربية على مصر . لذلك نراه يرسل هذه الجيوش في سنة ٣٢١ هـ بقيادة حبشي بن أحمد المغربي . وتكاد تجمع المراجع على أن الحملة الثالثة كانت في عهد القائم (٣٢٣ هـ) لا المهدي (٣٢٢ هـ) : فيرى ابن الأثير (١) أن الخليفة القائم أرسل بعد وفاة المهدي جيشا « مع خادمه زيدان ، وبالغ في النفقة عليهم ، وتجهيزهم إلى مصر ، فدخلوا الإسكندرية . فأخرج إليهم محمد الإخشيد عسكريا كشيئا فقاتلهم ، وهزموا المغاربة ، وقتلوا فيهم وأسروا ، وعاد المغاربة مغلوبين » . ويتفق ابن خلدون (٢) والمقريزي (٣) في ذلك مع ابن الأثير . غير أن السكندی ، وهو أقدم هؤلاء المؤرخين ، يؤكد لنا أن الذي أرسل الحملة الثالثة إلى مصر هو عبيد الله لا القائم ، وأن هذه الحملة استغرقت ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، وأن المغاربة استولوا على جزء كبير من مصر وبخاصة في الدلتا ، وأن مناوشات كثيرة حدثت بين الفريقين — أي بين الحاميات المصرية وجيوش المغاربة بقيادة حبشي بن أحمد . وفي صفر سنة ٣٢٢ هـ عقدت الهدنة بين حبشي — وكان معسكرا في الجزيرة — وبين جند مصر (٤) . إلا أن هذه الهدنة لم تستمر طويلا ، بل كثيرا ما يذكر هذا المؤرخ شيئا غير قليل عن نشوب مبارك بين المغاربة وجند مصر في مدن كثيرة كالجزيرة وبلاق وبلبيس وسواها (٥) .

(١) الكامل ج ٨ ص ٩٨

(٢) العبر ج ٤ ص ٢٩ .

(٣) اتعاظ الخلفاء ص ٤٥ .

(٤) السكندی : القضاة والولاة ص ٢٨٤ .

(٥) المصدر ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

ولم يكتف الكندي بذلك ، بل إنه يذهب إلى القول بأن ذلك كان في عهد ولاية محمد بن طنج الإخشيد^(١) (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، الذي هزمهم في جمادى الأولى من السنة نفسها ، فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب . من هذا كله نستطيع أن نوفق بين ما ذكره الكندي وما ذكره غيره من المؤرخين فنقول : إن الذي أرسل الحملة الثالثة إلى مصر هو عبيد الله ، وذلك في أخريات حياته ، وأنه لم يمّت سنة ٣٢٢ هـ إلا بعد أن أدرك نجاحه في مصر واستقر جنوده في كثير من بقاعها . غير أن جيوش الفاطميين لم يستطيعوا أن يحتلوا هذه البلاد احتلالا كاملا ، بل كانت الحرب سجالا بين جنود مصر وجنود الفاطميين في سنتي ٣٢١ ، ٣٢٢ هـ . ونحن نعلم أن عبيد الله مات في ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، وأن القائم لم يصرح بموته إلا بعد سنة ، أي بعد أن استقرت أموره في المغرب ، وقضى على الفتن في بلاده . ومن ثم أرسل جيوشه إلى مصر في أواخر سنة ٣٢٣ هـ ، فبلغتها في أوائل سنة ٣٢٤ هـ ، واحتلت الإسكندرية . وكانت هذه الجيوش الأخيرة مددا للحملة الأولى التي وجهها عبيد الله المهدي إلى مصر ، فتوهم بعض أن القائم لا عبيد الله هو الذي اضطلع بإرسالها .

وما يلفت النظر في هذه الحملة ما ذهب إليه الكندي من أن الجيوش الفاطمية دخلت الإسكندرية في سنة ٣٢٤ هـ ، وأن كثيرين من زعماء المصريين انضموا إليها^(٢) ، مما يبين مدى تأثير الدعاية الفاطمية في تلك البلاد . وإلا كيف نفسر انضمام هؤلاء المصريين إلى الجيش الفاطمي الشيعي ؟ فهل كان هؤلاء الزعماء المصريون سنيين مخلصين لسنيتهم ، ولكنهم انضموا إلى الفاطميين رهبة لا رغبة ؟ لو أنهم كانوا كذلك لما انضموا إلى الفاطميين ، ولا جابوهم بمثل ما أجابهم به أهل مكة من أنهم لا يفضلون حاكما شيعيا على الدولة السنية . يبدو أنهم كانوا كذلك ، ولكن مهارة الوالي الجديد — محمد بن طنج الإخشيد — حالت دون تحقيق أمنيته في سيادة المذهب الإسماعيلي في مصر .

(١) من سلالة ملوك فرغانة ، والإخشيد لقبهم . أما طنج فعنها عبد الرحمن . وكان من كبار رجال الطولونيين وولاتهم في الشام ، وقد رأيتاه يقاوم قرامطة الشمال مقاومة تذكر .

(٢) الكندي : القضاة والولاة ص ٢٨٦ .

وقد ساعد على إخفاق تلك الحملة الثالثة أمور منها :

أولا : ظهور محمد بن طنج الإخشيد ، واستبداده بشئون مصر في ذلك الحين .
حقا لقد أحدث مقتل المقتدر في سنة ٣٢٠ هـ اضطرابا عاما في بلاد المشرق ، وكانت خلافة القاهرة (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) مضطربة ، فلم تمض عليه سنة واحدة ، حتى هب الجند في وجهه وخلعوه . والحق أنه بتولية الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) بدأ عصر إمرة الأمراء ، حين كان الخلفاء مع أمراء أمرائهم كالمحجور عليهم . ولعتقد أنه لولا تولية محمد بن طنج الإخشيد ولاية مصر لآخر مرة (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، لتوطدت أقدام الفاطميين في مصر في ذلك الحين . وعلى الرغم من أن الخليفة المهدى عجز عن أخذ مصر أو إقرار نفوذه فيها ، استطاع الخليفة القائم أن يستميل الإخشيد إليه في أخريات حياته ، وأن يستغل الحالة السيئة التي وصلت إليها الخلافة العباسية في عهد أمراء الأمراء ، حتى خطب له على منابر مصر (١) . إلا أنه يجب ألا نغشط عبيد الله حقه ؛ فقد وضع لخلفائه سياسة الهجوم على مصر ، وسن لهم سنة

(١) عمل القائم على جذب الإخشيد إليه ، فأرسل إليه كتابا رقيقا يستميله إليه ، وهذا مما يدل على أن القائم عدل عن سياسة الحرب مع وال قوى كذا . وإن حالة بلاد المغرب كانت مضطربة ، بسبب ثورة أبي يزيد غلب بن كيداد الخارجي . وبما جاء في رسالة القائم إلى الإخشيد : « وقد خاطبتك — أترك الله ! — في كتبه المشتمل على هذه الرقعة بما لم يحز لي في عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ؛ وضعت رقتي ما لم يطاع عليه أحد من كتاني وذوى المكانة عندي . وأرجو أن تردك صحة عن يمتك ، وحسن رأيك إل ما أدعوك إليه ؛ فقد شهد الله على مبلى إليك وإيثاري لك ، ورضيتي في مشاطرتك ما حو به يميني ، واحترى عليه ملكي . وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي ، لأنك قد استفرغت بمجهودك في منحة قوم لا ير ن إحسانك ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعذك ، وبخفرون ذمتك . لم يمتد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغي لك أن تمدد عن منهج من نصحك ، وإثارة من أترك إلى من يحمل موضعك ويضع حسن سعيك ، وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم ؛ فإن لم تجد من نفسك مودة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فاني أَرْضَى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه في أرك ، وتعدل عليه بمثل ذلك . وإذا تدبرت هذا الأمر ، علمت أن الذي يحملي إلى النطاطي لك وقبول الميسور منك ، إنما هو الرغبة فيك ، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته ؛ والله يريك حسن الاختيار في جميع أرك ، وهو حسينا ، ونعم الوكيل ، . ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٢٥-٢٦ . وعلى الرغم من أن الإخشيد لم يعمل بنا في هذه الرسالة اللينة ، فإن ظروفنا سياسية قد أرغمته على إلغاء الخطبة للعباسيين ، وتحويلها إلى الفاطميين مدة من الزمن . انظر : حسن إبراهيم : « الفاطميون في مصر » ، ص ٩٠-٩٢ .

التطلع إلى المشرق ، وعدم الاكتفاء ببلاد المغرب . حتى لا ينال بني عمهم الأدارسة . هذا إلى أنه قد بين لهم الفائدة التي يجنونها إذا ما اعتمدوا على الدعاية المنظمة للمذهب الإسماعيلي والدولة الفاطمية .

ثانيا : إخفاق حملة أبي طاهر الجنابي البحرية على جنوب غربي فارس ؛ فقد كان يرمى من ورائها إلى خلق المتاعب للعباسيين ، حتى تستطيع الجيوش الفاطمية أخذ مصر في سهولة ويسر ، خصوصا إذا اضطر العباسيون إلى سحب بعض حامياتهم من الولايات الأخرى كمصر والشام . حقيقة أن العباسيين لم يستطيعوا إمداد مصر بالرجال في أثناء الحملة الثالثة ، ولا سيما في أوائل أيامها بمصر ؛ ولكنهم عولوا بعد ذلك على رجالهم القذ محمد بن طغج الإخشيد ، الذي استطاع أن يستغل قوة جيوشه المدربة ضد الفاطميين . ومهما يكن من شيء فإن هجوماً على طاهر على جنوب فارس ، وهجوم الفاطميين على مصر في وقت واحد تقريباً (٣٢١ هـ) ، ليعين مدى سياسة المذهب الإسماعيلي في عهد المهدي . كما يبين استغلال عبيد الله سيوف أنصاره القرامطة في إزالة الدولة العباسية ، وإقامة الدولة الإسماعيلية على أنقاضها ، ثم في تقوية الرابطة المذهبية بين رئاسة الدعوة في المغرب وبين أنصارها . ولو استمرت هذه السياسة الحكيمة قائمة بين الفاطميين والقرامطة حتى فتحت مصر على يد جوهر سنة ٣٥٨ هـ ، لتكاتف الفرعان الإسماعيليان في إزالة الدولة العباسية المتداعية وقتئذ . وهكذا سن عبيد الله المهدي لخلفائه هذه السنة الطيبة لاستغلال موارد الفرق الإسماعيلية الأخرى كالقرامطة والخواشب . ولكن خلفاءه لم يحتفظوا بتلك السياسة الحكيمة ؛ فإن أبا طاهر الجنابي لم يكذب يموت سنة ٣٣٢ هـ ، ويتدخل القائم الفاطمي والمنصور والمعز من بعده في شئون القرامطة ، حتى فترت العلاقات بين الفاطميين والقرامطة .

فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ ، في الوقت الذي بلغ فيه الفتور بين الفريقين مبلغاً كاد يقضى على تلك العلاقة المذهبية التي كانت سائدة بين هؤلاء وأولئك . ومن ثم اتخذ البويهيون والعباسيون من هذا الفتور فرصة سانحة لإثارة القرامطة على سادتهم الفاطميين ، وانضم الحسن الأعصم إلى العباسيين ، ونادى بسقوط الفاطميين ، وحاربهم في الشام ومصر ، وكاد يقتلهم من تلك البلاد . ولو فرضنا

أن هذا النشاط الهائل الذى وجهه الأعصم للقضاء على الفاطميين قد توجه إلى القضاء على العباسيين ، وأن القرامطة فى عهد الأعصم كانوا على وفاق مع الفاطميين وانضوا تحت لواء جوهر الصقل ، لكان ذلك كفيلا بأن يقوض دعائم الدولة العباسية (١) .

ثالثا : كثرة الثورات والاضطرابات فى بلاد المغرب ، سواء أكان ذلك فى أخريات عهد عبيد الله أو بعد تولية القائم الخلافة . يدلنا على ذلك أن القائم لم يصرح بموت المهدي إلا بعد أن أخذ الثورات التى كانت منتشرة فى بلاده : من ذلك ثورة ابن طالوت القرشى الذى ادعى أنه ابن المهدي ، وحاصر طرابلس . كما حاصر الأدارسة بعض بلاده ، وشجعوا الثوار عليه ؛ فلم يستطع إخماد هذه الحركات إلا بشق النفس (٢) . ومن ثم لم تستطع نجدة التى أرسلها إلى مصر أن تقوم بعمل حاسم فى ضم هذه البلاد إلى حوزة الفاطميين .

من هذا كله نرى أن عبيد الله كان — منذ ولى الخلافة إلى أن مات — يبذل قصارى جهده للقضاء على العباسيين ، وأنه اتخذ من فتح مصر وضمها إلى إمبراطوريته وسيلة لتحقيق هذه السياسة ؛ كما استطاع أن يكون جبهة متحدة من الفاطميين والقرامطة تقف فى وجه العباسيين . كما أن إسماعيلية اليمن لم يستطيعوا أن يشتركوا معه فى هذه الخطة الجريئة ، لما انتابهم من الضعف بسبب ثورة ابن فضل على ابن حوشب أولا ، وانتزاع عبيد الله الرياسة من أبناء منصور اليمن ثانيا . كذلك قام عبيد الله المهدي بحملات ثلاث لفتح مصر ، إلا أنها أخفقت جميعها . وعلى الرغم من هذا الإخفاق فى الناحية الحربية ، كان لهذه الحملات أثر كبير فى نشر التشيع فى هذه البلاد طوال حكم الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، ذلك الأثر الذى ساعد إلى حد كبير جوهر الصقل والمعتزدين الله فى غزو مصر ، كما كان لها أثر كبير أيضا فى خلفاء عبيد الله ، الذين لم يتوانوا لحظة واحدة عن العمل على تحقيق مبادئ المهدي من محاولات لفتح مصر . ولولا ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى ، التى اجتاحت بلاد المغرب ، واستنفدت كل جهود الفاطميين ، حتى جعلت خزانهم خلوا من

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢٣٦ - ٢٣٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨ ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٤٠ ، المقرئى : انعاظ المنها ص ٤٥ .

الصفراء والبيضاء ، لآتيح للفاطميين فتح مصر على أهون سبيل . ولكن القائم والمنصور من بعده انصرفا إلى إخماد هذه الثورة ، وإصلاح ما أفسده أبو يزيد . لذلك لم يكفد المعز يتخلص من متاعب المغرب حتى ولي وجهه شطر المشرق : ففتح مصر ، ومد نفوذه في بلاد الشام والحجاز . وكان المعز بذلك يترسم سياسة عبيد الله المهدي التي كانت تهدف إلى مد نفوذ الفاطميين الزماني والديني إلى المشرق والمغرب ، والقضاء على الدولة العباسية .

٢ - امتداد نفوذ عبيد الله في خراسان وفارس

لم يكن هذا كل ما أظهره عبيد الله المهدي من نشاط في سبيل القضاء على العباسيين ، فإنه لم يكتف بالإغارة على مصر من ناحية المغرب ، كما لم يكتف بانضمام أشياعه القرامطة إليه لتحقيق سياسته العدائية مع هؤلاء العباسيين ، بل جعل دعائه في بلاد المشرق يضاعفون جهدهم في نشر الدعوة له ، حتى لقد قيل إن عبيد الله هو الذي قتل المقتدر^(١) ، وتخلص بذلك من منافس ذي خطر طالما وقف عقبة كأداء في وجه سياسته في المشرق . وإنا لنليس ذلك النشاط الذي بدأه دعائه العلماء في الري وطبرستان وخراسان وما وراء النهر . يداننا على ذلك ما رأيناه من هذه الجهود الكبيرة التي بذلها كل من الداعي أبي حاتم الرازي (٣٢٢ هـ) ، والداعي النسفي (٣٣١ هـ) ، والداعي أبي يعقوب السجزي (٣٣١ هـ) . فقد كان لجهود هؤلاء أثر ملموس في نشر ثقافة المذهب الإسماعيلي وفلسفته الجديدة التي ترمي إلى تقديس شخص عبيد الله المهدي — إمام الإسماعيلية وخليفتهم — وفي ترويح المبكدي الإسماعيلية تحت ستار الرد على الفلاسفة حيناً وعلى الملاحدة حيناً ، ومناصرة بعضهم بعضاً أحياناً .

دلت سياسة هؤلاء الدعاة على عبقرية نادرة المثال ؛ فقد استغلوا بعد هذه البلاد عن حاضرة العباسيين ، كما استغلوا جهل أهلها بوسائل النقاش والمناظرة والتضلع

(١) يقول ابن حماد (أخبار بني عبيد وسيرتهم ص ١٧) في مقتل المقتدر : « وأظهر عبيد الله عند ما بلغه الخبر أن دعائه فتلته بأسره ، وجلس لذلك بجلما هنيء فيه . ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً ، لأن الذي قتله كان بربرياً ولم يكن من أهل المشرق » .

في العلوم والمعارف ، وجذبوهم إليهم ؛ واستطاعوا بفضل ذلك كله أن يجذبوا إلى ساداتهم الفاطميين عددا كبيرا من الأمراء والقواد السنيين ، حتى اتصل هؤلاء الأمراء بعبيد الله المهدي ، وقدموا له فروض الطاعة ، والتمسوا منه أن يأذن لهم بالانضواء تحت لوائه . وهكذا كانت بلاد المشرق أشبه ببركان أوشك على الانفجار في وجه العباسيين . وقد نجح دعاة عبيد الله نجاحا يحسدون عليه في هذه السبيل . وإذن هل كان عبيد الله المهدي ودعائه يرمون من وراء جذب الأمراء والقواد إليهم أن يعلنوها ثورة جامعة على العباسيين ، ثم يتصل هؤلاء بالفاطميين ويصبحوا من رعاياهم ؟ يبدو أن هؤلاء الأمراء والقواد كانوا يعملون على الوصول إلى تحقيق هذه الأغراض ، بدليل ما صرح به بعض من أنه كان عنده خمسون ألف رجل طوع بئان المهدي ، وما صرح به ابن أبي الساج من أنه حليف أبي طاهر الجنابي ، إلى غير ذلك . أما اعتذار المهدي عن قبول ما عرضه عليه هؤلاء الأمراء وقوله لهم : «الزموا مراكم ، لكل أجل كتاب» ، فإنه ، على الرغم من أن ذلك يبدو بعيد التصديق ، يدل في الوقت نفسه على أن الدعوة الإسماعيلية لم تتمكن بعد من قلوب المسلمين كافة ؛ فإن العدد الذي ذكره نصر بن أحمد الساماني لم يكن كافيا لإحداث الانقلاب الذي ينشده عبيد الله ، كما أن جنود يوسف بن أبي الساج لم تكن على مذهب عبيد الله . ومن ثم نرى أن الوقت لم يكن قد حان لإعلان عبيد الله وأنصاره الثورة على العباسيين في المشرق .

ويصح أن نفرض أن عبيد الله الذي استغل نفوذ دعائه في خراسان وبلاد ماوراء النهر وطبرستان والري وغيرها استغلا لا تاما ، لم يشأ أن يعلن الثورة في تلك البلاد إلا بعد أن يتأكد من نجاحه ، ورأى أن يرجئ ذلك حتى يتم له فتح مصر ؛ وبذلك يكون الاتصال بينه وبين أنصاره في هذه البلاد النائية أمرا ميسورا . لذلك نرى أن عبيد الله قصد من قوله : «الزموا مراكم لكل أجل كتاب» ، إلى أنه إنما أراد أن يهائم حتى يفتح مصر ، وحينئذ يستطيع أن يعمل على إذكاء نار الثورة على العباسيين ، بإغارة أتباعه عليهم من الشرق ، على حين يلتقي هو معهم من المغرب فينتزع بغداد ، وتقوم الدولة الفاطمية على أنقاض الدولة العباسية في المشرق . وعلى الرغم من أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فإن هذا يدل على مهارة عبيد الله الحربية والسياسية .

٣ - امتداد نفوذ عبيد الله المهدي في بلاد المغرب

كان احتلال الفاطميين إفريقية (تونس) ، وقلهم دولة الأغلبة ، خطوة لامتداد نفوذهم شرقا وغربا . أما في الشرق ، فقد أخفقت دولتهم في الاستيلاء على مصر في عهد عبيد الله ، وأما في المغرب ، فكان الفاطميون يعملون على أن تكون جميع هذه البلاد في قبضتهم ، بحيث لا يحول بينهم وبين المحيط الأطلسي حائل . لذلك اصطدم عبيد الله المهدي بدولة الأدارسة ، وساهم إلى حد كبير في إزالتها ، كما اصطدم مع الأمويين في الأندلس . ولم يكن بد من أن يخضع عبيد الله القبائل الكبيرة في المغرب ، كزناته وسواها . وعلى الرغم من أن عبيد الله لم يستطع أن يخضع لسلطانه جميع بلاد المغرب ، مهد السبيل للعز لدين الله الذي استطاع أن يوحد كل بلاد المغرب تحت لوائه ، وأن يتم ما بدأه عبيد الله المهدي قبله بنحو نصف قرن .

تنظيم عبيد الله بلاد المغرب :

مرت المحاولات التي بذلها الفاطميون لإخضاع بلاد المغرب في أدوار مختلفة ، وكانت المحاولة الأولى على يد أبي عبد الله الشيعي ، واستمر عبيد الله المهدي يعمل على ضم بلاد المغربين - الأوسط والأقصى - وجزيرة صقلية ، حتى كادت جميعها تقع في قبضة يده .

وفي المرحلة الأولى (٢٩٦ - ٢٩٧ هـ) أزال أبو عبد الله دولة الأغلبة عن إفريقية ، ولذلك نراه حين يخرج منها إلى المغرب الأقصى ، يستخلف عليها أخاه أبا العباس ، كما نرى جميع البلاد الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى وتونس تخضع له ، أو تظهر خضوعها على الأقل . وبعبارة أخرى ، اهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناته ، وزالت القبائل عن طريقه ، وأتته رساهم ، ودخلوا في طاعته (١) . ولو أن اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة أحسن لقاء أبي عبد الله الشيعي ، لما كان هناك ما يحول دون بقاء السلطة في يد بني مدرار كما كانت من قبل . ولكن اليسع ركب

(١) المتريزي : انماظ الحفا ص ٣٨

رأسه ، وحارب أبا عبيد الله فقتله في سنة ٢٩٦ هـ . وبقتل اليسع آلت بلاده إلى الفاطميين ، فعينوا عليها واليا من قبلهم (١) . والواقع أن عبيد الله لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في رقادة حتى كان قد « زال ملك بني الأغلب من إفريقية ، وملك بني مدرار من سجلماسة ، وملك بني رستم من تاهرت (بالمغرب الأوسط) ، وملك المهدي جميع ذلك » (٢) .

وتبدأ المرحلة الثانية (٢٩٧ - ٣٠١ هـ) باعتلاء عبيد الله المهدي العرش ، وتنتهي بمحاولته فتح مصر للمرة الأولى . وقد عمل المهدي ، منذ جلس على العرش في ربيع الثاني سنة ٢٩٧ هـ ، على أن يكون السيد المطاق على الدولة الناشئة وعلى الدعوة ذاتها ، فلقب ، على ما يقوله السنيون ، بلقب « المهدي » (٣) ، وأرسل العمال إلى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة بالطبع ، ومن يثق بهم من المغاربة . ومما يلفت النظر حقا ما نراه من نشاط ولاية المهدي في ذلك الحين ، فقد ولي على صقلية سنة ٢٩٧ هـ واليا كان يثق به ، واستطاع هذا الوالي أن ينظم شئون هذه الجزيرة ، وأن يهدد جنوبي إيطاليا ، فيهاجم كلابريا (قلورية) كما يسميها العرب في سنة ٢٩٩ هـ . وكان من أشهر ولاته والي طرابلس ووالي برقة ، أو بالأحرى ولاية المغرب الأدنى ، ثم والي تاهرت في المغرب الأوسط . وقد اختارهم المهدي من خيرة تلامذة مدرسة أبي عبيد الله الشيعي ، الذين ساعدوه على إقامة الدولة الفاطمية . ولكي يتم المهدي إخضاع المغربين الأوسط والأقصى ، اعتمد على أبي عبيد الله الشيعي ، لأن هذه البلاد لم تقر للمهدي بالزعامة المطلقة ، أو على الأقل لم يدن أهلها له بالطاعة . لذلك نرى أبا عبيد الله يخرج في سنة ٢٩٧ هـ « مع جماعة من قواد كتامة ودعاتهم إلى أرض المغرب ، لما ظهر فيه من الالتياث وفساد الطرق ، وقيام القبائل على عمالهم ، فافتتح المدن وقتل وسي ، ووردت له كتب كثيرة بالفتوح فقرئت بإفريقية » (٤) .

(١) المقرئ : انماظ الحنفا ص ٣٩

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٦

(٤) ابن عذاري : ج ١ ص ١٦٠

وهذا يدل على أن مهمة عبيد الله في بلاد المغرب كانت لا تزال شاقة ، وأن الأمر لم يقف عند حد إزالة الدولة الأغلبية ، وأنه ليس من السهل على دولة شيعية متطرفة ، كالدولة الفاطمية الإسماعيلية ، أن تخضع بلادا واسعة الأرجاء تسود فيها المذاهب السنية ، كما أنه ليس من السهل أن تخضع قبائل زناته للكتاميين ، إلى غير ذلك من الصعاب التي اعترضت المهدي ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها . ومن ثم نرى أبا عبد الله الشيعي يقوم في سنة ٢٩٨ هـ على رأس جيش يحارب زناته جنوبي بلاد كتامة ، وفيقتل الرجال ، ويأخذ الأموال ، ويسبي الذرية ، ويحرق بعض المدن بالنار ، (١) . ولم يقف الخطر المحقق بعبيد الله المهدي عند هذا الحد ، فترى أهل طرابلس في سنة ٢٩٨ هـ يعزلون والي الفاطمي ويولون غيره ، ويسير بعض الزناتيين لاحتلالها . ولولا مهارة عبيد الله المهدي لوقفت طرابلس عقبة كأداء في سبيل سيره إلى مصر ؛ فقد استردها وعين عليها أحد زعماء كتامة من المخلصين لأبي عبد الله (٢) .

غير أن مقتل أبي عبد الله في سنة ٢٩٨ هـ اضطر المهدي إلى أن يحدث بعض التبديل في ولايته ، وإحلال غيرهم ممن يخلصون له لا لأبي عبد الله الشيعي ؛ فجعل على المغرب الأدنى — وخاصة برقة — حباصة بن يوسف ، الذي قاد الحملة الأولى على مصر مع أبي القاسم الفاطمي (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) ، وعين على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف قاتل أبي عبد الله الشيعي ، وكان مقره « تاهرت » . وكان موقف عبيد الله دقيقا حقا ؛ فقد ثارت زناته على ولايتهم الفاطميين في سنة ٢٩٩ هـ ، وثار أهل تاهرت على عمالهم . وكذلك ثارت كتامة انتقاما لأبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٩ هـ ، كما ثار أهل طرابلس في سنة ٣٠٠ هـ ، وثار أهل صقلية على واليهم ، وكاتبوا الخليفة العباسي المقتدر ودانوا له بالطاعة . إلا أن عبيد الله المهدي استطاع أن يخرج من هذه الشدائد ظافرا ، بفضل جهود ولي عمده أبي القاسم (القائم) ، الذي أخضع كتامة ، وغزا طرابلس ، ثم بفضل إخلاص ولاته الذين عينهم بعد أبي عبد الله الشيعي مثل حباصة بن يوسف وأخيه

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٦١

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣

عروبة ، وبفضل دهائه هو . وهكذا تعرضت دولة عبيد الله المهدي في بلاد المغرب لأخطار جسام ، وعلى الأخص بسبب انتفاض الأهلين على ولايتهم . وبرغم هذا كله اعتقد عبيد الله ، أنه بقتله أبا عبد الله الشيعي وأنصاره ، وتوليته ولاية يطمئن إليهم ، وإخضاعه الثورات التي قامت في وجهه على أثر مقتل أبي عبد الله ، يستطيع أن يمد نفوذه شرقا إلى مصر . ولذلك نراه يرسل إليها حملته الأولى .

وتبدأ المرحلة الثالثة من مراحل تنظيم بلاد المغرب (٣٠٢ — ٣٠٧ هـ) بحملة عبيد الله المهدي الأولى على مصر ، وتنتهي بحملته الثانية عليها . على أن سياسة عبيد الله قد جرت عليه كثيرا من المتاعب ، كما أدى مقتل أبي عبد الله الشيعي إلى وقوع الاضطراب في نظام حكم الولايات الفاطمية في المغرب وصقلية ، كما جر عليه مقتل حباسة بن يوسف شيئا غير قليل من المتاعب . فقد عز على عروبة أن يكون جزاء أخيه حباسة ، الذي قتل أبا عبد الله الشيعي ونكل بأنصاره ، وأحرز كثيرا من الانتصارات في مصر ، الحبس والتشريد ؛ كما خاف على نفسه وفر من تاهرت — مركز ولايته — في المغرب الأوسط . ولكن عبيد الله المهدي هم بقتله وتبع أنصاره وأنصار أخيه . ويظهر أن قتل حباسة وأخيه عروبة قد أثار الاضطرابات في المغرب ، فامتنعت برقة على عبيد الله المهدي ، ولم تسلم إلا بعد سنة ونصف سنة (١) . يقول ابن خلدون (٢) : « وانتقض لذلك أخوه عروبة بالمغرب ، واجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبربر ، وسرح إليهم المهدي مولاه وغالباء في العساكر ، فهزمهم وقتل عروبة وبنى عمه في أمم لا تحصى . ثم انتقض أهل صقلية ، وتقبضوا على عاملهم ... وولوا عليهم غيره ؛ فدعا للمقتدر العباسي ، وخلع طاعة المهدي . لذلك لم يكن بد من أن يخضع عبيد الله ثورة جزيرة صقلية ، وأن يولي عليها رجلا يرضاه هو ويوافق عليه أهل هذه الجزيرة . وقد نجح المهدي في ذلك نجاحا يذكر .

ويهمنا في هذه المرحلة أن نقول ، إن عبيد الله المهدي اتخذ من تاهرت بالمغرب الأوسط ، مركزا رئيسا يوجه منه قوته نحو المغرب الأقصى ، وإنه أخذ يحتمك في هذا الدور بالأدارة وبالأمويين جميعا . ذلك أن المهدي حين قتل عروبة بن

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفا من ٤١

(٢) المعبر نج ٤ من ٣٨

يوسف - واليه على القسم الغربي من دولته - ولى مكانه على تاهرت قائده المشهور « مصالة بن حبوس » ، الذي بدأ صراعه العنيف مع قبائل صنهاجة ، فاستولى على حاضرتهم « ناكور » أو « نكور » في سنة ٣٠٥ هـ (١) . وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الأدارسة ثم مع الصنهاجيين . وليس هذا وحده ، بل لقد بدأ نوع جديد من الصراع السياسي والحزبي بين الأمويين والفاطميين ؛ إذ اتخذ الأمويون بزعامة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) من هرب حكم هذه البلاد إلى الأندلس فرصة لجذبهم إليهم ، ومد يد المساعدة لهم على الفاطميين . وهذا يدل على أن الحرب بين الصنهاجيين والفاطميين إنما كانت في الواقع حرباً بينهم وبين عبيد الله من ناحية ، وبين الخليفة الفاطمي والخليفة الناصر الأموي من ناحية أخرى . ولا غرو فإن عبد الرحمن الناصر بدأ يلقب نفسه بألقاب الخلفاء ، ويرى أنه لا يقل شأنًا عن الفاطميين . وإن من يدرس العلاقة بين الفاطميين وبين الأمويين في الأندلس في الدور المغربي خاصة ، يستطيع أن يدرك إلى أي حد أضمر الفاطميون العداء للأمويين ، وخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر ، لا لأنه يدين بالمقائد السنية فقط ، بل لأنه أخذ يناهض عبيد الله وخلفاءه في ألقابهم وفي نظم حكمهم ، ولأنه كان يعمل على الوقوف في وجه

(١) كان الصنهاجيون من القوة بحيث كانوا يهددون ملك الأغالبة . وقد خافهم عبيد الله المهدي ، فأخذ يتودد إليهم حيناً ، ويتوعددهم أحياناً ، ولسكنهم لم يعبثوا به . فكان ما قام به مصالة بن حبوس انتقاماً لسببه عبيد الله المهدي . يقول ابن عذارى (البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٨١) : « لما تغلب عبيد الله الشيعي كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول في طاعته ، والتدين بإمامته ، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح (أمير صنهاجة وصاحب نكور) ، وفي أسفله أبيات كثيرة منها :

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أقتلكم عدلاً
وأعلو بميفي قاهرا لسيرفكم وأدخلها عفوا وأملؤها عدلاً

فأجابه شاعرهم :

كذبت وبيت الله لا تعرف الدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت إلا كافر ومنافق يميل مع الجهال في السنة المثل
وهمت العلياً لدين محمد وقد جعل الرحمن همك السفلى

الفاطميين في بلاد المغرب ، ولا سيما أن الفاطميين كانوا منذ قيام دولتهم في المغرب يرون أن كل شمال إفريقية مجال حيوى لمد نفوذهم وتحقيق سياستهم . كما كانوا يرون في الوقت نفسه أن أى تدخل من جانب الأمويين يتعارض مع مصالحهم . وهكذا فتح مصالة بن حبوس مدينة « ناكور » (١) ، وقتل رئيسها سعيد بن صالح في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم (٢) . وانتهب مصالة « ناكور » ، وسبي النساء والذرية ، ثم انصرف إلى تاهرت ، وكتب بالفتح إلى عبيد الله ... ثم إن بنى صالح خرجوا فارين بأنفسهم إلى الأندلس معتصمين بماتناهي إليهم من فضل أمير المؤمنين الناصر ، وحسن مذهبه في كل نازع إليه ومعتصم به ، فنزلوا بمرسى مالقة ، وعهد بإنزالهم والتوسع عليهم . وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق ، وخيروا في القدوم إلى قرار السلطان والمقام في ذلك المكان ، فاختاروا المقام على بره وحبائه . وكان مصالة قد استخلف على ناكور رجلا يقال له ذلول ، وانصرف إلى تاهرت ، فافترق عن ذلول من كان معه ، وبقي في قل من المشاركة ، فقصدته صالح بن سعيد . . . من مرسى مالقة ، فقتله وقتل أصحابه ، ولزم ناكور ، وهادى أمير المؤمنين (٣) بالخييل والجمال (٤) .

وهذا يدلنا على مدى مساعدة الناصر الأموى للصنهاجيين . فقد كان يهجمه أن يكون له خلفاء من المغاربة ، يستطيع أن يجعل من بلادهم حاجزا يقيه شر الفاطميين ، الذين كان يخشاهم ، ويعتقد أنهم يستطيعون أن يحققوا ما أخفق فيه العباسيون من الاستيلاء على بلاده ، وطرده من أسبانيا ، لبعد الشقة ووعورة الطريق بين العراق والأندلس ، مع قرب المسافة وسهولة الطريق بين المغرب والأندلس . لذلك أمر الناصر بإمداد صالح بالأخبية والآلات والبنود والطبول (٥) . أضف إلى ذلك أن الخليفة الناصر الأموى استغل عنصر الكراهية بين التشيع

(١) مدينة ساحلية في مراکش ، لها مرسى فيه جزيرة .

(٢) سنة ٢٠٥ هـ .

(٣) يقصد عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٣ .

Shiism والسنية Sunnism المتأصل في قلوب الصنهاجيين ؛ فقد رأينا هؤلاء ينظرون إلى عبيد الله وإلى دولته ومذهبه نظرهم إلى الروم والمجوس . هذا إلى أن خوفهم على ملكهم من عبيد الله المهدي ، والتجأهم إلى الناصر السني إنما كان يرى إلى الاحتفاظ بدينهم ودولتهم . ومن هنا نرى كيف بدأ عبيد الله المهدي يعمل بعد ذلك بجهد ونشاط على الاستيلاء على المغرب الأوسط والأقصى ، ليحول بذلك بين الأمويين في الأندلس ، وبين تحقيق أمانهم في بلاد المغرب . وهكذا انتهى دور الاستقرار والتمكين ، وبدأ دور العمل في الشرق والغرب معا . أما في الشرق فقد رأينا عبيد الله يرسل إلى مصر حملتين منيئاً بالحبيبة ، وأما في المغرب فنرى أن عبيد الله المهدي يكاد يقضى على نفوذ الأدارسة الذين سيمثلون معه نفس الدور الذي قام به الصنهاجيون من الاتصال بالأمويين ومناوأتهم والوقوف في وجهه .

وتبدأ المرحلة الرابعة من هذا التنظيم بالحملة الثانية على مصر ، وتنتهي بوفاء عبيد الله المهدي (٣٠٧ — ٣٢٢ هـ) . ويتمثل في هذه المرحلة صراع الفاطميين مع الأدارسة ، ومع حلفاء الخليفة الناصر الأموي من المغاربة . ويظهر أن عبيد الله المهدي حين أدرك إخفاقه في مصر ، عول على بذل جهوده كاملة في المغرب ؛ ومن ثم بدأ صراعه مع الأدارسة ، ذلك الصراع الذي انتهى بعزلهم في إقليم الريف ، وقضى على ملكهم في المغرب الأقصى ، ومن ثم بدأ دور الهجوم الجدي .

خرج مصالة بن حبوس قائد المهدي المشهور من تاهرت سنة ٣٠٨ هـ ، واسترد مدينة « ناكور » من الصنهاجيين ، ويمم شطر الأدارسة في فاس ، وعليها يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الذي يقول فيه ابن خلدون (١) : « كان أعلى بني إدريس ملكاً ، وأعظمهم سلطاناً ، وكان فقيهاً عارفاً بالحديث . ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة » . والحق أن يحيى هذا استطاع أن يوحد بين أدارسة فاس بالمغرب الأقصى ، وأدارسة الريف إلى حين . ومع ذلك فقد انتصرت جيوش المهدي الفاطمي عليه . وبما يلفت النظر حقا أن الأدارسة كانوا يحاربون بمساعدة المغاربة وأولياء الدولة من «أوربة» وسائر البرابرة والموالي (٢) ، كما كانت جيوش

(١) العبر ج ٤ ص ١٦ : كان الأدارسة يحكمون وقتئذ ناحيتين : الأولى في إقليم فاس ، والثانية في إقليم الريف .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الفاطميّين تتألف من المكناسيين ، وعلى رأسهم موسى بن أبي العافية ، ومن الكتاميّين (١) الذين قامت الدولة الفاطمية بفضل مساعدتهم . فما أسباب هزيمة الأدارسة إذن ؟ يرجع ذلك إلى تكاتف الكتاميّين برياسة مصالة بن حبوس القائد الفاطمي ، والمكناسيين برياسة موسى بن أبي العافية صاحب مكناسة (٢) ، وكان يحقد على الأدارسة ، ويتمنى زوال ملكهم . أضف إلى ذلك أن عبيد الله ، بعد أن أخفق في الاستيلاء على مصر عول على أن يوجه كل قواته نحو المغرب ، فاتبع سياسة « فرق تسد » ، واستطاع بذلك أن يفرق بين موسى بن أبي العافية أمير مكناسة وبين يحيى بن إدريس ؛ إذ لو اتحد هؤلاء وكونوا جبهة مناوئة له لما استطاع أن يثال منهم غرضاً .

وكانت نهاية تلك الجولة الأولى (٣٠٨ هـ) أن وضع أدارسة فاس تحت الحماية الفاطمية ؛ فاعترفوا بزعامة المهدي الفاطمي ، ودفعوا له الجزية ، وولى الفاطميون في الوقت نفسه موسى بن أبي العافية على هذه البلاد ، فكان بمثابة المندوب السامي في عصورنا الحديثة . وقد لخص ابن خلدون (٣) نجاح الفاطميّين على الأدارسة بقوله : « صالحه على مال يؤديه إليه ، وطاعة معروفة لعبيد الله ، وأبقى عليه مصالحه في سكنى فاس ، وعقد له على عملها خاصة ، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يومئذ . . . على سائر أعمال البربر » .

وفي الحق أن نهاية أدارسة فاس أو المغرب — على ما يسمونهم — كانت قد تقررت منذ سنة ٣٠٨ هـ ؛ فقد أدرك يحيى بن إدريس أنه لا يستطيع البقاء كالأسير في بلاده ، كما كان يحتقر موسى بن أبي العافية لأنه من البربر . لذلك آثر يحيى الراحة وترك شئون فاس لابنه طلحة ؛ ولكن موسى ما زال يغري مصالة بن حبوس به وبابنه طلحة ، فاستصفى هذا القائد أموالهما في سنة ٣٠٩ هـ ، ونفى طلحة إلى بلاد

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٧

(٢) مدينة شرق مدينة مراکش ، تبعد عنها بأربع عشرة مرحلة كما تبعد عن فاس بمرحلة واحدة .
وتقع في الطريق من فاس إلى « سلا » ، على ساحل البحر ، وفيها تمرى الدراكب ، ومنها تجلب الخنطة إلى شرق الأندلس .

(٣) المغرب ج ٤ ص ١٦

الريف حيث أقام مع بني أعمامه الأدارسة الذين يـكـونون الفرع الآخر في إقليم الريف . وأما يحيى فقد عول على قصد المهديّة ؛ إلا أن ابن أبي العافية قبض عليه وسجنه مدة (١) ثم أطلقه ليذهب إلى المهديّة ، ويقضى بها حياته في شقاء . وبهذا تم إخضاع إقليم فاس للفاطميين ، بعد زوال سلطان يحيى بن إدريس وأهل بيته عنه ، وتعيين وال فاطمي على إقليم فاس ، على حين بقيت الزعامة والرياسة لصاحب مكناسة حليف الفاطميين على جميع هذه البلاد ، ومعنى هذا انضمام جزء كبير من بلاد المغرب الأقصى إلى الفاطميين (٢) .

على أن هذا النصر كان يقتضى إخضاع إقليم سجلماسة إلى الدولة الفاطمية . حقيقة كان أبو عبد الله الشيعي قد ضم سجلماسة إلى الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ هـ ، وولى عليها واليا من قبله قبل عودته مع المهدي إلى رقادة سنة ٢٩٦ هـ . غير أن هذا الوالي الفاطمي لم يتمتع بالحكم أكثر من خمسين يوما ، فقتله أهل سجلماسة ، وخرجت هذه البلاد عن طاعة الفاطميين (٣) . ولكن كيف يستطيع وال في بلاد نائية كهذه أن يحتفظ بولايته ؟ ثم كيف يستطيع أن يحكم جماعة يضمرون له وخليفته ومذهبه الكراهة والبغضاء ، ويؤدون التخلص منه ؟ هذا إلى أن البلاد التي تفصل بين مقر الفاطميين وبينها بلاد معادية أو منافسة للفاطميين ؛ فهناك قبائل زناتة وصنهاجة والأدارسة وسواهم . وهكذا كان فتح فاس من العوامل التي ساعدت على فتح سجلماسة . وقد تم ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، وأصبح والى هذه البلاد من قبل الفاطميين .

ويبدو أن مصالة بن حبوس ، قائد الفاطميين وأمير تاهرت بالمغرب الأوسط ، كان موضع خوف المغاربة وإعجابهم ؛ إذ لم يكمد يعود إلى إفريقية (بلاد تونس) سنة ٣١٠ هـ حتى هب أحد أمراء الأدارسة ، وطرده أمير فاس الفاطمي ، وحارب موسى بن أبي العافية وانتصر عليه ، واستولى على فاس سنتين .

(١) قدرها المؤرخون بعشرين سنة ، فقد بعدها المهديّة حيث استقر بها أثناء حصار ابن كيداد لها ، ومات فقيراً بانسا .

(٢) ابن عشاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٠

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١٤

غير أن موسى بن أبي العافية ما زال به حتى طرده من فاس في سنة ٣١٣ هـ. ويظهر أن ابن أبي العافية قد داخله الغرور بعد استرداده فاس ؛ ولذلك أخذ ينكل بأنصار الفاطميين ، ويعمل على استئصال البقية الباقية من الأدارسة . وقد فر جميع هؤلاء إلى إقليم الريف ، وذهب ملك الأدارسة ، واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب ، وأجلى بنى محمد بن القاسم بن إدريس وأخاه الحسن إلى الريف ، (١) ؛ وكان ذلك في سنة ٣١٥ هـ . وهكذا تكاتف الفاطميون وصاحب مكناسة على إزالة دولة الأدارسة . ويعتبر هذا نجاحا للفاطميين أكثر منه للمكناسيين ؛ لأن هؤلاء أزالوا دولة غلوية ، كانت تعتبر نفسها كالدولة الفاطمية أحق بزعامة المسلمين . وكان الأدارسة يتنازعون الزعامة مع الفاطميين ؛ لذلك كان لزوال دولة الأدارسة أثر كبير في نجاح الفاطميين من الناحيتين السياسية والدينية .

والواقع أن موسى بن أبي العافية صاحب مكناسة أضحى خطرا على ملك الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى ، حيث استولى على ملك فاس وبلاد المغرب ... وانتظم الأمر لموسى بن أبي العافية في المغربين الأقصى والأوسط ، (٢) . وقد شجعه على ذلك موت مصالة بن حبوس القائد الفاطمي في سنة ٣١٢ هـ ، فأصبح ابن أبي العافية خطرا يهدد كيان الفاطميين أنفسهم . من ذلك نستطيع أن نقول ، إن الفاطميين نجحوا إلى حد كبير في إقرار سلطانهم على بلاد المغرب الأوسط في عهد ولاية مصالة بن حبوس (٣٠٧-٣١٢ هـ) ؛ فاستطاع هذا الوالي أن يضم إلى الدولة الفاطمية بلاد صنهاجة في المغربين الأوسط والأقصى ، كما استطاع أن يقضى قضاء يكاد يكون تاما على أدارسة فاس ، وأن يزيل دولة آل مدرار من سجل مكناسة نهائيا . ففتح معظم بلاد المغربين الأقصى والأوسط ؛ غير أن الدولة الفاطمية لم تستطع

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٧ . ويسمى هذا الزعيم الإدريسي الحسن بن محمد بن القاسم ابن إدريس ، ويلقب بالحجام . حارب موسى بن أبي العافية ، وواقعه وقعة لم تر بلاد المغرب مثلاً ، بعد دخول إدريس الكبير ، ، على ما يقوله ابن عذاري (ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١) . ولكن أهل فاس غدروا به حيا في الفاطميين ، وتعاونوا مع موسى عليه ، وألقى الحجام بنفسه من فوق سور المدينة ذات سنة ٣١٥ هـ .

(٢) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

أن تتمتع بهذا الملك الواسع طويلا، لاستبداد ابن أبي العافية أمير مكناسة بالأمر في تلك البلاد دونهم .

ومن ثم عمل الخليفة المهدي على إنقاذ مملكته في هذه البلاد وغيرها ، فأرسل إليها ولي عهده أبا القاسم في سنة ٣١٥ هـ ، واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيرا من نفوذهم . وكان المهدي يعتبر عمل القائم هنالك جهادا في سبيل الله ، كما يتبين ذلك من قوله . « اللهم إنك تعلم أني ما أردت بإخراجه إلى المغرب إلا رضاك ونصرة دينك وإذلال أعدائك » (١) .

ولي المهدي على المغرب الأوسط وتاهرت واليا آخر هو « حميد بن يصال » ، وعمل هذا الوالي الجديد على أن يشعر موسى بن أبي العافية بقوة الفاطميين ونفوذهم في هذه البلاد ، فأرسل من قبله واليا إلى فاس . وكان « مدين بن موسى بن أبي العافية » قد استبد بها وأرغمه على الفرار . وهذا يدل على أن العلاقة بين ابن أبي العافية وبين حميد بن يصال لم تكن من الصفاء على ما كانت عليه في عهد ولاية مصال بن حبوس على المغرب الأوسط (٣٠٧ — ٣١٢ هـ) . ومن ثم شجع موسى الثوار على والي الفاطميين الجديد فقتلوه وحملوا رأسه إليه . فأرسله إلى عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي : لأن موسى « كان يميل إلى صاحب قرطبة من أمراء بني أمية » (٢) .

بهذا نرى أن موسى بن أبي العافية قد أصبح خطرا على الفاطميين ، وأن ذلك كان راجعا إلى رغبته في الاستبداد ببلاد المغرب وحدها ، بل إلى ارتباطه بالأمويين أعدائهم التقليديين . وقد ظل موسى خطرا على الفاطميين حتى في عهد الخليفة الفاطمي الرابع ، وهو المعز لدين الله . ومهما يكن من شيء فقد أوضح ابن خلدون موقف هذا الثائر من الفاطميين فقال : « ثم انتفض موسى بن أبي العافية عامل فاس والمغرب ، وخلع طاعة الشيعة ، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر ، وبث دعوتهم في أقطار المغرب » (٣) .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٣٩ — ٤٠

ولم يكن ابن أبي العافية وحده هو الذى سلك مع الفاطميين هذه السبيل ؛ فان أدارسة الريف قد حذوا حذوه ، فولوا وجوههم شطر عبيد الرحمن الناصر الأموى بالاندلس ، مستعينين به على منافسيهم ، ولا سيما مع بنى عمهم الفاطميين . وبفضل هؤلاء وأولئك استمر نفوذ الأمويين فى بلاد المغرب قويا ، كما استمر الصراع كذلك بين هؤلاء وبين الفاطميين ، حتى ولى المعز لدين الله الفاطمى الخلافة ، فأخضع بلاد المغرب كلها لنفوذه ، وحارب الأمويين برا وبحرا ، وانتصر عليهم وعلى حلفائهم الروم والمغاربة .

صقلية فى عهد عبيد الله المهدي

ما كادت ترجح كفة أبى عبد الله الشيعى ، وينتصر على الأغالبة ، حتى هب أهالى صقلية على واليهم السنى ، الحسن بن رباح ، الذى كان يحكم هذه الجزيرة باسم الأغالبة ، وولوا عليهم عليا بن أبى الفوارس (٢٩٦ هـ) . ولم يكتفوا بذلك ، بل طلبوا إلى أبى عبد الله أن يقرهم على ما فعلوا ، فأقر هذا الوالى الجديد ، وحتم عليه أن يتم ما بدأه من الفتح والغزو (١) .

غير أن عبيد الله المهدي كان قد وضع لنفسه سياسة الاعتماد على السكتاميين أنصار المذهب الإسماعيلى ؛ ولذلك قبض على ابن أبى الفوارس ، وولى مكانه الحسن ابن أحمد بن أبى خنزير السكتامى . وقد تعصب السنيون على الحسن ، وعملوا على طرده من صقلية لجوره أولا ، ولامتنانهم إياه ثانيا .

أما جوره فنراه فى استبداده بالسنيين ، وانتهاج عماله نهجه فى الاستبداد بهم ؛ وأما امتنانهم إياه ، فإن كثيرا من زعماء العرب فى صقلية كانوا يأنفون أن يتزعمهم كتماى بزبرى ، لأنهم كانوا يرون أنهم أرفع منه قدرا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اتضح لهم أن الحسن يقرب إليه البربر ويهمل شأن العرب ؛ فولى أحد السكتاميين على قضاء الجزيرة ، وأطلق يد أخيه على بن أبى خنزير فى أمور البلاد .

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣٤ .

وليس هذا كل ما أثار حفيظة السنين بصقلية على الحكم الفاطمي ؛ فقد عز عليهم أن يخطب على منابرهم للخليفة المهدي الفاطمي ، وأن تنظم الدعاية فيها للمذهب الإسماعيلي الذي كان دعائه يعملون في جد وحزم على جذب الناس إليه . وفي الحق أن هذا هو السبب الأساسي الذي أثار أهل صقلية على واليهم الفاطمي .

وقد ولي عبيد الله المهدي عليا بن عمر البلوي جزيرة صقلية ، فوصل إليها في سنة ٢٩٩ هـ . ولم يكن البلوي أقل تعسفا من سلفه ، على الرغم مما عرف به من اللين وضعف الإرادة ، فثار الناس عليه . وقد يسأل بعض عن السبب الحقيقي الذي حدا بأهل صقلية إلى شق عصا الطاعة على هذا الوالي الفاطمي ، وهل يرجع ذلك إلى لينه وشيخوخته ؟ أو إلى أنه كان يمثل العنصر الشيعي ، مع أن السواد الأعظم من المسلمين بصقلية كانوا يدينون بالعقائد السنية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى أنه كان من بين الثأرين جماعة من تلاميذ مدرسة أبي عبد الله الشيعي ، الذين عز عليهم مقتله فثاروا بالمهدي وبواليه البلوي ؟ يبدو أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي أدت إلى إشعال نار الثورة في صقلية . فإن مقتل أبي عبد الله الشيعي قد أثار على عبيد الله المهدي موجة من السخط والغضب شملت المغرب وصقلية (١) (سنة ٣٠٠ هـ) ، مما حملنا على الاعتقاد بأن عددا كبيرا من الثأرين على البلوي ، كانوا من أنصار مدرسة أبي عبد الله الشيعي . أضف إلى ذلك أن العناصر العربية قد عز عليها أن يرسل الفاطميون ولاية من البربر ، ولذلك اختار الزعماء في صقلية أحمد بن قهره ، وكان عربيا ، في سنة ٣٠٠ هـ .

ويبدو أن ابن قهره كان في سنه الأولى على شيء كبير من الصفاء مع الفاطميين . وقد أبدى هذا الوالي نشاطا ملحوسا في الناحية الحربية ؛ فأغار على قلورية (كالابريا) في سنة ٣٠٠ هـ . ويظهر أيضا أن ابن قهره لم يكن يأمن بجانب السنين في صقلية ، بل الفاطميين أنفسهم ، وأنه كان في الوقت نفسه يميل إلى الزعامة ويعمل على الاستقلال عن الفاطميين ، ومقاومة المسلمين في صقلية إذا اقتضى الأمر . يدل على ذلك أنه عول على فتح ثغر طبرمين ، الحصين في هذه الجزيرة ، وكان غرضه إذا ملكها أن يجعل بها ولده وأمواله وعبيده ، فإذا رأى من أهل صقلية ما يكره .

(١) ابن خلدون : المغرب ج ٤ ص ٢٨

امتنع بها^(١) ، ولم يمنعه عن تحقيق أغراضه إلا ثورة الجند عليه .

وقد نيسأل عن السبب الذى حدا بثورة الجند على ابن قره ب . يبدو أن نزعتهم إلى الاستقلال بصقلية قد أدركها أنصار الفاطميين ، فأشعلوا نار الثورة على ابنه ، وكادوا يقتلونه ، لولا أن تصدى لهم العرب من السنين ؛ لذلك فإن ابن قره ب حين أدرك أن أمره قد افتضح ، وخشى انتقام الفاطميين ، نار عليهم ، وأعلن ولاءه للعباسيين (سنة ٣٠٤ هـ) ، وقطع الخطبة للمهدى فى صقلية ، وخطب للخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

ولم يكتف ابن قره ب بقطع خطبة الفاطميين ، بل عمل على إثارة مخاوفهم ، لئلا تحدثهم أنفسهم بمحاولة طرده من صقلية ، ولكى يظهر أمام العباسيين بمظهر المخلص المتفانى فى طاعتهم . لذلك أرسل أسطول القوى لمهاجمة سواحل بلاد المغرب ، وأحل بأسطول الفاطميين الهزيمة عند سواحل إفريقية (تونس) ، وقتل قائده (ابن خنزير) . ومن ثم قصد إلى سفاقس^(٢) ، فخرّبها ، ولم يجد المهدى من نفسه القدرة على صده عن طرابلس . غير أن أسطول ابن قره ب خشي بقاء أبى القاسم الفاطمى فى هذه البلاد ، وعاد إلى صقلية ظافرا .

وكان من أثر تلك الإغارة ، أن ضاعف المهدى جهده فى تقوية أسطوله وإعداده لصد هجمات ابن قره ب الذى نال إعجاب العباسيين ، فأرسل إليه المقتدر الخلع السود والألوية . وقد جعلت نشوة ذلك الانتصار البحرى الذى أحرزه ابن قره ب يقدم على مهاجمة قلورية فى جنوب إيطاليا ، ثم على مهاجمة الفاطميين فى عقر دارهم من جديد^(٣) .

وكان إسراف ابن قره ب فى الاعتماد بنفسه من عوامل هزيمته ؛ فإن هذه المظاهرة التى قام بها فى وجه الفاطميين قد أضعفت قوته . أضف إلى ذلك أنه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥

(٢) ميناء فى بلاد تونس ؛ بينها وبين المهدية ثلاثة أيام ، وبينها وبين سوسة يومان ، وبينها وبين قابس ثلاثة أيام ، وهى مشهورة بزيت الزيتون .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ . كان ذلك فى سنة ٣٠٤ هـ لا فى سنة ٣٠٠ كما زعم ابن خلدون .

بتوجيه نشاطه إلى «قلورية» قد حد من قوته الحربية ، حتى إنه لما هاجم إفريقية بأسطول قوى ، وجد أساطيل الفاطميين واقفة له بالمرصاد ؛ ولم يلبث أن قضى على أسطوله وتآمر عليه الملتفون حوله ، وقبضوا عليه وأرسلوه مع بعض خاصته إلى المهديّة حيث قتل ، وعادت صقلية من جديد إلى حظيرة الفاطميين .

علمت الحوادث عييد الله المهدي أن حكم الفاطميين لن يستقر في جزيرة صقلية ، إلا إذا أرسل إليها مع الوالي جيشا يدفع عنه خطر الثائرين على الحكم الفاطمي . والواقع أن المهدي اتخذ من إرسال هذا الجيش إلى صقلية وسيلة لقمع ولاية الفاطميين إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه ، والقضاء على أهالي صقلية إذا حاولوا شق عصا الطاعة (١) . وقد صدقت فرائسة المهدي ، فإنه ما كاد واليه الجديد (أبو سعيد) يظاً أرض هذه الجزيرة حتى ثار عليه كثير من أهالي مدائنها ، مثل مدينة صقلية وغيرها . ولولا مساعدة جند الفاطميين للوالي ، لما استقر حكم المهدي في هذه البلاد . ولذلك فإنه لما انتصر أبو سعيد على أهل صقلية ، واستنجد هؤلاء بالمهدي ، أمر واليه بالعفو عنهم (٢) . وكان ذلك في سنة ٣٠٥ هـ .

وقد أفاد المهدي من وراء هذه السياسة ، واستطاع ولاته على صقلية ، بفضل جيوش الفاطميين وما كان يصلهم من أمداد كبيرة ، أن ينشروا الأمن في ربوع هذه الجزيرة ، وأن يغيروا على قلورية مرات كثيرة . وكانت حملة واليه (سالم بن راشد) في سنة ٣١٣ هـ من أهم الحملات ، حيث انتصرت على الروم في جنوب إيطاليا وعلى المعارضين في صقلية ذاتها .

وقد سن المهدي سنة جديدة بتوجيه حملاته من المهديّة لقتال الروم في إيطاليا وصقلية وسواهما ؛ وكان ولاية صقلية وجيوشهم يساهمون في هذه الحروب مساهمة فعالة . وقد أرسل المهدي في أخريات حياته حملة بحرية بقيادة قائده يعقوب بن إسحاق ، الذي استطاع أن يهدد جنوة نفسها ، ولم يمت إلا بعد أن تم له فتح هذه المدينة ، كما انتصر على أسطول الروم في سردينيا (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ - ٢٦

(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٠٧

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٤ ، ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٢٠٨

وقد سار خلفاء المهدي على هذه السياسة التي سنها لهم . إلى أن تقلد ولاية هذه الجزيرة الحسن بن أحمد الكلي في عهد الخليفة الفاطمي المنصور إسماعيل . فكانون أسرة عريقة حكمت هذه البلاد باسم الفاطميين وقتا طويلا . وكان لهم شأن يذكر في عهد المنصور والمعز ، واستطاعوا أن ينتصروا على الروم والأمويين جميعا . وهكذا مات عبيد الله ، وقد امتد نفوذه من برقه — على حدود مصر — حتى سواحل المحيط الأطلسي ، وترك لخلفائه هذه الدولة الشاسعة الأرجاء ، وورثهم فيما ورث الرغبة الملحة ، والعمل المتصل في سبيل بسط سيادة الفاطميين على كافة أرجاء شمال إفريقيا شرقا وغربا : فزالت على أيديهم دول كثيرة ، وأخذوا الثورات المتصلة ، التي كان يشنها البربر خاصة على الحكم الفاطمي (١) ، واصطدموا مع أمويي الأندلس ، كما اصطدم خليفتهم الأول . وقد لعبت السياسة الفاطمية دورا هاما في عهد عبيد الله ؛ فقد استطاع أن يحارب الأمويين بنفس سلاحهم ، فاتصل بابن حفصون الذي ثار على عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ثم على عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ، وحضه على الثورة على الأمويين ، وكان يتصل به من حين إلى حين ، وعقد معه معاهدة صداقة ومودة ، أدت إلى انتشار الدعوة الإسماعيلية والنفوذ الفاطمي في الأندلس . وقد انتقم عبيد الله المهدي بذلك لنفسه ولدولته الشيعية من هذه الدولة الأموية السنية . وهكذا ورث عبيد الله المهدي خلفائه الحق على الأمويين ، والعجل على استئصال شأقتهم من المغرب ، بل من الأندلس نفسها إذا استطاعوا .

(١) استطاع الخليفة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) أن يقضي على كافة محاولات ابن أبي العافية ، مستعينا في ذلك برجال الدعوة المخلصين له ، ككيسر الخادم وسواه . كما استطاع الخليفة المنصور إسماعيل أن يتخلص من أبي يزيد عثك بن كيداد الخارجي . وليس هذا وحده ، بل إنه كثيراً ما حارب خلفاء عبيد الله أدارسة الريف ، حتى انقسموا على أنفسهم : ففريق أصبح يفضل التقرب إلى الفاطميين ، وفريق آخر يفضل الأمويين . وكان هذا الفريق أكثر نفوذا ، فاستطاع عبد الرحمن الناصر أن يضم إليه سببة وطنجة . ولما قضى المعز على دولة الأدارسة في إقليم الريف ، وقف وجهها لوجه أمام الأمويين ، ومازال الفاطميون بأبناء عمهم الأدارسة حتى دالت دولتهم في سنة ٣٧٥ هـ ، بعد أن حكموا هذه البلاد زمنا طويلا . (انظر حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦) .

وأما ما أضمره الفاطميون للعباسيين من عداوة ، فنراه واضحا فيما بذله عبيد الله المهدي من جهود لفتح مصر ، والوصول إلى بغداد حاضرة العباسيين ، كما نراه في بث جواسيسه ودعاته حتى في بغداد نفسها . واستطاع هؤلاء الدعاة أن يستميلوا إليه الأمراء والقواد ، ويوقعوا الارتباك في صفوف العباسيين والموالين لهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وما إليها . كما يتضح لنا عداوة الفاطميين للعباسيين من حث عبيد الله القرامطة على أن يكونوا حربا عوانا على العباسيين وأنصارهم ؛ فيغيروا على العراق من حين إلى حين ، ويدهموا الحاج لخطّ مركز الخليفة العباسي دينيا وسياسيا .

وبهذا نرى أن عبيد الله المهدي كان موقفا في سياسته رئيسا للدولة الإسماعيلية من الناحية السياسية ؛ فكان أكثر خائفا عمده نشاطا ، وأشدّهم ذابا على العمل الجدي ، خصوصا وأنه كان يهتم باستقرار أمور دعوته ودولته الناشئة ، على حين أن الخلفاء من غير الفاطميين كان الضعف قد أخذ يدب في جسم دولهم . كما نجح عبيد الله رئيسا أو إماما للدعوة الإسماعيلية ، فاستطاع أن يوحد بين صفوف أنصار هذه الدعوة ، برغم ما سادها من الاضطراب ؛ نتيجة لتوليته الإمامة ثم الخلافة . واستمر القرامطة على ولائهم له ، وحذا حذوهم في ذلك إسماعيليو فارس . وصفوة القول أن بقاء المذهب الإسماعيلي الذي يتمثل اليوم في طائفتي البهرة والخوارج في اليمن والهند خاصة ، يرجع إلى جهود عبيد الله المهدي .

مدينتا المهديّة والمحمديّة

كان من سياسة عبيد الله المهدي الخليفة ، أن يبني مدينة يتخذها حاضرة لدولته الناشئة ، وحصنا يوجه منه ضرباته إلى كل من تحدّثه نفسه من الخوارج بالخروج عليه وعلى مذهبه ، ويتخذها دار هجرة يعتصم بها هو وأنصاره إذا حاق بهم خطر خارجي . لذلك لم يتخذ فج الأخياري بجبل إيكچان دارا لهجرته ، كما اتخذها أبو عبد الله من قبله ، لأنها ليست في مكان يتوسط أجزاء دولته شرقا وغربا ؛ كما أنه لم يجد في القيروان أو رقادة مكانا يصلح لتحقيق هذه الأغراض السياسية والحربية والدينية ، لأنها كانت تزخر بالسنيين وأنصار الأغلبية المعادين للفاطميين الشيعة ، كما عدل

السفاح والمنصور من قبله عن اتخاذ دمشق حاضرة للدولة العباسية . لأنها كانت غاصة بالأمويين وأنصارهم ، ولأنها كانت بعيدة عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين . فكان من المناسب إذن أن يعدل عبيد الله المهدي عن اتخاذ هذه الأماكن حاضرة لخلافته ، وأن يستبدل بها حاضرة جديدة تفي بهذه الأغراض جميعا .

خرج المهدي إلى تونس يرتاد موضعا يبني فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج ، وقيل : إنه وجد في بعض الكتب ما يدل على خروج أبي يزيد مخلد بن كيداد على دولته (١) ، ووفق المهدي إلى موضع المهدية وهي متصلة بالبحر كمدينة كلف متصلة بزند ، فتأملها فوجد فيها رابعا في مغارة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال : هذا يسمى جزيرة الخلفاء ، فأعجبته هذا الاسم ، فبناها ، وجعلها دار مملكته (٢) .

تقع المهدية على بعد ستين ميلا جنوبي القيروان . وقد ذكر البكري (٣) أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما ، زنة كل باب منهما ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبرا ، ووزن كل مسبار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرحطال . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات ، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً ، عدا ما كان يجري فيها من القنوات . ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافقة للسلع التي تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها (٤) . ومرسى المهدية منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركبا ، وعلى طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد ؛ فإذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣

(٢) انظر لفظ « المهدية » في معجم البلدان . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السني

ج ٣ ص ٥٩٨ - ٥٩٩

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه .

السفينة ، ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم^(١) . وقد بنى المهدي بمدينة المهديّة داراً للصناعة تسع أكثر من مائتي مركب ، وفيها قبوان كبيران مستطيلان ، لئلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر^(٢) .

ولما فرغ المهدي من بناء حاضرتة الجديدة في سنة ٣٠٥ هـ قال : « اليوم أمنت على الفاطميات » ، يعني بناته ، ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب أبواب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصة بها ، فنقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة أهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصر المهدي ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحجي ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة^(٣) .

أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار المهديّة ، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً ، وأحاطها بسور ، وأبواب وحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم وقال : « إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذلك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك . فإن أرادوني بكيد ، وهم بزويلة ، كانت أموالهم عندي ، فلا يمكنهم ذلك ؛ وإن أرادوني بكيد وهم بالمهديّة خافوا على حرمهم هناك . وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً ، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأنني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً ، وبين حرمهم نهاراً^(٤) . ويظهر أن المهدي حذا في ذلك العمل حذو أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوباً إلى الكرخ^(٥) .

وقد قال شعراء إفريقية في المهديّة وانتقال عبيد الله إليها :
حططت الرحل في بلد كريم رعت له الملائكة الكرام

(١) البكري : المغرب ص ٨٤ - ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠-٣١ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٥٩٨

(٤) البكري ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ - ٢٢ ، ٨٤

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٥٩٨ - ٥٩٩

لقد عظمت بأرض الغرب دار بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهديّة الحرم الموقى كما بتهامة البلد الحرام
كان مقام إبراهيم فيه ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحي لنا بعراض قصركم التّشام
لئن شاب الزمان وشاب ملك دعائمه إذا عجمت حطام (١)
لَمَسْكَكَ أَيُّهَا الْمَهْدَى مُلْك غلام والزمان به غلام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم فكلكم لها أبدا إمام (٢)

وقد اختلف المؤرخون في السنة التي وضع فيها المهدي أساس مدينة المهديّة ،
فيرى ابن عذارى (٣) أن ذلك كان في سنة ٣٠٠ هـ ، ويرى ابن خلدون (٤) أنه كان
في نهاية سنة ٣٠٢ هـ ، ويوافقه المقرئ (٥) على ذلك . ويظهر أن ما قاله ابن عذارى
أقرب إلى الصواب ، لأنه انتهى من بنائها في سنة ٣٠٥ هـ ، أي أنه بناها في عامين
أو أقل . وهذه المدة لا تسكفي - في الغالب - لبناء مدينة عظيمة كملك المدينة . هذا
من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن بناء المهديّة في سنة ٣٠٠ هـ يكاد يتفق مع
ما قاله المؤرخون من أن المهدي بناها خوفا من جماعة أبي عبد الله الشيعي وأخيه
أبي العباس ؛ فإذا فرضنا صحة هذا الرأي ، فما الأسباب التي جعلت عبيد الله
المهدي يؤجل هذا البناء من أواخر سنة ٢٩٨ هـ إلى أواخر سنة ٣٠٣ هـ وهذا
يجعلنا نؤمن بصحة ما ذهب إليه ابن عذارى ، وخصوصا أن البكري وغيره (٦) من
المؤرخين قد اتفقوا مع ابن عذارى على أن أساس المهديّة قد وضع في سنة ٣٠٠ هـ .
وهناك ملاحظة أخرى تملخص في أن كثيرا من مؤرخي الإسماعيلية يعدون

(١) يشير بذلك إل هزم الدولة العباسية .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٧٠

(٤) المغرب ج ٤ ص ٣٨

(٥) انماط الحنفا ص ٤٢

(٦) انظر معجم البلدان - لفظ : مهديّة .

مدينة المهديّة داراً من دور هجرة الطائفة . ولا غرو فإن هذه المدينة تضم إمامين :
إماماً مستودعاً ، هو عبيد الله المهدي ، وإماماً مستقراً ، هو أبو القاسم (القائم) .
لذلك يقول الداعي إدريس عماد الدين ، إن المهدي انتقل بعد بنائها ، وجعلها دار
هجرة الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين . ويكفي المهديّة فخراً أنها استطاعت أن
تصد جحافل أبي يزيد مخلد بن كيداد ، وأنها حققت نبوءة المهدي حين قال بعد أن
فرغ من بنائها : « الآن أمنت على الفاطميات » .

والفرق بين المهديّة وغيرها من دور هجرة الإسماعيلية ، أن هذه المدينة لم تقتصر
على الإسماعيلية وحدهم ، على حين نجد دار الهجرة عند القرامطة والخواشب مثلاً
لا تضم أحداً من غير الإسماعيلية . كما أن تسميتها « المهديّة » لم يقصد بها الانتساب
إلى عبيد الله المهدي وحده ، بل إنها مدينة الأئمة المهديين من الخلفاء الفاطميين ،
لأن كلا من هؤلاء الخلفاء إمام مهدي عند الإسماعيلية . وقد رأيناهم يضعون
الآحاديث على أن المهدي سيليه اثنا عشر إماماً مهدياً من الأئمة الخلفاء الفاطميين .
وهكذا ظلت المهديّة كعبة الإسماعيلية التي يحجون إليها ، ما كان بها الإمام
الإسماعيلي . فلما هجرها هؤلاء إلى غيرها ، لم تعد لها تلك المسكنة الروحية في نفوس
الأتباع ، وحلت محلها المنصورة التي بناها المنصور إسماعيل بن القائم ، حتى هجرها
المعز إلى مصر ، فحلت القاهرة في الزعامة الروحية خاصة محل هاتين المدينتين :
المهديّة والمنصورة .

ولم تكن مدينة المهديّة وحدها هي التي أنشئت في عهد عبيد الله المهدي ، بل لقد
بنيت في عهده مدينة « الحمدية » ، وهي مدينة « المسيلة » التي تقع إلى الجنوب الغربي
من رقادة وإلى الشمال من قسنطينة . وقد أنشأها أبو القاسم لإقامة « خط دفاع » عن
المهديّة يقف في وجه القبائل المعادية خاصة . وبدلنا بنساء هذه المدينة على اتجاه
الفاطميين في الاستقرار بالمهديّة ، كما يدل على خوفهم من ثورات القبائل المعادية
من المغاربة .

كانت السنة التي بديء فيها ببناء مدينة « الحمدية » مليئة بالثورات الكثيرة ،
كما كانت حافلة في الوقت نفسه بالانتصارات الرائعة ، التي أحرزها أبو القاسم
ولي العهد . ولا بد أنه أدرك خطر الثائرين في الجنوب ، وأنه يستطيع الوقوف

في وجههم ، بتكوين مدينة تستطيع حماية المهدية ، وتصد غارات الأعداء عليها من ناحية الجنوب . لذلك نرى أبا القاسم يؤسس هذه المدينة ، ويملاؤها بالمخلصين له ولمذهبه ودولته ، ويطرد منها من يشك في إخلاصه ، ويشحنها بالأمداد والميرة . ولهذا كانت هذه المدينة عوناً للمهدى وللقائم والمنصور من بعده في الدفاع عن المهدية ، ثم في الوقوف بعد عهد المهدى في وجه أبي يزيد مخلد بن كيداد . يقول ابن خلدون (١) عند كلامه على حوادث سنة ٣٩٥ هـ إن أبا القاسم ، أمر بمكان بلد المسيلة ، وفيها بنو كملان من هواره . وكان يتوقع منهم الفتنة ، فنقلهم إلى فج القيروان ، وقضى الله أن يكون هؤلاء أولياء لصاحب الحمار (٢) عند خروجه . ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم ، وسماها «المحمدية» ، ودفع على بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها ، وعقد له عليها وعلى الزاب (٣) بعد اختطاطها ، فبنائها وحصنها ، وشحنها بالآقوات . فكانت مدداً للمنصور في حصار صاحب الحمار . وقد أوضح المقرئ سبب قتل القائم بنى هواره بقوله : «لذلك أحب أن يكونوا قريباً منه ، وهم كانوا أصحاب أبي يزيد الخارجي (٤)» . ثم بين المقرئ (٥) أهمية هذه المدينة للدولة الإسماعيلية حين دهمها خطر الخوارج فيقول : إن المنصور كان يمتار ما يريد من المحمدية «إذ ليس بالموضع مدينة سواها» . وهكذا دل بناء المهدية والمحمدية على حسن سياسة الفاطميين وفطنتهم .

(١) المعبر ج ٤ ص ٣٩

(٢) يقصد بصاحب الحمار أبا يزيد مخلد بن كيداد ، لأنه كان يركب على حمار .

(٣) غير الزاب الأكبر الذي هزم فيه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في المشرق سنة ١٣٢ هـ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٤٤

(٥) المصدر نفسه

الباب الرابع

عبيد الله المهدي وإمامة الإسماعيلية

تغير مركز رئاسة الدعوة الإسماعيلية بعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ؛ فبعد أن كانت رئاسة الدعوة في سلمية تعنى بتوجيه الدعوة وحدها، أصبحت تعمل على الاهتمام بشئون الدعوة وتلبية مطالب الدولة. كان عليها أن تستمر في زعامتها القديمة على رجال الدعوة الإسماعيلية في جميع بقاع العالم الإسلامي، وأن توجههم توجيهاً جديداً يرمي إلى استخدام الدعوة لصالح الدولة؛ وذلك بالعمل على إحاطتها وإحاطة خليفتها بهالة من التقديس، ومساعدة الدولة في تحقيق آمالها السياسية لتستطيع الوقوف في وجه العباسيين. وفي سبيل ذلك نرى زعيم الدولة الفاطمية الأول «عبيد الله المهدي»، يشعر أتباعه بسلطته المطلقة عليهم، ويملي سلطانه على جميع أتباعه، فيتدخل في تعيين رؤسائهم وعزلهم. وكان لذلك أثر كبير في سياسة الدعوة في عهد عبيد الله خليفة وإماماً. فقد كان معروفاً لدى كبار دعاة الإسماعيلية، أنه إذا مات واحد منهم تبعه ابنه دون تدخل من ناحية رئاسة الدعوة بسلمية. أما بعد قيام الدولة الفاطمية فلم يعد هذا التعيين من حق الدعاة، بل غدا ذلك من حقه هو، لأن سلطته الدينية والزمنية تخوله ذلك. وقد أدخل عبيد الله المهدي هذا النظام الجديد، فجر على نفسه ثم على خلفائه من بعده شيئاً غير قليل من المتاعب؛ ولم تكن ثورة الحسن الأعصم القرمطي على المعز والعزير إلا نتيجة لهذه السياسة التي ابتدعها المهدي. وهكذا كانت زعامة عبيد الله الدينية تدفعه إلى توجيه الدعوة التوجيه الذي يبتغيه، فنجح أحياناً وأخفق أحياناً أخرى، كما يتضح ذلك من موقف عبيد الله المهدي من القرامطة بالبحرين ومن الحواشب باليمن. أضف إلى ذلك أن المهدي قد أدرك بثاقب نظره خطر الاصطدام برعاياه السنيين وغيرهم ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلي؛ إذ أن الفاطميين كانوا أقلية إسماعيلية تحكم أكتية من غير الإسماعيلية، ومن ثم اضطر المهدي إلى أن يوجه الدعوة توجيهاً يتفق مع هذا الوضع الجديد.

١ - عميد الله الخليفة و القرامطة

انفلّ قرامطة الشمال . كما انفلّ السواد الأعظم من قرامطة السواد في دور الستر الذي سبق قيام الدولة الفاطمية ؛ ولكن هؤلاء القرامطة بعثوا من جديد على يد أبي سعيد الجنابي في إقليم القطيف — جنوبي البصرة — ثم في إقليم البحرين . وسنتبين من بحث العلاقة بين هذه الدولة القرمطية المتحمسة وبين الدولة الفاطمية في عهد عميد الله تطورا كبيرا ؛ فبعد أن كان الجنابية برياسة أبي سعيد يخضعون في دور الستر لرياسة الدعوة ، فتر هذا الخضوع قليلا ، وعز على زعماء الجنابية أن يسلبوا بعض نفوذهم بسبب ظهور الإمام المستور في شخص أبي محمد عميد الله المهدي ؛ ولذلك لم يعد أبو سعيد الجنابي يتحمس للخلافة الفاطمية تخمسه للإمامة المستورة . وقد عرف عميد الله فيه ذلك ، فعمل على التخلص منه ، كما عمل في الوقت نفسه على عدم إقرار الوراثة بين القرامطة بالصورة التي يريدونها زعماءهم . ومن ثم تألف من أبناء أبي سعيد ومن القرامطة فريقان : فريق يعمل على التقرب إلى الفاطميين ، وفريق يعمل على الانحراف عنهم . واستمرت السيادة الفاطمية قوية بين القرامطة في عهد عميد الله المهدي بسبب تفوق الفريق المألف للفاطميين ؛ فلما صار الأمر للفريق الآخر بعد عهد عميد الله ، ساءت العلاقة بين الفاطميين والقرامطة حينئذ من الدهر .

(١) موقف عميد الله الفاطمي من أبي سعيد الجنابي :

نجح أبو سعيد الجنابي في تكوين دولة أو ما يشبه الدولة في بلاد البحرين . ويبدو أنه كان ينتصر لرياسة الدعوة في سلمية ويقف في وجه حمدان قرمط ؛ ولكنه منذ اليوم الذي شعر فيه بالقوة بدأ يعمل مستقلا أو شبه مستقل ، وكان ذلك يتعارض طبعاً مع سياسة الفاطميين وزعامتهم . ولا يبعد أن أبا سعيد لم يكن راضياً عن زعامة عميد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية ، لجماعة الإسماعيلية ، وأنه لم يكن متحمساً لقيام دولته في المغرب . وكانت سياسة قرامطة البحرين في عهد أبي سعيد تقوم على الصراحة المطلقة في نشر آراء المذهب الإسماعيلي ؛ لأن المجتمع القرمطي .

كان مجتمعاً إسماعيلياً بحتاً ، ولم يكن بين القرامطة من يدين بغير المذهب الإسماعيلي ، على عكس الفاطميين الذين كانت سياستهم تقوم على أساس إخفاء أصول المذهب الإسماعيلي عن رعاياهم الذين كانوا يختلفون عنهم في المذهب ، كما كانت الحال في بلاد المغرب ثم في مصر . وإذن لا بد أن يكون لهذا الاختلاف أثره في علاقة أبي سعيد بالخلافة الفاطمية .

لذلك نرى أبا سعيد يعمل على موادعة الخلفاء العباسيين ، في الوقت الذي كان يجب أن يشن الحروب الشعواء على العباسيين ، ليشغلهم عن الإسماعيلية في الأقاليم الأخرى . فقد رأينا يترك زميله زكرويه بن مهرويه . زعيم قرامطة الشمال ، يلقى حتفه على يد العباسيين في سنة ٢٩٤ هـ ؛ ولو قام بمساعدته لتغيرت حال القرامطة . ويبدو أن أبا سعيد كان يسير على هذه السياسة التي كانت تملأها عليه مصالحته الخاصة ، ولا سيما بعد قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ؛ ومن ثم أثارت هذه السياسة النفعية سخط عبيد الله المهدي (١) .

وقد عملت السياسة العباسية بزعامة الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ووزيره علي بن عيسى الذي عرف ببراعته السياسية ، على جذب أبي سعيد . ولا غرو فقد استطاعا بفضل تقربهما إلى أبي سعيد الجنابي ، أن يساهما إلى حد كبير في إخفاق حملة الفاطميين الأولى على مصر (٣٠١ — ٣٠٢ هـ) ؛ لأن الوزير علي بن عيسى أدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية إذا تم الاتحاد بين أبي سعيد الجنابي وزعيمه الأول عبيد الله المهدي الفاطمي ، ودوخا بلاد الدولة العباسية ، كما أدرك الفتور الذي كان سائدا بين أبي سعيد والفاطميين ، فحاول التقرب إلى أبي سعيد .

وإذا علمنا أن عبيد الله لم يقنع ببلاد المغرب القليلة الخصب ، وأنه عزم على انتزاع مصر من العباسيين ليتخذها درة في جبين الدولة الفاطمية ، وأنه التمس مساعدة أبي سعيد الجنابي ، بشن غارة حربية على العراق ، في الوقت الذي غزت فيه جيوشه المغربية البلاد المصرية لأول مرة (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) ، وأن أبا سعيد قام بحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله ، وأرغمت جيوش الفاطميين على التقهقر إلى بلاد المغرب - إذا علمنا هذا استطعنا أن ندرك أن هذه المساعدة اليسيرة لم تصادف هوى من نفس عبيد الله المهدي .

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٢ ص ٢ - ٤ .

ويرى دى غويه (١) أن حملات الفاطميين على مصر في ذلك الوقت كانت تتفق دائماً مع حركات قرامطة البحرين ، لأنها كانت تصدر كلها عن أوامر الخليفة الفاطمي ، وأنه يمكن القول بأن حملة أبي سعيد في سنة ٣٠٠ هـ كانت بإذن عبيد الله المهدي ، ولكنها لم تكن من الجدد في شيء ، حتى لقد شك عبيد الله في إخلاص تابعه أبي سعيد ، وعمل على قتله (٢) . ويظهر أن أبا سعيد أرسل هؤلاء الجند القليلي العدد تغريراً بعبيد الله ، وأنه لم يكن في عمله هذا ما يشير عليه حكومة بغداد التي ضاعفت جهودها في التحالف معه . ومن ثم حقق عبيد الله المهدي على أبي سعيد ، بل إننا لا نغلو إذا قلنا ، إن حكومة بغداد لم ترغب في التحالف مع أبي سعيد إلا بعد أن أدركت الفتور الذي ساد بينه وبين الفاطميين (٣) .

ويذكر ابن حوقل (٤) الذي عرف بميله للفاطميين ، أن أبا سعيد خلع طاعة رئيسه عبيد الله قبيل وفاته ، ويقول عن أبي سعيد وحمدان : « وكان حمدان قرمطاً إذ ذاك في دعوة السلطان (٥) حذاء أمير المؤمنين المهدي بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفنا ذلك . وجرت خبوط وتخاليط كثيرة في بعض الروايات ، وذبح أبو سعيد في حمام قد اتخذها في قصره مع جماعة من وجوه رجاله بالأحساء . وإذا صح ذلك دل على أن علاقة أبي سعيد بعبيد الله الخليفة لم تكن على شيء من الصفاء . وقد رأينا كيف أن ابن الفضل داعي الإسماعيلية الثائر باليمن كان يقول لزميله ابن حوشب ، إنه في ثورته هذه إنما كان يحتذى أبا سعيد الجنابي في محاولته الاستقلال عن الدولة الفاطمية . »

وكان مقتل أبي سعيد في الأحساء سنة ٣٠١ هـ ، على يد أحد عبيده ، الذي يدعى المؤرخون أنه لم يعجبه سلوك أبي سعيد ، فقتله هو وجماعة من كبار

(١) Mémoire sur les Carmathes du Bahrain, vol. II, p. 69.

(٢) يصف المنصوري تلك الحملة (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٥ ص ٦٩) بقوله : « جاء نفر من القرامطة من أصحاب أبي سعيد إلى البصرة ، وكان عليهما محمد بن إسحاق بن كنداجيق ... وكان الوزير يعرفه بوصول القرامطة ويستمدد . فلما أصبح ولم ير للقرامطة أثراً ندم على ما فعل ... »

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٠

(٤) المسالك والممالك ص ٢١٠ - ٢١١

(٥) يقصد بذلك الخلافة العباسية .

رجالہ . وليس هناك ما يمنعنا من الذهاب إلى أن عبيد الله لما رأى خروج أبي سعيد على سياسته ، أو أنه لما شك في إخلاصه ، اتفق مع خادمه هذا على قتله . وما يزيد هذه المسألة وضوحاً أن هذا الخادم كان بعد قتل أبي سعيد يتخير من يريد من رؤساء القرامطة ؛ فلا يبعد أن يكون هؤلاء الذين تخيرهم هذا الخادم من أنصار عدم التعاون مع الفاطميين . وبعبارة أخرى ، لا يبعد أن يكون عبيد الله أراد بذلك التشفي والانتقام من معارضيه في حكومة القرامطة بالبحرين (١) . والخلاصة أن فتورا حدث بين القرامطة وبين عبيد الله المهدي ، وأن نتائج ذلك الفتور تركزت في قتل أبي سعيد ونفر من حاشيته في سنة ٣٠١ هـ ، « وذلك في قلعة الأحساء بأمر من عبيد الله » (٢) ، على ما ذهب إليه شيفر Schefer ؛ كما لا يبعد أن يكون أبو سعيد قد ضمن جماعة كرهوا أن يكون الخليفة عبيد الله مهديهم المنتظر . ولا غرو ، فإن الدعاة الجريئين يستطيعون تحقيق آمالهم في ظل إمام مستور لا إمام ظاهر (٣) ، حتى لقد ذهب دى ساسي إلى القول بأن ادعاء عبيد الله الإمامة قد أدى إلى انفصال الفاطميين عن كثير من الإسماعيلية الآخرين ، الذين لم يوافقوا مطلقاً على ظهور الإمام المنتظر في شخص الخليفة الفاطمي الأول (٤) .

(ب) موقف عبيد الله المهدي من خلفاء أبي سعيد

١ — عبيد الله وسعيد بن أبي سعيد (٣٠١ — ٣٠٥ هـ)

لم يقض موت أبي سعيد على ذلك الفتور الذي كان بين القرامطة وعبيد الله ، وذلك لسببين :

الأول : أن سعيداً الذي خاف أباسعيد لم يأت به التعيين من قبل الفاطميين . ولما كان عبيد الله المهدي قد وضع أساس سياسة الزعامة المطلقة على جميع الإسماعيلية ،

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٠

(٢) كتاب سفر نامه ج ٢ ص ٢٢٦

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٠

(٤) De Sacy : Recherches sur l'Initiation à la Secte (٤)

Ismæleene (J.A. 1824), p. 303.

فإنه لم يستطع ابتلاع تلك الغصة ، بل ظل يعمل على زحزحة سعيد عن عرش القرامطة ، واتخذ من ذلك وسيلة لإقرار فكرة تعيين زعماء القرامطة عن طريق الفاطميين . فإن المعروف أن أبا سعيد كان قد ولي ابنه سعيدا عهده من بعده . ولو أن عبيد الله المهدي أقر بيعة سعيد لساعد ذلك القرامطة على الاستعداد بالأمور دون الفاطميين ، وهو ما لا يرضاه عبيد الله المهدي الذي عرف بميله إلى الزعامة والرياسة .

الثاني : أن سعيد بن أبي سعيد سار على سياسة أبيه في التقرب إلى العباسيين ، وليس أدل على صحة هذا القول من ذلك الكتاب الذي بعث به سعيد إلى علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي يعلن فيه ولاءه للعباسيين ، كما يعلن أنه يدين بالعقائد السنية ، واعتذر عما بدر من القرامطة من أمور ، على ما نراه مفصلا في هذا الكتاب الذي تنقله عن الذهبي (١) ، وقد جاء فيه : « سلام على الوزير (٢) ؛ فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة ، فنحن — أيك الله ! لم نفرّد عن الطاعة والجماعة ، بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا ، واستحل دماؤنا . . . نحن نشرح للوزير حالنا : كان قديم أمرنا أنا كنّا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا ، ننزه أنفسنا عن المعاصي ، ونحافظ على الفرائض ؛ فنقم علينا سفهاء الناس وفجارهم ، ممن لا يعرف دين ، وأكثروا التشنيع علينا ، حتى جمع الناس علينا ، وتظاهروا ، وشهدوا علينا بالزور ، أن نساءنا يبتغينا بالسوية ، وأنا لا نحرم حراما ، ولا نحل حلالا ؛ فخرجنا هاربين ، ومن بقي منا جمعوا في رقابهم الحبال والسلاسل . . . فألجئونا إلى جزيرة ، فأرسلنا إليهم في طلب أموالنا وحرماننا ، فمنعوا ، وعزموا على حربنا ، فحاكناهم إلى السيف ، قال تعالى : (ومن بغى عليه لينصرنه الله) فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة ، فنحن تائبون مؤمنون بالله . »

بذلك نجح العباسيون في جذب القرامطة إليهم ؛ فلما ضمنوا ولاء سعيد لهم ، وأدركوا ما كان بينه وبين الفاطميين من نفور ، أرسلوا إلى عبيد الله المهدي ، عن طريق « تسكين » وإلى مصر من قبلهم ، يتهدّدونه . كما تبادل الوزير علي بن عيسى السكتب هو والقرامطة ، « وهاداهم ، وأطلق عليهم ليتألفهم ، فنفع ذلك . » ولا شك

(١) تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ورقة ٤ - ٥

(٢) يقصد به علي بن عيسى

أن ذلك قد حز في نفس عبيد الله، وآله أن ينتفض عليه أتباعه الذين كان يعتمد عليهم في فتح مصر : وها هو ذا والى مصر العباسى يتهدده ، وهؤلاء العباسيون يحتضنون سعيدا ، وكأنه تناسى مذهبه وواجبه نحو رئيسه . وليس من شك في أن القرامطة كافة لم يسيروا على تلك السياسة النفعية ، التي دفعهم إليها سعيد ؛ فقد عز على كثير منهم أن تفتقر العلاقة بينهم وبين « صاحب الزمان ، و « إمام الوقت » الذى طالما كانوا يؤملون ظهوره . ليحملوا علم دعوته ودولته . عز على هؤلاء القرامطة الذين كانوا يميلون إلى الفاطميين ، أن تسوء العلاقة بينهم وبين الفاطميين ، فتمنوا الخلاص من سعيد . وهكذا نجد القرامطة معسكرين : معسكرا يناصر الفاطميين ، كما أسلفنا ، ومعسكرا آخر — وكانوا قلة — يرون رأى سعيد ، وهم جماعة من النفعيين الذين أملت عليهم السياسة أن يعيشوا مستقلين عن الفاطميين والعباسيين ، مع تناسيهم ما كان بينهم وبين الفاطميين من اتصال في المذهب ، واتحاد في الآمال ، فلم يناوئوا العباسيين العدا ، كما كان يرغب الإسماعيلي المخلص لمذهبه وعقيدته الإسماعيلية .

ويظهر أن الفريق الذى ظل على ولائه للفاطميين كان — كما تقدم — قوة لا يستهان بها ، فعملوا على قلب عرش سعيد ، وتحويله إلى أمير جنابى آخر من أبناء أبي سعيد ، يعترف بالزعامة للفاطميين ، ويقره هؤلاء في التعيين . وقد وجدوا ذلك الشخص في سليمان أبي طاهر بن أبي سعيد ؛ وسرعان ما جاءه التقليد أو التثبيت من « المهديّة » . وفي هذا الدليل الواضح على مبلغ تدخل عبيد الله في إحداث ذلك الانقلاب في حكم القرامطة^(١) . ولم يكن الأمر كما ذكر بعض المؤرخين ، وهو أن أبا سعيد عهد إلى ابنه سعيد من بعده ، حتى يبلغ أخوه سن الرشد . وفي ذلك يقول النويرى^(٢) : « وخلف أبو سعيد من الأولاد أبا القاسم سعيدا ، وأبا طاهر سليمان ، وأبا منصور أحمد ، وأبا العباس إبراهيم ، وأبا العباس محمد ، وأبا يعقوب . وكان أبو سعيد قد جمع رؤساء دولته وبني زرقان . وكان أحدهم زوج ابنته — وبني سنبر ، وكان متزوجا إليهم ، وهم أخوال أولاده ، وبهم قامت دولته ، وقوى أمره ، فأوصى إليهم ، إن حدث أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر .

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسية ج ١ ورقة ٢١٢

(٢) نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٤ - ٧٥

وكان سعيد أكبر من أبي طاهر سنا ، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبر لهم . ولما قتل جرى الأمر على ما وصاهم به ، وكان قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبي طاهر ؛ فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة . ثم سلم الأمر لآخيه أبي طاهر ، فعمل أشياء موته بها على أصحابه ، فقبلوها وعظموا أمره .

(ح) موقف عبيد الله المهدي من أبي طاهر الجنابي (٣٠٥ — ٣٢٢ هـ)

تولى أبو طاهر الجنابي القرمطى عرش القرامطة بعد ثورة دامية أشعلها أبو طاهر بمساعدة أنصار عبيد الله المهدي من القرامطة في سنة ٣٠٥ هـ . وقد وافق المهدي على تلك الحركة وباركها ، إن لم يكن هو المدبر لها . ولا غرو فإن عبيد الله حقق غرضه المنشود من هذه الحركة ، وأثبت للقرامطة عدم رضاه عن تعيين سعيد ، أو بعبارة أخرى ، عن نظام الوراثة عند القرامطة ، وبرهن بعمله هذا على أنه يريد بمن يتولى عرش القرامطة أن يكون على هواه ، يأتمر بأوامره ، وينتهي بنواحيه . وكأه بهذا العمل قد سن الدستور الذي يجب على خلفائه من الفاطميين أن يسلكوه مع أمراء القرامطة ، وسن في الوقت نفسه لأمر القرامطة دستورا يبين لهم فيه أن التعيين يجب أن يكون من الفاطميين أولا ، وأنه يجب أن لا يعين في هذا المنصب إلا من كان على هواهم ، يسير وفق سياستهم ، ويكون طوع أمرهم .

وبما يؤيد تدخل عبيد الله المهدي في عزل سعيد وإشعال نار الثورة عليه ، وفي تعيين أبي طاهر ، ما ذكره ابن خلدون (١) في هذه العبارة حيث يقول : « ثار به أخوه الأصغر أبو طاهر (٢) ، فقام بأمرهم ، وبأبعه العقْدانية (٣) . وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية . »

وإن تدخل عبيد الله في أمر تعيين أبي طاهر ، وتدخل العقْدانية في إحداث ذلك الانقلاب ، لينهض دليلا على أن هناك جماعة من القرامطة كانوا يعملون بوحى

(١) العبر : ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) في الأصل والطاهر ، والصواب أبو طاهر .

(٣) كبار القرامطة ووجوههم ؛ ويشيرون أعضاء مجلس السناثو عند الرومان

من عبيد الله ؛ ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ هـ حتى نهاية حكم أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلوات طيبة مع عبيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله . أضف إلى ذلك أنه كان - كما يقول دوزي - على اتصال سرى بعبيد الله ، يقرّ له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة الخمس (خمس الإمام) ، ويطيعه ، ولا يعصى له أمرا .

معاذرة أبي طاهر عبيد الله المهدي في سياسته

كان حتما على أبي طاهر ، لكي يحتفظ بالعرش له ولأبنائه من بعده ، أن يعمل على وفق رغبات عبيد الله المهدي . ولما كانت الدولة الإسماعيلية التي يرأسها عبيد الله تسعى جاهدة لقلب خلافة بغداد حتى بذلت جهودا جبارة في سبيل الاستيلاء على مصر من العباسيين ، نراها تقوم بحملات ثلاث ، بامت الأولى (٣٠٠ - ٣٠١ هـ) بالحنية ، لأنها لم تجد من القرامطة بزعامة أبي سعيد ما كان يؤمله عبيد الله المهدي . وكان من أثر ذلك أن قام بين البيتين ، فتور لم ينته إلا في سنة ٣٠٥ هـ باعتلاء أبي طاهر عرش القرامطة -- على ما رأينا . وقد أحسن عبيد الله المهدي إذ وضع على رأس الدولة القرظية رجلا مخلصا للذهب والدولة معا . ومن ثم عمل أبو طاهر وعبيد الله على تحقيق أمور ثلاثة :

الأول : مساعدة أبي طاهر الفاطميين في فتح مصر ، إما بالإغارة عليها من الناحية الشرقية ، ليلتقي مع جيوش عبيد الله بها ، أو بإيقاع الارتباك بين صفوف العباسيين ، حتى يعجزوا عن إرسال الجيوش لنجدها .

الثاني : شغل العباسيين بالهجوم عليهم في عقر دارهم ، أي في بلاد العراق ، وإتاحة الفرصة لعبيد الله لتنظيم شئون المغرب دون أن يعكر صفوه مكدر .

الثالث : محاولة التقليل من هيبة الخليفة العباسي -- كزعيم للمسلمين -- بالإغارة على قوافل الحاج ، وعلى مكة نفسها إن اقتضى الأمر .

أما مساعدة أبي طاهر للفاطميين في محاولة فتح مصر ، فنراها واضحة في محاولته تحقيق ما عجز أبوه أبو سعيد عن القيام به ؛ ولذلك اتفق القرامطة مع الفاطميين في سنة ٣٠٧ هـ على القيام بهجوم مزدوج على مصر ، بحيث تلتقي جيوش

أبى طاهر الآتية من الشرق بجيوش عبيد الله الآتية من الغرب في مصر نفسها .
وليس من شك في أن عبيد الله الفاطمي عرض تلك الخطة الجريئة على القرامطة ، أو
أنه أمرهم بتنفيذها ، فقبلوها عن طيب خاطر . وقد قامت جيوش أبى طاهر فعلا
بمجهودات كبيرة لمحاولة هذه الخطة ، ولكن الدولة العباسية حالت دون ذلك ،
فأرسلت الجيوش من بغداد إلى مصر ، وأدى ذلك إلى إخفاق أبى طاهر في
الوصول إلى تلك البلاد ، وأخفقت الحملة الفاطمية الثانية في الاستيلاء عليها . وفي
ذلك يقول ابن خلدون (١) : « وفي سنة ست وثلثمائة (٢) وصل أبو القاسم القائم إلى
مصر ، واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره ، فأعجبه مؤنس الخادم عن انتظاره ،
وسار من قبل المقتدر ، فزمره ، ورجع إلى المهدي . وبذلك نرى أنه كانت هناك
خطة مرسومة ، وأن أبا طاهر كان يعمل على تنفيذها ، وأن المهدي قد نجح في هذه
السبيل ، على الرغم من أن إخفاق تلك الحملة على مصر ، في أن يجعل من القرامطة
جماعة تخضع لسلطانها ، حتى إنه أصبح آمنا من ناحية هذا الفريق . ولو أن هؤلاء
القرامطة اتحدوا هم والعباسيون ، لكانوا خطرا عليه في المغرب ، كما كانوا في عهد
المعز والعزیز . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن محاولة الفاطميين الثانية لفتح
مصر لم تسكن آخر المحاولات التي تدل على ارتباط أبى طاهر بعبيد الله المهدي .

وقد برهن أبو طاهر على وفائه للمهدي ، كما يتضح ذلك من حروبه المتعددة
مع العباسيين ، وإغاراته على قوافل الحاج للغض من شأن الخليفة العباسي السني .
والذي يهمنا هنا ما كان من مساعدة أبى طاهر القرمطي لزعيمه الخليفة الفاطمي ،
بشبه غارة شعواء على العباسيين في سنة ٣٢١ هـ ، في الوقت الذي كانت جيوش
عبيد الله المهدي تغزو مصر من المغرب . وذلك أنه قد تبين للفاطميين والقرامطة
صعوبة تحقيق أمل الفاطميين في التقاء جيوشهما في مصر . ولذلك عمل أبو طاهر
على أن يقوم بحملة بحرية على جنوب بلاد فارس الغربي ، للاستيلاء على أهم
موانئ الخليج الفارسي كجنابة وغيرها ، ولا بد أن أبا طاهر كان يرى من وراء
حملة هذه إلى تحقيق سياسته القرمطية الفاطمية ، بمحاولة شغل جيوش

(١) العبر : ج ٤ ص ٨٩ .

(٢) في الأصل ست وثمانين .

العباسيين عن جيوش زعيمه عبيد الله التي كانت تغزو مصر في ذلك الوقت . لذلك استعد لهذه الحملة أتم استعداد ، وأمر عليها كثيرا من زعماء القرامطة وذوى قرباه . ولا يبعد أن يكون أبو طاهر قد رمى من وراء حملته هذه إلى جعل الخليج الفارسي بحيرة قمرطية ، بعد أن وقعت عمان في قبضته ، وخضعت بلاد البحرين والقطيف لنفوذه . ولو تم له ذلك لأصبح من القوة بحيث يستطيع أن يصوب ضرباته العنيفة إلى العباسيين .

غير أن تلك الحملة كان مصيرها الإخفاق ، لأن أهالي هذه البلاد كمنوا للقرامطة في الجبال والوديان وهزموهم هزيمة تامة . ولو قدر لهذه الحملة النجاح لوقع الارتباك في صفوف العباسيين وعجزوا عن الدفاع عن مصر ، وأتيح للفاطميين احتلال هذه البلاد في سنة ٣٢١ هـ . ومهما يكن من شيء فإن إخفاق حملة أبي طاهر هذه ، معناه القضاء على حملة عبيد الله المهدي على مصر (١) . وهكذا قام أبو طاهر بواجبه نحو زعيمه عبيد الله ، ونحو مذهبه الإسماعيلي ، فلم يدخر وسعا في تحقيق الغرض الأول الذي كان يسعى إليه الفاطميون وأنصارهم ، وهو القضاء على العباسيين ، وإقامة دولة الفاطميين على أنقاض دولة هؤلاء .

وأما محاولة أبي طاهر الغرض من كرامة الخليفة العباسي باعتباره زعيما دينيا ، فإنها تركز في الهجوم العنيف على قوافل الحاج في سنين عدة ؛ حتى إن أهل مكة رحلوا عنها في سنة ٣١٣ هـ خوفا منه ، وامتنع الناس عن الحج أكثر من سنة في بعض السنين . واستطاع أبو طاهر أن يدهم قوافل كثيرة ، وأن يفتك بها جميعا ، ويعامل من بقي قيد الحياة معاملة الأسرى ، فيتخذ منهم عبيدا وإماء . وكان يقوم فوق ذلك ببعض الهجمات العنيفة على جنوب العراق ولا سيما مدينة البصرة . وقد نسأل عن العوامل التي دفعت أبا طاهر إلى ذلك : أكان سعيا وراء المال وحده ؟ أم كان تنفيذ الأوامر سادته الفاطميين ؟ أم أن أبا سعيد كان مدفوعا بعوامل دينية ؟ أم أنه كان يقصد إيقاع الارتباك في صفوف العباسيين ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نعزو ذلك إلى حب المال وحده . حقيقة كان أبو طاهر يستولى على أموال ضخمة من الحجاج . وإذا كان قد اغتصب من قائد

(١) أنظر تفصيل هذه الحملة في التبري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٩٣ .

إحدى هذه القوافل عشرين ألف دينار في سنة ٣١٢ هـ ، فإذا كانت جملة ما أخذ ونهب من الأموال من جميع الحجاج ؟ ولكنه مع ذلك لم يكن يرمى إلى الحصول على المال وحده . بل كان يعتقد فوق ذلك أن الحجاج يقومون بعمل ينطوى على العبث بالدين ، وكان يرى في حج المسلمين إلى مكة جريمة دينية . وهذا يدلنا على غلوه المذهبي . وشيء آخر يجب الالتفات إليه ، وهو أن الفاطميين - وعلى رأسهم عبيد الله - كانوا يعملون على إضعاف مركز الخليفة العباسي في نظر العالم الإسلامي ؛ ولذلك لم ير عبيد الله بأسا من الاستعانة سرا بتابعه أبي طاهر في تحقيق هذه السياسة .

ولكن الخليفة العباسي المقتدر اكتفى بأن أرسل إلى أبي طاهر يوبخه ويتوعدده (٣١٣ هـ) . وبذلك نرى مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، حتى إنها عجزت عن حماية رعاياها وحجاجها بالسيف ، ولجأت إلى التهديد والوعيد بالكتابة لا بالسيف . ومن رسالة أبي طاهر إلى الخليفة المقتدر تتبين ، مدى العلاقات الطيبة بين الفاطميين والقرامطة ، فنرى أبا طاهر يعترف بتبعيته لعبيد الله المهدي ، ويعلن أنه من دعاة ، ويشيد بإمامته ، ويغض من شأن الخليفة العباسي ، ويعتبره فاسقا كافرا ؛ كما يعيب عليه نظام حكمه للمسلمين ، ويتحداه في شجاعة ظاهرة . وهاك طرفا من هذه الرسالة الممتعة التي تنقلها عن كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، للحمادى البمانى (١) : « من أبي طاهر (٢) سليمان بن الحسن الجنابي ، الداعي إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بشار رسول الله ﷺ ، إلى قائد الأرجاس ، المسمى بولد العباس ... هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، والأسد الغضنفر في سبيل الظفر ، متقلدا سيف الغضب ، مستغنيا عن نصره العرب ، لا يأخذه في الله لومة لأثم ... قد اكتنفته العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها (٣) ، وانتشعت طخا الظلمة (٤) »

(١) ص ٢٣ - ٢٤

(٢) في الأصل أبي سعيد ، وهو خطأ ظاهر .

(٣) جمع بائقة : وهي الداهية .

(٤) الطخا : هو السحاب .

ودُجَّة (١) الضلال ، وفاضت بحار الجهالة ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

« فاما ما ذكرت من قتل الحبيب ، وإخرا ب الأمصار ، وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة ، كإيضاح الشمس ، وادعاء طوائف منهم أنهم أبرياء ، ومعايتي فيهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٢) . » وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ، بأساليب من مشايخ فجرة ، بما أجمعوا عليه من الضلالة ، وابتدعوا من الجهالة . وأما تخويفك لى بالله ، وأمرك إياى بمراقبته ، فالعجب من بهتك ، وصلابة حدقتك ! أترى أنى أجهل بالله منك ؟ ... لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين .

« وبعد ، فما لك والوعيد ، والإبراق والتهديد ؟ اعزم على ما أنت عليه عازم ، واقدم على ما أنت عليه قادم ، والله من ورأى ظهير ، وهو نعم المولى ونعم النصير . والحمد لله ، وصلى الله على خير بريته وآله وعترته . »

إننا لا نرى فى رد أبى طاهر على الخليفة المقتدر العباسى ، ما يشعرنا بأنه لم يكن على غير الإسلام ، أو أنه كان يسعى لهدمه ، وإنما كان يخرب المساجد ويحرقها ، لأنه كان يعتقد أن الشعائر الإسلامية لم تكن تؤدى بها على وجهها الصحيح . فكأنه كان يتشدد فى الدين ، هذا التشدد الذى حمله على الإغارة على مكة ، والعبث بالحاج . فى سنة ٣١٧ هـ . ويرتبط بهجوم أبى طاهر على مكة ، وحمله الحجر الأسود إلى هجر أمور ، منها : بحث الدوافع الحقيقية لهذا الحادث التاريخى العجيب ، إذ كيف يكون متشددا فى الدين من يهتك حرمة الكعبة ، ويقتل الحجاج فى المسجد الحرام ، ويفتك بالآلوف منهم ، لا لذنوب يعرفه ؟ بل إنه كان يقول مبررا عمله :

فلو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأننا حججنا حجة جاهلية مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفاء كتاب لا تبغى سوى ربها ربا

(١) الدجنة : الظلمة .

(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

ولكن رب العرش جل جلاله ولم يتخذ بيئنا ولم يتخذ حجبا (١)
فهل كان الدافع الحقيقي الذى دفع أبا طاهر إلى ارتكاب هذا ، ما يراه بعض
من أن الإسماعيلية كانوا يتنبئون فى ذلك الحين بزوال دولة الإسلام ، وسيادة دولة
الإسماعيلية ودينهم ؟ وأن مبعث هجومهم على مكة يرجع إلى تلك النبوءة ؟ وأنه لما لم
تتحقق هذه النبوءة عراهم الوهن ، وانتابهم الألم بعد ذلك (٢) ؟ والذى لا شك فيه
أن مذهب الإسماعيلية فى جوهره يقوم على بغض كثير من شعائر الإسلام ، حتى
إن من أصول عقائد الدرزية — وهم إسماعيلية — أن الحاكم بأمر الله حين يرجع
من غيبته سوف يهدم الكعبة ، ويجعل الخلق جميعا يدينون بدينه الذى يسمونه
« دين التوحيد » ، وكأن الدافع المذهبي هو الذى حدا بأبي طاهر إلى إحداث
ما أحدث .

وهل كان أبو طاهر يرمى من وراء ذلك إلى صرف الناس عن الحج إلى مكة ،
وتوجيههم للحج إلى بلاده ، ولذلك نقل الحجر الأسود إلى هجر (٣) حاضرة بلاده ؟
على أننا لم نجد فى سلوك أبي طاهر ما يؤكد ذلك ، بل نراه يحتفظ بالحجر الأسود ،
ويضعه فى مكان خفى . ويظهر أن المؤرخين لما رأوا أبا طاهر يؤسس دار هجرة
لأنصاره ، ظنوا أنه بنى مكانا لمنافسة مكة ، مع أن بناء تلك الدور فى البلاد التى انتشر
بها المذهب الإسماعيلي من خصائص الدعوة الإسماعيلية . والحق أن الحجر الأسود
بقي فى بلاد البحرين سنين كثيرة — على ما يقوله ناصر خسرو — وأن أحدا من
المسلمين لم يزره ، أو أن أحدا قد حاول أن يفعل ذلك (٤) .

وكيف نفسر موقف عبيد الله المهدي مما قام به أبو طاهر ؟ إننا نعلم أن هذا
التابع لم يكن يتصرف فى أعماله بغير أمر زعيمه عبيد الله ، مما حدا ببعض المؤرخين
على الاعتقاد بأن ما فعله أبو طاهر كان بإيحاء من عبيد الله ، وجعل بعضا آخر
يعتقد أنه استبد بالامر دون عبيد الله . ويدلل القائلون بأن عبيد الله لم تمكن له

(١) الحادى النبأى : أمرار الباطنية ص ٢٣

(٢) Carra de Vaux: Les Penseurs de l'Islam, Vol. v. p. 41.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٥٩

(٤) سفر نامه : ج ٢ ص ٣٢٩

يد فيما اقترفه أبو طاهر بأدلة منها : أنه أرسل إليه « ينكر عليه ذلك ، ويلومه ، ويلعنه ،
ويقيم عليه القيامة ، ويقول له : قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر
والإلحاد بما فعلت ؛ وإن لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت
منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كبوة الكعبة ، فأنا برىء منك في الدنيا
والآخرة ، (١) . ولكننا نشك في أن أبا طاهر استجاب لأمر عبيد الله المهدي ،
ورد الحجر الأسود إلى مكانه بمكة ، كما يقول ابن الأثير ؛ لأن هذا الحجر بقي في
هجر اثنتين وعشرين سنة (٣١٧ — ٣٣٩ هـ) ، أي بعد موت أبي طاهر بسبع
سنوات ، وبعد موت المهدي نفسه بسبع عشرة سنة .

ويجمل بنا أن نشير إلى أن الأحوال السياسية قد أرغمت عبيد الله المهدي ،
باعتباره رئيساً للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية ، يجمع بين السلطين الزمنية
والروحية جميعاً ، إلى أن ينهج في تصرفاته منهجين : منهجاً سرّياً مع أتباعه الإسماعيلية ،
يشجعهم على القيام برسوم مذهبهم ، بحيث لا يطلع أحد من رعاياه غير الإسماعيليين
على هذه الاتصالات السرية ، ومنهجاً علنياً يتصل عن طريقه برعاياه السنيين ،
ولا يتقيد في هذا المنهج الأخير ، بأسرار المذهب الإسماعيلي ، بل كثيراً ما يتبرأ
منها أمام هؤلاء الرعايا . فإذا أدركنا ذلك استطعنا أن نقف على حقيقة موقف
عبيد الله المهدي في هذا الأمر بالذات (٢) . وهذا ما حدا ببعض المؤرخين على
القول بأن عبيد الله أرسل إلى أبي طاهر رسالتين : إحداهما هذه الرسالة التي يرى
فيها نفسه أمام رعاياه السنيين ، والثانية بعث بها سرا ، ولم يتصل خبرها إلا بخواص
أهل مذهبه من المقرّبين إليه . وكان من أثر تلك الرسالة أن بقي الحجر الأسود في
هجر حتى سنة ٣٣٩ هـ (٣) . ولو كان عبيد الله جاداً في رسالته الأولى لعاد الحجر
الأسود إلى مكانه بمكة من فوره ، لأن أبا طاهر لم يكن يعصى أمره . وقد تحامل العيني
على عبيد الله وعلى الفاطميين فقال : « وإلما حمل هؤلاء على هذا الصنع ، لأنهم كفار
زنادقة ممالئون (وردت في الأصل ممالئين) للفاطميين ، الذين نبغوا في هذه السنين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٧١

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ج ١ ورقة ٢٢٧

(٣) العيني : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ٢٢

ببلاد إفريقية من أرض الغرب ، وأميرهم عبيد الله الملقب بالمهدي (١) . ويرى دى غويه (٢) أن العلاقة بين القرامطة والفاطميين كانت سرية ، وأن رعايا الفاطميين الخاضعين لسلطانهم لم يعرفوا شيئاً عن هذه العلاقة ؛ ولو علموا بها وبما حدث بمكة من أخذ الحجر الأسود ، وقتل الحاج . وأن ذلك كان بأمر الفاطميين ، لما بقي عبيد الله المهدي على العرش سنة واحدة .

وبهذا نرى أن أبا طاهر الجنابي لم يأخذ الحجر الأسود من مكة ليرتقى بسببه ؛ فقد عرض عليه عشرات الألوف من الدنانير كفاء رده إلى مكانه بالسكبة ، فأبى إلا أن ينفذ أوامر عالية حالت دون تلبية هذا النداء . فقد روى أن بحكم المتغلب على الدولة ببغداد أيام المستكني (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) بذل لهم خمسين ألفاً من الذهب ، على أن يردوه فأبوا ؛ وزعموا أنهم إنما حملوه بأمر من إمامهم عبيد الله ، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته (٣) . وهذا بما حدا دوزي (٤) على القول بأن أبا طاهر لم يسر إلى مكة ، ولم يسلب الحجر الأسود إلا بأمر عبيد الله صاحب المغرب . ومن ذلك نستطيع أن نقول : إن سياسة عبيد الله المذهبية كانت تناقض في كثير من الأحيان سياسته الحكومية . ونحن نعتقد صحة ما ذهب إليه هؤلاء العلماء ؛ لأن عبيد الله لو حاول أن يعامل أتباعه الإسماعيلية كما يعامل رعاياه السنين ، لاحت المذهب الإسماعيلي وزالت معالمه .

وإذن هل حقق عبيد الله المهدي سياسته التي كانت ترمى إلى الانتفاص من هيبة الخليفة العباسي ؟ لا شك أن عبيد الله استطاع بما فعله أحد أتباعه وهو أبو طاهر ، أن يظهر العباسيين بمظهر العاجز عن حماية رعاياه السنين ، ولكنه في الوقت نفسه جلب على أنصار المذهب الإسماعيلي (القرامطة) مقت العالم الإسلامي كله ؛ فقد رأينا كيف اتهمه المؤرخون القدماء والمحدثون ، وفيهم الموالون للفاطميين كابن خلدون مثلاً ، وعدّ بعض رسالة عبيد الله لأبي طاهر الجنابي خديعة ومكراً .

(١) العيني : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ٣٣ .

(٢) Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii. p. 224.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨٩ .

(٤) Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, p. 279.

وإن دل هذا الحادث على شيء فإنما يدل على كثير من الممارسة السياسية التي برع فيها عبيد الله المهدي؛ فقد أظهر نفسه بمظهر البريء المدافع عن الدين الإسلامي، ولكن بقاء الحجر الأسود اثنتين وعشرين سنة في أيدي القرامطة، الذين كانوا يعتبرون المهدي حلول الله على الأرض، لا يتفق مع رسالته التي أرسلها إلى القرامطة، يتهمهم فيها بالخروج على الدين، كما لا يعقل أن يتهمه القرامطة ~~ك~~كذبا بأنه أمرهم بحمل الحجر الأسود إلى بلادهم. وإذن قولهم: «أخذناه بأمر من إمامنا عبيد الله» لا يتنافى مع منعهم هذا الحجر بعد أن بعث المهدي في طلبه منهم، كما أن قولهم: «ولنما نرده بأمره أو بأمر خليفته»، يتفق تماما مع ما ذهب إليه بعض العلماء من أن المنصور بن القائم الفاطمي هو الذي أمرهم برده، ولم يردوه بوحى من ضمائرهم.

محاولة أبي طاهر الجنبالي فتح العراق:

كان هجوم أبي طاهر القرمطي على بلاد العراق في سنتي ٣١٥ هـ، ٣١٦ هـ، مؤامرة حاك شركها زعيمه عبيد الله المهدي ضد الدولة العباسية؛ وقد انتهر أبو طاهر حالة الضعف التي وصلت إليها هذه الدولة في عصر نفوذ الأتراك، فضاعف هجومه على مدن العراق، لكي يشغل العباسيين عن ساداته الفاطميين، فيصبحوا آمنين في بلاد المغرب. ومن ثم أسس في بلاد الأحساء مدينة حصينة أسماها «المؤمنية»، لتقف في وجه العباسيين، وأتم فتح بلاد عمان، فأصبح ساحل الخليج الغربي لإسماعيليا بحرا. وإنما فعل ذلك ليحمي جناح جيشه الجنوبي إذا ما وجه حملاته إلى بلاد العراق. وقد أصاب أبو طاهر فيما فعل؛ فإن الخليفة المقتدر ولي بلاد القطيف والبحرين واليا جديدا، يقف في وجه مطامع أبي طاهر القرمطي. ومهما يكن من شيء فقد استطاع أبو طاهر أن ينشر الذعر والهلح في كافة بلاد العراق، وكادت تقع بغداد نفسها في قبضة يده سنة ٣١٥ هـ.

وما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن نبين مدى نفوذ عبيد الله المهدي في بلاد العراق. ويظهر ذلك واضحا جليا من استقصاء علاقة يوسف بن أبي الساج (١)

() كان هذا الأمير يتولى أمور آذربيجان بن قبل العباسيين، فولاه المقتدر لإقليم القطيف والبحرين لقتال القرامطة.

بالفاطميين . ذلك أن جماعة من المؤرخين يتهمون هذا القائد العباسي بالاتصال بالفاطميين ، فقالوا إنه كان على دين القرامطة ، بمعنى أنه كان إسماعيليا ، وإنه كان يعمل على تسليم بغداد إلى الفاطميين ، ويقوم بذلك بنفس الدور الذي قام به أبو مسلم الخراساني مع العباسيين ، وأبو عبد الله الداعي مع الفاطميين . ولكن كاتبه محمد بن خلف النيرماني باح بهذا السر لنصر الحاجب ، فأذاعه هذا بدوره للخليفة المقتدر . وما قاله محمد بن خلف ، أن ابن أبي الساج كان يستتر مذهبه في الدين ، وأنه لما سار إلى واسط ، أنس به وانبط إلىه ، فكشف له أنه يتدين بأن لا طاعة عليه للمقتدر ، ولا لبني العباس على الناس طاعة ، وأن الإمام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان (١) ، وأن أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الإمام ، وأنه قد صح عنه أنه يتدين بدين القرامطة . . . وأنه ليس له نية في الخروج إلى هجر ، وأنه إنما احتال بالوعد بالخروج إلى هجر حتى يتم له أخذ الأموال ، وأنه قال له في شهر ربيع الآخر : أي شيء بقي لنا على الخليفة ووزيره من الحجة ، ولم — ليس (كذا في الأصل) تخرج إلى هجر ولا أراك تستعد لذلك ؟ . . . قال له : فلم غررت السلطان بذلك ، ووعدته بهذه الحال حتى سلم إليك جميع أعمال المشرق ؟ فأجابه بأنه يرى انتقاص المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين أهل الحق ، فرضا لله عز وجل ، وأن طاعة طاغية الروم أسلم من طاعة الخليفة . فقال له : فهبك فعلت ذلك ، ما الذي يؤمنك من القرمطي أن يوافي إلى واسط وإلى الكوفة ، فلا تجد بدا من لقائه ومحاربتة ؟ فقال في الجواب : ويحك كيف أحارب رجلا هو صاحب الإمام وعدة من عدده ؟ فقال له : فإن أراد هو حربك ، أي شيء تعمل ؟ فقال له : ليس لهذا أصل . وقد ورد عليه كتاب الإمام من القيروان بأن لا يظأ بلدا أكون فيه ، ولا يحاربني بوجه ولا سبب ، وأنه ختم القول بأن قال : إني إنما أنتظر أن يقبض رجالي بأسرهم أموال سنة ٣١٤ هـ ، فإذا قووا بذلك منعت أولا من أعمال واسط والكوفة وسقي الفرات ، وأنفذت إليها العمال ، فلا بد للسلطان أن ينكر حينئذ ما أفعل ، فأكشفه ، وأخطب للإمام ، وأظهر الدعوة ، وأسير إلى بغداد . فإن من بها من الجند قوم يحرون بحرى النساء .

فقد ألفوا الدور (التسكر) على دجلة والشراب والثلج والخيش والمغنيات^(١)، فأخذ أنفسهم وأموالهم، ولا أدع الهجرى يفوز بالاسم، وأكون أنا سابق الدولة إلى الإمام، فإن أبا مسلم — خراز النعال —^(٢) لم يكن له أصل. وقد بلغ ما بلغ ولم يكن معه لما ارتفع النصف من معى، وما هو إلا أن أظهر الدعوة حتى قد اجتمع مائة ألف ضارب سيف. ويقول محمد بن خلف: قد صدقت أمير المؤمنين عن هذا الأمر، فإن ولاني الوزارة انقمع ابن أبي الساج وبطل عليه تدبيره^(٣).

نتبين في تلك الوثيقة مؤامرة هائلة على يد قائد من خيرة قواد العباسيين، يريد أن يقلب دولة ويقيم أخرى، فيهدم دولة سنية ويؤسس على أنقاضها دولة شيعية. وإذا صح كل ما جاء في هذه الوثيقة، دل على مقدرة عبيد الله السياسية، تلك المقدرة التي جعلت من ذلك القائد العباسي الذي كان وراءه مائة ألف سيف يخضع له، ثم هو يتكلم في ثقة واطمئنان عن عدم اصطدام أبي طاهر الجنابي به، فهل كان حقاً ما ذهب إليه هذا القائد؟ وهل أوحى عبيد الله إلى تابعه أبي طاهر بأن لا يحارب ابن أبي الساج؟ يؤكد لنا دى غويه أن هجوم أبي طاهر على السكوفة في ذلك الحين، لم يكن الغرض منه سوى استطلاع ما في نفس ابن أبي الساج، لأنه لو كان هذا القائد على هوى عبيد الله، لانضم إلى القرامطة وهددوا بغداد جميعاً، وأعادوها فاطمية للحما ودما. وقد يساعد على تصديق ذلك أنه لما أسر أبو طاهر ابن أبي الساج، أكرمه ليعرف ما بدا نفسه، فلما تأكد أنه على غير ما يرغب قتله. يقول ابن الأثير^(٤): إن الناس يهتمون ابن أبي الساج بأنه «قرمطي يعتقد إمامة العلوى الذى فى إفريقية»، وإنه نواظر فى ذلك، فأقره وداعى «أنه لا يسير إلى قتال أبي طاهر القرمطى، وإنما يأخذ بهذا السبب ويقوى به على قصد حضرة السلطان وإزالة الخلافة عن بنى العباس». ويرى الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم^(٥) أنه على الرغم من أن ابن أبي الساج لم يقم

(١) هذه الأوصاف للدلالة على إيمان جيش الخلافة في وسائل الترف.

(٢) أى أبو مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية.

(٣) De Goeje; Mémoire, Vol. ii, pp. 216—218.

(٤) الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٧٣

(٥) الفاطميون فى مصر ص ٧٣

في هذه الحرب بعمل تشتم منه رائحه العصيان للخليفة العباسي ، فإن هذا الأمر لا يحول دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل إلى الدخول في دعوة المهدي ، ولكن الفرصة لم تكن بعد لأن يقوم بتحقيق هذا العمل .

غير أن هناك ما يمنعنا من تصديق كل ما قيل عن تشيع القائد يوسف بن أبي الساج ، وإن ما عرف عن سلوكه وأخلاقه يؤيد ما ذهبنا إليه . ثم إنه لا يعقل أن يفعل هذا دون أن يكون جيشه كله على رأيه . وإذن هل كان جيش ابن أبي الساج يدين بالمذهب الإسماعيلي فيتشيع لمن في المغرب من الإسماعيلية ؟ وهل كان ابن أبي الساج متشيعا حين ولايته بأذربيجان ، أو بعد تعيينه على الجيوش العباسية للصراع مع القرامطة ؟ الواقع أن جيشه لم يكن متشيعا ، كما لم يعرف عنه أنه تشيع في أثناء ولايته بأذربيجان أو بعد ذلك ، الأمر الذي يشككنا في صدق تلك الرواية ، خصوصا إذا علمنا أن من أوصلنا إلى مسامع العباسيين كان يتمنى أن يكون وزيرا . لهذا لا يمكن أن نأخذ بصحة ما ورد عن هذه المؤامرة الخطرة . على أن ذلك لا ينفي ارتباط ابن أبي الساج بعبيد الله ، أو عطفه على المذهب الإسماعيلي ودولته على الأقل . وقد رأينا أنه اشترك مع نصر بن أحمد الساماني ومازيار الديلمي في التقرب إلى الفاطميين ، كما كانت هناك مراسلات بين هؤلاء الأمراء وبين الفاطميين ، على ما ذكره المقرئ في كتابه «المقني الكبير» (١) .

ولا يعني هذا أن نتبع حوادث ذلك الصراع تفصيلا . ولكننا نقول إن أبا طاهر اتجه نحو الكوفة في سنة ٣١٥ هـ ، وهزم ابن أبي الساج وأسره . وقد قيل إن ابن أبي الساج أرسل إلى أبي طاهر يقول : لك حق قديم ، وأنت في قلة ، وأنا في كثرة ، والمصلحة أن تنصرف سالما (٢) . ولم يكن هناك ما يحول دون وصول أبي طاهر إلى بغداد وسقوطها في يده ، لولا ما كان من قطع القنطرة الموصلة إلى هذه المدينة . وقد تخلص أبو طاهر من ابن أبي الساج ، إذ رأى أنه على غير هواه (٣١٥ هـ) ، ولم يعتبر أبو طاهر ارتداده عن حاضرة العباسيين هزيمة ، فقد جال في شمال العراق حتى وصل إلى الرحبة (٣) ، وخافه أهل قرقيسيا (٤) ، وصالحوه على جزية سنوية

(١) انظر حسن إبراهيم : الفاطميين في مصر ص ٧٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان (مخطوط) ج ١٨ ورقة ٥٧ .

(٣) قرية بمحاذ القادسية على مقربة من الكوفة - انظر معجم البلدان لياقوت .

(٤) بلدة على نهر الخابور ، بقرب رحبة مالك بن طوق ، على ستة فراسخ ، واقع عند مصب نهر الخابور .

يدفعونها إليه . وبذلك أصبح نفوذ القرامطة عظيماً في شمال العراق ، خصوصاً بعد أن قصدوا الرقة ، وحاربوا أهل الرحبة ، وجالوا حتى مدينة سنجار ، (١) . على أن أبا طاهر لم يكن من سياسته أن يعمل على الاستقرار في بلاد العراق ، مستعيناً في ذلك بما يسمونه وجيوش احتلال ، ولذلك كان نصيبه الخيبة ، وعاد إلى بلاده في سنة ٣١٦ هـ . ولم يشأ أبو طاهر القرمطي أن يقر بأن تقهره عن العراق كان ينطوي على هزيمته ، بل إنه تنبأ بانحيار الدولة العباسية ، وادعى أنه سيصل بجيشه إلى بلاد المغرب ، ليلتقي بجيوش الدولة الفاطمية هناك ، ويحيل تلك البلاد الشاسعة بلاداً إسماعيلية تدين للفاطميين بالطاعة ، كما أقر على نفسه بأنه أحد دعاة المهدي . ويتضح من هذه القصيدة التي أنشدها أبو طاهر أنه كان مشتركاً مع عبيد الله المهدي الفاطمي في حركته الخيرية :

أغرّكم مني رجوعى إلى هجر ؟ فما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريح في أرض بابل وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر !
فمن مبالغ أهل العراق رسالة بأنى أنا الموهوب في البدو والحضر ؟
سأضرب خيلى نحو مصر وبرقة إلى قيروان الترك والروم والحزر
أكيلهم بالسيف حتى أيدهم فلا أبقى منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعى إلى المهدي لا شك أنى أنا الضيعم الضرغام والفراس الذكر (٢)

وقد أسفرت هذه الحركة عن وجود جماعة من الإسماعيلية في بلاد العراق ، تخاص لعبيد الله وأتباعه القرامطة . ولو استطاع أبو طاهر استغلال هذه الجماعة ، لسكون منهم جاسوسية منظمة للقضاء على العباسيين ؛ ولسكنه لم يفعل . ومما دار بين الوزير العباسي على بن عيسى وبين أحد الإسماعيلية من أهل العراق ، فتبين مبلغ إيمان هؤلاء بإمامة عبيد الله واعتقادهم أنه المهدي المنتظر ، ورميهم العباسيين بأقبح الصفات . يقول ابن الأثير (٣) : « جاء إنسان إلى على بن عيسى ، وأخبره أن في جيرانه رجلاً من

(١) سنجار : مدينة بشواحي الموصل ، بينهما ثلاثة أيام .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ص ٢١٤ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ٥٨ .

شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار ؛ فأحضره وسأله ، فاعترف وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق ، وأنت وصاحبك (أى الوزير والخليفة) كفار تأخذون ما ليس لكم . ولا بد لله من حجة فى أرضه ؛ وإمامنا المهدي فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، المقيم ببلاد المغرب . ثم أنظر مبلغ ثقتهم بأنفسهم وتفانيهم فى إخلاصهم بعضهم لبعض . ذلك أنه لما قال له الوزير على بن عيسى : وقد خالطت عسكرنا وعرفتهم ؛ فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف أسلم قوما مؤمنين إلى قوم كافرين ؟ لا أفعل ذلك ، (١) .

وترجع أهمية هذه الحملة بالنسبة لعبيد الله المهدي ، إلى أن أبا طاهر خرب مدين العراق وبث الرعب فى قلوب الأهاليين ، حتى إننا إذا وازنا بين حالة العراق قبل سنة ٣١٥ هـ بحالته بعد سنة ٣١٦ هـ ، لأدركنا خطر ما قام به القرامطة من إفساد وتدمير فى أعظم بقاع الدولة العباسية خصبا وحضارة ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن ذلك كان من العوامل التى ساعدت على ضعف العباسيين ، وشجعت البيزنطيين على الإغارة على بلادهم بعد ذلك بقليل . وقد أفاد عبيد الله المهدي من ذلك أيعا فائدة ؛ فشغل جيوش الخلافة العباسية . التى عدها خطرا قد يوجه فى يوم من الأيام إلى قلب الدولة الإسماعيلية فى المهديّة نفسها .

وليس هذا فقط بل إن حركة أبى طاهر هذه قد ساعدت جماعة آخرين من بقايا قرامطة السواد على الثورة فى بلاد العراق ؛ وكان على رأس هذه الحركات القرمطية جماعة يؤمنون بمحمد بن إسماعيل ، ولا يزالون ينتظرون مهديا من سلالاته . ومن هؤلاء الداعى عيسى بن موسى ابن أخت عبدان داعى حمدان قرمط ، وحريث بن مسعود . وقد نجح هؤلاء القرامطة فى تكوين حكومة قرمطية فى قلب بلاد العراق ؛ وكانوا يعملون على نشر الدعوة بطريقة علمية منظمة : فهذا عيسى بن موسى يقيم ببغداد ، يدعو ويتوصل إلى ناس استغفرهم ، ويعمل كتباً يجمع فيها ما يأخذه من كتب يشتريها من الوراقين ، يخرق فيها بذكر أمور ينسخها ، ويوهم أن له بذلك علما . ورتب كتباً ينسبها إلى عبدان الداعى ، ليوهم أن عبدان كان أحد العلماء بكل

(١) ابن الأثير ج ٨ من ٥٨ .

فلسفة وغيرها ، وأنه يعلم ما يكون قبل كونه ، ومخرق بجهد على جهال الناس ،
فصاروا له أتباعا ، وأفسدوا إفسادا خطيرا ، (١) .

٢ - عبيد الله المهدي والإسماعيلية في اليمن

قامت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن في عهد الإمام المستور الحسين بن أحمد
ابن عبيد الله بن محمد بن إسماعيل ، على يد ابن حوشب وزميله ابن فضل الجدني ،
وأصبحت هذه البلاد مركزا رئيسا لنشر الدعوة في كثير من بقاع العالم الإسلامي ،
كمصر والمغرب وسواهما . وقد رأينا كيف ساد الاعتقاد في أواخر القرن الثالث
الهجري ، بأن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم في اليمن ، وأن مهدي الإسماعيلية
سيرفع علمه عاليا في تلك البلاد . ومعنى ذلك أن بلاد اليمن كانت لها الصدارة في دور
الستر ، وأن رؤساءها كانوا يودون لو أن الدولة الفاطمية الإسماعيلية قامت على
أيديهم في تلك البلاد ؛ ولذلك كان لقيام هذه الدولة في بلاد المغرب أثر سيء في
بعض بلاد اليمن ، وخصوصا في البلاد التي كان يتزعمها ابن فضل الجدني . ولا غرابة في
ذلك ؛ فقد تنحت اليمن للمغرب عن تلك الزعامة ، كما تنحى ابن فضل وابن حوشب
للمهدي عن زعامة الإسماعيلية ورياستهم . وكانت هذه التغيرات عظيمة الأثر في
نفس ابن فضل ؛ أما ابن حوشب فقد ظل على إخلاصه ووفائه للأئمة الإسماعيلية
مستورين كانوا أم ظاهرين .

(١) موقف عبيد الله من النزاع بين ابن فضل وابن حوشب

ثار ابن فضل على ابن حوشب ، ثم على الأئمة الإسماعيلية الخلفاء تبعا لذلك .
ولكن متى حدث ذلك ؟ لقد رأينا بعض المراجع الإسماعيلية تعزو ذلك إلى عهد
إمامة عبيد الله ، أي في أثناء هربه من سلبية ، وأنها تعزو ذلك إلى لجوء بعض
الدعاة التأثيرين إلى اليمن ، وتأثيرهم في ابن فضل الذي ثار على الدين الإسلامي وعلى
المذهب الإسماعيلي ، كما ثار على ابن حوشب . لسكنا لا نميل إلى تصديق هذا كله ،

(١) النويري : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٩٢ .

ففتحنا لا نعلم أن أحدا من الإسماعيلية قصد بلاد اليمن ، وقام بما ذهب إليه هؤلاء المؤلفون من الإسماعيلية قبل فيروز ، داعي دعاة المهدي وباب أبوابه ؛ فقد عز عليه أن يقصد عبيد الله بلاد المغرب دون اليمن ، فانفصل عنه وهو في مصر (٢٩١ هـ) ، إذ أن الدعوة الإسماعيلية في الشام ومصر واليمن إنما قامت على اكتافه . ولا غرو فقد أدخل ابن حوشب في المذهب الإسماعيلي ، وأرسله مع زميله ابن فضل إلى بلاد اليمن . كما جعل على الدعوة في مصر صهره الداعي أبا علي الذي رباه — كما يقول اليماني — وعليه أصول المذهب الإسماعيلي . أضف إلى ذلك ازدياد نفوذه في بلاد الشام نفسها ، وفي العراق وسواها . وكان الداعي « فيروز » يؤمل أن يستمر على زعامته لتلك الجماعة الإسماعيلية في الشرق الأدنى . ولذلك لم يتحمل صدمة اتجاه عبيد الله الإمام إلى بلاد المغرب ، فقصد هو بلاد اليمن . ولا نستبعد على داعي الدعوة فيروز أن يكون من تلامذة مدرسة حمدان قرمط ، الذين حوز في نفوسهم انتقال الإمامة من الإمام المستقر السابق الحسين إلى حجتة سعيد الخير ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، أو أن فيروزا — على الأقل — لم يكن في إخلاصه مع عبيد الله كما كان مع الإمام المستقر الحسين بن أحمد . وإلا فكيف نفسر فراره إلى اليمن ، وتركه إمامه عبيد الله يلاقى المتاعب وحده ، وهو الذي ساهم من قبل مساهمة فعالة في رفع منار الدعوة في عهد الحسين ، الإمام المستور ؟

أما البرنامج الذي وضعه داعي الدعوة فيروز لنفسه في بلاد اليمن ، فيرى بعض علماء الإسماعيلية أنه حاول إغراء ابن حوشب ، فلم يستطع ، ولكنه وجد من ابن فضل قبولا لدعوته ، فثار على ابن حوشب وعلى عبيد الله ، بل ثار على المذهب الإسماعيلي ، وعلى دين الإسلام ، واستحل المحارم ، ورفض الظاهر ، ودعا الناس إلى الإباحات . فلما اشتهر بذلك تبرأ منه ذلك الذي أفسده (أي فيروز) ... فخارب أبا القاسم^(١) . ويرى بعض أنه احتال على ابن حوشب ، وادعى له أنه رسول المهدي إليه ، وأنه أتى ليعدا العدة معاً لملاقاة جيوش المهدي الآتية من المغرب في البلاد المصرية . فلما أدرك أن حيلته لم تتم ، وأن سره قد كشف ، فر إلى ابن فضل ، فكان منه ما كان بما سنقف عليه في الصفحات التالية (٢) .

(١) النعمان : افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ (من المنتخب) .

(٢) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦ م)

ولكن متى تم ذلك على وجه التحقيق ؟ لا نستطيع أن نقرر مع ما ذكره القاضي النعمان المغربي ، من أن ثورة علي بن فضل الجذني التي قامت قبل هرب عبيد الله إلى مصر ، أي في سنة ٢٩١ هـ . ويكاد يكون ما ذهب إليه اليماني الإسماعيلي أقرب إلى الصحة ، وهو أن الداعي فيروز قصد اليمن حقا في سنة ٢٩١ هـ . على أننا لا نعرف على وجه التحقيق متى هرب فيروز إلى علي بن فضل ، وترك تلميذه ابن حوشب ؛ كما لا نستطيع أن نتأكد من أن ثورة ابن فضل على ابن حوشب كانت إثر وصول فيروز هذا إليه ، أو بعده بكثير . والذي نعرفه هو أن فيروز استمر في صحبة ابن حوشب « إلى أن ورد كتاب المهدي ع . م مقرونا بكتاب الداعي أبي علي بمصر ، صهر فيروز ، وزوج ابنته ، يعرفان أبا القاسم كيف جرت قصة فيروز ، ويأمره المهدي بقتله . . . فهرب لوقتته ، وطلبه الداعي أبو القاسم ، فلم يدر أي الجهات سلك . ولم يزل يبحث عنه إلى أن بلغه أنه وصل إلى علي بن الفضل الجيشاني ، وأنه أقتنه وأفسده ؛ فلما علم أبو القاسم الداعي بموضعه ، وأنه قن علي بن الفضل وأهل بلده ، وشعوذ لهم ، ودعاه وأهل بلده إلى نفسه ، خرج إليهما أبو القاسم وحاربهما مدة طويلة (١) . »

من ذلك نستطيع أن نقول إن ابن فضل إنما ثار على ابن حوشب ، مدفوعا بتأثير داعي الدعوة فيروز ، ثم بميله هو إلى الاستبداد والزعامة ليستقل ببلاد اليمن . ولا غرو فهو يمتنى لحما ودما . كما لا يبعد أن ابن فضل كان لا يرغب في أن يعمل لحساب إمام ظاهر ، بل كان يود أن يظل يعمل لإمام مستور ، حتى يستطيع أن يحقق آماله وطموحه دون تدخل من إمامه الذي أصبح خليفة . ولا نستطيع أن

(١) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ . نرى في هذه العبارة أن ابن حوشب لم يعرف شيئا عن فيروز إلا بعد أن مهد هذا الداعي الأمور لنفسه عند ابن فضل ، فكان مجتمعاً أثرا على عبيد الله ، وعلى ظاهر الشريعة ، وعلى الدعوة الإسماعيلية نفسها . ولا يبعد أن يكون ذلك قد استفاد كثيرا من الوقت ؛ وإذن كيف نفسر مساعدة ابن حوشب لابن فضل حين كاد ينزوم على أيدي السفين في تهامة بعد سنة ٢٩٩ هـ ؟ نستطيع أن نقول إن ابن فضل ، على الرغم من قبوله التجاء فيروز إليه بعد سنة ٢٩١ هـ ، ظل على ولانه لابن حوشب ، أو على الأقل كان يتظاهر بذلك ، حتى تم له فتح صنعاء في سنة ٢٩٩ هـ ، ثم نكب بعد ذلك بقليل ، فأجده ابن حوشب . ولما كان ابن حوشب قد توفي سنة ٣٠٢ هـ ، فإن هذه الحرب يجب أن تكون قد وقعت بين سنتي ٢٩٩ ، ٣٠٢ هـ .

نقول ، إن ابن فضل ثار على عبيد الله حين أدرك أنه حجة للإمام ؛ لأننا لم نره في أثناء ثورته أو بعدها ينادى بمحمد بن إسماعيل ، وإنما تمثل بأبي سعيد الجنابي القرمطي الذي عمل على الاستقلال بملك أثله يديه عن سادته الفاطميين ؛ لا لأنهم إسماعيليون أو قداحيون ، بل لأنه كان يرغب في أن يستمر في دعوته إلى إمام مستور لا إلى إمام ظاهر . وإنما فعل ذلك لأنه كان نفعيا ، تقوم سياسته على استغلال الظروف لمصلحته الخاصة .

ويظهر أن ابن فضل هو الذي بدأ زميله ابن حوشب بالعدوان ؛ فإنه لما خلع طاعة الفاطميين ، وبعث بذلك إلى ابن حوشب ، حذره هذا عاقبة أمره وقال له : « كيف تخلع طاعة من لم تثل خيرا إلا به ، وتترك الدعاء له ؟ أو ما تذكر ما بينك وبينه من الموائيق والعهود ؟ فلم يلتفت إليه ^(١) . ولم يكتف ابن فضل بذلك ، بل أعلن الحرب على ابن حوشب ليخلص له ملك اليمن . وكاد يقضى على زميله ومساعدته بالأمس ؛ لولا أن تم الصلح بينهما كفاء تسليم ابن حوشب أحد أبنائه إليه . إلا أن ذلك الصلح لم يقض على النزاع الذي كان مستحكما بينهما ، بل زاد هوة الخلاف اتساعا بين إسماعيلية اليمن ، فلم يعد ابن حوشب وأتباعه يثقون بإسماعيلية ابن فضل ، كما لم يعد ابن فضل وأنصاره يعتمدون على مساعدة ابن حوشب . ومن ثم أصبح الجميع هدفا لهجمات السنيين . ويظهر أيضا أن عبيد الله المهدي لم يستطع أن يقوم في وجه هذا الثائر بعمل حاسم ؛ فترك أمره لتابعه المخلص ابن حوشب ، وانتهت الحرب على غير ما يشتهي عبيد الله ، فتم النصر لابن فضل . ولذلك يتهم بعض العلماء هذا الخليفة بقتل ابن فضل في سنة ٣٠٣ هـ ، كما اتهم بقتل أبي سعيد الجنابي القرمطي من قبل ^(٢) .

والخلاصة أن الثورة التي قامت في بلاد اليمن بعد قيام الدولة الفاطمية ، ترجع إلى أسباب كثيرة : منها ميل ابن فضل إلى الاستقلال ، واستبداد عبيد الله بشئون الدولة والدعوة معا ، ووقوع ابن فضل تحت تأثير بعض الخائنين على الفاطميين . أضف إلى ذلك أن ثورته كانت ثورة سياسية دينية ، حتى إنه اتهم بالزندقة والإلحاد ،

(١) أنباء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوط) ص ٣١ .

(٢) De Goeje : Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. iii.

فسمى نفسه « رب العزة » ، وسمى ابنه « ابن رب العزة » . ومهما يكن من شيء . فإن ابن فضل قد حفر قبره بيده ، بسبب ثورته على عبيد الله الفاطمي ، فمات مسموماً على أيدي الفاطميين أو الحواشب ، وتعرض أبناؤه لغارات السنين ، فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ، وذهبوا من صفحة التاريخ .

(ب) عبيد الله المهدي وأبناء المنصور

إن ماساد بين الفاطميين وبيت ابن حوشب (منصور اليماني) من علاقة ، ليكشف لنا عن سياسة عبيد الله الحقيقية ، التي سنّها لنفسه ، والتي تنطوي على الاستبداد بكل شيء . وإشمار الأشياع والأتباع بنفوذه وقوة شخصيته ؛ فلم يشأ أن يعترف بمبدأ الوراثة لبيت ابن حوشب ، الذي أخلص مؤسسه لعبيد الله وللأئمة من قبله ، إخلاصاً جعله موضع إعجاب الإسماعيلية جميعاً . وكان تدخل عبيد الله في شؤون الحكم في بيت منصور اليماني ، كما كان النزاع الذي تفاقم بين ابن فضل وابن حوشب قبل ذلك من عوامل ضعف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليماني .

مات ابن حوشب في سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ - ٩١٥ م) ، بعد أن أوصى بالأمير من بعده إلى ابنه الحسين وإلى تابعه المخلص عبد الله بن عباس الشاوري ، وكان موضع ثقته كما كان رسوله الخاص إلى المهدي . ويبدو أن ابن حوشب كان يخشى عبد الله ابن عباس ، كما لا يبعد أن يكون قد أدرك ميل المهدي إليه فنص في وصيته عليه . والمهم أنه ترك بعمله هذا السبيل ممهدة لتدخل عبيد الله المهدي ؛ لأن ابن حوشب لم يعهد لأحد بالحكم من بعده ، بل ترك وصية تتم عن إخلاصه وولائه لعبيد الله والفاطميين . وقد جاء فيها : « قد أوصيتكما بهذا الأمر فاحفظاه ، ولا تقطعا دعوة عبيد بن ميمون ^(١) ؛ فنحن غرس من غرسهم . ولولا ناموسهم ، وما دعونا به إليهم ، ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه ، ولا تم لنا في السياسة حال ؛ فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم . فأوصيكما بطاعة المهدي - يعني عبيد

(١) يقصد عبيد الله بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح .

ابن ميمون ، حتى يرد أمره بولاية أحدكما ، ويكون كل واحد منكما عونا لصاحبه (١) .

ولما كانت سياسة عبيد الله ترمى إلى زعامة جميع العالم الإسماعيلي ، والتدخل في شئون الدعوة الإسماعيلية ، وتوجيهها كما يريد ، أو بعبارة أخرى لما كانت هذه السياسة ترمى إلى توجيه الدعوة في سبيل مصلحة الدولة ، رأى عبيد الله أن يقر ابن عباس الشاوري في الحكم مكان ابن حوشب ، وعزل أبناء المنصور . ولكن هذه السياسة فرقت أنصار الدعوة المخلصين لها في تلك البلاد ؛ فقامت بينهم المؤامرات ، وضعفوا ضعفا ظاهرا أمام أعدائهم ، فأخذتهم سيوف السنين من كل جانب . وفي الحق أن سياسة التدخل التي سار عليها عبيد الله المهدي في بلاد اليمن ، كانت تختلف عن هذه السياسة التي سار عليها مع القرامطة في البحرين ، حيث اختار شخصا من بيت أبي سعيد ، بعزله سعيدا وتولية أبي طاهر ، وكلاهما من أبناء أبي سعيد مؤسس الدعوة القرامطية . وبذلك اتفقت القرامطة جميعا حول أبي طاهر ، حليف عبيد الله ، وعز على أخيه سعيد المعزول أن يشور حتى لا يهدم بيته بيده . أما هنا في بلاد اليمن ، فإن عزل أفراد البيت المنصوري ، الذي تفانى في الدعوة الإسماعيلية ، منذ استقرت في تلك البلاد ، قد وضع الأمر في يد غيرهم ، وحز ذلك في نفوس كثير منهم ، خصوصا ذوى المطامع منهم . فلم يهدوا أو يستكينوا لحكم عبيد الله . ولا يبعد أن يكون عبيد الله المهدي قد اتفق مع ابن عباس الشاوري ، رسول ابن حوشب إليه ، على توليته الحكم ، قيل وفاة المنصور ؛ لأن الشاوري لم يكذب

(١) يقول الخنادي البائي (كشف أسرار الباطنية ص ٣٩ - ٤٠) : إن عبد الله بن عباس الشاوري كتب إلى عبيد بن ميمون المسمى بالمهدي بموت المنصور ، وهو يومئذ بمدينة بناها وسماها المهديّة بالغرب ، وأنه قام بذهبه بعد المنصور ودعا إليه ، وأنه لم يبق إلا استيراد الأمر ، ويسأله الولاية وعزل أولاد المنصور . وخرج ولد المنصور نفسه إلى القيروان ، يسأله الولاية لنفسه ، ولا ينزع الأمر منهم بعد أبيهم . وقد كانت قد وصلت هدايا ابن عباس وكتابه ، وولاه الأمر وكتب له . فلما وصل ابن منصور أمره بطاعة ابن العباس ؛ وبعث لابن العباس بسمع رايات ، فرجع المنصور إلى اليمن وقد يشى بما كان يرجز من الولاية ، فلقية عبد الله بن عباس بنفسه وأهل دعوته ، فبجله وعظمه . ولقيه أخوه جعفر وأبو الفضل ، وبقية أولاد القرمطية (أى ابن حوشب) ، فسألوه بما ورد به الأمر ، فعرّفهم الأمر عنهم إلى عبد الله بن العباس دونهم .

يبحث إلى المهدي بخبر موت المنصور ، وأنه قد قام بالأمر من بعده ، وأنه يرغب في أن ينال رياسة الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد دون أبناء المنصور . حتى نرى المهدي يولي هذه الرياسة مكان ابن حوشب ، ويحقق له جميع آماله ومطالبه . ولم يكن الأمر كما ذهب إليه الجندی في كتابه « السلوك » ، من أن الشاوري بعث إلى المهدي برسالة على يد أحد أبناء المنصور ؛ لأنه لا يعقل أن يكون هذا الداعي الجريء بمثل تلك السذاجة ، فيرسل رسالة فيها عزل أبناء المنصور على يد أحد أبنائه . ويظهر أن ما ذكره الحمادي اليماني أقرب إلى الصواب ، حيث يذهب إلى القول بأن الشاوري أرسل إلى المهدي يطلب الحكم لنفسه ، وأن أبناء المنصور أرسلوا في الوقت نفسه يطلبون هذا الحكم لأنفسهم ؛ فرفض عبيد الله طلبهم ، وعين الشاوري دونهم (١) .

ومعنى ذلك أن المهدي أخذت تقلد من تريد من أتباعها رياسة الإسماعيلية في البلاد المختلفة ، وأن عبيد الله أراد أن يشعر كبار دعاة وأبناءهم ، أن الرأي الأخير له وحده دون سواه . ولكنه نسي أنه بتوليته الشاوري إنما ألقى بذور الشقاق في ذلك البيت ، الذي ظل على ولائه له ولآبائه وأئمتهم من قبل ؛ فضعفت قوة الإسماعيلية في اليمن أمام السنيين ، إذ حقق أحد أبناء المنصور على عبيد الله لإمعانه في الاستخفاف بهم ، وعمل على إذكاء نار الثورة على ذلك النظام الذي وضع أساسه في بلاد اليمن ، واغتصاب عرش الدعوة فيها من حليفه ، ولم يستمع لنصيحة أخيه الداعي المشهور جعفر بن المنصور ، صاحب المؤلفات الكثيرة ، حين قال له : « إن أمرنا إذن يتلاشى ويزول ملكنا . وتفرق هذه الدعوة ، ويذهب الناموس الذي نمسناه (٢) على الناس ، فلا تحدث نفسك بهلاكه فتهلك » (٣) .

ولم يكتف الحسن بن منصور اليمن بما فعل ، بل جر النكبات على نفسه ، وعلى بيته ومذهبه ، وعلى الإسماعيلية جميعا ، حين أعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلي ،

(١) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ونفس بين القوم أفسد وأغرى ، والمقصود النظام الذي وضع المشر الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ .

واعتناقه المذاهب السنية ؛ وبعبارة أخرى ، فإن الحسن بن منصور لما تخلص من الشاوري ، اعتقد أن الأمور قد استقرت في يده ، فجمع الرعايا من أقاصي البلاد وأدانها ، وأشهدهم على نفسه أنه قد خرج من مذهب القرامطة (١) إلى مذهب أهل السنة ؛ فأحبه الناس ودانوا له ، وقتل القرامطة الذين حوله ، وشردهم في كل ناحية (٢) .

لم يكن هذا كل ما حدث من تدخل عميد الله في شئون الدعوة باليمن ؛ فإن المذهب الإسماعيلي - كما نعلم - مذهب سرى ، والدعوة إليه سرية كذلك . ومن أخطر الأمور على المذاهب السرية والدعاية إليها ، أن ينتقض عليها أنصارها الذين يعرفون أسرارها ودخائلها . وهذا ما حدث للمذهب الإسماعيلي ، والدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن إثر ارتداد الحسن بن منصور عن هذا المذهب ورجوعه إلى الإسلام ؛ إذ أخذ يتبع الإسماعيلية - أنصاره بالأمس - تتبعاً لا هوادة فيه ، فأباد السواد الأعظم منهم . وفي الحق أن الحسن بن منصور أخطأ فيما فعل ، بإبادته الإسماعيلية الذين كانوا يدينون بعقائد الفاطميين ، لأنه أصبح هو وأنصاره الذين خرجوا على المذهب الإسماعيلي ودخلوا في الإسلام طعمة لأمراء المسلمين السنيين الطموحين ، وللزيدية الشيعيين أيضاً ؛ فقتلوه ، ثم تتبعوا أبناء وإخوته وغيرهم من الأنصار ، الذين ظلوا على ولائهم لعقائد هذا المذهب ، حتى إنه لم يبق من الإسماعيلية من أتباع ابن حوشب ، إلا من استطاع الاستتار .

وكان من أثر اندفاع الحسن وتقلبه في سياسته ، أن فر أخوه الداعي جعفر ابن منصور إلى بلاد المغرب ، بعد أن أخفق في إقناع أخيه بالعدول عن الدخول في المذاهب السنية واضطهاد الإسماعيلية . يقول الجندی في كتابه « السلوك » عن الحسن وأخيه : « فدخل عليه أخ اسمه جعفر ، فنهاه عما فعل وقبحه ، فلم يلتفت إليه ؛ فخرج مغضباً ، وقصد المهدي إلى القيروان (٣) ، فوجده قد توفي ، وقام بعده ابنه القائم ، وذلك سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة - أعنى موت المهدي وقيام القائم ،

(١) يقصد بذلك المذهب الإسماعيلي .

(٢) أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ٣٥ .

(٣) الصواب إلى المهدي .

فلبت ابن منصور عنده . ثم إن أخاه قتل أهل مذهب أبيه وشردهم ، حتى لم يبق حوله منهم إلا من لا يُعرف (١) . من ذلك نرى أن عبيد الله أدرك مغبة سياسته التي سلكها مع بيت المنصور في بلاد اليمن ، وأنه أعطى القوس لغير باريها في هذه البلاد ، كما أدرك أنه كان ينبغي أن يحتفظ بالعرش في بيت ابن حوشب الذي يقر له الشاوري وسواه بالزعامة . وأما تركه الرؤساء الأصليين وتعيين أتباعهم في المكان الذي يجب أن يحتله هؤلاء الرؤساء ، فإنه يدل على عدم وقوفه على مبلغ رواج الدعوة في بلاد اليمن ، التي لا يستطيع أن يشرف عليها ويعمل على تنفيذ سياسته وأوامره فيها بسبب بعدها عن بلاد المغرب .

وإن ضعف الإسماعيلية الحواشب بسبب تدخل عبيد الله ، يكون فصلا ممتعا في تاريخ العلاقة بين الإسماعيليين بعضهم مع بعض من ناحية ، وبين السنيين والزيدية وبين الإسماعيلية من ناحية أخرى . ذلك أن بيت ابن حوشب ثار على داعي دعاة المهدي في بلاد اليمن - كما رأينا - ولم يستطع هذا البيت أن يحتفظ بوحدة وبعقائده الإسماعيلية ، فانقسم على نفسه : فمنهم من فر من اليمن ، ومنهم من لقي حتفه على أيدي السنيين ، ومنهم من ارتد عن المذهب الإسماعيلي إلى الإسلام على المذاهب السنية . إلا أن الحسن بن منصور اليمني لم يكن من وراء ذلك شيئا ؛ فقد اعتبره المسلمون السنيون زنديقا يجب قتله حتى بعد توبته ، وعدوا قتاله جهادا في سبيل الله ؛ ولذلك تأمر عليه حلفاؤه من الأمراء السنيين وقتلوه ، وتعرض أهله وذووه للأخطار ، وفوَّث عليهم المسلمون من أهل المغرب (٢) ، فقتلوه الصغار والكبار ، وسبوا حريمهم ، ولم يبقوا على وجه الأرض من الكافرين ديارا ، ولم يبق للمنصور عقب يعرف (٣) .

(١) عمارة اليمني : تاريخ القرامطة باليمن ص ١٥١

(٢) يقصد بذلك أهل الجهات الغربية من بلاد اليمن .

(٣) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٤٠ ، ٤١ . ولا نعرف من أبناء ابن حوشب غير جعفر بن منصور الداعي ، الذي عمر حتى أدرك الحكم الفاطمي في مصر . ومع ذلك فإن هناك في اليمن اليوم جماعة يعرفون باسم « الحواشب » . ولا تدرى إن كان هؤلاء من عقب المنصور أو من أتباعه ، أو أنهم لا يمتون إليه بهلة . وفي هؤلاء يقول مينخايل شارو بيم في كتاب « التاليد في مذهب أهل التوحيد » ص ٢٣ : « لابن حوشب باليمن نخلة و بطن ، أر هي قبيلة يقال لها الحواشب ، وهي مستقلة ومستبدة بحكم نفسها مخالفة للدولة الانجليزية » .

من ذلك نرى أن الذي خلف الحسن بن منصور اليماني في رئاسة جماعة الإسماعيلية الذين ارتدوا إلى المذاهب السنية ، رجل عريق من بيت إسماعيلي ، ساهم أبناؤه مساهمة جديّة في إقامة المذهب الإسماعيلي ببلاد اليماني ، ويسمى هذا الرئيس إبراهيم بن عبد الحميد السباعي . وقد نهج هذا الزعيم الإسماعيلي المرتد ، نهج الحسن بن منصور ؛ فأعلن للملأ ارتداده عن المذهب الإسماعيلي . ولم يكتف بذلك ، بل خطب على منابر الخليفة العباسي ، لا الفاطمي ، وأعاد بعمله هذا ما فقدته العباسيون من نفوذ في بلاد اليماني منذ أمد طويل ، واشتد إبراهيم في طلب الإسماعيلية المخلصين لعبيد الله المهدي وخلفائه . والحق أنه جعل يتبع القرامطة ، يقتلهم ويسبي ذراريهم ؛ فبقي منهم قليل في ناحية جبل مسور (١) ، فأقاموا قرامطياً منهم . . . فسمع به إبراهيم بن عبد الحميد ، فخرج إليه فقتله ، وتفرق من بقي من أصحابه إلى عمان . . . وانتهكت أمرهم من إبراهيم (٢) .

وقد بقيت زعامة الإسماعيليين الحقيقيين في غير بيت ابن حوشب ، وأمعن هؤلاء في التخفي ، وكانوا على اتصال دائم بخلفاء عبيد الله الفاطمي . وقد قاسوا من هذه المحنة زمناً طويلاً ، حتى بعثهم الصليحيون (٣) بعثاً جديداً في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وذلك في القرن الخامس الهجري . وأما الإسماعيلية الذين اعتنقوا المذاهب السنية ، فقد انعقد لواء الرئاسة بينهم في بيت إبراهيم بن عبد الحميد ، وأخذ الضعف يدب فيهم ، حتى انمحوا من صفحة التاريخ في الدور الفاطمي المغربي . (٢٩٦ — ٥٣٥٨ هـ) .

من هذا كله نستطيع أن نقول إن عبيد الله قد أحدث الفرقة في صفوف أنصاره ببلاد اليماني ، وبذلك فقدت الدولة الفاطمية الأمل في الاعتماد على الفرع

(١) من أعمال صنعاء اليماني ، يقع جنوبي صنعاء بسنة أميال . أنظر معجم البلدان لياقوت .

(٢) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٤١ .

(٣) نسبة إلى علي بن عبد الصليحي (٤٥٩ هـ) ، داعي المستنصر في اليماني ، وهو أول من أسس دولة الصليحيين ، التي أخلصت خلفاء الفاطميين وخصوصاً المستنصر والمستعل والأمير ، ولا يزال بقاياهم على إخلاصهم للإمام الطيب بن الأمير وأبنائه حتى اليوم . ويعرف أتباع هؤلاء في أيامنا هذه باسم البهرة ، وهم قسمان : قسم يعرف بالداودية ، وينتشر سرادهم في الهند ، وقسم يعرف بالصليمانية وينتشر سرادهم في اليماني .

الإسماعيلي النيني في الهجوم على مصر ؛ إذ لو قدر له أن يظل قويا كما كان في عهد ابن حوشب ، لتقابلت جيوش الإسماعيلية في المغرب والبحرين واليمن في مصر ، واستطاع الفاطميون أن يستولوا عليها قبل استيلاء جوهر الصقلي عليها بزمن طويل .

٣ — عبيد الله والدعوة الإسماعيلية في فارس

كانت الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) في بلاد فارس وشرقي المملكة الإسلامية ، استمرارا لما كانت عليه حين كان يقوم بعمل الحجة ، ثم الإمام المستور . وقد رأينا على رأس الدعوة في فارس وبلاد المشرق ، في أخريات القرن الثالث الهجري ، جماعة من العلماء الأفذاذ ، كما رأينا رواج نظرية المهدي المنتظر ، وانتشار الدعوة الإسماعيلية في أماكن كثيرة ، وعلى الأخص في البلاد النائية عن حاضرة العباسيين .

ومما يلفت النظر في انتشار الدعوة في فارس ، أن فكرة المهدي المنتظر قد ضعفت بظهور عبيد الله ، وأنها لم تعد تجد رواجاً بين الإسماعيلية في شرق المملكة الإسلامية بعد قيام الدولة الفاطمية ؛ بل نرى الإسماعيلية في هذه البلاد ، يولون الخليفة عبيد الله كثيراً من الاحترام والتقدير ؛ فكانوا يعتقدون أن قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب على يد عبيد الله خطوة سوف تتلوها خطوات كثيرة تؤدي إلى سيادة المذهب الإسماعيلي والدولة الإسماعيلية ، في كافة أرجاء المملكة الإسلامية ، بل في كافة أرجاء العالم قاطبة . وكانت الدعوة في تلك البلاد تعمل دائماً على تقديس عبيد الله ، وتضفي عليه من صفات التقديس شيئاً غير قليل ، حتى إن المستجيبين قد رموا المذهب الإسماعيلي في هذه البلاد بالزندقة والكفر . فكان الدعاة في فارس يبالغون في تصوير أئمة الفاطميين الخلفاء ، وخصوصاً عبيد الله ، ويجد هؤلاء الدعاة من الفرس أذناً مصغية في تصديق هذا الغلو ، على عكس ما كان عليه الدعاة والمستجيبون في المغرب . ونحن نرى إقراراً رسمياً من الخليفة القائم الفاطمي (٣٣٤ هـ) يؤيد أن هناك جماعة من الدعاة يرمون الفاطميين بأنهم يدعون علم الغيب . يقول المعز لدين الله (٣٦٥ هـ) : « سمعت القائم بأمر الله ﷺ يقول

في قوم من الدعاة بلغه أنهم غلوا فيه وفي آبائهم الأئمة الصادقين ، صلوات الله عليهم أجمعين ! وقالوا : إنهم يعلمون الغيب ، فلعنهم ، وقال : هؤلاء الصادون عنا ، الكاذبون علينا . والله ما أرادوا بما وصفونا به إلا تكذيبا لنا ، وإبعادا للناس عنا ؛ لأنهم إذا وصفونا لهم بما ليس فينا ، فلم ير الناس ذلك عنا ، ولا وجدوه عندنا ، لم يروا أئمة ، (١) .

وليس من شك في أن هؤلاء الدعاة من الغلاة كانوا من الفرس ، وأن رعاياهم ، في عهد القائم وفي عهد عبيد الله من قبله ، الذين كانوا يتصلون بهم اتصالا وثيقا ، لا يعرفون فيهم هذا الغلو المذهبي ، من العلم بالغيب والحلول في البشر ، وما إلى ذلك . ولم نذهب بعيدا ؟ فقد تأثرت جميع البلاد التي انتشر فيها الإسلام والتي لم تكن عربية وعلى الأخص في فارس ، تأثرا واضحا بالعقائد الفارسية القديمة ، زرادشتية كانت هذه العقائد أو مانوية أو مزدكية . أضف إلى ذلك نظرية تقديس الملوك التي كانت سائدة في بلادهم في عهد الأكاسرة ؛ فكان لهذا أثره في فارس فيما يتعلق بعبيد الله المهدي .

وكان الداعي أبو حاتم الرازي (٣٢٢ هـ) يصرح بقرب ظهور المهدي ، بل لقد عين زمن هذا الظهور في البلاد التي انتشر فيها نفوذه ، وخصوصا في بلاد الديلم والجبل وغيرها . فلما انقضى الزمن الذي حدده ، ولم يظهر الإمام ، ثار كثير من الناس عليه ونادوا ببطلان مذهبه ، ورموه بأنه دين متروك لا غير (٢) . وقد خلق الرازي في محيط الدعوة الإسماعيلية مبدأى الستر والظهور (٣) ، وبحيثما بحثنا عليها مستفيضا .

ومما يمتاز به الدعوة الإسماعيلية في فارس في عهد عبيد الله ، أنها لم تتركز في أقاليم خاصة بها ، كما كانت الحال في بلاد البحرين أو في بلاد اليمن ؛ بل كانت منتشرة في عامة البقاع ، ولكنها لم تكن منتشرة انتشارا كافيا ، بحيث تغمر هذه البلاد وتسود عقائدهم ، وتتمثل في أفسكارهم ؛ بمعنى أن أنصار هذه الدعوة كانوا أقلية

(١) النعمان : المجالس والمساربات (مخطوط) ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) Islamic Culture (1937); p. 217.

إسماعيلية تعيش في وسط أكثرية ساحقة من السنين أو ممن لا يدينون بالمذهب الإسماعيلي . ولذلك لم تستطع الدعوة هناك أن تتجيب دعاة محاربين يتصفون بصفات أبي عبد الله الشيعي وأبي سعيد الجنابي أو ابن حوشب وابن فضل ، بل كانت هذه الدعوة تتجه إلى أساليب الإقناع العقلي والتأثير في المستجيبين عن طريق العلم والتثقف . ومن ثم حمل لواء الدعوة لعبيد الله المهدي في هذه البلاد علماء أجلاء ، وفلاسفة أجاد مثل أبي حاتم الرازي ، والنسفي ، والسجزي وغيرهم ، ممن اتخذوا الفلسفة وسيلة للإقناع ، فتفوقوا على منافسيهم من السنين خاصة ، حتى طالب سكان طبرستان النجدة العلمية من بغداد (١) . واستغل هؤلاء الدعاة مذهب التعليم المشهور عند الإسماعيلية ، وهو أن الإمام - ظاهرا أو مستورا - مصدر الحقيقة التي يمكن أن يستمد منها المرء مباشرة أو عن طريق دعاة ، ولا سيما في الأقطار النائية .

وكان هؤلاء الدعاة العلماء يبذلون جهودا كبيرة لجذب كبار الأمراء إلى زعيمهم عبيد الله . ففترى الداعي النسفي (٣٣١ هـ) يجذب إلى هذا الخليفة الفاطمي نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ — ٣٢٩ هـ) عدو الإسماعيلية اللدود ، الذي قتل أستاذه (أي أستاذ النسفي) الحسين بن علي المروزي ، ويأخذ منه دية أستاذه . ويرسلها إلى عبيد الله الفاطمي ، ليبرهن له على إخلاصه للدعوة الإسماعيلية — دعوة الفاطميين (٢) . وكان من أثر التفاف دعاة الفرس حول عبيد الله الخليفة ، أن استطاعوا جذب كبار الأمراء السنين إليه ، حتى لقد غلب بعض فاعتقدوا أن نصر ابن أحمد الساماني أمير خراسان وبلاد ما وراء النهر ، ومرداويج الديلمي ، أمير طبرستان ، ويوسف بن أبي الساج ، أمير آذربيجان ، كانوا على اتصال وثيق بعبيد الله ، وأنهم كانوا يعملون على إزالة الخلافة العباسية . ولذلك بعث نصر بن أحمد - على ما رأينا - إلى المهدي يقول : « أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني ، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مشقة ، فإن أمرني بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه ، وامتلأت أمره ... وكتب إليه مرداويج الجبلي بمثل ذلك ، وكتب إليه يوسف بن أبي الساج ... وأنفذوا رسالهم مع الأموال إليه ، فوقع على ظهر

(١) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

كتبهم : الزموا مرا كزكم ، لكل أجل كتاب (١) . وهذا يدلنا على ما كان هناك من علاقات مودة وصفاء ، بين هؤلاء الأمراء الذين أخلصوا للدعوة الفاطمية ، وبين عبيد الله المهدي رئيس هذه الدعوة . والحق أن الدعوة الفاطمية في بلاد المشرق كانت قد استقرت في عهد عبيد الله ، في بلاد ما وراء النهر ، وفي طبرستان . ولولا أن بعض الأمراء السفين تنبهوا إلى خطرهما ، لما تردد هؤلاء المشاركة في القيام بنفس الدور الذي قام به أبو مسلم الخراساني من قبل . ولكن المحنة العظمى التي حلت بطائفة الإسماعيلية ، أتباع عبيد الله المهدي بالمشرق في سنة ٣٣١ هـ ، حالت دون تحقيق هذا الحلم الجميل .

أشهر دعاة عبيد الله في بلاد المشرق :

أنجبت الدعوة الفاطمية في المشرق في عهد عبيد الله المهدي دعاة علماء ، كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف ، حيث أخذوا على عاتقهم التفاني في الدفاع عن الدعوة بالقلم واللسان ، والعمل على جذب العامة والأمراء بنفس هذا السلاح العلمي الخطير . ومن هؤلاء الدعاة :

أبو هاتم الرازي (٣٢٢ هـ)

ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازي الورستاني . وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري ، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية في عهد إمامة عبيد الله وخلافته . وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله المهدي في شمال إفريقيا ، واستغل رواج هذه الدعوة في بلاد فارس منذ أيام عبد الله القداح ، فدخل كثير من أهالي هذه البلاد في المذهب الإسماعيلي ، وجعل أبو حاتم ، بمجاله الحيوي ، طبرستان وأصفهان وأذربيجان ، حيث تولى رئاسة الدعوة فيها ، وأخذ على عاتقه إرسال دعاة إليها . ويمتاز بعذوبة لفظه ، وحسن بلاغته ، حتى إنه استطاع أن يستميل إليه المروزي أمير الري — وكان سنياً — وأدخله في مذهبه (٢) . ودأب على إخضاع أمراء هذه البلاد لدعوته والدخول في طاعة عبيد الله ، وأصبح بذلك

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ص ٧٤ .

(٢) نظام الملك : سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٢ .

علما من أعلام السياسة والدين . يقول پول كراوس^(١) : « كان أبو حاتم من كبار دعاة الإسماعيلية ، واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمي ، ولعب دورا عظيما في الشؤون السياسية في طبرستان والديلم ، ولا سيما في أصفهان والري ، حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة مثل أسفار بن شيرويه ومرداويج^(٢) القائد وغيرهما . وكان لجهود أبي حاتم أثر فعال في اتصال مرداويج بعبيد الله . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشاركة سفراء عبید الله المهدي إلى أمراء المشرق وعامته .

ويرى بعض السنين أبا حاتم الرازي بكثير من التهم ، فيذهبون إلى أنه باطني زنديق . ويرميه بعض آخر باعتناق مبادئ الثنوية والدهرية^(٣) ، بأن الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له . وهذه اتهامات يرمى بها السنين جميع دعاة الإسماعيلية تقريبا . ومهما يكن من شيء فإن هذه الاتهامات لا تقلل من أهمية أبي حاتم ؛ فقد كان علما من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في فارس في القرن الرابع الهجري ، كما استغل هذه النهضة ذاتها في الإشادة بإمامة عبید الله المهدي وتقديسه . على أننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن أبا حاتم وأقرانه من الدعاة العلماء ، كانوا يلجئون إلى هذه الناحية العلمية الفلسفية البحتة ليستروا وراها ، ويعملوا في الخفاء على نشر آرائهم المذهبية . وكان كل منهم يهتم بإخفاء أي اتصال بالمدرسة الإسماعيلية القديمة ، ولا سيما لأنهم جميعا يقولون بمذهب التعليم ، ويدعون أن الإمام مصدر المعرفة وحده . وساعدهم على تحقيق رغباتهم أنهم كانوا يقصدون في كثير من الأحيان الجهات الجبلية ، أو الجهات التي لم يكن الإسلام قد تغلغل فيها أو تأصل في نفوس أهلها ،

(١) رسائل فلسفية ص ٢٩١ .

(٢) مرداويج : مقدم الديلم ، وكانوا جميعا يميلون للشيعة . ومن قواده على بن بويه رأس البرميين . يقول فيه السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩) : كان يريد قصد بغداد وأنه مسلم لصاحب الجوس ، وكان يقول : أنا أرد دولة العجم وأعني دولة العرب . . . كما كان على صلة بعبید الله الفاطمي ، فهاداه وعرض عليه مساعدته حيث . . . بعث بالرسول يحملون المال الكثير للمهدي في شمال إفريقيا ، وأعلن رغبته في الدخول في طاعته . . . حسن إبراهيم : (الفاطميون في مصر ص ٨٣) . ومات سنة ٣٢٢ بعد أن فتح الري وأصفهان وطرده سيده أسفار .

(٣) البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ ، ابن التميمي : الفهرست ص ٢٦٦ . ونظام الملك : سياسة

أو يقيمون بين قوم لا علم لهم بالجدل والنقاش الديني الذي برع فيه هؤلاء الدعاة العلماء (١).

ولما كان أبو حاتم الرازي قد عاصر عبيد الله إماما وخليفة، كانت له نظريات كثيرة في مبدأى الستر والظهور، حتى قالوا عنه: إنه أول من وجّه هذين المبدأين في الإسلام توجيها جديدا. وعلى الرغم من أن إخوان الصفاء كثيرا ما أوردوا في رسائلهم لفظي «الكشف والستر» (أو الستر)، لم يقصدوا بهما - كما قال الدكتور حسين الهمداني - ما كان يقصده أبو حاتم، كما فعل الفلاسفة الإغريق الآخرون بذكرهم معاني الكشف والستر، بخلاف ما يقصده الإسماعيلية (٢)، الذين ذهبوا إلى أن «الستر» الإسماعيلي، هو الدور الذي يعمل فيه الإمام محتفيا في دار هجرته، والذي ينشط فيه دعائه في نشر الدعوة. وأما دور الظهور أو الكشف الإمامي، فهو الدور الذي تشرق فيه شمس الإمامة على الكون، فيظهر الإمام المستور، كما ظهرت الشمس من مغربها بظهور المهدي.

ومن أهم مؤلفات أبي حاتم الرازي: كتاب «الزينة»، ويحتوي على ١٢٠٠ صفحة. وقد أهداه إلى الخليفة القائم الفاطمي، وتناول فيه الأمور الفقهية، وفلسفة ما وراء الطبيعة، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية، والمعلومات الجغرافية القيمة. ويقول الإسماعيلية إن ذلك الكتاب يبحث في اللغة وحدها، ولذلك لا يعدونه من كتبهم السرية. قال أبو حاتم في مقدمته: «هذا كتاب فيه أسماء واستفتاحات ألفاظ، وعبارات من كلمات عربية يحتاج الفقهاء إلى معرفتها، ولا يستغنى الأدباء عنها، وفي تعلمها نفع كبير، وزينة عظيمة لكل ذي دين وسروء» (٣). ومن مؤلفات الرازي كتاب «أعلام النبوة»، ويعد من أهم كتب فلسفة المذهب الإسماعيلي. وقد تناول فيه الكلام على نظريات الإسماعيلية في الرسل، وفي الله تعالى، وفي النفس والهيولى والزمان والمكان، وغيرها. وفي هذا الكتاب يرد الرازي على أحد الزنادقة الملاحدة. ولا يقل كتاب «الإصلاح»

(١) الدكتور طه شرف: تاريخ الإسماعيلية السيامي ج ١ ورقة ٢٤٧.

(٢) Ivanow: A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(٣) Ibid.

أهمية عن هذه الكتب . وقد ذكره حميد الدين السكرماني ، داعي الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس ، ويتكون من ٥٠٠ صفحة ، وترجع أهميته إلى ما أورده المؤلف من تأويل الآيات القرآنية ، وما ذكره عن الأنبياء^(١) . ويذكر ابن النديم^(٢) له كتاب « الجامع » ، وليس له الآن وجود ، كما أنه غير معروف للبهرة من الإسماعيلية .

من هذا كله ترى كيف ساهم أبو حاتم الرازي في الإشادة بعبيد الله المهدي ودولته ، وفي النهضة بالمذهب الإسماعيلي في شرق المملكة الإسلامية ؛ كما ساهم في محيط الثقافة الإسلامية عامة ، فتسكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما إلى ذلك ، وحاول في هذا كله أن يشرح نظريات الإسماعيلية ومبادئهم . ومع هذا فإن هذا العالم لم يسلم من اضطهاد السنيين ، وخاصة الديالمة ، واضطر إلى الاختفاء في أخريات حياته ، ومات على ما يقال في سنة ٣٢٢ هـ بعد تولية الخليفة الفاطمي القائم بقليل .

٢ — النسفي (٣٣١ هـ) .

ومن هؤلاء الدعاة العلماء أبو عبد الله بن أحمد النسفي البرذعي الذي قتل في سنة ٣٣١ هـ ، في غضون المحنة الكبرى التي ألمت بالإسماعيلية المشرق . وكان قد تلمذ على الداعي الأمير الحسين بن علي المروزي ، داعي خراسان ، وكان الحسين قد استجاب للداعي غياث ، كما كان من أعظم تلامذته علما ودراية . وقد نهج النسفي نهج أستاذه المروزي في التقرب إلى أمراء عصره ، وإلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني ؛ فلم يتوان النسفي في أداء مهمته على أكمل وجه ، حتى استطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان . ولم يكتف بما أحرز من نجاح في هذه السبيل ، بل عبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى ، حيث نجح نجاحا هائلا . وكان لهؤلاء الأمراء جميعا الفضل في معاونة النسفي ببخارى ، حتى

(١) Ivanow: A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(٢) الفهرست ص ٢٤٦ .

تحوّل كثير من رجالاتها إلى المذهب الإسماعيلي ؛ وبفضل هؤلاء وجد النسفي طريقه إلى قلب نصر بن أحمد ، الذي رحب بمبادئه وطلب رؤيته . وكانت هذه فرصة فريدة تمكن بها النسفي من جذب نصر بن أحمد ورجاله إليه . وكان نصر من أكبر معارضي المذهب الإسماعيلي ، فقبض على أستاذ النسفي وسجنه حتى مات - على ما تقدم . وقد استغل النسفي كل هذا للاشادة بزعامه عبيد الله المهدي ؛ فطلب دية أستاذه ، ومقدارها ١١٩ ألف دينار ليرسلها إلى الخليفة الفاطمي ، فكانت موافقة الأمير نصر بن أحمد الساماني على دفع هذه الدية دليلا على إخلاصه للمذهب الإسماعيلي أولا ثم لعبيد الله المهدي ثانيا (١) .

والحق أن علاقة النسفي بالبيت الساماني تكون فصلا متمعا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ببلاد المشرق في عهد عبيد الله الفاطمي ؛ فقد أصبح هذا الداعي العالم صاحب الأمر والنهي في دولة نصر بن أحمد الساماني ، واستغل هذا المركز الممتاز وضاعف جهده في جذب الناس إلى المذهب الإسماعيلي سرا وجهرا ، مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنين ، وبخصوصا بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولا نصار المذهب الإسماعيلي .

وبما آل إليه مصير النسفي ، نستطيع أن نقبين مدى تغافل المذهب الإسماعيلي في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما نستطيع أن نشاهد لونا من ألوان إخلاص الدعاة لمذهبهم ولخلافتهم الفاطمي ، كما نستدل على مدى ما كان يعانيه الدعاة المخاضون من عنيت واضطهاد . فيرى ابن النديم (٢) أن نصر بن أحمد الساماني ندم في أخريات حياته على اندفاعه وراء النسفي ؛ ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته ، فلما أفحموه ، قتله وقتل معه كثيرين من رؤساء الدعاة وجوهرهم من قواد نصر الذين دخلوا في المذهب الإسماعيلي ، ومزقهم شر ممزق .

بيد أن نظام الملك يرى أن قواد نصر من السنين دبوا مؤامرة خطيرة على العرش الساماني ، لانضمام صاحبه إلى المذهب الإسماعيلي ، وتقربه من الإسماعيلية أنصار هذا

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية العياشي ج ١ ورقة ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٦ .

المذهب . وقد استقر رأيهم على اغتصاب ملكه ، ووضع العرش في يد كبير قواده ، وأقام المتآمرون حفلا كبيرا يعلنون فيه بدء ثورة جاحقة . إلا أن أحداً لمجتمعين تمكن من الفرار وأفشى سر هذه المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح ، فتحايل على كبير القواد وقتلاه ؛ ثم خلع نصر بن أحمد نفسه ، وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية بعد أن قتل النسفي . وإن ما حل بهؤلاء الإسماعيلية يعد نكبة كبرى ، حتى إنهم أطلقوا عليها اسم « المحنة العظمى » . ولا غرو فقد كان لهذه المحنة أثرها في وقف انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الحين (أى منذ سنة ٣٣١ هـ) ، إلى أن رفع ناصر خسرو (٢) منارها بعد قرن ونصف قرن تقريباً . ثم تبعه في ذلك الحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس الدعوة النزارية في خراسان وفارس والشام . وهكذا قام النسفي بدور خطر في الناحية السياسية بتأليف جبهة قوية موالية لعبيد الله المهدي ، كما قام بدور خطر أيضاً في الناحية المذهبية بنشر المذهب الإسماعيلي في خراسان وما وراء النهر .

أما من الناحية العلمية ، فقد فاق النسفي كثيراً من الدعاة العلماء . ولا غرو فقد ذاعت شهرته في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي ، كما كان من أحرار الرأي في خراسان . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المحصول » . ويظهر أن هذا المؤلف من المکتب التي تعرضت لشرح أصول المذهب الإسماعيلي ؛ وقد جاء فيه ، على ما ذكره صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » : أن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم إن الأول والثاني مدبرا للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع . ويرى البغدادي : « أن هذا في التحقيق معنى قول المجوس : إن اليزدان خلق أهرمن » ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ؛ غير أن اليزدان فاعل الخيرات ، وأهرمن فاعل الشرور ، (٣) . وقد لعبت يد الدهر بهذا الكتاب ، ولا نعرف عنه شيئاً إلا عن طريق الكرمانى ، وكان

(١) سياسة نامه ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

(٢) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة في عهد المستنصر الفاطمي الذي عينه نائباً له « حجة » ، في خراسان وبادهستان ؛ فكان جماعة هناك يعرفون بالناصرية ، وهم يخضعون اليوم لأغاخان .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ .

داعى الحاكم ، فى كتابه «الرياض» ، وكان النسفى فى هذا الكتاب يرمى إلى التوفيق بين أبى حاتم الرازى وزميله أو تلميذه أبى يعقوب السجستانى . ومن ذلك نرى إلى أى حد بلغت حرية الرأى فى مستهل قيام الدولة الفاطمية التى كانت تشجع الأفكار الحرة ، والآراء الفلسفية ، وتعتقد المناظرات الدينية والعقلية دون أن تلقى معارضة تذكر ، (١) . ويقول البغدادى (٢) : إن الشعرانى داعية عبید الله بالمشرق لما مات ، «قام بدعوته بعده محمد بن أحمد النسفى ، داعية أهل ما وراء النهر . . . وصنف النسفى لهم كتاب المحصول» .

ولم يكن هذا كل ما بذله النسفى من جهد فى التأليف ؛ فقد ألف أيضا كتاب «عنوان الدين» ، وكتاب «أصول الشرع» ، وكتاب «الدعوة المنجية» ، (٣) ، وكتاب «كون العالم» ، وهو خاص بالفلك ووصف العوالم «الكوزموجراف» ، لكنه مؤسس على المبادئ الدينية ، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة . ومن الغريب أن ذلك الداعى العالم الفيلسوف غير معروف لإسماعيلية اليوم (٤) .

٣ - السجزى (٥٣٣١)

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلى ودعاته ، أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزى أو السجستانى ، ويلقب دندان . وكان من كبار الدعاة ، كما كان اليد اليمنى للداعى النسفى ؛ وكان الجدل والمناظرة يقومان على قدم وساق فى مسألة النبوة التى شغلت أذهان المفكرين وقتئذ . وقد أولى الفلاسفة وأحرار الرأى هذا الموضوع كثيرا من العناية ، حتى أضحت عامة الدعاة الإسماعيلية فى عهد عبید الله المهدي من أحرار الرأى ، أو على الأقل ، كانوا يتظاهرون بذلك لنشر مبادئهم تحت ستار هذه

(١) Dr. Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors

(J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 35.

الخيرية في الرأي . وقد أدرك أبو يعقوب السجزي هذه النهضة ، وهذه المساجلة العلمية ، وأدرك أستاذه الرازي الداعي الأول ، ورآه يناظر الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي في كتابه «أعلام النبوة» . فساهم أبو يعقوب في هذه المناظرة ، واتخذ من الفلسفة سلاحا شهرا على نقاد المذهب الإسماعيلي ؛ فكان هذا علما من أعلام الدعوة الإسماعيلية ، وأحد المفكرين الذين قاموا بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي (١) .

ولأبي يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي في ذلك الحين بوجه عام ، وفي نهضة فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص . وقد ذكر عبد القاهر البغدادي بعض هذه المؤلفات فقال : «وصنف لهم أبو يعقوب السجزي كتاب «أساس الدعوة» ، وكتاب «الشرائع» ، وكتاب «كشف الأسرار» (٢) . وقد ذكر إيقانوا أكثر من عشرين مؤلفا للسجزي ، ولا يزال أكثرها يتمتع به البهرة — وهم الإسماعيلية الحديثون — اليوم . ولا نستطيع أن نقتبص هذه المؤلفات جميعها بالبحث ، وإنما نتناول أهمها وأعظمها أثرا .

١ — كتاب إثبات النبوة ، وينقسم إلى سبع مقالات ، وتشبه المقالة الباب ، وتنقسم كل مقالة إلى ١٢ فصلا . ويتناول السجزي في كتابه هذا موضوع إثبات النبوة من جميع النواحي ، أي من الناحية الطبيعية والناحية الروحية ، وغير ذلك ، ويتعرض لذكر الأمور التي تتفق عليها الرسل ، والتي يختلفون فيها . وأهم من ذلك كله ما ذكره السجزي عن أدوار الرسل ، والأدلة على إثبات نبوة محمد ﷺ ، وتعرض لما أسماه عجائب القرآن والشرعة (٣) .

٢ — كتاب الينايع ، وهو في حوزة البهرة ، وينقسم إلى أربعين ينبوعا ، تناول

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors

(J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢١٧ .

(٣) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp.

فيه موضوعات كثيرة أهمها : « ماهية المبدع ، وعالم العقل والنفس ، والزمان والمكان والهيولى ، وسبب الخلق ، وبدء الخليقة ، والملائكة ، وعدم قابلية العقل للقناء ، ومعاني الجنة والنار ، ومعنى صلب عيسى ، وهوية القائم ، والوحدة والتعدد ، والبعث والثواب والعقاب ، والفرق بين تأييد الله وتأيد الخلق (١) . ويرى الدكتور حسين الهمداني أن الدعاة كانوا يترسمون في مؤلفاتهم نظام التسايف الذي سلكه أبو يعقوب السجزي في كتابه «الينابيع» ، حتى إننا إذا وازنا بين كتاب زهر المعاني القيم ، الذي ألفه الداعي إدريس عماد الدين عن الدعوة الإسماعيلية ، وبين كتاب الينابيع هذا ، لوجدنا أن الخطة التي انتهجها الداعي إدريس هي نفس الخطة التي انتهجها السجستاني من قبل (٢) .

٣ — كتاب الموازين ، وقد قسمه السجستاني إلى تسعة عشر ميزانا ، تسكّم في كل ميزان منها عن أمور تمت لأصول المذهب الإسماعيلي بصـلات وثيقة : فتناول في أحد موازينه « معرفة الحقيقة » ، وفي آخر وجوب معرفة « المبدع » ، وفي آخر « العقل » ، ومعرفة أسمائه ، كما قصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة عن « الأصلين » (٣) (العقل والنفس) . ومن أهم هذه الموازين ما وقفه على النطقاء ، والأسس والأئمة ، والحجج والدعاة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تفيد الباحث في تاريخ التطور العقلي للمذهب الإسماعيلي (٤) .

٤ — كتاب النصر ، وقد علق فيه على كتاب المحصول الذي نسبناه إلى النسفي ، وإن كان بعض الإسماعيلية ينسبونه إلى الكرمانى ، داعى الفاطميين في فارس في عهد الحاكم بأمر الله ؛ ويظهر أن هذا الكتاب قد ضاع ، وأن الكرمانى كان قد اطلع عليه وأشار إليه في كتابه .

هؤلاء هم أشهر دعاة عبيد الله في بلاد المشرق . وقد استطاعوا أن يرفعوا علم

(١) Ibid.

(٢) Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), p. 267.

(٣) الأعلان : هما العقل والنفس ، والفروع الثلاثة : هي الزمان والمكان والهيولى .

(٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 34.

الدعوة هناك عالياً ، وأن يجذبوا الأمراء إلى عبيد الله المهدي . وأهم من ذلك كله أنهم ساهموا في النهضة الإسلامية العقلية في ذلك الحين ؛ فلم يكونوا كغيرهم من علماء المذاهب الأخرى ، في عزلة عن الحياة الثقافية التي تحيط بهم . ويظهر أن مدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله ، كان لها أثر كبير في تغذية هؤلاء الدعاة بالحيوية والمبادئ التي تساعد على جذب الناس إليهم ، كما كانت تمتد هذه البلاد من حين إلى حين بدعاة درسوا في تلك المدارس ، وتخرجوا على كبار أساتذتها .

٤ - عبيد الله والدعوة الإسماعيلية في بلاد الأندلس :

كان لمدارس الدعوة التي أنشأها ونظمها عبيد الله في المهديّة وسواها ، أثر كبير في تخرج جماعة من الدعاة الذين استطاعوا أن ينشروا الدعوة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، وبخاصة في بلاد الأندلس . حقيقة كانت هذه المدارس تضاعف الجهد لتجديد النشاط المذهبي في البلاد التي كان ينتشر فيها المذهب الإسماعيلي من قبل ، كمصر والشام واليمن والبحرين والعراق وفارس . ولكن انتشار الدعوة الإسماعيلية في الأندلس بصورة جديدة ، وعلى يد حكومة إسماعيلية هي الدولة الفاطمية ، كان شيئاً جديداً في تاريخ المذهب الإسماعيلي^(١).

وكانت محاولة نشر الدعوة في إسبانيا نوعاً من الصراع بين السنية Sunnism والتشييع الإسماعيلي Ismailism ، وقد انتهز عبيد الله ثورة ابن حفصون على الأمويين بالأندلس في عهد كل من عبد الله بن عبد الرحمن الثاني (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وعبد الرحمن الناصر الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، وعقد الصلح مع ابن حفصون الذي اعترف له بالزعامة ؛ ومن ثم أخذت عيون الفاطميين ودعاتهم يجوبون شبه

(١) في الحق أن الدعوة للفاطميين الإسماعيليين كانت قد شقت طريقها إلى الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، ولا نعرف متى تم ذلك ، وهل كان في عهد الخوارج وأبي سفيان داعي الإسماعيلية الأولين ، أم في عهد أبي عبد الله الشيعي ؟ المهم أن الدعوة للمهدي قد راجت في تلك البلاد قبل قيام الدولة الفاطمية ، حتى إننا نرى بعض فقهاءهم يعتقدون صحة النبوة القائلة بظهور أحد أبناء فاطمة وحكم بلاد الأندلس ، واستيلائه على القسطنطينية ، وقتله مسيحي قرطبة . وإذا كانت هذه الأفكار قد وجدت طريقها إلى عقول الطبقة المستنيرة ، فإنها لا شك قد غيرت عقول كثير من الناس هناك .

جزيرة أيبيريا من أقصاها إلى أقصاها ، في زى التجار . وقد ذهب دوزى إلى القول باحتمال إنشاء الفاطميين مدرسة لهم في إسبانيا ، وبعبارة أخرى عمل عبيد الله المهدي على غزو بلاد الأندلس فكريا ومذهبيا ، حتى يمهّد للفاطميين سبيل الاستيلاء على هذه البلاد . ومن ثم عهدوا في إدارة تلك المدرسة الإسماعيلية والإشراف عليها ، إلى ذلك العالم الفيلسوف ابن مسرة ، وكان أحد دعاةهم . وكانت له فلسفة دينية خاصة تتمثل فيها الصراحة ، مما عرضه إلى الاضطهاد ، واضطر إلى الخروج من بلاد الأندلس والاتجاه نحو المشرق ودراسة المذاهب الإسلامية فيها ، والاتصال بالإسماعيلية سرا ، إلى أن أصبح واحدا منهم . ولما عاد إلى وطنه لم ينشر آراءه على طريقته الصريحة التي امتاز بها من قبل ، بل أخذ يعمل في الخفاء ويتظاهر بالتقوى والورع ، حتى يتمكن من نشر آرائه . وسواء أكان ابن مسرة من دعاة الفاطميين أم لم يكن ، فإن هؤلاء الفاطميين لم يتركوا وسيلة لتكوين أنصار لهم في بلاد الأندلس إلا اتبعوها ، وقد نجحوا في عهد عبيد الله المهدي إلى حد كبير . ولو قدر لهم النجاح ، وواصلوا بذل جهودهم هنالك ، لوجدوا في هذه البلاد مرتعا خصيبا لمبادئ المذهب الإسماعيلي ، ولانضم إلى مذهبهم كثير من أهلها (١) .

هـ - التنظيم الداخلي للدعوة الإسماعيلية

في عهد عبيد الله المهدي

لم تقتصر جهود عبيد الله على تقرير العلاقة بينه وبين أتباعه في خارج بلاد المغرب ، بل كان لزاما عليه أن ينظم الدعوة الإسماعيلية بعد قيام الدولة الفاطمية حسب الوضع الجديد . فهل يستطيع أن يجعل رعايا دولته جماعة إسماعيلية بحتة ، شأنه في ذلك شأن قرامطة أبي سعيد ثم النزارية من بعده ؟ سنرى أن عبيد الله بذل جهودا كبيرة لتحويل رعاياه إلى مجتمع إسماعيلي خالص ، ولكنه عجز عن تحقيق هذه السياسة ، فاضطر إلى وضع نظام جديد يقضى بأن تحكم أقلية من الإسماعيلية أكثرية من غير الإسماعيلية . ولذلك اضطر عبيد الله المهدي إلى تنظيم الدعاية المذهبية ،

Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, vol. iii, pp. 127-8. (١)

بحيث تلائم هذا الوضع الجديد ، فأسس مدارس أطلق عليها مدارس الدعوة . كما عمل عبيد الله على أن يكون الحاكم المطلق في داخل إمبراطوريته وفي خارجها ، فحدث من نفوذ زعماء دعوته ، ايشعرهم بنفوذه وسلطانه ، وتخاص من كثير من هؤلاء الذين اعتبرهم خطرا على خلافته وإمامته ؛ ففتك بأبي عبد الله الشيعي ، وأخيه أبي العباس ، وغيرهما من الشخصيات البارزة في ملكه والمناوئة لنفوذه وسلطانه .

(١) معرفة عبيد الله برعاياه

قامت الدولة الفاطمية - كما رأينا - على أسس مذهبية بحثة ، تتلخص في أن آل بيت الرسول من علي وفاطمة أحق الناس بزعامة المسلمين ؛ إلا أن كثيرا من الرعايا السنيين لم يتفقوا معهم في دعوتهم . أضف إلى ذلك عدم اغتباط جميع مفكرى الإسماعيلية بظهور العقل الكلى^(١) في شخص الإمام عبيد الله المهدي الفاطمي . فمن عقائد الإسماعيلية حلول الله في رؤسائهم ؛ فلما استقر عبيد الله المهدي في بلاد المغرب ، وظهر بعد استتار ، رأى أن يقرر في أذهان رعيته - على ما يقوله السنيون - كثيرا من مبادئ الإسماعيلية المتطرفة ، فأظهر التشيع ، ونشر بعض أمور تخالف في كثير من الأحيان قواعد الإسلام .

والآن نعرض لآراء السنيين في سياسة عبيد الله مع رعاياه ، ثم نوازن بينها وبين آراء الإسماعيلية أنفسهم .

يقول ابن عذاري المراكشي^(٢) : « أظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب

(١) Goldziher : Le Dogme et la Loi de l'Islam, p. 205.

يعتقد الإسماعيلية بنظرية الحلول ، ويقولون ، إن العقل الكلى ... يمكن أن يحل في أشخاص الأنبياء . أو الرسل الذين يسميهم الإسماعيلية « النطقاء » . فالناطق عندهم حلول للعقل الكلى ، ويرون أن آدم عقل كلى ، ومحمد ، صلى الله عليه وسلم عقل كلى كذلك . ويعتقدون مثل ذلك في النفس الكلية . Ame Universelle ؛ فيرون أن النفس الكلية تحل في أشخاص الأئمة ، وأن هاتين الصفتين . النطق والامامة ، قد اجتمعتا في أشخاص أئمتهم . وقد تركزت في محمد بن إسماعيل فاطمهم السابع ، الذي ورث أبناءه الأئمة المستورين صفى النطق والامامة معا ، فأصبحوا جميعا رموزا لحلول العقل الكلى . والنفس الكلية . ويتمتع عبيد الله الامام المستودع ، بهذه الصفات .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

أصحاب النبي وأزواجه حاشا على بن أبي طالب ، والمقداد بن الأسود ،
وعمار بن ياسر ، وسليمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري ؛ وزعم أن أصحاب
النبي ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزي الفقهاء من أن
يفتي أحدهم إلا بمذهب . . . منه إحاطة البنات بالميراث ، وأشياء كثيرة يطول
ذكرها . وقد مدح الشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه ؛ وكان فيما مدح به
شعر لمحمد البديل كاتب أبي قضاة ، وفيه :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصفي حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ربح

وكانت يمين أهل إفريقية (تونس) : « بحق عالم الغيب والشهادة ، مولانا
المهدي الذي برقادة ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين ، وتلففوا
في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم وهما :

الجور قد رضينا لا الكفر والحساة
يا مدعي الغيوب ! من كاتب البطاقة ؟

ويدعي السنيون أن عبيد الله قطع صلاة التراويح ، وأحدث في الصلاة أموراً
لم يألفها المسلمون السنيون ، مثل القسُوت في صلاة الجمعة قبل الركوع ، وزيادة
« حتى على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر » مرتين مرتين ، وقول المؤذن :
« أحيك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ،
وأعز بسلطانه جانب الموحدين ، وأباد بسيوفك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى
آبائك الطاهرين ، وأبنائك الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين » (١) .

ولم يقتصر السنيون على ذلك الاتهام ، بل قالوا : إن عبيد الله كان يعمل على
هدم الإسلام متستراً بالتشيع (٢) ، وهذه التهمة نفسها هي التي رموا بها عبيد الله القداح ،

(١) ابن حماد : أخبار بني عبيد وسيرتهم ص ١٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

ولكننا لا نستطيع أن نصدق جميع ما رمى به . ولا بد أن يكون ذلك الاتهام راجعا إلى ما ذهبنا إليه ، وهو أن عييد الله المهدي كان يخلص لقواعد المذهب الإسماعيلي ، ويعتقد أن حركة هذا المذهب حركة إصلاحية شاملة ، وأنه بفضل هذه الحركة يمكن أن ينتشل الإسلام من الهوة التي تردى فيها ؛ فحاول إدخال هذه القواعد بين السنيين ، فعدوها كفرا وإلحادا ، وقالوا فيه : « كان زنديقا خبيثا ، عدوا للإسلام ، متظاهرا بالتشيع ، مستترا به ، حريصا على إزالة الملة الإسلامية (١) » .
وعما لا نزاع فيه أن المهدي ودعاته كانوا يعملون على أن يحل المهدي من قلوب الرعايا أسى مكانة ، فأخذوا يذيعون بين الناس عنه كثيرا من الصفات التي تحوطه بهالة من التقديس ؛ وأسرف الدعاة في ذلك . حتى إنهم كانوا يقول بعضهم لبعض : هو المهدي ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، ويقول بعضهم لبعض : هو رسول الله ، ويقول بعض لبعض آخر : « هو الله الخالق الرازق (٢) » .

ويرى ابن الأثير (٣) أن عييد الله حاول نشر المذهب الإسماعيلي قسرا بين الناس ، فيقول : « وأمر عييد الله يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعواهم إلى مذهبهم : فمن أجاب أحسن إليه ، ومن أبى حبس ؛ فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ، وهم قليل ، وقتل كثيرا ممن لا يوافقهم على قولهم » . ويرى عييد الله أيضا بأنه قتل جماعة من العلماء السنيين لم يعترفوا بأنه رسول الله .

وإذا كانت هذه نظرة العلماء السنيين إلى عييد الله ، وعلاقته المذهبية برعاياه السنيين ، فإن المراجع الإسماعيلية تؤكد غير ذلك ، وتبين أن المهدي وغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يسرون وفق الشريعة الإسلامية ، على ما أنزل الله ، وشرعة الرسول ، دون زيف ، ويضربون الأمثلة الكثيرة التي تنقض دعاوى

(١) القاضي عبد الجبار : تثبيت النبوة (من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) ج ١ ص ٢٠١

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ١٨ .

السنيين . يقول النعمان المغربي (١) : « بلغنا عن المهدي أن رافعا رفع إليه نصيحة فيما زعم ، يقول فيها : إن العامة لو طولبوا فيها بمذاهبهم ، وأجرى الحكم بها عليهم في تركهم توريث ذوى الأرحام ، وردهم ذلك كثيرا في قول كثير منهم إلى بيت المال ، لكان في ذلك توفير للمال من حيث لا يتكروته ولا يدفعونه . وإن المهدي ﷺ أنكر ذلك من قوله ، واستشاط غضبا عليه ، وأمر بطلبه وقال : ما أراد هذا بما قال إلا الطعن علينا ، وأن نحكم بخلاف ما أنزل الله ؛ وإنما أقامنا الله جل ذكره لنقيم دينه لعباده ، لا لنستكثر من دنياهم بما يأتي من غير حله . »

وهذا من غير شك يهطل ما أتى به السنيون في الطعن على عبيد الله ، بل إن الإسماعيلية يرون أن عبيد الله المهدي إنما أنقذ العالم بإزالة الضلال ، ونشر الدين الحق ؛ لأنه « استأنف دعاء جديدا إلى الله ، لما غيرت السنن ، وكثرت البدع ، وتغلب أئمة الضلال ... فلما أنجز الله بالدعاء للأئمة ما وعدهم به من ظهور مهديهم ، احتاج أن يدعوهم دعاء جديدا ، كما ابتدأهم ﷺ بالدعاء أولا ، (٢) . »

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإسماعيلية يرون أن مذهبهم إنما قام ليحل محل الإسلام ، حتى قالوا في عبيد الله المهدي : إنه « قائم الزمان ... الذي يجمع الله له أمر العباد ، ويظهره على الدين كله (٣) . » ولو أخذنا بما أورده هؤلاء الإسماعيلية في المهدي ، لكان كثير مما وصف به السنيون المذهب الإسماعيلي غير صحيح . لكن ينبغي أن نفهم أن كتابي المجالس والمسائرات ، وشرح الأخبار وغيرهما ، هي من كتب الظاهر Exoteric Works التي تتفق مع التشريعات السنية ؛ ولا يبعد أن يكون كثير مما ذهب إليه السنيون صحيحا ، كما لا يبعد أيضا أن يكون الحال على عكس ذلك في كتب الباطن Esoteric Works ، وخير مثل ذلك ما نقرؤه في مخطوط « عقيدة الإسماعيلية ، الذي نشره جويار ، فقد وردت فيه فصول قيمة عن حقيقة المذهب الإسماعيلي ، وعلى الأخص ما أورده عن تأليه المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن كثيرا من كتب الإسماعيلية التأويلية الرمزية ، تدل على أن

(١) المجالس والمسائرات (مخطوط) ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) كتاب شرح الأخبار (نشره إيفانو) ص ١ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٧ .

كتب الظاهر الإسماعيلية ، إنما وضعت للرد على السنيين ، وأنها كثيرا ما تتغاضى عن ذكر حقيقة المذهب الإسماعيلي .

(ب) توجيه الدعوة لمصلحة الدولة

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وكان قيامها أقصى ما نالته الدعاية الإسماعيلية من نجاح في دورها الأول . ولم يحقق قيامها في بلاد المغرب جميع أغراضها ، فلم يكن بد إذن من أن تزعم هذه الدولة على العالم الإسلامي ، ولا يمكنها أن تحقق ذلك إلا إذا بذلت جهودا كبيرة ودماء غزيرة . وقد تبين لعبيد الله ، رئيس الدعوة الإسماعيلية ودولتها ، استحالة تحقيق كل آماله بحد السيف وإراقة الدماء ، ولذلك وجه نشاطه إلى تنظيم الدعاية لمصلحة الدولة ، ليغزو العالم الإسلامي بهذه الدعاية ، وليكون له في كل صقع من أصقاعه أنصار ومستجيبون . ومن ثم أصبح من أهم ما ترمى إليه الدعوة الإسماعيلية ، المحافظة على المذهب الإسماعيلي ، ثم مناصرة الدولة الفاطمية^(١) ، وهذا يجعلنا نعتقد أن المذهب الإسماعيلي قد نهض على يد الفاطميين نهضة بعيدة كل البعد عن ذلك الروح الوثاب الذي أوجده عبد الله بن ميمون وأبناؤه في جماعة الإسماعيلية : فبينما يرى الفاطميون ، وعلى رأسهم عبيد الله ، استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة ، كان مؤسسو المذهب الإسماعيلي الأوائل ، أئمة وحججا ، يرون استخدام الدعوة لتكوين دولة تهدف إلى هدم العباسيين ، وبسط نفوذها على أنقاض دولتهم ، وذلك بحمل السيف ، وإراقة الدماء ، وإذاعة عقائد المذهب الإسماعيلي في صراحة مطلقة . وقد سار القرامطة على هذه السياسة بعد قيام الدولة الفاطمية نفسها ، مخالفين في ذلك سياسة عبيد الله المهدي ، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، تلك السياسة التي كانت تقوم على الدهاء والمكر ، مما حدا ببعض المؤرخين على أن يعزو أسباب النزاع الذي قام بين القرامطة والفاطميين إلى هذا الأمر وحده .

وإذن فقد رأى عبيد الله بعد أن أخفق في تعميم مذهبه بين رعاياه ، ونشر

مبدأ تقديس الأئمة بين المغاربة خاصة ، أن لا ينشر خصائص الدعوة الإسماعيلية بين العامة ، كما رأى وجوب إخفاء حقيقة مذهبه ، والاعتماد على هذه المدارس التي أطلق عليها اسم مدارس الدعوة ، لبث عقائد المذهب الإسماعيلي بين الأشياع سرا ، بمعنى أنه أراد أن تكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أشياعه ، لا بينه وبين رعاياه عامة ، حتى تظل زعامته عليهم قائمة ، ويظل المذهب الإسماعيلي رائجاً بينهم . وبعبارة أخرى ، بدأ عبید الله ، بإنشائه مدارس الدعوة ، في تنفيذ سياسته المزدوجة ، حتى يظهر أمام رعاياه ، علوياً صريحاً يأخذ بناصر العلويين ، ويبطن المذهب الإسماعيلي ومبادئه في الوقت نفسه ، ويشجع هذا المذهب سرا عن طريق هذه المدارس وغيرها من وسائل الاتصال مع الأشياع البعيدين خاصة . وإنما فعل عبید الله ، ذلك ، لأن المغاربة وعامة أهالي شمالي إفريقيا كانوا ، كما يقول دوزي^(١) ، أصعب مراساً من المشاركة في فهم أسرار المذهب الإسماعيلي . فكان يتعذر عليهم فهم تأويل القرآن والحديث والفقه ومظاهر الكون على أساس تأويل الإسماعيلية ؛ فلا يستطيعون مثلاً أن يفهموا بأن الشيطان المقصود بقوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر)^(٢) هو عمر بن الخطاب ، وأن الانسان ، هو أبو بكر ، وأن معنى الكفر ، لا تنقل بإمامة علي بن أبي طالب ، كما لا يستطيعون أيضاً فهم قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)^(٣) ، بأن هناك موتاً عرضياً وموتاً أبدياً ، وأن الموت العرضي يقصد به عدم نشاط الحجج مع وجود الإمام الظاهر . وأما الموت الأبدي فهو عدم الهداية إلى المذهب الإسماعيلي ، إلى غير ذلك . كما لا يستطيعون فهم عدد الحجج بعدد فقرات الظهر (١٢) ، ولا عدد الأئمة بعدد فقرات الرقبة (٧) وفتحات الوجه ، إلى غير ذلك مما لم يكن يألفه المغاربة . وهذا وحده يفسر لنا لماذا أمسح المذهب الإسماعيلي في شمال إفريقيا ، على حين ظل قوياً منتشراً في بلاد المشرق ، وانبعث اليوم على يد أغاخان وأنصاره الأغاخانية أو الخوجات ، وعلى يد البهرة أنصار الامام الطيب ابن الخليفة الأمر وأبنائه .

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne (vol. iii. p. 124.)

(٢) سورة المشر آية ١٧ .

(٣) سورة الزمر آية ٤٢

على أن هناك أمرا آخر قد حدا بعبيد الله المهدي إلى إيجاد مدارس الدعوة، ذلك أنه بقيام الدولة الفاطمية وتربعه على عرشها، انتهى دور من أدوار التاريخ الإسماعيلي، هو دور الستر، وبدأ دور آخر هو دور الظهور. ولكل دور من هذين الدورين نظامه الخاص في نشر الدعوة، كما أن لكل منهما فلسفته الخاصة: فبينما يدعو الدعاة في الدور الأول لإمام مستور، إذا بهم يدعون في الدور الثاني لإمام ظاهر؛ وبينما هم في الدور الأول يثيرون حماسة أشياعهم لنصرة هذا الإمام المستور بحد السيف، حتى يظهر ليعمل الأرض عدلا كما ملئت جورا، إذا بهم في دور الظهور يحوّلون بهالة من التقديس والإجلال، ولا يلجئون إلى إثارة حماسة الأشياع على حمل السيف إلا عند الضرورة القصوى. وإن استطيع عبيد الله المهدي أن يحوّل أشياعه عن تلك السياسة إلا عن طريق مدارس منظمة ودعاة مرتبوا على هذا.

ومهما يكن من شيء فإن مدارس الدعوة راجت في المهدية — قاعدة الدولة الفاطمية الناشئة — في عهد عبيد الله، ثم راجت في المنصورية في عهد حفيده المنصور، ثم في القاهرة في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين؛ وعرفت هذه المدارس في مصر باسم «مدارس الحكمة»، التي كان لها شأن كبير في نشر الثقافة الإسماعيلية. ومن هذه المدارس كانت دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله؛ ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصورا على القاهرة، بل تجاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسة، أو بحارها وجزرها، كما كان يطلق عليها في ذلك الحين. وكانت الدولة الفاطمية تهتم في هذه المدارس بتخريج دعاة ينشرون في عامة البلاد الإسلامية لينشروا المذهب الإسماعيلي بين الناس، ويكونوا أداة اتصال بين رئاسة الدعوة والدولة وبين أشياعهم المسيحيين. وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة مدارس في الدور القداحي، أي دور الستر، بل كانت هناك مدارس كثيرة في سلبية والأهواز وغيرهما من نواحي العالم الإسلامي. والفرق بين هذين النوعين من المدارس هو، كما سبق، أن الأولى كانت مندفعة دائما نحو السياسة الهدامة؛ فكانت تعمل على قلب حكومة بغداد وشغلها عن الإمام الإسماعيلي المستور. وأما المدارس الفاطمية فقد أخذت تندفع في تيار السياسة الفكرية، وبعبارة أصح، كان الغرض الأول الذي ترمى إليه تعاليم تلك المدارس، هو مناصرة الفاطميين والدفاع عنهم. ونرى ذلك

واضحاً جلياً في مؤلفات الدعوة في هذا العصر . ويرى الدكتور حسين الهمداني أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدعوة الإسماعيلية في ذلك الحين ، كانت ترمي إلى عبادة الأئمة ورؤسائها ، وإنما كانت على العكس ترمي إلى وضع نظام ديني على رأسه أهل البيت (١).

وفي الحق أن عبيد الله وأنصاره ، من كبار الإسماعيلية خاصة ، رأوا أن يروجوا تلك الحركة الإصلاحية الخطرة ، التي تنادى بالإصلاح الشامل ، والتي انتشرت في معظم بقاع العالم الإسلامي وخاصة الشرق منه . وتتصف هذه الحركة — على ما يقوله ماسنيون (٢) — من الناحية العلمية بانتشار اصطلاحات وتعاليم وآراء هلينية ، كما تتصف من الناحية السياسية بنشر آراء سرية تنادى بأحقية العلويين والغض من شأن العباسيين ؛ وأما من الناحية الدينية فتتصف باستخدام تعاليم ذات طابع خاص يتفق مع اعتقادات جميع الناس . وكان هذا الاتجاه الديني السياسي الأدبي من أخطر الأشياء على الإسلام والمسلمين في القرن الرابع الهجري خاصة . وقد اعتمد عبيد الله الممدي في ترويج تلك الحركة الإصلاحية الشاملة على مدارس دعوته التي قامت بمهمتها خير قيام ، والتي أنجبت فيما بعد دعاة من الأفاضل ، مثل جعفر بن منصور البين ، صاحب المؤلفات الكثيرة في الدور المغربي ، وأبي حاتم الرازي وغيره ممن ذكرنا . والخلاصة أن عبيد الله الفاطمي يذر بذور مدارس الدعوة الفاطمية الجديدة ، ثم جنى خالفاه ثمار ما يذر .

(ج) أبو عبد الله الشيعي ينفق ما يلقاه أبو مسلم الخراساني

صادف عبيد الله الممدي منذ اعتلى عرش الفاطميين بإفريقية مصاعب جمة ، أهمها وجود منافسين كثيرين في داخل بلاده ، سنيين كانوا أو شيعيين ؛ فكان حتماً عليه أن يتخلص من هؤلاء . ويتم السنيون عبيد الله بأنه استباح لنفسه قتل العلماء المسلمين السنيين ، لمنافستهم إياه ، ومعارضتهم مذهب الإسماعيلي (٣) . ولا نستبعد ذلك على

(١) Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933), p.366.

(٢) عجب نامه ص ٢٢٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

عبيد الله ، الذي كان يعتقد أن المذهب الإسماعيلي حركة إصلاحية شاملة ، وأن الإسلام قد تطرق إليه الضعف والوهن . ولكن الغريب حقا أن نرى عبيد الله المهدي يعمل على التخلص من أبي عبد الله الشيعي ، الذي أخلص له ولآبائه وأئمته ، وأجلسه على العرش بعد أن ذاق الأمرين . أضف إلى ذلك أن أبا عبد الله لم يستبد بهذا الملك الذي أثله بيديه ، ولم يقلد ابن فضل الجدني في اليمن ، ولا أبا سعيد في البحرين ، في محاولتهما الاستقلال بالبلاد التي فتحها باسم المذهب الإسماعيلي . إذن فما العوامل الحقيقية التي دفعت عبيد الله المهدي إلى التخلص من أبي عبد الله الشيعي ؟ يغلو بعض العلماء السنيين ، فيرمي المهدي بالإسراف في العبث بالشرعية الإسلامية ، وخروجه على الدين الإسلامي ، وبأن أبا عبد الله الشيعي لم يرض عن هذه السياسة واحتج على المهدي ، فكان ذلك سبب قتله . يقول عريب بن سعد : (١) « كان عبيد الله يعرف أول دخوله القيروان وابن البصري ، فأظهر شرب الخمر والغناء ، فقال المحتسب : ما على هذا خرجنا ، وأنكر فعلته . فندس عليه عبيد الله رجلا من المغاربة فقتله ، ولا يعقل أن يثور أبو عبد الله على رئيسه تمسكا منه بالشرعية الإسلامية ؛ لأن الجميع يؤمنون بمذهب واحد ، يقدسون فيه رؤسائهم ، ويرون أنه لا عيب مطلقا إذا شربوا الخمر ، لأنه لا جناح عليهم فيما طعموا . كما أن المشهور عن أبي عبد الله أنه كان ينادي بمبدأ الحلول ، ويرى أن المهدي حلول لآدم فمحمد ﷺ (٢) ؛ وهذا يجعلنا نعتقد أن هناك سببا آخر غير ذلك .

ويظهر أن عبيد الله أدرك خطر بقاء أبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب ، حتى لا يفتتن الناس به ، فيضعف ذلك من نفوذه . ويظهر أيضا أن نفوذ أبي عبد الله في بلاد المغرب كان عظيما ، حتى إنهم نادوا بعودته بعد مقتله . وما كان لهم أن يفعلوا ذلك لو لم يكن ذا مركز متميز بينهم . ولا شك أن أبا عبد الله الشيعي كان موضع ثقة كثير من السكتاميين ، مما أثار عليه حنق مولاة المهدي . وبما لا شك فيه أن المهدي كان يميل بطبيعته إلى الاستبداد بالأمور ، والاستئثار بها دون سواء ؛ ولابد أن يكون أبو عبد الله قد رغب في الاحتفاظ بنفوذه قويا بين المغاربة ، كما رغب في

(١) صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٢٨

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ج ١ ورقة ٢٤٢ .

الاحتفاظ بمركزه الممتاز بالقبض على زمام الأمور . فلما استلب منه المهدي هذا النفوذ ، عز عليه ذلك وتأمر عليه . وفي الحق أن المهدي : « باشر الأمور بنفسه ، وكف يد أبي عبد الله ، ويد أخيه (أبي العباس) ، فدخل أبا العباس الحسد وعظم عليه الفطام عن الأمر والنهي ، والأخذ والعطاء . فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ، ويتكلم فيه وأخوه فيها ، ولا يرضى فعله ، فلا يزيد إلا لجاجا . ثم إنه أظهر أبا عبد الله على مافي نفسه وقال له : ملكك أمرا فجئت بمن أزالك عنه ، وكان الواجب ألا يسقط حقلك ، ولم يزل حتى أثر في قلب أخيه ، (١) .

وإن ما ذهب إليه المنصوري لا يبعد أن يكون السبب الأساسي لقتل أبي عبد الله ، ولا سيما أن المصادر الإسماعيلية تؤيده . فهذا المعز لدين الله يبرئ المهدي ، ويتهم أبا العباس ، ويقول عن أبي عبد الله الشيعي : « إن أخاه أبا العباس كان سبب قتله ، وإن المهدي ، عليه السلام ! ما أراد قتله ، وإن استحق القتل عنده ، حفظا لما تقدم له ؛ وإن كان قد سمى مع أخيه ومال إليه ، وغلب الهوى عليه ، لما رأى الأمور خرجت من يديه (٢) .

وقد أجمع مؤلفو الإسماعيلية على أن أبا عبد الله كان يميل إلى الزعامة والتسلط ، وأن المهدي وجد في هذا الأمر افتئاتا على زعامته ونفوذه . ولذلك لما تعارضت هاتان النزعتان ، دبر المهدي قتل تابعه وداعيه أبي عبد الله الشيعي . وإن زعامة عبيد الله المهدي للدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية كانت تحتم عليه أن يتفرد بجميع شئون الدعوة والدولة معا ؛ لذلك لا تعجب إذا رأيناه يعمل على التخلص من منافسيه من الإسماعيلية ، فيقتل ابن فضل وأبا سعيد ، ويعزل ابنه لأنه لم يكن على هواه . وصفوة القول أن المهدي لم يرض عن سياسة أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، اللذين كانا يعملان على « أن يكون الأمر والنهي ، والإصدار والإيراد لهما دون المهدي ، وأن يكون المهدي كالمولى عليه معهما (٣) .

(١) المنصوري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (مخطوط) ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) النعمان المغربي : المجالس والمسائر ج ١ ورقة ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) شرح الأخبار ص ٣٤ (من المنتخب من بعض كتب الإسماعيلية) .

أما ما ذهب إليه بعض آخر من أن أبا العباس وأبا عبد الله قد أثارا شكوك الناس في شخصية المهدي ، فيبدو بعيد التصديق ؛ لأنهما إذا كانا قد شكا في المهدي ، فكيف رضا عنه سنتين في الخلافة (٢٩٦—٢٩٨ هـ) ؟ ولو كان هذا صحيحا لحُتِم عليهما اختيار الوقت الملائم لإظهار شكهما ؛ وخير وقت لذلك ، هو ذلك الوقت الذي قامت فيه الدولة الفاطمية وأتى فيه المهدي من سجلماسة . على أنهما إن كانا قد شكا في شخصية المهدي - وهو ما لا يمكن أن يحدث - فلم لم يشكا في شخصية القائم ؟ ولم لم يناديا به إماما وخليفة ، بدلا من المهدي الذي شكا فيه ؟ لهذا لا تتفق مع ما ذكره الداعي إدريس (١) في كتابه زهر المعاني ، من أن أبا العباس دخل في عقل أخيه أبي عبد الله ، واستأذله وقال له : ليس هذا المهدي ، لأن ذلك يبدو بعيد التصديق . كما لا نستطيع أن نوافق على ما ذكره النويري في قوله : « عمد أبو العباس إلى الدعاة - وكانوا يعظمونه - فجعل يرمز لهم ، ثم صرح وطعن في عبيد الله ، وأدخل فيه الشبهة . وما زال أبو العباس يتحیل إلى أن قال للدعاة : إن الإمام هو الذي يأتي بالآيات والمعجزات ، ويختتم بخاتمه على البلاط ؛ فأما هذا فقد شككنا فيه . فعند ذلك أرسل هارون بن موسى (أحمد المشايخ) إلى عبيد الله يقول : إنا شككنا في أمرك ! فأتنا بآية إن كنت المهدي كما قلت . فتعاضم ذلك على عبيد الله وقال : ويحكم الإنسكم كنتم قد أيقنتم ، والشك لا يزيل اليقين ، فأبيتهم إلا الإضرار ، ثم أمر من قتله (٢) . . ومثل ذلك أيضا ما يقوله يحيى بن سعيد وهو : « كُتِبَتْ أبو العباس جماعة من الدعاة ، ومن وجوه كتامة ، وأوقع في نفوسهم الشبهة في المهدي ، وكاشفه مقدم الدعوة بالنفاق (٣) » .

إذن كان هناك سخط من أبي عبد الله وأخيه أبي العباس على المهدي بسبب استبداده بالأمور ؛ فرماه أبو العباس ، بالحق أو بالباطل ، بكل نقيصة ؛ وتكوّنت مؤامرة قوامها كل من كان يميل إلى الزعامة ، أو أقصى عن الأمر ، واتخذوا معقلهم قصر الزعيم المغربي ، أبي زاكي بن معارك ، وكان قد تولى شئون إفريقية حين

(١) ص ٦٨ (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية) .

(٢) نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ورقة ٣٤

(٣) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٠٨ .

خرج أبو عبد الله لإحضار المهدي ، وأخذوا يدبرون مؤامرة ترمي إلى اغتيال المهدي وهجموا عليه غير مرة . ويظهر أن تعاليم أبي عبد الله التي تقوم على تقديس عبيد الله المهدي الإمام ، كان لها أثرها في قلوب المغاربة ، الذين كانوا يرهبون على الرغم من إجماع الثوار على الإنهاء عليه ؛ كما كانت قلوبهم تذوب خوفاً وهلعاً ، حين تقع عيونهم عليه . ومنهما يكن من شيء . فقد أجمع ذلك النفر على الفتك بعبيد الله ، واجتمعت كتامة إلا قليلاً منهم ... فجمع عبيد الله إليه من سلم من النفاق والعبيد ، واستعد لهم ، على كثرتهم وقلة المبايعين له ، فجمعوا له الجوع ، وأحاطوا بقصره ليوقعوا به ، وهو في ذلك جالس منتصب غير مكترث (١) .

وما يمتاز به عبيد الله المهدي الصبر والثبات ؛ فقد أدرك أن أبا عبد الله الشيعي قد عراه الاضطراب ، حتى كان يدخل عليه وجلبابه مقلوب ثلاثة أيام ، وهو لا يعقل أمر قيصه ، لأنه يبيت محالفاً على أن يكون على ولي مخالف خادعاً (٢) . ولذلك لجأ عبيد الله المهدي إلى المكر والحيلة ، وتظاهر بتجاهل ما يدور حوله ، وبدأ يحارب الثوار بنفس سلاحهم . ولما كان يعرف أن همهم الحكم والجاه ، أخذ في توزيعهم وتفريقهم ، وقلدهم الولايات وأجزل لهم الهبات ؛ فعين الزعيم أبا زكي ابن معارك واليا على طرابلس ، ولسكنه أمر عاملاً من قبله بقتله عند وصوله ، وفعل مثل ذلك مع أغلب المتآمرين . وأما أبو عبد الله وأخوه أبو العباس ، فقد أمرهما بالبقاء معه ، وعمل على التخلص منهما باستغلاله مذهب تقديس الإمام عند بعض المخلصين له ، وأمر أحد أنصاره بقتلهما في منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ . فلبا صاح به أبو عبد الله قائلاً : لا تفعل ! أجابه : الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك (٣) . وكان قتلهما في نفس الوقت الذي قتل فيه الزعيم المغربي أبو زكي بطرابلس .

ويكاد المؤرخون السنيون والإسماعيليون يجمعون على أن المهدي لم يتألم لقتل أبي العباس ، وإنما أظهر حزنه على قتل داعيه المخلص أبي عبد الله الشيعي . ويعتقد

(١) النويري : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ورقة ٣٤ .

(٢) الداعي إدريس عماد الدين : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٦٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٧ .

كثيرون أن المهدي قتل أبا عبد الله ليظهره من الخطأ الذي وقع فيه ، بسبب اتباعه أخاه أبا العباس ، وأن قتل المهدي أبا العباس كان تخلصاً للدعوة من المستكبر المصر على الإبلas ، وأن المهدي « ظهر منه دعوته ، وتبرأ منه ، معلماً بذلك كافة الناس ، (١) . ويقول السنيون : إن المهدي ترحم على أبي عبد الله وقال : « رحمك الله أبا عبد الله ، وجازاك في الآخرة بتقديم سعيك ! ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك . ثم قرأ (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٢) . وكتب إلى الشيعة بالمشرق يقول : قد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام ، فاستزلهما الشيطان ، وطهرتهما بالسيف والسلام ، (٣) . وبهذا لقي أبو عبد الله من الفاطميين ما لقيه أبو مسلم الخراساني من العباسيين .

وكان من أثر مقتل أبي عبد الله ، أن دب النزاع في بلاد المغرب ؛ فثارت طرابلس على المهدي ، وهب أهالي القيروان في وجهه ، وخالفه أهل صقاية وأهالي بعض مدن إفريقية . إلا أن عبيد الله تمكن من إخماد تلك الثورات جميعاً . وكان أشدها خطراً تلك الثورة التي أشعل نارها أتباع أبي عبد الله المخلصون له من الكتاميين . فقد هبوا في وجهه ، وادعوا أن أبا عبد الله حي لم يمت . يقول ابن الأثير (٤) : « وثارت فتنة بسبب قتلها ، وجرد أصحابها السيوف ، فركب المهدي وأمن الناس فسكنوا . ثم تبعم حتى قتلهم . وثارت فتنة بين كتامة وأهل القيروان ، قتل فيها خلق كثير ؛ فخرج المهدي وسكن الناس ، وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقاموا طفلاً ادعوا أنه المهدي ، وأنه يوحى وكان هؤلاء (على ما يظهر) قوة خطيرة ، حتى إنهم زحفوا إلى مدينة

(١) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٦٩ .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٤ .

(٤) الكامل ج ٨ ص ١٩ .

«ميلة»، فأخرج لهم المهدي ولده أبا القاسم فضربهم، وقتل الطفل الذي نصبوه مهدياً لهم.

ولا يبعد أن تكون ثورة ابن فضل، وفتور العلاقة بين المهدي وأبي سعيد الجنابي نتيجة لقتل أبي عبد الله الشيعي. وكان هؤلاء أدركوا أنهم سيلاقون مآلقاته أبو عبد الله الشيعي (١). ومهما يكن من شيء، فقد استطاع المهدي أن يقبض على أزمة الأمور في إفريقية بيد قوية. ومن ثم نراه يوجه نشاطه إلى الصراع الخارجي بعد أن استولى على جزء كبير من بلاد المغرب، ثم يعم شطر المشرق لفتح مصر، واتخاذها قاعدة ثانية، أو نقطة ارتكاز أخرى، يتجه منها إلى بغداد نفسها، ويقضي على الخلافة العباسية السنية المتداعية.

(١) الدكتور طه شرف: تاريخ الاسماعيلية. المياني (ج ١ ورقة ٢٤١).

الباب الخامس

أشهر مميزات الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي

وتتماز الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله بأمور كثيرة منها : أنها مرت في طورين يعرف أولهما بطور الاستتار ، وثانيهما بطور الظهور . فكان عبيد الله في الطور الأول إماما مستورا ، وفي الطور الثاني إماما ظاهرا . وكان دعاة ينشرون في الطور الأول مبادئ ثلاث استتار الإمام ، وينشرون في الطور الثاني مبادئ ثلاث ظهوره . كما تتماز الدعوة الإسماعيلية في ذلك الحين بترويج كثير من الآراء ، من أهمها المناد بدين عام يتفق مع مشارب الناس ، والتأويل غير المشروع ، والإباحة أحيانا والقول بنظريات الإمامة إلى غير ذلك . كما أن هناك كثيرا من المصاعب استطاع عبيد الله التغلب عليها . ويرجع نجاحه إلى عوامل مختلفة ، منها ضعف العالم الإسلامي وضعف الطوائف الشيعية الأخرى ، وتحمس الناس لنظرية المهدي ، وتطلعهم لظهوره ، كما يتميز عبيد الله نفسه بصفات كان لها أثرها في حياته ، منها الصبر والهدوء والثقة بالنفس ، والصدق ، وغير ذلك .

١ - استتار الإمام وظهوره

(١) استتار عبيد الله :

مر عبيد الله — سعيد الخير — في دورين من أدوار تاريخ الإسماعيلية : وقد تطورت به الأحوال في الدور الأول ؛ فكان نائبا عن الإمام ، أو على حد تعبير الإسماعيلية « حجاب » الإمام و « حجة » تارة ، وتقمص شخصية الإمام المستور تارة أخرى . وكان في الحالين يرأس جماعة تعمل في الخفاء ، وتدعو لإمام مستور . وقد تسلم منصب الحجة ، ثم منصب الإمام في أواخر القرن الثالث الهجري ، في

الوقت الذي نضجت فيه ثمار ماغرسه آباؤه وأجواده وأئمة . وقد راجت دعوته في فارس وخراسان والعراق ، وتركزت في سواد الكوفة على يد حمدان قرمط وعبدان ، ثم على يد زكرويه وأبنائه ؛ ثم استقرت في إقليم القطيف ، جنوب البصرة ، وفي البحرين ، على يد أبي سعيد الجنابي ، والتهبت جهرتها في بلاد اليمن ، حتى اعتقد بعض أن دولة المهدي ستنبعث من هناك . وفي هذه البلاد راجت الدعوة الإسماعيلية على يد ابن حوشب (منصور اليمن) وابن فضل . أما في بلاد المغرب فقد انتشرت على يد داعيه أبي عبد الله الشيعي الذي استطاع أن يوجه ضرباته إلى الدولة الأغلبية المتداعية ، ثم يقضى عليها ، ويقعد السير إلى سجناسة في أقصى بلاد المغرب لإحضار سيده عبيد الله المهدي .

وقد استطاع المهدي أن يقوم بعمله على أكمل وجه باعتباره وحجاب الإمام ، ولكنه أخذ يلقى كثيرا من المصاعب ، وكان من أشدها خطرا عليه وعلى دولته ، انتفاض حمدان قرمط زعيم قرامطة السواد ، في الوقت الذي أصبح فيه عبيد الله إماما ، وتبع ذلك اضطراب الدعوة نفسها بين القرامطة أنفسهم ، فاستخفى حمدان قرمط وصهره عبدان من سواد الكوفة ، وحل محلهما زكرويه وأبناؤه . كما ظهر في الميدان زعيم من أبناء القداح ، وضع زكرويه وأبنائه في مكان حمدان ، وأصبح ينافس عبيد الله — سعيد الخير . وبذلك سامت أحواله ، فرب في وجه أبناء زكرويه ، حتى اضطر إلى الهرب من سلبية عند ما أصبح إماما ، لأن بعضا لم يرض به إماما مستورا ، بعد أن كان حجة الإمام المستور ، بمعنى أن عبيد الله عاجز عن أن يوضح لاتباعه أو لبعضهم وظيفته الجديدة واختصاصاتها ، فثاروا عليه . وبذلك نرى أن إمامة عبيد الله المستورة لم تسر في طريقها في سهولة ، بل اعترضتها عقبات . ومهما يكن من شيء ، فقد امتازت الدعوة الإسماعيلية في عهد إمامة عبيد الله المستورة بأمور منها .

(١) النعمى في السرية :

فقد غمرت هذه الدعوة أمواج من السرية الدقيقة ، حتى التيس الأمر على المؤرخين ، فلم يقفوا على حقيقة القائمين بهذه الدعوة : أهّم من الدعاة ، أم من الأئمة

الحقيقيين من أبناء إسماعيل ؟ والحق أن رئاسة الدعوة في عهد عبيد الله وقبل عهده ، وضعت خطط الدعوة السرية ، وأن القائمين بها نجحوا نجاحا كبيرا في تكوين مجتمعات إسماعيلية قوية عمادها التقية والتخفي . فانظر أبا عبد الله الشيعي (٢٩٨ هـ) يكتّم أمره ، فلا يدري الأغلبة عنه شيئا ، حتى يدهمهم بجيوشه . وانظر أبا سعيد الجنابي (٣٠١ هـ) يكون دولة ، أو ما يشبه الدولة ، في بلاد البحرين ، التي كانت تابعة للعباسيين الذين لم يكونوا يعرفون عنه شيئا . ويظهر أن الإسماعيلية تشبهوا بجماعة الأبي هاشمية ، أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وأنصار العباسيين ، في إمعانهم في طرق التخفي ، حتى إننا لا نغالي إذا قلنا ، إن نصيبا كبيرا من النجاح الذي ناله الإسماعيلية في عهد إمامة عبيد الله يرجع إلى حد كبير إلى هذه السرية المنظمة .

(٢) الحماس الحربي :

ولا يقل أثر الحماس الحربي في نجاح الدعوة في عهد إمامة عبيد الله عن أثر التعمق في السرية ؛ فقد كان من سياسة عبيد الله الاستعانة بسيوف أنصاره في تحقيق مآربه . التي تتلخص في تكوين دولة إسماعيلية أولا ، وهدم الدولة العباسية ثانيا . نعم ! لقد قام أنصار عبيد الله الإمام المستور بحركات حربية رائعة ، تذكرنا بشجاعة الخوارج و ثباتهم ؛ فنجح أبو سعيد الجنابي في هزيمة العباسيين هزائم متتالية ، كما نجح في قرمطة بلاد القطيف والبحرين . وهام أولاء جماعة زكرويه بن مهرويه يهزمون جيوش الطولونيين والعباسيين ، ويلقون الذعر في الشام وبأديتها ، وفي شمال العراق الغربي . وهكذا نال هؤلاء القرامطة ، بفضل الدعاية المنظمة ، شيئا غير قليل من النجاح . وليس هذا كل ما كان للحماس الحربي من أثر ؛ فإن أبا عبد الله الشيعي استطاع بفضل هذه الدعاية المنظمة بين السكتاميين أن يغزو عقولهم ، فيندفعون كالسيل المنهمر يجرفون أمامهم دولة الأغلبة ، التي لم تستطع الصمود أمام حماسهم المنقطع النظير . وبفضل هذه الحماسة الحربية استطاع أبو عبد الله أن يحقق للدعوة الإسماعيلية غرضها الرئيس : فأقام دولة الفاطميين ، بعد أن أباد أنصار العباسيين . وقد شاهد عبيد الله بعينه نجاح دعوته ، وهو إمام في بلاد اليمن والمغرب والبحرين وسواها .

٣ - الدعوة للإمام المستور

ومن خصائص استتار الإمام مضاعفة أنصاره ونوابه نشاطهم في نشر الدعوة للمذهب الإسماعيلي ؛ وكان أفراد بيت القداح الدعامة التي قامت عليها أسس هذا المذهب . ولا غرو فقد استعان الإمام محمد بن إسماعيل بميمون القداح ، كما استعان الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، والإمام أحمد بن عبد الله بحجتهم وداعيهم الأكبر عبد الله بن ميمون القداح . واستمر هذا وأبناءؤه الساعد الأيمن للأئمة المستورين . وكان عبيد الله نفسه ، وهو سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح ، كما ذهبنا إليه ، حجة الإمام المستور الحسين بن أحمد ، ثم حامل وديعته في الإمامة ، ليوصلها إلى ابنه أبي القاسم ، الذي عرف بعد ذلك بالقائم بأمر الله . وعلى يد عبيد الله قامت الدولة الفاطمية . وهكذا كانت مساهمة القداحية في نشر الدعوة الإسماعيلية في دور الستر عظيمة حقا ، مما يجعلنا نميل إلى تسمية دور الستر هذا بالدور القداحي . وليس معنى ذلك أن الأئمة الإسماعيلية كانوا خاملين ، بل كانوا جميعا في نشاط دائم ، وإن كان أبناء القداح هم الذين قاموا بتنفيذ أعمالهم . وسواء أكان الأئمة الحقيقيون هم الذين قاموا بنشر الدعوة ، أم أن أبناء القداح استبدوا بها ، أم أنهم جميعا كانوا يتعاونون على نشرها ، وهو ما نميل إليه ، كانت الدعوة الإسماعيلية رائجة بطريقة سرية رائعة ، وأنها أقيمت للإمام المستور من أبناء إسماعيل الحقيقيين أولا ، ثم من أبنائه الروحانيين أو التعليميين ثانيا .

(٤) استغلال نظرية المهدي المنتظر

عمل دعاة الإسماعيلية الأوائل على رواج هذه النظرية في أنحاء العالم الإسلامي كافة ، متخذين ميل كثير من الناس إلى أهل بيت الرسول ، واعتقادهم فساد المجتمع الإسلامي ، وسيلة لجذب الأشياع . وضاعف دعاة عبيد الله في عهد استتاره جهودهم في استغلال هذا الرى ، فادعوا أنهم يمهّدون لعصر جديد هو عصر « دولة الله » ، وأن المنتقد المنتظر على وشك الظهور ، لينغيث الناس مما هم فيه من سوء . ولذلك بادر كثيرون إلى الانضمام إلى جماعة عبيد الله ، معتقدين أنهم

« جند الله » ، وحملوا السيف لتكوين « دولة المهدي » ، أو « دولة الله » . وبفضل هذه النظرية ، نجح عبيد الله وعامة دعائه في تنفيذ خططهم كاملة ؛ فقد كان لتصريح أبي عبد الله الشيعي بقرب ظهور المهدي ، وقوله : طوبى لمن ألقى بنفسه بين يديه ، أثر فعال في القضاء على الأغلبة ونجاح الإسماعيلية في بلاد المغرب . وهكذا تملك قلوب الإسماعيلية في دور الستر ، وفي عهد إمامة عبيد الله ، فكرة الإمام المنتظر ؛ فاندفع القوم يعلنون عداؤهم الصريح للحكم العباسي ، بل للدين القائم ، حيث اعتقد الإسماعيلية فساد هذا وذاك ، فعملوا على تقويضهما معا ، ليحل محلهما دين المنتقد المنتظر (المذهب الإسماعيلي) ودولته (الدولة الفاطمية) . وهكذا كان كل واحد من إسماعيلية ذلك الزمن ، يود أن يكون من جند المهدي المنتظر ، وحاملي لواء دينه الجديد ، ويجد في ذلك منتهى سعادته ، بل يعتقد أن موته نوع من الجهاد أو الاستشهاد يثاب عليه . وهذا كله نالت الدعوة الإسماعيلية شيئا كبيرا من النجاح (١) .

(ب) ظهور عبيد الله (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ)

كان جلوس عبيد الله المهدي على عرش الدولة الفاطمية ، إيذانا بحدوث تطور جديد في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ودليلا على نهاية عهد استتار الأئمة ، وبداية عصر ظهورهم على مسرح السياسة المذهبية الحسكومية . فبعد أن كان أئمة الاستتار يمنحون نوابهم ودعاتهم كثيرا من النفوذ والسلطان ، حتى كانوا أشبه بمستقلين في أقاليم دعوتهم ، أصبح عبيد الله ، الإمام الظاهر ، يتدخل في شئونهم ، ويملي عليهم سياسته الجديدة ، فلا يقر تعيين أولياء عهدهم . بل يختار لزعامته الإسماعيلية ، من يثق به منهم . وقد أصبح واجبه مزدوجا ، لاجتماع رئاسة الدعوة ورئاسة الدولة في شخصه ؛ فعمل على تنظيم الأولى في الداخل والخارج ، ونظر إلى الدعوة ذاتها باعتبارها أداة ترتكز عليها الدولة ، وتعتمد في حياتها ، أو بعبارة أخرى نظر إلى الدعوة كوظيفة من وظائف الدولة ، فوضع تبعا لذلك الأسس التي سلكها خلفاؤه من بعده . وأما سياسته للدولة ، فكانت تحتم عليه أن

(١) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ج ٢ ورقة ٥٠ .

يعمل على زعامة العالم الإسلامي ، كما كان عليه أن يحول شمالاً إفريقيا إلى دولة إسماعيلية ؛ ولذلك حارب شرقاً وغرباً ، فنجح أحياناً وأخفق أحياناً . ولم يكن المهدي يرمى من وراء ذلك إلى الجأء والاستعمار وحدهما ، بل كان يعمل على أن ينتزع من العباسيين زعامة العالم الإسلامي ، لأنه كان يعتقد أنه أحق بهذه الزعامة منهم . ولا غرو فإن دولته هي دولة العلويين الذين ينتسبون إلى الرسول ، وهم في نظره ، وفي نظر كثير من الناس ، أحق من بني العباس .

وتمتاز الدعوة الإسماعيلية في دور ظهور عبيد الله المهدي (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) بأمر منها : اتسام الدعوة بالطابع الحكومي ؛ فقد انتقلت من أيدي رجالها ورؤسائها إلى أيدي رجال الدولة وخلفائها ، وبعبارة أخرى من أيدي الدعاة إلى أيدي الحكوميين . ومن ثم أصبحت الصفة الحكومية هي المتغلبة عليها ، الميزة لها ، واستحال رجال الدعوة في عهد عبيد الله ، ثم في عهد خلفائه ، إلى طبقة من الموظفين . وأصبحت الدعوة ، على كره من رجالها المخلصين ، تسير سيرا آلياً محضاً ؛ ولم يعد للحماس المذهبي الذي كان من أظهر مميزات عصر الستر ، ما كان له من تأثير ، وأضحى رجال الدولة الحكوميون يشرفون على رجال الدعوة ويتزعمونهم . كما أخذ هؤلاء يعنون بالشكل الظاهري من أشكال الدعوة فقط ، فيعقدون المجالس ، وينشرون بعض المبادئ الإسماعيلية بين الناس ، رعايا كانوا أم أشياعاً وأتباعاً . ولولا اعتقاد كثير من أهالي بلاد المغرب ، بأن الفاطميين علويون ، لوقفت الاستجابة إلى المذهب الإسماعيلي عند هذا الحد . أضف إلى ذلك أن مستجيب تلك البلاد لم يعرفوا من خطوات الدعوة إلا مراحلها الأولى .

ولم تكن الدعوة للحكومة الفاطمية الإسماعيلية في دور الظهور تضارع الدعوة للامام المنتظر في دور الستر ؛ فقد أخذ المستجيبون في دور الستر طريقهم إلى المذهب الإسماعيلي في حماس زائد ، معتقدين أنهم يعملون لإنقاذ أهل البيت . أما في الدور الذي نطلق عليه دور ظهور عبيد الله ، فقد كانت الاستجابة فيه ، وبخاصة في بلاد المغرب ، نتيجة خوف الناس من الحكومة القائمة ؛ كما كان رجال الدعوة أنفسهم يعملون من جانبهم على إرضاء رجال الدولة ، ويسعون للحصول على المال عن طريقهم ، شأنهم في ذلك شأن كل موظف . وقد جر ذلك على الدولة كثيراً

من النكبات ، ولا سيما بعد أن أقيم على رأس الدعوة أفراد غير جديرين بالاضطلاع بها . فمن ذا الذى يقول إن بدرا الجمالى ، ذلك الوزير العظيم فى عهد المستنصر الفاطمى ، وهو - كما نعلم - إمامى اثنا عشرى ، يكون هو وأبناؤه على رأس الدعوة الإسماعيلية ؟ ولا غرو فقد أضعف عبيد الله المهدي الدعوة الإسماعيلية بيده ، حتى أصبحت وظيفة ثانوية من وظائف الدولة ؛ هذا إلى أن ذلك التحول من نشر الدعوة إلى تكوين دولة بإراقة الدماء الكثيرة ، ومن إقامة الدعوة لإمام مستور إلى الدعوة لإمام ظاهر ، والإبقاء على الدولة ، والعمل للتوفيق بين الرعايا وبين المذهب الإسماعيلى - كل هذا أدى إلى تطرق الضعف إلى هذه الدعوة .

ولا نغالى إذا قلنا ، إن ثورة أبى عبد الله الشيعى ، وأخيه أبى العباس على عبيد الله المهدي ، لم تكن إلا ثورة قام بها رجال الدعوة المخلصين لها على النظام الحكومى الجديد ، الذى آلت إليه الدعوة الإسماعيلية ، فكأن عبيد الله المهدي قد مهد بعمله هذا للحسن الأعصم القرمطى للثورة على المعز وابنه العزيز ، كما مهد لدعاة الحاكم الغلاة ، وهم الدروز ، للقيام فى وجه الدعوة الحكومية ، والجهرب تأليه هذا الخليفة ، وكما مهد للحسن الصباح لإذكاء نار الثورة على المستعلى بن المستنصر ووزيره الأفضل بن بدر الجمالى (١) .

كذلك تمتاز الدعوة الإسماعيلية فى ذلك العهد بإقامة الدعوة لعبيد الله باعتباره إماما ظاهرا . فقد كانت هذه الدعوة فى دور الستر تتجه إلى إمام مستور من سلالة إسماعيل بن جعفر . وكان كثير من الدعاة لا يعرفون شخص ذلك الإمام ؛ إلا أن الفرخ كان يغمرهم ، سواء أكانوا دعاة أم مدعويين ، كما كان يغمرهم أمواج من الحماسة لذلك الإمام العلوى المستور . الذى لا يعرفه أكثرهم على وجه التحقيق . أما بعد قيام الدولة الفاطمية فى سنة ٣٩٦ هـ ، فقد اتجهت جهود رجال الدعوة إلى

(١) ويلقب شاهنشاه ، وقد حارب نزار بن المستنصر ، واستخلص الملك منه لابن اخته المستعلى .

وكان الأفضل حربا على الإسماعيلية ، نزارية كانوا أو مستغلية ، واستمر كذلك طول عهد الخليفة المستعلى ، وردحا من عهد الخليفة الأسر ، ومات مقتولا فى سنة ٥١٥ هـ على يد الإسماعيلية ، ولا نعرف على وجه التحقيق إلى أى طائفة من هاتين الطائفتين ينسب القاتلون .

الإشادة بهذا الخليفة الفاطمي الذي أصبح على رأس دولتهم المنشودة ، واستمرت الدعوة للإمام الظاهر طوال الحكم الفاطمي تقريبا ، حتى إننا نستطيع أن نسميها « الدعوة الفاطمية » . ونرى كبار الدعاة وأعلامهم في عهد عبيد الله المهدي يقرون بتلك النظرية الجديدة ، وبخاصة أبو طاهر الجنابي ، زعيم قرامطة البحرين (٣٠٥ — ٣٣٢ هـ) ، كما نرى دعاة اليمن وفارس وخراسان يعملون على الإشادة بالخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي ، وينادون بأحقية بالحكم وزعامة المسلمين . ومن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي قول أبي طاهر : « أنا الداعي إلى المهدي (١) » ، وقوله يسب الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) : « هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر خروج الأسد الغضنفر ، في سراييل الظفر ، متقلدا سيف الغضب ، مستغنيا عن نصره العرب (٢) » . ونرى مثل ذلك في مؤلفات الدعاة في فارس واليمن ، وفي حركاتهم كذلك .

على أنه لم يكن للدعاة ولا للدعوة في دور الظهور ما كان لهم من نفوذ في دور البستر ؛ فقد أصبح مركز كبير الدعاة في المهديّة أقل شأنا من مركز نائب الإمام المستور ، أي حجابيه وحجته في دور البستر ؛ ولم يستطع داعي الدعاة أن يتمتع بالزعامة المطلقة التي كان يتمتع بها الحجة في دور البستر ، لوجود الخليفة الفاطمي واستبداده بكافة الأمور دونه . أضف إلى ذلك أن داعي الدعاة أصبح موظفا من موظفي الدولة ، يأتمر بأوامرها وينتهي بنواهيها . ولا تغلو إذا قلنا إن هذه الحركة التي قام بها أبو عبد الله الداعي في وجه المهدي ، كانت نتيجة لما حدث من تغيير في أساس الدعوة ؛ فقد شعر هذا الزعيم الجريء أن مركزه قد ضعف بظهور المهدي ، كما شعر الحسن الصباح مؤسس الدعوة النزارية ، بمثل ما شعر به أبو عبد الله من بعده ، فثار على الإمام المستعلي ، ونادى بأحقية أخيه نزار والعودة إلى الدعوة للإمام المستور ، ثم حذا حذوهما ابن مدين (٣) ، باب أبواب الدعوة الإسماعيلية

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام (مخطوط) ج ٣ ورقة ٦١ .

(٢) الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٣٤ .

(٣) منذ اليوم الذي خرج فيه ابن مدين مع إمامه الطفل ، الطيب بن الأمر ، في سنة ٥٢٦ هـ ، ظهرت

جماعة يعرفون باسم الطيبية ، نسبة إلى الإمام الطيب هذا ، وكانوا ينادون بالانفصال عن الدولة الفاطمية —

(أى رئيسها) فى عهد الخليفة الأمر (٥٢٤ هـ)، ونادى هو وأنصاره بإمامة الإمام الطيب المستور، وعملوا على ترويج مبادئ دور الستر، وثاروا على الخليفة الفاطمى الحافظ، وأعلنوا أنه العدو الأساسى أو التقليدى The Arch Enemy للدعوة الإسماعيلية.

ومن أهم مميزات الدعوة فى ذلك الدور علاقتها السرية بالمستجيبين. نعم! لقد تغير مركز الدعوة الفاطمية وأنصارها بقيام الدولة الفاطمية؛ فلم تعد هذه الدولة ترضى ببقاء بعض مبادئ الإسماعيلية الغالية، وعرضها على العامة، حتى لا يشعروا عليها، ويعيدوها سنية كما كانت. ولذلك حُتِم على القائمين بأمر هذه الدولة أن يتظاهروا فى عهد عبيد الله المهدي للناس بغير ما هم عليه، وأن يحكموا، فى الوقت نفسه، الاتصال السرى مع أشياعهم وأنصارهم الإسماعيلية، حتى لا يتطرق الضعف والوهن إلى المذهب الإسماعيلى بينهم. ولذلك نرى عبيد الله يتصل سرا بأبى سعيد الجنابى، ويأمره بإعلان الحرب على العباسيين فى جنوب العراق، فى الوقت الذى تغزو فيه جيوش الدولة الفاطمية مصر؛ ويتصل هو سرا بأنصاره القرامطة ليعلموا الثورة على ولى عهد أبى سعيد، وينادوا بأحقية أخيه أبى طاهر، وكان مواليا لعبيد الله، فيقره هذا على عرش القرامطة، ويتصل به سرا ليقابل جيوشه فى مصر سنة ٣٠٧ هـ. بل ذهب ابن خلدون. الذى عرف بميله إلى الفاطميين، إلى القول بأن القرامطة، كانوا إذا ذكروا الحجر الأسود يقولون: «أخذناه بأمر من إمامنا عبيد الله»، ونرده بأمره وبأمر خليفته^(١). بل لقد عزا عبد القاهر البغدادى إلى عبيد الله أنه أرسل إلى أبى طاهر رسالة مطولة، اطلع البغدادى^(٢) عليها بنفسه، وفيها الثورة على

== وخلفائها، ونادوا كما نادى النزارية من قبلهم (فى أواخر القرن الخامس) بأحقية هذا الامام وسلالته، وظلوا يعملون فى اليمن من سنة ٥٢٦ هـ إلى سنة ٧٩٩ هـ. ولذلك تسمى هذه الفترة فى تاريخ الدعوة الطيبية باسم «الدعوة اليمنية»، وانقسموا بعد ذلك إلى فريقين: فريق بزعامة داود بن عجب شاه فى الهند، ويعرفون بالهادرية، وفريق نادى بزعامة سليمان بن عبد الله، ويعرفون بالصليانية، وهم فى اليمن خاصة ولا يزالون جميعا، داودية وصليانية، يتادون بالامام المستور، ويعرفون جميعاً باسم البهرة.

(١) انظر ص ٢٢٥ من هذا الكتاب.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ - ٢٨١.

المهدي وعلى مبادئه ، وعلى الرسل جميعا . ومع أننا نشك كثيرا في نسبة هذا الكتاب إلى عبيد الله ، ليس لدينا ما يثبت بطلانه . وقد يكون هذا نوعا من الدهاء السياسي الذي عرف به عبيد الله ، فهو يخاطب كل شخص على قدر عقله وإدراكه ؛ وكان هذا القول يلائم ميول أبي طاهر والذين شايعوه من القرامطة : وعلى الجملة ، كان عبيد الله على اتصال دائم ، بأشياعه في اليمن والبحرين ، وكان يتآمر معهم سرا على قتل ابن فضل وأبي سعيد ، ويتدخل في نوع الحكم الذي يتفق مع ميوله وأهوائه في تلك البلاد .

وبما تمتاز به الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي ، اتخاذ حاضرة الدولة مستقرا لرياسة الدعوة ، أو بعبارة أخرى ، اتخاذ هذه الحاضرة دار هجرة للإسماعيلية ؛ فأصبحت المهديّة ، التي حلت محل سلمية ، غاصّة بمدارس الدعوة التي تغذي طائفة الإسماعيلية في كافة أنحاء العالم بالآراء والدعاة الذين مروا على العمل ، وأصبحت دار الهجرة الأولى لجماعات الإسماعيلية . وليس معنى ذلك أن أنصار الإسماعيلية كانوا يقلدون الدولة في اتخاذ حواضر بلادهم دور هجرة ، فإن ابن جوشب ، وكبار قرامطة السواد بعد حمدان قرمط ، وأبا طاهر القرمطي ، كانوا لا يزالون يعتمدون على إقامة دور هجرة يأوي إليها الإسماعيلية إذا حز بهم الأمر ، وينشرون منها آراءهم وجيوشهم . ولكن هذه الدور لم تكن في حواضر بلادهم . فهذا أبو طاهر الجنابي ينشئ المؤمنين ، لتكون دار هجرة ، بالقرب من مدينة الأحساء ، ويظل ابن جوشب في دار هجرته بعدئذ لاعة لنشر الدعوة منها . أما المهدي عبيد الله فيترك دار هجرة الإسماعيلية بفج الأخيار بجبل كتامة ، ويحيل حاضرتة إلى دار هجرة إسماعيلية ، تبث مبادئها في هذا الوقت من القصور الملكية ، والمساجد ، ومن مدارس الدعوة نفسها .

وقد طرأ على الدعوة الإسماعيلية تطور آخر في الناحية المالية ، فبعد أن كانت الأموال في دور النشر من تبرعات محسنين الإسماعيلية ، كما فعل دندان الذي تبرع لعبيد الله القداح بمليون دينار ، ومن الضرائب الوقتية التي فرضها الدعاة على المستجيبين ، عند أخذ العهد عليهم ، ومن سنن ضرائب منظمة فرضها كبار الدعاة على الاتباع ، كما فعل حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي ، اللذان كان لنظامهما المالي البديع أثره في

بقاء جماعة القرامطة ردحا طويلا من الزمن ، أصبحت الدعوة الإسماعيلية في دور ظهور المهدي تأتي من الجزية ، وبما يدفعه المستجيبون بعد سماع مجالس الدعوة ، وهي المحاضرات التي كان يلقيها كبار الدعاة في عقائد المذهب الإسماعيلي . وقد تطور نظام هذه المجالس تطورا مدهشا في عهد الفاطميين بمصر . أضف إلى ذلك أن أشياع المهدي كانوا يرسلون إليه خمس أموالهم ، وهو ما يعرف بخمس الإمام ، أو خمس صاحب الزمان . ولابد أن تكون الدولة الفاطمية قد وقفت بعض الأوقاف للاتفاق على الدعوة ، حتى لا يتطرق إليها الضعف والانحلال . وهكذا حدثت تغييرات شاملة في تنظيم الدعوة وشؤونها ، ولكن هذه الدعوة ظلت تعمل لصالح الأئمة المستورين والظاهرين . ولا غرو فقد كان للجهود الهائلة التي بذلت في تنظيم الدعاية للمذهب الإسماعيلي في دور التكوين ، وهو دور الستر ، ثم في دور الظهور ، أثره في بقاء جماعة الإسماعيلية ، سواء أكانوا من البهرة أم من الأغاخانية إلى اليوم .

٢ — أشهر مبادئ الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي :

للإسماعيلية في عهد عبيد الله ، في ستره وظهوره ، مبادئ كثيرة نتناول منها الكلام على مبدأ الإمامة وبعض نظرياته المختلفة ، لما كان لها من أثر في حياة عبيد الله بوجه خاص والإسماعيلية بوجه عام ، ثم نتناول الكلام على مبدأ الإباحة ، والمناداة بدين عام يتفق ومشارب الجميع .

(١) مبدأ الإمامة في عهد عبيد الله المهدي :

كانت الإمامة السلاح الذي تسليح به العلويون ، منذ فجر تاريخ الشيعة ، لمقاومة الأمويين أولا ، والعباسيين ثانيا . وقد استمر مبدأ الإمامة على قوته ، كما رأينا ، بين الاثنا عشرية والإسماعيلية . وقد ابتدع الإسماعيلية نظريات كثيرة للإمامة ، ترمي في مجموعها إلى تقديس شخص الإمام الإسماعيلي ، مستورا كان أم ظاهرا ،

فوازنوا بين الإمامة والرسالة ، وبحثوا علاقة إحداهما بالأخرى ، كما بحثوا في تعيين الإمام ، وحتموا أن يكون ذلك التعيين بالنص ؛ ثم تناولوا أشخاص الأئمة من الناحية العلمية ، فذهبوا إلى أنهم مصدر المعرفة دون سواهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل نادوا بعصمة الأئمة واستتارهم وظهورهم ، كما بحثوا الاستقرار والاستيداع الإماميين ، وفرقوا بين الإمام المستقر والإمام المستودع ، إلى غير ذلك من النظريات المرتبطة بهذا المبدأ الأساسي ، وهو مبدأ الإمامة .

أولاً : نظرية الإمام والناطق في عهد عبيد الله . كان لرواج الدعوة الإسماعيلية في عهد عبيد الله ، في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، أثره الكبير في محاولة ربط مبادئ المذهب الإسماعيلي وفلسفته ، بالنهضة العلمية التي راجت في ذلك الوقت . ولذلك نرى الإسماعيلية يتدعون نظرية فلسفية جديدة خاصة بالرسول ، أي النطقاء ، والأئمة من سلالة علي بن أبي طالب . وقد تأثر الإسماعيلية بالفلسفة اليونانية التي تقول بمذهب الصدور Emanation Doctrine ، وهو أن الواحد يصدر عن الواحد ، كما يصدر الضوء عن النور ، وأن الباري تعالى خلق العقل الكلي Raison Universelle ، وهذا خلق النفس الكلية Ame Universelle ، وأن الأنبياء - أي النطقاء - حلول للعقل الكلي ، كما أن الأئمة حلول للنفس الكلية . وكذلك كان الإسماعيلية في ذلك العصر يرون أنه لما كان في العالم العلوى عقل كلي ونفس كلية ، وجب أن يكون هناك من يمثلها على الأرض في شخصي الناطق والإمام .

ويعتقد الإسماعيلية أن كلمة الناطق كضوء الشمس ينساب من السماء فيغمر الأرض ، أو كالمطر ينهمل من السماء فيحيي موات الأرض . أما الأساس^(١) ، فهو ترجمان كلمات الرسول ، يتولى شرحها وتأويلها ، وعنه تصدر الحقيقة ، كما يصدر النبات عن الأرض بعد استقبالها ماء المطر . ومن هذا ندرك ، لماذا يعبر الإسماعيلية عن الناطق بكلمة « السماء » ، وعن الأساس بكلمة « الأرض » ، ولهذا يقولون : إن التنزيل خاص بالناطق ، والتأويل خاص بالأساس^(٢) . كما يسمون المذهب

(١) الأساس : هو الإمام الأول الذي يماهر الناطق .

(٢) جويار : عقيدة الإسماعيلية ص ١٨٥ .

الإسماعيلي أحيانا مذهب التأويل الذي وجد لتوضيح التنزيل وشرحه .

وترجع أهمية نظرية النطقاء Prophets والأئمة في تاريخ الإسماعيلية ، إلى ما يعتقدونه من أن محمدا ﷺ ورث عليا النطق ، وأن عليا ورث أبنائه من الأئمة النطق والإمامة معا ، بمعنى أن الإمام الإسماعيلي قد جمع بين الصفتين . وهذا رأى كثير من دعاة الإسماعيلية وعلمائهم . على أن جميع الإسماعيلية ، تقريبا ، يرون أن محمد بن إسماعيل هو الناطق السابع (١) ، وأنه أتى بشريعة جديدة هي شريعة التأويل . ويقول الداعي إدريس عماد الدين (٢) : إن شريعة محمد بن إسماعيل لم تنسخ شريعة محمد ﷺ ، بل توضحها بالشرح والتأويل . وكان لهذه النظرية صداها في العالم الإسماعيلي في دورى الستر والظهور .

والواقع أن هذه النظرية ترمى إلى غرض سياسى خطر ، هو بعث الأمل في نفوس الأتباع ، وجعلهم يعتقدون إمكان ارتقاء الحدود السفلية من حدود المستجيبين ، حتى يصلوا إلى أرقى الحدود وأعلاها درجة : فالدعاة مثلا إذا أخلصوا ، وصلوا إلى رتبة الحجج ، وإذا أخلص هؤلاء الحجج وصلوا إلى رتبة الأئمة ، فالنطقاء فما فوق ذلك . ويفسرون ذلك بأن النفس السكلية التى يمثلها الإمام ، تستطيع أن تصل إلى مرتبة خالقها ، وهو العقل الكلى الذى يمثله الرسول على الأرض ، وذلك راجع إلى دوام حركة النفس السكلية وميلها إلى الرفة والتطلع إلى رتبة العقل السكل ، وأنها بحركاتها هذه تتحد بمصدرها الأصيل (٣) . وهكذا يحرص كل حد ، من حدود الدعوة الإسماعيلية على التمسك بمبادئ المذهب الإسماعيلي ، لأن فى ذلك التمسك رفعة له ، لأنه قد يصل إلى رتبة الداعي فالحجة فالإمام . ولاغرو فقد جنى عبيد الله ثمار هذه النظرية ، واجتمعت فيه رتبتان ، أوجدان من رتب الدعوة وحدودها ، هما رتبة الحجج والإمام . ويرى الإسماعيلية فوق ذلك أن عبيد الله اجتمعت فيه صفتا النبوة والإمامة معا ، فجمع بذلك بين الرتب الثلاث : الحججة ، والإمام ، والناطق ، وهذا أسنى ما يصل إليه الإسماعيلي . ولستنا بصدد تقصى شرح الإسماعيلية

(١) Ikbal : The Development of Metaphysics in Persia, p. 62

(٢) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, vol. v. p. 35

ibid. (٣)

لهذه النظرية ، وإنما نكتفي بأن نقول : إن عبيد الله جنى ثمارها ، حيث وجد مجتمعاً يقدسه ، لجمعه بين صفات الكمال المذهبي كلها ، وتغاييه في الإخلاص لمذهبه وجماعته ، وأنه بهذا الإخلاص يسمو إلى أعلى الدرجات .

وكان من أثر ظهور هذه النظرية أن تغانى جماعات الإسماعيلية في الدفاع عن شخص عبيد الله ، وإقامة دولته . انظر جهود ابن حوشب في اليمن ، وأبي سعيد الجنابي في البحرين ، وما قام به أبو عبد الله الشيعي وأنصاره في المغرب ، تر أن ذلك كله راجع إلى عقيدة الإسماعيلية في إمامة عبيد الله التي اتحدت بالنطاق النبوي أو النبوة أيضاً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه النظرية جعلت جميع المستجيبين بحيث يستسلم كل منهم إلى رئيسه الأعلى ، أو مفيده على حد تعبيرهم (ما وراء خود) ، ويطيعه طاعة عمياء . وبهذا الخضوع ساد المذهب الإسماعيلي والمجتمع الإسماعيلي (١) .

ثانياً : عصمة الإمام عبيد الله . ليس من شك في أن القول بعصمة الإمام أمر معترف به من جميع الإسماعيلية منذ فجر تاريخهم ؛ إنهم يردون على من يقول : إن إسماعيل بن جعفر الصادق شرب الخمر ، بأنه لا جناح عليه ، وأنه فعل ذلك لحكمة لا يدرينا أحد . ولذلك كان من الواجب ألا يعترض إنسان على فعل الأئمة . ويقرر الإسماعيلية فيما بينهم ، أن من يولد إماماً لا يمكنه أن يقترب الجريمة ، وأن شرب الخمر غير محرم على الأئمة ، وأن هؤلاء ليسوا مجبرين على الصوم أو الصلاة أو الحج ، أو غير ذلك ، لأنهم من الخاصة ؛ وأن تكاليف الشريعة مقصورة على العامة وحدهم ، وأنه لا تنطبق أوامر الشرائع الظاهرة على عالم الحقيقة الباطنة المطلقة ، التي ينتهي إليها هؤلاء الأئمة (٢) . ويرى الإسماعيلية ، فوق ذلك ، أن الأئمة قادرون على فسخ أوامر الشرائع السابقة ؛ وغلا بعضهم في ذلك فقالوا : إن الإمام معصوم حتماً ، على حين لا يعصم غيره حتى الأنبياء أنفسهم (٣) . وفي الحق أن عصمة الأئمة عند الفاطميين ، وبخاصة في عهد عبيد الله ، لم تصل إلى تفضيل

(١) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, vol. v. p. 35.

(٢) Ivanow : Kalami Pir, p. xliii

(٣) ابن الوليد : تاج العقائد ومعدن الفوائد (نشره الأستاذ إيفانو) ص ٤٠ .

الأئمة على الأنبياء والرسل ، بل كانوا يفضّلون النبوة والإمامة . ولكن الذى لا نشك فيه ، أن المستجيبين الذين كانت حياتهم مرتبطة بعبيد الله ارتباطا وثيقا ، كانوا يقدرونه ويحترمونه كثيرا ، ولكنهم لم يصلوا به إلى درجة العبادة . أما أولئك الذين كانوا بعيدين عنه ، فقد كانوا أكثر تطرفا في تقديسه ، حتى كانوا يعتقدون عصمته اعتقادا لا يعتوره شك .

أما الغرض السياسى الأول من القول بعصمة الأئمة ، فيتلخص في جعل العامة من الإسماعيلية يخلصون لإمامهم ظاهرا كان أو مستورا . وقد كان لهذه النظرية أثرها في جذب المستجيبين إلى الدعوة وأنصارها ، وخضوعهم لعبيد الله خضوعا أعمى . ويتجلى القول بعصمة الأئمة في تأليف الدعاة المشاركة خاصة كالنسفي والسجزي (٣٣١ هـ) .

ثالثا : نظرية التعليم من عبيد الله . يعتقد الإسماعيلية أن أسرار الشرائع وبواطنها وقف على الأئمة وحدهم ، وأنه لا يمكن معرفة هذه الأسرار إلا عن طريقهم أنفسهم ، أو عن طريق أنصارهم من الدعاة . وقد استغل دعاة الأئمة المستورين في الدور القداحى تلك النظرية في تثبيت نفوذهم ، بدعوى أنهم نواب الأئمة وحججهم . ولا غرو فقد كان نواب الأئمة من بيت القداح ، وعلى رأسهم عبيد الله ، ينادون بالتعليم من الإمام المستور ، أو نوابه ، حتى يستغلوا ذلك لمصلحتهم ، وينالهم من تقديس الأتباع لهم ما يناله الأئمة أنفسهم . ومن ثم يرون أن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستقيم من أمور الدين . (١) .

وكان أول من روج تلك النظرية الخطيرة ، عبد الله بن ميمون القداح . ونستطيع أن ندرك ذلك من مقابلة ابن حوشب للإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ، وكذلك من مقابلة ابن فضل له (٢) (أو لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح) . ويظهر أن القائلين بنظرية التعليم كانوا قوة هائلة ، وأن نظريتهم هذه قد لقيت رواجا كبيرا على مر السنين ، وظهرت حججهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، (٣) .

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٨ .

(٢) انظر ص ٧١ من هذا الكتاب .

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١١٠ .

وكان عبيد الله يستغل نظرية التعليم ويثبثها بين أشياعه ، كابن حوشب ، وأبي طاهر الجنائى وغيرهما ، وأن هذه الرسائل التى تبودلت بين عبيد الله وبينهم تدل على صحة ما ذهبنا إليه . حقيقة راجت نظرية التعليم فى القرنين الخامس والسادس ، حتى خشى الناس ازدياد خطرهما ، فهب العلماء السنيون يقاومونها ، كما نرى ذلك واضحا فى أقوال أبى بكر الباقلانى من علماء القرن الخامس ، والغزالى من علماء القرن السادس الهجرى . ومع هذا فإن أسس نظرية التعليم وضعت فى دور الستة الأول (الدور القداحى) ، وأفاد منها عبيد الله فى ستره وظهوره (١) .

ويخيل إلينا أن عبيد الله وغيره من الأئمة المستورين والأئمة الظاهرين ، لم يريدوا أن يأخذوا علومهم عن أئمة السنيين أو الاثنا عشرية أو المعتزلة أو ما إلى ذلك ؛ فكانوا يقولون لأتباعهم : لا بد من الانقياد للشرع فى تكاليفه ، على التفصيل الذى يفصله الإمام من غير متابعة الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما . وإن ذلك واجب على الخلق والمستجيبين ، إلى أن ينالوا رتبة الكمال فى العلوم . فإذا أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطلعوا على بواطن هذه الظواهر ، انحلت عنهم هذه القيود ، وانحطت عنهم التكاليف العملية ، (٢) .

رابعا : عبيد الله وإمامة الاستيداع . وينفرد جماعة الإسماعيلية بنظرية جديدة من نظريات الإمامة ، تلك هى نظرية الإمام المستودع ، وعلى الرغم من أننا قد تعرضنا

(١) كانت المناظرة حادة بين الإسماعيلية وبين علماء السنيين ، لأن السنيين لا يقرون بنظرية الإمام المصوم ، ولا بنظرية التعليم ، كما يفهمها الإسماعيلية ، ويرمون من يعتقد بهما بالالحاد والكفر . يتضح ذلك من وصف الغزالى مذهب التعليم فى قوله : إنه « مذهب ظاهره الرفض (أى التشيع لعل وأبنائه) ، وباطنه الكفر المخض ، ومفتحه حصر مدارك العلوم فى قول الامام المصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعتريها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الاختلافات ، وإيجاب الطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وأنه (أى الامام) مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهتدى إلى الحق ، ويكشف عن المشكلات ؛ وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام مصوم ، يرجع إليه فيما يستهم من أمور الدين (فضائح الباطنية ص ٧ - ٨) . وليس هذا فقط ، بل يريب الغزالى عليهم قولهم : إن الامام الظاهر « قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل » .

(٢) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٠ .

لهذه النظرية في غير موضع من هذا الكتاب ، نرى من الواجب ألا نوافق القائلين ، بأن نظرية الاستقرار والاستيداع نظرية حديثة ، لم تدخل في المذهب الإسماعيلي إلا في العصور المتأخرة ؛ لأن هذا القول ينقضه مؤلفات جعفر بن منصور اليمنى الذى عاصر المهدي ، والقائم والمنصور ثم المعز ، وجعفر الحاجب الذى شاهد حوادث فرار عبيد الله المهدي ، وتكلم عليها في إسهاب ، كما ينقضه غير هذين من المؤلفين .

ونستطيع أن نرد على الأستاذ إيثانوحين ينفي نظرية الاستيداع في عهد عبيد الله المهدي ، بأن عبيد الله لو صبح أنه من سلاله القداح ، لما أمكن نقل الإمامة إليه ، لأنه من غير سلاله على ، وما رأينا أجنبيا عن هذه الأسرة يستطيع أن ينال شرف الإمامة (١) ، بأنه ليس من الضروري عند الإسماعيلية أن يكون الشخص ابنا حقيقيا لآخر حين يقال فلان بن فلان ، لأن الأب قد يكون أبا روحانيا أو أبا جسمانيا . وبذلك لا يبعد أن يكون عبيد الله الابن الروحاني للإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل ، وبالتالي الأب الروحي للقائم بأمر الله ، الإمام الإسماعيلي المستقر .

أضف إلى هذا ما ذكرناه من قبل ، وهو أن الإسماعيلية يؤولون القرآن تأويلا غير صحيح ، في سبيل إقرار نظريتهم في الاستيداع والاستقرار ، فيقولون : إن الامام المستقر ، والإمام المستودع هما المقصودان من قول الله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين) (٢) ، ومن قوله تعالى : (فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) (٣) . وهذا الشرح لا يتفق مع شرح الآيات شرحا معقولا .

ويجب ألا يعزب عن أذهاننا أن الإسماعيلية كانوا يقصدون من نظرية الاستيداع نفي إمامة معارضيههم ؛ ولذلك حاربوا أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب بهذه النظرية ، بدعوى أن الحسن كان إماما مستودعا ، وأن أخاه الحسين إمام

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, pp. 153—5.

(٢) سورة هود آية ٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٨ .

مستقر . ولذلك كان لنظريتهم هذه أثرها في انضمام فلول الحسينيين ، أتباع الحسن بن علي وأبنائه ، على ما رأينا ، إلى الإسماعيلية في العصر العباسي الأول ثم في العصر الثاني كما حارب الإسماعيلية الأبي هاشمية بتلك النظرية ، فقالوا : إن الحسين استودع أخاه محمد بن الحنفية الإمامة ، لينقلها إلى ابنه علي زين العابدين بن الحسين ، وأن محمد بن الحنفية رد الإمامة إلى مستقرها في حياته . وإذن فإن الهاشميين ، أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، استبدوا بالأمر ، كما أن دعوى العباسيين بأنهم أخذوا الأمر عن أبي هاشم هذا تقوم على غير أساس . وكان الإسماعيلية اتخذوا مبدأ الاستيداع الإمامي لمقاومة الأبي هاشمية والعباسيين معا . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا ، إن الغرض الأساسي من نظرية الاستيداع الإمامي ، هو مقارنة الاثنا عشرية ، وإبطال ادعائهم أن موسى الكاظم نال الإمامة بعد جعفر الصادق ، فإن المعتدلين من الإسماعيلية يقرون بأن موسى الكاظم تولى الإمامة على أثر موت أبيه ، ولكنهم يقولون إن موسى الكاظم كان مع محمد بن إسماعيل كالحسن ابن علي مع أخيه الحسين وأبنائه ؛ فكما أن الحسن كان إماما مستودعا للحسين وأبنائه ، كذلك كان موسى الكاظم مستودعا لإمامة محمد بن إسماعيل وأبنائه (١) .

والواقع أن الإسماعيلية استخدموا نظرية الاستيداع الإمامي ، لمقاومة الاثنا عشرية ، وإبطال حقهم في الإمامة من جهة ، وجذبهم إلى المذهب الإسماعيلي من جهة أخرى ؛ لأنهم أقروا للاثنا عشرية بإمامة موسى الكاظم ، ولكنهم ، في الوقت نفسه ، نفوها عن أبنائه . وقد استغل عبيد الله وأنصاره هذه النظرية أحسن استغلال ، كما يظهر ذلك واضحا من هذا النقاش الطريف الذي قام بين الداعي لإدريس وبين الاثنا عشرية ، والذي يبين مدى استغلال الإسماعيلية نظرية الاستيداع بقولهم : « إن الصادق عليه السلام أقام موسى بن جعفر حجابا على محمد بن إسماعيل ، وعلى من جعله له بابا ، الذي هو ميمون ، الستر عليه والكفيل . وكان موسى دارسا في التأويل والحقيقة ، واجتمع عاياه كثير من الشيعة المخالفين للطريقة ، فقصدهوا الاسم دون المسمى ، وقنعوا باللفظ دون المعنى ، أي أن من

قال بإمامة موسى الكاظم ، لم يفهم حقيقة هذا الاستيداع الإمامي (١) .

خامسا : عبيد الله والتعيين بالنص . يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن عبيد الله وغيره من الأئمة الإسماعيلية ، قد عين كل منهم بالنص من الإمام السابق . وسواء أكان عبيد الله الابن الجسدي للإمام الحسين أم الابن الروحي له ، فقد عين بنص من هذا الإمام الحقيقي المستقر ، وهو الحسين . ويرى الطوسي أن الإمامة أو القدسية ، على حد تعبيره ، تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الميلاد الطبيعي ، فيكون ذلك بمثابة نص من الأب بتعيين ابنه (٢) . وكذلك يرى الإسماعيلية أن الإمام ، بما أوتيته من معرفة خارقة للعادة ، يستطيع أن يعرف أى أبنائه قد ناله النص ، أى انتقلت إليه الإمامة (٣) . كما يرون أن الإمام لا يخطئ في معرفته هذه بحال من الأحوال ، وإلا لما عد إماما ، لأن معارفه مقدسة ، لا يتطرق الخطأ إليها ، وهذا ما جعل الإمامة قوة لا ترد ولا يمكن فسخها ونقضها .

ونستطيع أن نتحقق من أن الإسماعيلية اتخذوا هذه النظرية كسابقتهما لمقاومة الاثنا عشرية ، ليطلقوا إمامة موسى الكاظم أولا ، ويؤكدوا تقليد أخيه الأكبر ، إسماعيل ، بالنص من جعفر الصادق ، كما يقولون ، إن التعيين الأول هو الصحيح ، والنص عليه لا يرجع القهقري ، والبداء (٤) من الله ومن الأئمة بحال . وبهذا تعتبر نظرية تعيين الإمام بالنص ، التي استمسك بها عبيد الله وسواه ، ثورة سياسية خطيرة من الإسماعيلية على الاثنا عشرية .

ويعتقد الإسماعيلية اعتقادا جازما بأن إمامهم إسماعيل وخلفاءه هم الأئمة الحقيقيون ، لأنهم كانوا جميعا يعينون بالنص ، وبخاصة إسماعيل الذي نص عليه أبو جعفر الصادق ، ويعترضون في الوقت نفسه على إمامة موسى الكاظم ، ويقولون ،

(١) الداعي عماد الدين إدريس : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٥٢ .

(٢) روضة التسليم ص ٥٣٩ (من المجلة الآسيوية الملكية سنة ١٩٣١) .

(٣) ورد في كتاب كلامي بير (ص ٧٦) أن الإمام يعين ابنه تعيينا مباشرا ، أى بالنص ، وأن ذلك النص قد يكون تصريحاً أو تليفا . ولذلك كان من الضروري أن يعين الإمام أحد أبنائه خليفة له ، أو يعلن أن فلانا سيصبح إماما بعده .

(٤) البداء : من بدله إذا راجع نفسه ، ثم نقص قوله .

إنه لو كان موسى إماما مستقرا حقا ، لما انقطع نسله بالحسن العسكري وابنه محمد المنتظر ، على عكس الإمامة الإسماعيلية ، فإنها باقية ما بقي الدهر ، وأنه لا بد من وجود إمام إسماعيلي ، ظاهر أو مستور ، حتى لا تخلو الأرض لحظة من إمام ، وإلا ماتت بأهلها (١).

سادسا : استمرار الإمامة مدى الدهر . يعتقد الإسماعيلية ، في عهد عبيد الله المهدي وبعده ، استمرار الإمامة إلى آخر الدهر ؛ ولذلك وضعوا أحاديث كثيرة ، يثبتون فيها نظرية استمرار الإمامة ، فيقولون : إن السكون لا يستطيع البقاء لحظة بدون إمام ، وإنه لو فقد السكون إمامه لحظة واحدة لذهب وتبدد . وكان من أثر ذلك أن ظل الإسماعيلية يعتقدون إلى اليوم بقاء الإمامة في أحد سلالة الإمام الطيب ابن الأمر (وهؤلاء هم البهرة) ، الذين يترقبون الفرصة المواتية لظهوره ، لينشر دين التوحيد والعدل بين الخلق . ويعتقد جماعة من الإسماعيلية في الوقت نفسه (وهم الخوجات أو الأغاخانية) ، بقاء الإمامة في زعيمهم سمو أغاخان . وهم جميعا بهرية كانوا أو أغاخانية يؤمنون بأن إمامتهم باقية ما بقي الدهر ، وإلا ماتت الأرض بأهلها . ومما يوضح عقيدتهم في استمرار الإمامة ، قول جعفر بن منصور النين : « فالإمامة لا تتغير جاريا أبدا مع مرور الدهر ؛ فالأئمة ينتقلون ويصيرون إلى دار كرامته ومحل رضوانه ، بغيبة أشخاصهم ، وقيام الخلف منهم في مقام السلف باتصاله بالإمامة ، لأن الإمامة تنتقل ولا تزول ، وإنما الأئمة ، صلوات الله عليهم ، يتوارثون بالاتصال والاتصال ، خلفا عن سلف ، كما أن عرش الله حال لا يزول (٢) » .

سابعا : الستر والظهور . من نظريات الإسماعيلية المحببة إليهم ، نظريتا الستر والظهور ، وقد تسكلمنا عليهما . ويهمننا هنا أن نقول ، إن عبيد الله من الأئمة الذين نالوا صفتي الستر والظهور معا ، وإنه نجح في الأمرين نجاحا يذكر ؛ فكان في ستره يعتمد على جماعة يوغلون مثله في التخفي ، ويتفننون تفننا يقيمهم عادية «الأضداد» ،

(١) كلامي بير ص ٤٢ .

(٢) الداعي عماد الدين إدريس : زهر المعاني (من المنتخب) ص ٥٢ .

فتراهم تارة تجارا ، وأخرى من المتصوفين ، وثالثة يتزيفون بزي النساء . وليس هذا كل شيء ، بل استغل عبيد الله ، كغيره من أئمة الاستتار ، فرصة هذا الستر ، وملاّ الجو إشاعات تؤكد قرب ظهور المهدي المنتظر ، فاندفع الناس إلى طائفة الإسماعيلية اندفاعا أدى إلى قيام الدولة الفاطمية . والواقع أن الإسماعيلية كانوا ينشرون أن إمامهم حي يتحين الفرصة للظهور ، وأنه يعمل في الخفاء ، ولو تكاتف الاتباع حوله ، وأقاموا له دولته ، لظهر بينهم ، وملئهم الأرض جميعا . وكان لهذا القول صدى في قلوب الناس ، وخاصة الاثنا عشرية ، الذين ملوا انتظار إمامهم ومهديهم . وبذلك كان الستر وسيلة استغلال من هذه الناحية ؛ كما كان الحجب وكبار دعاة الإسماعيلية يستغلون استتار الأئمة ، ويعملون على تقوية نفوذهم باسم هؤلاء . وهذا ما حدا بعض المؤرخين على القول بأن أبناء القداح ، ومنهم سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح ، وهو المهدي ، قد استغلوا ذلك . وأصبح نفوذهم يفوق نفوذ الأئمة أنفسهم . وإن نظرية الستر وبعث الأمل بظهور المهدي ، قد راجت رواجاً كبيراً بين الشعوب التي اضطهدتها العباسيون ، فولوا وجوههم شطر المنقذ الإسماعيلي وأنصاره من الحجب والدعاة .

وهاك صورة من صور التخفي ، التي كان الأئمة والحجب والدعاة من الإسماعيلية يلجئون إليها ، قال الداعي إدريس : « كان لشدة استتار الإمام ، عليه السلام ، إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعا وطاعة لولي العصر . ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح في العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ، ولا يكشف له اسم إمامه ، ولا يبينه بإشارة ولا عبارة في كلامه ، إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى ، (١) . ويقول الداعي إدريس في موضع آخر : « فن أخذ العهد على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضي الوهم إليه »

(١) زهر الماني (من المنتخب) ص ٥٩ .

سترًا على صاحب الأمر ، وجرت بذلك السنة والقضية في الأئمة المستورين الثلاثة (١) . فمن ذلك أن الدعاة في أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ، ما اتفق منها في ذلك اثنان ، (٢) . وهذا يفسر لنا اختلاف أسماء الأئمة أحيانًا ، وخطأها بأسماء حججهم من أبناء القداح أحيانًا أخرى .

ولا يقل الظهور عند الإسماعيلية شأنًا عن الستر ؛ ولذلك استمر تقديسهم لعبيد الله المهدي بعد قيام الدولة الفاطمية . إلا أن دعاة الإسماعيلية في عهد عبید الله كانوا نشيطين في دور ستره ، خاملين نوعًا ما في دور ظهوره (٣) . وهذا القول ينطبق على دعائه المقربين إليه ؛ أما دعائه الذين عاشوا بعيدًا عنه كأبي طاهر الجنابي (٣٣٢ هـ) ، والنسفي (٣٣١ هـ) ، والسجزي (٣٣١ هـ) وغيرهم ، فكانوا على شيء كبير من الحرية والاستقلال في الرأي ، ولو أن عبید الله كان يعمل دائمًا على إشعارهم بقوة شخصيته ووجوده .

وعلى الجملة فهذه أهم نظريات الإسماعيلية ، وخاصة في عهد عبید الله ، في الإمامة .

أما تاريخ الدعوة القديمة ، فقد مر في ثلاثة أدوار ، يسمى الدور الأول منها دور التكوين أو دور الستر ، وينتهي هذا الدور بقيام الدولة الفاطمية . وأما الدور الثاني ، فيعرف بدور الظهور ، وفيه أصبح الأئمة خلفاء ، وبدأ بقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ ، وينتهي باختفاء الإمامة في شخص الإمام الطيب بن الأمر سنة ٥٢٦ هـ . ومن ثم يبدأ الدور الثالث من أدوار الدعوة القديمة ؛ وهناك جماعة

(١) يقصد هؤلاء : الإمام عبد الله الأكبر ابن محمد بن إسماعيل ، والإمام أحمد بن عبد الله ثم

الحسين بن أحمد .

(٢) Dozy : Esaii sur l'Histoire de l'Islamisme, p. 261. (٢)

(٣) ويجدر بنا أن نوضح في كلمة عاجلة أدوار الستر وأدوار الظهور في تاريخ الإسماعيلية . الواقع أن تاريخ الإسماعيلية يبدأ ببداية الدولة العباسية ، ولكنه لا يزال يعاير تاريخ الإسلام حتى اليوم . وقد مر تاريخ الإسماعيلية ، بوجه عام ، في شكلين سياسيين أساسيين هما : الدعوة القديمة (منذ ظهور المذهب الإسماعيلي حتى اليوم) ، وأنصار هذه الدعوة في تلك الأيام هم البهرة ؛ والدعوة الجديدة (منذ وفاة المصنصر حتى اليوم) ، ويمثلها حديثًا جماعة الخوارج .

يعرفون باسم الطيية ، وينادى هؤلاء بإمامة الطيب ثم أبنائه من بعده ، ويعرفون باسم البهرة .

أما الدعوة الجديدة فقد مرت في أدوار أربعة ، يعرف أولها بدور الستر الأول (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) . وكان دعاة النزارية يدعون فيه لإمام مستور من أبناء نزار ابن المستنصر ؛ ويبدأ الدور الثاني بادعاء الحسن الثاني (٥٦١ هـ) أنه حفيد الإمام نزار بن المستنصر ، ومن ثم يستمر دور الظهور بين النزارية حتى يبيدهم هولاء ، ويقتل آخر ملوكهم في سنة ٦٥٥ هـ . ومن هذا الوقت يبدأ الدور الثالث ، وهو دور اختفاء أئمة النزارية أو دور الاختفاء الثاني ، وينتهي بظهور أغاخان محمد حسين . ويستمر الدور الرابع ، وهو دور الظهور الثاني ، حتى اليوم ، وتشتمل فيه الإمامة الإسماعيلية النزارية في شخص أغاخان ، الذي يعتقد أنصاره اعتقاداً جازماً أنه من سلالة علي وفاطمة ، ويغنون في حبه وتقديسه .

(ب) الدعوة العامة للجميع :

وضع مؤسسو المذهب الإسماعيلي مبدأ الدعوة لمذهب عام يتفق مع مشارب الجميع . وكان عبد الله بن ميمون أول من وضع تلك الأسس ، وسار على هديها أبنائه من بعده مع الأئمة المستورين المعاصرين لهم . ومن ثم وجد الزرادشتية والمناوية والمزدكية والصابئة ، واليهود والمسيحيون والشيعة والسنيون وغيرهم في المذهب الإسماعيلي كل ما تصبو نفوسهم إليه . وقد قلد الإسماعيلية في ذلك جماعة العيسوية الأصفهانية اليهودية ، التي كانت تنادى بصحة نبوة موسى ومحمد . وكان الإسماعيلية يقولون للزرادشتي : إن نبيه زرادشت كان على حق ، وإن مبادئه على حق كذلك ؛ كما كانوا يقولون إن زرادشت نفسه هو علي بن أبي طالب ، وبعبارة أخرى الإمام المستور . وكذلك كانوا يقولون مثل ذلك لمعتنقي الأديان الأخرى : فعلى بن أبي طالب ثم عبيد الله هو نفسه حلول زرادشت وماني ومزدك ، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، وعلى أيضا . يقولون بهذا لجميع أنصار المذهب الإسماعيلي ومعتنقي الأديان المختلفة . وقد نما إخوان الصفا في ذلك منحى الإسماعيلية الأوائل .

فجعلوا يحثون الإخوان على عدم الغرض من شأن مذاهب الآخرين أو احتقار مؤلفاتهم ، وينهونهم عن الغلو المذهبي .

وفي أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع انتشرت فكرة التعميم ، وهو الاتجاه إلى المسائل العامة التي تلائم أفكار الناس ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . ومن ثم لجئوا إلى فكرة التأويل والباطن ، بمعنى أنهم كانوا يؤولون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما ورد في الكتب السماوية الأخرى وغيرها ، بما يتفق مع ميول معتنقي هذه الأديان والمذاهب . وإذن فإن دعوة الإسماعيلية إلى مذهب عام ، لم تكن إلا صدى للحالة السائدة في عصرهم ؛ ولذلك عملوا على جذب الفيلسوف والمعتزلي والمتصوف وغيرهم إلى صفوفهم ، كما عملوا على أن تكون تعاليمهم متفقة مع تعاليم هؤلاء وأولئك .

ومن ثم نرى علماء الإسماعيلية يتعمقون في دراسة المذاهب والأديان الأخرى ؛ فكانوا يدرسون التوراة والإنجيل والفلسفة والتصوف ومذاهب المجوس ، ومبادئ الفرق الإسلامية الأخرى ، ليلائموا بذلك بين عقائد المذهب الإسماعيلي وعقائد المذاهب الأخرى . ومن ثم نرى الداعي النسفي (٣٣١ هـ) ، والداعي السجزي (٣٣١ هـ) في عهد عبيد الله ، وحيد الدين الكرمانى في عهد الحاكم ، وعبد الله بن ميمون نفسه قبل ذلك ، ملين إماما تاما بالتوراة والإنجيل وعقائد المذاهب الأخرى . ولا غرو فقد استمر الإسماعيلية منذ عهد عبيد الله المهدي (بل قبله) حتى اليوم ، على هذه السياسة ؛ فترى كتب الدرزية تشيد باليهودية والمسيحية وغيرهما ، كما نرى تزارية الشام يتحدثون مع مبشرى الصليبيين ، ويعملون على جذبهم للمذهب الإسماعيلي ، بدعوى أن عيسى بن مريم هو علي ، وأنه هو إمامهم الإسماعيلي . ولم نذهب بعيدا ؟ ألم يعمل الإسماعيلية على جذب اليمنيين إلى مذهبهم ، فقالوا لهم : إن الدين يمانى ، والحكمة يمانية ، وكل شيء يخرج من اليمن ؟ ألم يقولوا لهم : إن المهدي سيظهر من اليمن على يد المنصور (أى ابن حوشب) ؛ فلما لم تلائمهم الظروف ولم تتحقق نبوءتهم قالوا : ستخرج الشمس من مغربها ، مما جعل أبا عبد الله الشيعي وأنصاره يستميتون في حرب الأغالبة ، حتى أقاموا الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ .

كذلك نرى جماعة الدرزية يعتقدون في رسالتهم « السفر إلى السادة » ، أن دين الدرزية أودين التوحيد على حد تعبيرهم ، سيسود العالم ، ويجمع بين دفتيه الأديان الأخرى والمذاهب والفرق المختلفة . كما كان الإسماعيلية يأتون بالأحاديث التي تؤيد هذا الاتجاه ، فيروون عن محمد الباقر بن علي زين العابدين أنه قال : « إذا قام قائمنا أهل البيت ، قسّم بالسوية ، وعدل في خلق الرحمن ، البر منهم والفاجر منهم . من أطاعه أطاع الله ، ومن عصاه عصاه الله . ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية ، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل القرآن بقرآنهم » (١) . وهكذا كان المذهب الإسماعيلي ، كما يقول ميور (٢) ، محاولة يقصد بها جمع الأديان في دين عام يسمى الدين السابع أو دين محمد بن إسماعيل .

وقد أثارت هذه الحركة مخاوف العلماء السنيين ، فوقفوا للإسماعيلية بالمرصاد يعيبون عليهم طريقتهم . يتضح ذلك بجملة فيما ورد في أبحاث ابن رزام وعبد الجبار والباقلاني ، ثم فيما ذكره الغزالي وابن تيمية وغيرهم . وبعبارة أخرى ، كانت هذه الفكرة الجامعة الشاملة تجد طريقها معبدا بين قلوب القرامطة ، وكان يناصرها عبيد الله المهدي ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . ومن ثم نراهم يقربون إليهم اليهود والنصارى ، ويتخذون منهم الوزراء ، ويسرفون في التسامح الديني ، حتى آلمت هذه السياسة الرعايا السنيين . وفي الحق أن هذه الدعوة الشاملة كانت تعتبر في نظر الإسماعيلية قاطبة في كل زمان ومكان حركة إصلاح شامل . ومن هنا يتضح التشابه الكبير بين الإسماعيلية والبهائية الذين يقولون بصحة الأديان جميعا ، ويدعون للتوفيق بينها . ويجد هؤلاء البهائية اليوم من المعارضة والمقاومة ما كان يجده الإسماعيلية وخصوصا بين القرامطة (٣) .

(١) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ١٢٤ .

(٢) Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and

Fall, p. 558.

(٣) Arnold : The Preaching of Islam, p. 212.

(ح) الاشتراكية:

من أهم التهم التي يوجهها السنيون للإسماعيلية ، أنهم اشتراكيون ، ينادون بالإباحة في المال والنساء . وقد رأينا كيف استغل المتشيعون ، الذين تشيعوا تشيعاً قبيحاً ، آراء المزدكية في أواخر الدولة الأموية ، وعملوا على نشرها بين المسلمين ؛ حتى إن نظام الملك وغيره عزوا ذلك إلى تأثير « خُرَّما » امرأة مزدك ، وقالوا : إن عماراً بن بديل المعروف بخدّاش ، وكان أحد كبار دعاة العباسيين في فارس ، كان ممن يؤمنون بمبادئ « خُرَّما » زوجة مزدك في الاشتراكية ، وأن قتله لم يضع حداً لهذه الآراء الخطرة . بل لقد لقيت هذه الاشتراكية رواجاً بين الفاطميين ، أتباع فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني وابنها فيروز ، وبين غيرهم من فرق الأبي مسلمية ، أتباع أبي مسلم نفسه ، الذي رمى بنفس التهمة ، وهي اعتقاد المذهب المزدكي الاشتراكي . ولم تكن ثورة سُنبّاذ المجوسي ، والمقنع الخراساني من بعده ، إلا تشجيعاً لنشر مبادئ الاشتراكية المزدكية المجوسية بين الناس . وإن كان العلماء يسمون أتباع خرما بالخرمية أو الخرمدينية الأوائل ، فإنهم يطلقون على أتباع بابك الخرمي ، الخرمية أو الخرمدينية الأواخر ، ويقولون عن بابك هذا ، إنه أحد أحفاد أبي مسلم الخراساني . وقد ذهب نظام الملك ، وكثير من العلماء إلى القول بأن آراء المزدكية الاشتراكية ، التي كانت منتشرة بين الفرس في أواخر العصر الساساني ، والتي وجدت طريقها بين صفوف المسلمين في صدر الإسلام ، تركت واستقرت في العصر العباسي الأول ، ثم في العصر الثاني بين الإسماعيلية أنفسهم ، خاصة بين القرامطة منهم . وعلى الرغم من أن نظام الملك كان متحاملاً على هذا المذهب تحاملاً شديداً ، حتى إنه غلا في الرد على أنصاره ، وخرج في كثير من الأحيان عن الحد الذي ينبغي أن لا يتجاوزه العالم المدقق ؛ تكاد الأدلة تثبت صحة ما ذهب إليه ، إن لم يكن كله ، فبعضه على الأقل فيما يتعلق بالقرامطة (١) .

ونكتفي هنا بذكر أمثلة قليلة نقيين منها صحة هذه الدعوى ، وهي انتشار مبدأ الاشتراكية بين الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي .

(١) انظر ص ٦٤ من هذا الكتاب .

وخير مثل لذلك اشتراكية حمدان قرمط ، الذي يعتبر بحق حجر الزاوية للمذهب الإسماعيلي عند القرامطة ؛ فقد سن لأتباعه ضرائب مختلفة متدرجة ، انتهت بوضع مالية جماعته بين يديه^(١) ، وتوزيعها على الجميع في عدل تام . وبهذه السياسة الاشتراكية استطاع حمدان أن يكون جماعة متحمسة ليس بينها فقير ، كما استطاع بفضل اشتراكية المال هذه ، أن يعد العدة لنضال عنيف مع العباسيين ؛ فاشترى السلاح الكثير بالمال الذي وضعه بين يديه ، وبني دار هجرة كانت تضارع المدن الكبيرة ، « وأقام الدعاة في كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها يجمع عنده أموال أهل قريته ، من بقر وغنم ، وحلى ومتاع وغيره . وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيرا بينهم ولا محتاجا ولا ضعيفا ؛ وأخذ كل رجل منهم بالانكماش والمكسب جهده ، فيكون له الفضل في رتبته ؛ وجمعت المرأة كسبها من مغزها ، والصبي أجرة نظارته للطير ، وأتوه بها ، فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه »^(٢) .

وبهذه الطريقة الفذة استطاع حمدان قرمط ، في عهد حجابة عبيد الله المهدي ، أن يكون جماعة متحدة في الآمال والشعور ، لا هم لأحد منهم إلا أن يحمل سيفه للذود عن حياض جماعته . وهكذا تكونت جماعة حربية قرمطية ، تخضع خضوعا

(١) كانت أولى هذه الضرائب « ضريبة الفطرة » ، وهي الضريبة الواجبة على كل فرد من القرامطة ، ومقدارها درهم واحد . أما الضريبة الثانية فهي ضريبة « الهجرة » ، ومقدارها دينار واحد ، يدفعه المستجيب لرئيسه المباشر ؛ وسميت بذلك لانفاقها على المهاجرين من الإسماعيلية في إقامة دور هجرة هؤلاء القرامطة . ثم فرض حمدان قرمط ضريبة ثالثة تعرف بضريبة « البلغة » ، وهي ما يُستبلغ به ، ويتقرب إلى الله ، ومقدارها سبعة دنانير على كل فرد : « فكان ينفذ إلى كل داع مائة بُلغة » (وهي طعام على قدر البنادق) ، ويطلبه بمسبحة دينار لكل واحد منها سبعة دنانير ، (المقرئ : انماظ الخنفا ص ١٤) . أما الضريبة الرابعة فهي ضريبة « الخمس » ، وهي أن يدفع كل مستجيب خمس ما يملك وما يتكسب . وتعتبر ضريبة الألفه آخر هذه الضرائب ، وسميت بذلك لأنها تؤلف بين قلوب الجميع ، على ما يعتقدون ؛ وهي أن يدفع كل إسماعيلي جميع ما يملك إلى رئيس دعوته . وقد عرفهم حمدان ، أن لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ؛ لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم ، وقال لهم : هذه محتكم التي امتحنتم بها . . . وطلبهم بشراء السلاح وإعداده . . . النويري (نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٥٨) .

(٢) النويري : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ورقة ٥٨ .

أعني لرؤسائها الدينيين ؛ لأنهم اعتقدوا أنهم بعملهم هذا سيكونون « دولة الله » ، وأنهم وحدهم هم « المؤمنون » ، وأن الأرض جميعا ستكون لهم . وهذا خير رد على من ينفي اشتراكية القرامطة المالية^(١) . وقد ذهب بعض^(٢) إلى القول بأن ما قام به حمدان قرمط في عهد عبيد الله من الاشتراكية المالية ، إنما كان حركة إصلاح هائلة ، ترمي إلى إيجاد عصر إصلاحى شامل ورخاء عام . وإذا صح ما عزي إلى حمدان قرمط ، دل على أن الاشتراكية كانت من مبادئ الإسماعيلية وقتئذ ، وإلا لعد حمدان قرمط نائرا عليهم . ومهما يكن من شيء ، فقد نجحت الاشتراكية على يد حمدان نجاحا منقطع النظير ؛ لأنه نشرها بين الجماعات الفقيرة من النبطيين ، وبين فقراء السواد^(٣) ، والأعراب وسواهم .

كما تعتبر اشتراكية أبي سعيد الجنابي مثالا حيا لانتشار ذلك المبدأ بين الإسماعيلية في عهد عبيد الله ؛ فقد نجح هذا الداعي كما نجح أستاذه حمدان ، في نشر الاشتراكية المالية بين أتباعه . وقد نشر أبو سعيد الاشتراكية في نظام المجتمع القرمطي نفسه ؛ فوضع مالية جماعته بين يديه ، وأخذ يوزعها عليهم ، بحيث لا يأخذ أحدهم إلا ما يعينه له . وهكذا « قبض على كل مال البلد ، والثمار والخنطة والشعير » . وبفضل اشتراكية أبي سعيد المالية ، استطاع أن يعكف على تعمير البلاد وإصلاح الزراعة . ولا غرو فقد جعلت حكومته تنفق على الرعايا ، وتوزع عليهم الاقوات والملابس ، وتعين لهم نوع العمل الذي يزاوله كل منهم ، إلى غير ذلك . ولهذا عمل أبو سعيد على « إصلاح أراضى المزارع ، وأصول النخل وعمارته ونصب الأمان على ذلك ، وإقامه العرفاء^(٤) . . . حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة

(١) ينفي دى فويه . (Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii, p.30)

اشتراكية القرامطة ، وبخاصة الاجتماعية منها ، لكنه يقول : إنها كانت موجودة على الأقل عند القرامطة الأوائل ، لأنها تنفق مع « دولة الله » ، التي كان حمدان قرمط ينشدها ويسمى إل إيجادها ، كما تلائم النظرية الإسماعيلية القائلة بأن جميع الأرض ستكون ملكا للمؤمنين أى القرامطة .

(٢) ماسنيو : عجب تامه ص ٣٢٩ .

(٣) أى سواد السكوة ، وهى الأرض الزراعية بأقليم الكوفة .

(٤) جمع عريف وهو من يكون على النفير ، والنفير عدة رجال من ٣ إلى ١٠ .

كانت تذبح ، ويسلم اللحم إلى العرفاء ، ليفرقوه على من يرسم لهم . ويدفع الرأس .
والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ؛ ويجز الصوف والشعر من الغنم ، ويفرق
على من يغزله . ثم يدفع إلى من ينسجه عيبا وأكسية وغرائر وجوالقات^(١) ، وتقتل
منه حبال ، ويسلم الجلد إلى الدباغ ؛ فإذا خرج من الدباغ سلم إلى خرازي القرب
والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا عمل منه . ثم يجمع ذلك
كله إلى خزان ، فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه^(٢) .

فهذه اشتراكية عامة ، لا في المال وحده ، بل في نظام العمل والمجتمع كذلك .
ولذلك نرى حكومة القرامطة تدفع للصناع ثمن آلاتهم ، وتعينهم على القيام بعملهم ،
كما كان إصلاح المنازل والأعمال العامة من واجب الحكومة لا الأفراد ؛ فإذا آل
منزل إلى السقوط ، أصلحته الدولة على أيدي رجالها وعبيدها ، من غير أن تأخذ مالا
من صاحب المنزل ، كما أن طحن القمح والشعير كان من عمل الدولة ، إذ كان الناس
يطحنون حبوبهم من غير أجر^(٣) .

وتتضح الاشتراكية الاجتماعية عند قرامطة الشمال ، وهم أتباع زكرويه بن
مهرويه وأبنائه . فقد كان هؤلاء القرامطة يبيعون لأنفسهم أن تتزوج المرأة أكثر
من واحد ، حتى إنهم لم يعقدوا عقود الزواج على النحو الذي يعقدها به المسلمون .
وقد أفاضت المراجع السنوية خاصة في ذكر حوادث تؤيد هذه الحقيقة ، فذكرت
حادثة المرأة الهاشمية التي تزوجها بضعة رجال ، وأنجبت مولودا لم تعرف لمن تنسبه .
ولنترك هذه الأم تحدثنا عن نفسها وعن ابنها فتقول : « أنا امرأة هاشمية ، أخذنا
هؤلاء القوم فذبحوا أبي وأهلي جميعا ، وأخذني صاحبهم فأقمت عنده خمسة أيام ،
ثم أمر بقتلي ؛ فطلبني منه أربعة أنفس من قواده ، فوهبني لهم ، وكنت معهم ، فوالله
ما أدري لمن هذا الولد^(٤) » . ومن الغريب أن هؤلاء القرامطة كانوا يعتقدون أنهم

(١) الغرائر والجوالقات شيء واحد ، وهو العدل من الصوف أو الشعر .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧٤ .

(٣) الدكتور طه شرف : تاريخ الاسماعيلية الصياصى ج ١ ورقة ٢٧٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ .

على صواب ، وأن غيرهم على ضلال ، ويعتقدون كذلك أن تركهم الإسلام ، على المذاهب السنية ، واعتناقهم المذهب الإسماعيلي نعمة كبرى ، حتى كانوا يقولون : « ما كنا فيه باطل ، والدين ما نحن فيه اليوم »^(١) .

ولا تقل اشتراكية ابن فضل ، أحد داعيي اليمن (هو وابن حوشب) في عهد عبيد الله ، عن غيرها ؛ حتى إن المراجع الإسماعيلية والسنية تكاد تجمع على خروج هذا الداعى على الشريعة الإسلامية والمذهب الإسماعيلي ؛ فإنه لم يكتف بالاشتراكية الاجتماعية ، ومناداته بالإباحة ، بل نادى بالالوهية . ومهما يكن من شيء ، فإن ابن فضل طلب من أشياعه التحرر من أوامر الشريعة ، فلا صلاة ولا صوم ولا حج ؛ ونادى في الوقت نفسه بإباحة تزوج المرأة من محارمها ، وطلب إلى نساء عصره أن يكن ملكا للجميع . أليست هناك اشتراكية سافرة تتجلى في قوله مخاطبا إياهن ؟

يقول الجندى في كتابه السلوك : إن ابن فضل هذا « صعد المنبر ، وأنشد هذه الأبيات وهي :

خذى الدف يا هذه والعبي	وغنى هزاريك ^(٢) ثم اطرى
تولى نبي بنى هاشم	وهذا نبي بنى يعرب ^(٣)
لكل نبي مضى شرعة	وهذى شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهض	وإن صوموا فنكلى واشرب
ولا تطلبي السعى عند الضفا	ولا زودة القبر في يثرب
ولا تمنعى نفسك المؤمنين	من الأقربين مع الأجنبي
فلما ذا حلت لهذا الغريب	وصرت محرمة للأب ^(٤) ؟

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ .

(٢) هزار : العندليب .

(٣) نبي بنى هاشم هو الرسول ، ونبي يعرب هو على بن فضل عديم .

(٤) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ص ١٤٤ .

ويقول الداعي النعمان المغربي في علي بن الفضل : «إنه استحل المحارم ، ورفض الظاهر» (١) ، ودعا الناس إلى الإباحات (٢) .

(٥) الحلول (٣) :

ويقصد به حلول الله في البشر ، وهو من أهم مبادئ الإسماعيلية ، التي راجت بينهم منذ ظهورهم . وقد تطور تطورات مختلفة على مر الزمن ، ونجح عبد الله ابن سبأ في بث هذا المبدأ ذي الخطر في تأليه علي بن أبي طالب . ومن ثم وجدت نظريات هذا المبدأ طريقها إلى قلوب المتشيعين ، حتى استقرت في جماعة الخطابية أتباع أبي الخطاب ، وهم البذرة التي نبت منها المذهب الإسماعيلي ؛ فألهوا جعفر الصادق ، وصلوا له وصاموا ، واستمر أتباعهم على هذا الغلو . ولا نستطيع أن ننفي هذا المبدأ عن الإسماعيلية ، برغم تبرؤ جعفر الصادق وبعض الخلفاء الفاطميين من القائلين به ؛ لأن هذا المبدأ يعد من أصول المذهب الإسماعيلي ومقوماته . فهم يعتقدون - كما رأينا - في العقل السكلي والنفس السككية ، وإمكان انتقال كل منهما في البشر ؛ كما يعتقدون أن كلا منهما ليس بشرا بالطبع ، بل إن العقل السكلي إله استطاع أن يخلق النفس السككية التي تستطيع بدورها أن تسيطر على قوة الخلق والإبداع . كما يعتقدون أن الأنبياء أو النطقاء - على حد تعبيرهم - حلول العقل السكلي ، وأن الأئمة الإسماعيلية حلول النفس السككية والعقل السكلي معا . ومن ثم كان الحلول فيهم مزدوجا . لذلك لا نعجب إذا اعتقد الإسماعيلية تأليه هؤلاء الأئمة وتقديسهم ، لأنهم حلول الإله الذي يتمثل في العقل السكلي ، والإله الذي يتمثل في النفس السككية .

وقد رمى عبيد الله المهدي بأنه كان يؤمن بهذه العقيدة ، وأنه سمع مدح بعض الشعراء له بهذا المبدأ ، وأنه لم يعترض عليه . وقد رأينا كيف أن ابن عذارى - وهو سني مغال - يقول : «إن الشعراء مدحوه بالكفر فاستجاره ، وإنه قيل فيه حين دخل رقادة ، حاضرة الأغالبة :

حلّ برقادة المسيح حل بها آدم ونوح

(١) أي كأنه نادى بالباطن وهو جوهر المذهب الإسماعيلي .

(٢) افتتاح الدعوة الزاهرة ص ٤٠ .

(٣) The Incarnation.

حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ربح

وكذلك قيل إن عبيد الله المهدي قد رمى بادعاء الغيب وغيره . إلا أننا نشك كثيرا في صحة ذلك كله ، لأنه لم يكن من البله حتى يدعى الصفات التي لا تكون إلا لله سبحانه ، ويشير بذلك حنق رعاياه السنيين ، فيقوموا في وجهه ويخلعوه . والذي نستطيع أن نذهب إليه أن هذه المذاهب الغالية لم يكن من اليسير أن يقوموا بنشرها بين رعاياهم ، ولكنها كانت رائجة بين أنصار المذهب أنفسهم ، الذين ارتقوا إلى درجات الدعوة الإسماعيلية العليا ، والذين كانت تؤهلهم ثقافتهم المذهبية إلى فهم النظريات المختلفة في الحلول والتجرد من العقائد السنية . ونحن لا نستبعد رواج مثل تلك المبادئ الغالية في ذلك الزمن ؛ فقد نادى بالحلول أشياخ الحلّاج (٣٠٩ هـ) ، وكان معاصرا لعبيد الله المهدي ، كما نادى بها أشياخ الشلغاني (٣٢٠ هـ) . ونحن نعلم أنهم رموا الحلّاج بأنه إسماعيلي قرمطي ؛ فدعوى التآليه كانت بدعة رائجة في ذلك الوقت ، لكن عبيد الله المهدي كان من الحنكة السياسية بحيث امتنع عن الظهور بها أمام رعاياه السنيين ، ليضمن ولائهم له . أضف إلى ذلك أن عبيد الله لم يكن إلا حجة من حجج الأئمة الإسماعيلية ، بمعنى أن الإمامة انتقلت إليه على طريقة الاستيداع ، وأنه لم يكن في نظر أنصار المذهب أنفسهم العالمين بأصول مبادئ التآليه الإمامي ، سوى شخص ممتاز لا إله . وقد يتضح ذلك من آراء الدرزية الإسماعيلية فيه وفي الخليفة « القائم » ، الذي يصفونه بالالوهية السكاملة ، ويجردون عبيد الله من كل صفات التآليه (١) .

ولم يكن بدعا إذن أن ينتشر هذا المذهب ذو الخطر ، وهو الحلّول ، بين أشياخ المذهب الإسماعيلي . ويتضح ذلك من دعوى ابن فضل الالوهية ؛ فإنه لم يكتف بنشر مبادئ الإباحة والاشتراكية ، بل نادى بالالوهية . وكان يخاطب أتباعه بقوله : « من رب العزة فلان ، إلى عبده فلان ، وتسمى رب العالمين (٢) » ، وتسمى

(١) انظر كتاب النقط والدوائر ص ٧٥ ، حيث نرى الدرزية يقولون : إن القائم هو الله تعالى ،

ولا يقولون ذلك عن عبيد الله المهدي ، لأنه في نظرهم إمام مستودع لا مستقر .

(٢) Arendonk : De Opkomst Van Het Zaïdīetische in Yemen, p. 305.

ابنه باسم « ابن رب العزة » ، إلى غير ذلك من الأسماء التي تؤكد رواج مذهب الحلول بين أتباع ابن فضل في بلاد اليمن . وعلى الرغم من سب الإسماعيلية إياه ، ورميه بالخروج عن الظاهر وبالزندقة أيضا ، لم يخرج ابن فضل - في نظرنا - عن سمات المذهب الإسماعيلي . وإن كان قد خرج على الأصول الإسلامية السنية ، فهو بمبادئه بمذهب الحلول ، إنما ينادي بمذهب محبب إلى الإسماعيلية ، الذين اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . والذين آمنوا بفلسفة الحلول إيمانا يفوق إيمان السبئية والنصيرية في تأليه علي بن أبي طالب . وإلى هؤلاء يشير أبو العلاء المعري بقوله : « وهذه الطبقة ، لعننا الله ! تستعبد الطعام بأصناف مختلفة من الأباطيل ، فيدعي رؤسائها النبوة أحيانا ، والالوهية أحيانا أخرى ، ويجدون من مرءوسهم إيمانا وتصديقا (١) .

ولم يكن القرامطة أقل إيمانا بمذهب الحلول من ابن فضل ؛ حتى إننا نرى أبا طاهر الجنابي يؤمن بالحلول إيمانا قويا ، ويقدس أبا زكريا الصمami (٢) ، ويأمر أتباعه بعبادته ، معتقداً أنه إله حل بينهم . وقد شغلت هذه العقيدة من نفوسهم مكانا كبيرا ، حتى أصبحت دينسا لهم . ولما تبين لأبي طاهر أن أبا زكريا إنسان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأنه ليس إله ، قتله وأمر أشياعه بالارتداد عن اعتقادهم بالوهيته . والذي يلفت النظر حقا ، أن القرامطة لما أمروا بترك اعتقادهم ألوهية أبي زكريا الصمami ، كادوا يقومون بثورة عامة في وجه أبي طاهر وحكومته ، وهو الأمر الذي يدلنا على مدى تأثير مبدأ الحلول وتأليه البشر في نفوسهم .

وقريب من هذا ما ذكره أبو العلاء المعري عن تأليه بعض كبار القرامطة أنفسهم ، واعتقادهم أنهم آلهة يبعثون الرسل . يقول أبو العلاء (٣) : « ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم لما حضرته المنية ، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : إني قد عزمت على النقلة (٤) . وقد كنت بغث موسى وعيسى ومحمدا ، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء . »

(١) رسالة الغفران ص ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٢) يسميه عريب بن سعد (ج ١٢ ص ٨٤) ذكرى الخراساني .

(٣) رسالة الغفران ص ١٤٥ .

(٤) أي الانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، والمعنى عند موته .

من هذا نرى أن مبدأ الحلول كان رائجا بين طوائف الإسماعيلية كافة عدا الفاطميين ، وبعبارة أخرى ، لا نجد الحكومة الفاطمية تشجع هذا النوع من التأليه بين الرعايا السنيين ، على حين وجد هذا المبدأ طريقه إلى الإسماعيلية في بلاد اليمن عند أتباع ابن فضل ، وفي بلاد البحرين بين القرامطة ، بطرق وصور مختلفة ؛ كما راج بين الإسماعيلية في فارس وخراسان ، وخصوصا أنهم كانوا في العصور القديمة يقولون بنظرية الحق المقدس ملوكهم *The Divine Right of Kings* ، فاستمروا في تقديس رؤسائهم الروحانيين من الأئمة الإسماعيلية خاصة . وكانت لعبيد الله المهدي مواقف كثيرة ، تؤكد أنه لم يكن يرضى عن محاولون تأليهه ، وينشرون ذلك بين الرعايا السنيين . وكان العلماء في المغرب يسمون المناداة بذلك الغلو والتشريق ، كما ذهبوا إلى القول بأن عبيد الله حاول المناداة بذلك المذهب في بلاده ؛ فلما أدرك نفور الناس وسخطهم ، عدل عنه وقتك بمنتهحليه .

من ذلك أن أحد الدعاة ، ويسمى منيب بن سليمان السكناس الداعي ، أظهر في سنة ٣٠٩ هـ ، التشريق (١) بجانب تهرت (تاهرت) ، وتحليل المحرمات . وقيل إن عبيد الله وجهه وغيره إلى الأطراف ، وأمرهم بإظهار التشريق ، فإن وجدوا الناس محتلمين له ، ومغضين عليه ، نشره عند العامة ، وأظهروه . فلما كشف منيب ... ما أمره عبيد الله به ... فقام عليهم الناس ، وقتلوا بعضهم ؛ فكفوا (٢) . وهذا يبين لنا السياسة التي كان الفاطميون يسلكونها مع رعاياهم من السنيين خاصة .

وليس معنى ذلك أن مذهب الحلول وغيره من مذاهب الغلو قد امتسحت في بلاد المغرب ، بل إننا نرى جماعة يؤلهون الأئمة ، حتى لقد هال عبيد الله نفسه أن يرى أسرار المذهب الإسماعيلي تداع بين العامة ؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى ثورة قد تطيح بعرشه . ولذلك نراه يقبض على جماعة وأظهروا التشريق بالقيروان ، وباجة ، وتونس ، وجاهروا بتحليل المحرم ، وأكلوا الخنزير ، وشربوا الخمر في رمضان

(١) يقصد التشريق القول بالغلو ، والمناداة بباطن المذهب الإسماعيلي وأسراره .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

جهارا ... فكتب عبيد الله إلى عماله بهذه المواضع ، بأن يرفعوهم إلى بابيه مقيدين ، ثم حبسوا فمات أكثرهم بالسجن (١) .

ومن الغريب أن يكون من بين هؤلاء المغالين جماعة يعرفون بالثقوى والورع ، ولكنهم آمنوا بالحلول إيماناً ملك عليهم نفوسهم ؛ فكانوا يعبدونه ، ويخلصون في عبادته ، حتى إن واحداً منهم كان يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها ، وهي منه في الغرب . فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة ، وهي في الشرق صلى إليها ، وكان يقول : لست بمن يعبد من لا يرى ! وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : إرق إلى السماء ! كم تقيم في الأرض ، وتمشي في الأسواق ؟ وكان يقول لأهل القيروان في عبيد الله : إنه يعلم سركم ونجواكم . وكذلك نرى شخصاً آخر يأكل في شهر رمضان جهاراً ، ويرتكب الكبائر ، وكان في أيام بني الأغلب من المتزهدين (٢) .

من هذا كله نرى أن مذهب الحلول كان يروج بين الإسماعيلية رواجاً كبيراً في البلاد التي لم تكن تحت حكم الفاطميين مباشرة ، وأن هؤلاء كانوا يعملون على القضاء على هذا المذهب ، وأن الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ) لم يكن حينئذ نفسه متأثراً على المذهب الإسماعيلي ، وإنما كان متأثراً على هذه السياسة التي وضعها عبيد الله ، من تظاهره لرعاياه السنين بعكس ما يعتقد الإسماعيلي المخلص لمذهبه . ونعتقد أن هذه السياسة المزدوجة كانت السبب في بقاء الدولة الفاطمية نحو ثلاثة قرون (٢٩٦ — ٥٦٧ هـ) . ولو أن القائمين بهذه الدولة عملوا على ترويح مبادئ المذهب الإسماعيلي السرية بين العامة ، لما قدر لها البقاء طويلاً .

٣ — عوامل نجاح عبيد الله المهدي

من حسن حظ عبيد الله ، أنه ظهر في عصر كان الانحلال يسود فيه العالم الإسلامي . فقد أصبحت الخلافة العباسية ، العدو الأساسي لطوائف الإسماعيلية ، غير جدية . بمكانها ، فسادها الاضطراب وقامت الثورات . ولم يعد هناك بين العلويين جماعة

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١ .

قوية تستطيع منافسة الإسماعيلية ، فلم يجد عبيد الله منافسة قوية من سائر العلويين ، بل على العكس من ذلك ، وجد من أشياعه وغيرهم تحمسا عاما لفكرة المهدي المنتظر . هذا بالإضافة إلى أساليب الدعوة المنظمة ، التي وضع أساسها عبد الله ابن ميمون القداح ، وقام على تنفيذها أبنائوه بمساعدة الأئمة المستورين ، حتى انتهى الأمر بانعقاد لواء الزعامة على عبيد الله مستترا وظاهرا ، ونال أقصى ما تصبو إليه نفسه من توفيق ونجاح .

(١) ضعف العالم الإسلامي :

وقد أخذ الضعف يدب في جسم العباسيين منذ أوائل العصر العباسي الثاني ، لزيادة نفوذ الأتراك الذين احتلوا أعلى مناصب الدولة ، فتسلطوا على جميع مراقبها ، وأصبح بأيديهم عزل الخلفاء وتولييتهم ، وأصبح الخليفة العباسي ، كما قال الشاعر :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالوا له كما تقول اليبغا

أو كما قال الخليفة المعتمد نفسه (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ تمتعا عليه
وتؤخذ باسمه للدنيا جميعا وما من ذلك شيء في يديه (١)

وهكذا كان لضعف زعيم العالم الإسلامي ، وهو الخليفة العباسي ، أثره في ازدياد قوة عبيد الله المهدي ونجاحه ؛ لأن أتباعه ضاعفوا جهودهم في الخفاء ليحل زعيمهم محل الخليفة العباسي الضعيف .

وقد أدى ضعف الخلافة العباسية إلى قيام الثورات عليها ، واشتغالها بإخمادها ، وتركها عبيد الله وأنصاره يعملون في هدوء واطمئنان ؛ فلم يشعر العباسيون إلا وسيوف الإسماعيلية تعمل في رقابهم . وكانت ثورة صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ)

(١) السيرطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ .

من أهم الثورات التي مهدت لنجاح عبيد الله ، الذي استطاع أنصاره من القرامطة وسواهم أن ينشروا في الوقت الذي كانت فيه نار هذه الثورة مشتعلة ، عقائد المذهب الإسماعيلي في بلاد العراق نفسها ، وفي فارس واليمن . ولما تولى عبيد الله زعامة الإسماعيلية في سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة موطأة له .

أضف إلى ذلك ضعف الطولونيين في مصر والشام ؛ فقد ساعده ذلك الضعف على أن يغمر بالولاء في سلبية مدة طويلة ، وأن يفلت من أيديهم دون كبير عناء . ومن أهم العوامل التي ساعدت على نجاح عبيد الله ، ثورة قرامطة الشمال في الشام وباديتها ثم في العراق ؛ فقد شغلوا العباسيين خمس سنوات ، وأضعفوا الدولة الطولونية ، فطمع فيها العباسيون وأزالوها . وفي وسط ذلك الاضطراب الذي ساد بلاد الشام ومصر ، كان عبيد الله يأخذ طريقه إلى المغرب لتأسيس دولته فيها . وهكذا لم يكن ضعف العباسيين وحدهم هو السبب في نجاح عبيد الله ، بل كان لضعف أتباعهم الطولونيين أثره في ذلك النجاح .

وليس هذا وحده ، بل كان لضعف الدولة الزيادية في اليمن ودولة الأغالبة في المغرب ، أثر كبير فيما أصابه عبيد الله المهدي من نجاح ؛ فاستطاع دعائه أن يستولوا على بلاد اليمن ، وينشروا عقائد المذهب الإسماعيلي بين أهلها ، الذين أصبحوا يؤمنون بنظرية المهدي المنتظر ، كما استطاع ابن حوشب (منصور اليمن) أن يمد عبيد الله ، وهو بسلبية ، بأموال وفيرة ، كانت عوناً له في حله وترحاله . أضف إلى ذلك أن ضعف الأغالبة في تونس ، وسخط البربر عليهم قد أتاحا لأبي عبد الله الشيعي الفرصة للوصول إلى أغراضه ، عن طريق نشر الدعوة إلى المذهب الإسماعيلي ، والقضاء على الأغالبة في تلك البلاد .

(ب) انتشار التشيع :

كذلك كان لانتشار التشيع في البلاد التي راجت فيها مبادئ المذهب الإسماعيلي أثر كبير في نجاح عبيد الله المهدي . فهذه بلاد اليمن قد سادها مذهب الزيدية ، أتباع زيد بن علي زين العابدين ، منذ أيام الدولة الأموية ، الأمر الذي ساعد الإسماعيلية على الاستقرار في هذه البلاد . إذ أن كثيراً من مبادئ المذهب

الإسماعيلي ، كهدأ المهديّة ، كانت منتشرة بين الزيدية . وكان اليمينيون ، منذ أيام بنى أمية ، يعتقدون بظهور القحطاني المنتظر . وقد استغل ابن حوشب وابن فضل هذه الميول الشيعة ، واتخذوا من بنى موسى وبنى الوزان المتشيعين عيوننا وأعوانا لهم . يقول المقرئزي (١) : « كان باليمن من هذا المذهب كثير بعدن ، في قوم يعرفون بنى موسى » . وكان الشيعة في بلاد اليمن يلجئون إلى البلاد الجبلية ويعتصمون بها . حتى لقد قالوا : « كانت جبال اليمن على مذهب الشيعة ، وسائر اليمن بقوا على مذهب أهل السنة ، مع اختلاف » (٢) .

وكان للتشيع في بلاد المغرب أثر كبير في نجاح عبيد الله ؛ ذلك أنه في العصر العباسي الأول ، وجد التشيع طريقه إلى هذه البلاد على يد الإمام إدريس بن عبد الله الحسني العلوي ، الذي تمكن من الفرار بعد موقعة فخ في عهد الخليفة الهادي العباسي . وقد التف البربر حول الأدارسة في المغرب الأقصى ، وكون هؤلاء إمبراطورية شيعة ، تعرف بدولة الأدارسة (٣) . ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة لذلك المذهب الإسماعيلي ، فأرسل الإسماعيلية إليها دعاة جريئين ، ليحرثوها ويكربوها ، وليلهدوا لصاحب البذر ، هنالك . وقد حدث ذلك حين كان عبيد الله لا يزال طفلا ؛ فلما دخل المهدي في دور الشباب أرسل الإسماعيلية أبا عبد الله الداعي إلى هذه البلاد ؛ فوجد الأمور مهيأة له ، ووجد التشيع الإسماعيلي قد استقر في عقول البربر واعتقده كثير من وزراء الأغلبة وموظفيهم .

ولم يكن التشيع أقل انتشارا في بلاد الشام ومصر ؛ فقد وجد عبيد الله بلاد الشام تزخر بالمتشيعين من الإسماعيلية ، الذين استطاع بفضلهم الفرار من سيوف منافسيه القرامطة وأعدائه العباسيين .

وكذلك كان لظهور القرامطة في العراق والشام ثم في البحرين ، وانتشار التشيع في بغداد حاضرة العباسيين ، ذلك الأثر نفسه في نجاح عبيد الله ، الذي اتخذ من دعاته ببغداد عيوننا على العباسيين . ولا عجب في ذلك ، فإن كثيرا من الأئمة

(١) انماط الحنفا ص ٢٧ .

(٢) أنباء الزمن في تاريخ اليمن (مخطوط) ص ٢٤ .

(٣) Sanhoury : Le Califat, p. 380.

(٣)

المستورين كانوا يعتمدون على أنصارهم ببغداد في عزل من يشاءون ، وتولية من يشاءون من عمال سلبية . ناهيك بالكوفة وسوادها ، فقد كانت منذ أيام علي بن أبي طالب كعبة الشيعة ، فتركزت فيها الدعوة الإسماعيلية على يد قرامطة السواد . وكان هؤلاء كالبركان يلقي بحممه في وجوه العباسيين ، حتى استطاعوا قرمطة جنوبي فارس وإقليم القطيف ، وانتشر التشيع على أيديهم في عهد عبيد الله ببلاد البحرين ، وأصبح العباسيون يُلقون بحجوشهم ذات اليمن وذات اليسار ، فتحل بها الهزيمة على أيدي هؤلاء .

وكان التشيع في بلاد فارس رائجاً منذ أيام الدولة الأموية ، مما سهل على دعاة الإسماعيلية مهمتهم ، فاستغلوا هذا التشيع ، كما استغلوا الشعوبية ، ووجهوا هذا وذلك في عهد عبيد الله المهدي لمصلحة الدعوة أولاً ، ثم لمصلحة الدولة ثانياً ، فانتشر المذهب الإسماعيلي في طبرستان والري وخراسان وما وراء النهر وغيرها . وبفضل هذا الانتشار استطاعت رسل المهدي أن تجذب إليه أمراء تلك النواحي البعيدة ، من أمثال مرداويج الديلمي أمير طبرستان ، ويوسف بن أبي الساج أمير آذربيجان وقائد العباسيين ، ونصر بن أحمد الساماني أمير خراسان وما وراء النهر ، وقد انضموا إلى عبيد الله ، أو كانوا — على الأقل — يعطفون على المذهب الإسماعيلي .

(ح) ضعف الطوائف الشيعية الأخرى :

ضعفت طوائف الشيعة الأخرى على مر الزمن ؛ وأتاح ذلك للضعف فوز عبيد الله ونجاح مذهب الإسماعيلي . حقا كان للحنفية (أتباع محمد بن الحنفية) ، والآبي هاشمية (أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية) شأن كبير في أخريات الدولة الأموية ، وفي صدر العصر العباسي الأول ؛ إلا أنهم زالوا على مر الزمن أمام ضربات العباسيين ، الذين كانوا بالأمس من أكبر أنصارهم ، حتى إنه لم يبق بين هؤلاء العلويين إلا فلول قليلة تركزت ، على ما ذهب إليه العلماء حديثاً ، في جنوب العراق . وقد قيل إن هذه البقية الباقية هم أتباع حمدان قرمط . ولو أخذنا — هذا الرأي — لعد بقايا الحنفية من مؤسسي المذهب الإسماعيلي .

وقد أخذ الزيدية طريقهم إلى البلاد النائية في اليمن وطبرستان ؛ ولكن قوتهم

كجماعة محاربة لم يعد لها وجود ، اللهم إلا أنهم كانوا يمدون بمبادئهم الشيعية لنجاح الإسماعيلية هنا وهناك . وأما جماعة الحسينيين فكانوا لقمة سائغة للعباسيين ، وهدفا صالحا لسيوفهم ؛ فقد روى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بدمائهم بلاد الحجاز والعراق ، بعد أن مزق جنود النفس الزكية وأخيه إبراهيم وأنصارهما شر ممزق ، وفكك الهادي في موقعة فنج بالبقية الباقية من هؤلاء الحسينيين . ولولا فرار الإمام إدريس بن عبد الله إلى بلاد المغرب ، وأخيه يحيى بن عبد الله إلى بلاد المشرق ، لزال هؤلاء الحسينيون (كقوة سياسية دينية) منذ عهد الخليفة الهادي . ومع ذلك فقد قضى الرشيد على يحيى ، وكون دولة الأغلبة لتجديد من قوة الإدارة ، ومن ثم لم يعد هؤلاء الحسينيون خطرا على العباسيين ، كما أنهم لم يكونوا من هؤلاء الذين يخشى الإسماعيلية بأسهم وقوتهم .

أما الفريق الذي كان الإسماعيلية يخشون بأسه حقا ، فهم جماعة الإمامية الموسوية أو الاثنا عشرية ؛ فقد كان أئمتهم خطرا على أئمة الإسماعيلية من الناحية السياسية ، لأنهم يدعون الإمامة كما يدعيها أئمة الإسماعيلية ، ولأن السواد الأعظم من الشيعة قد انضموا إليهم . لذلك أصبح هؤلاء الاثنا عشرية خطرا يهدد كيان تلك الفرقة الإسماعيلية الناشئة . إلا أن العباسيين كفوا الإسماعيلية بثورة مقاومة الاثنا عشرية . فسجن الرشيد موسى الكاظم حتى مات ، وولى المأمون عليا الرضا ابن موسى الكاظم عهده ، ثم غدر به فمات مسموما ؛ وظل أحفاد موسى الكاظم يلاقون من العباسيين كل أنواع الاضطهاد ، حتى لاقوا حتفهم بين سجين أو هارب أو مقتول . ولم تأت سنة ٢٦٠ هـ حتى ادعى هؤلاء الاثنا عشرية — أمام ضغط العباسيين المتزايد — اختفاء محمد بن الحسن العسكري ، مهديهم المنتظر ، فلم يعودوا قوة يأبه لها الإسماعيلية ، خصوصا وأنهم وجدوا في قولهم بنظرية الإمام المنتظر ، فرصة ينددون بها عليهم ، ويفرقون بين إمامهم الإسماعيلي المستور وإمام الاثنا عشرية المنتظر . وكان لهذه الحرب الكلامية أثرها البين في جذب كبار أشياع الاثنا عشرية إلى المذهب الإسماعيلي . وإذا علمنا أن ابن حوشب ، وابن فضل ، وأبا عبد الله الشيعي ، وهم دعاة عميد الله ، كانوا من الاثنا عشرية ، ظهر لنا أثر الموسوية فيما أحرزه عميد الله المهدي من نجاح .

(٥) خمس المصلحين لعقيدة المهدي المنتظر :

كان لانتشار عقيدة المهدي منذ أوائل حكم الأمويين في المشرق أثر كبير في نجاح الإسماعيلية عامة وعبيد الله المهدي خاصة ؛ فقد وضعت الأحاديث الكثيرة عن المهدي ، فاستغلها دعاة عبيد الله أحسن استغلال ، حتى إن النجاح الهائل الذي أحرزوه في كافة أنحاء العالم الإسلامي ليرجع إلى هذه النبوءات . فقد رأينا كيف استغل ابن حوشب هذه النظرية ، كما استغل اعتقاد اليمنيين في القحطاني المنتظر ، وجعلهم يؤمنون بأن القحطاني المنتظر هو مهدي الإسماعيلية ، ويعتقدون أنهم جنود المهدي ، وأن دولة «صاحب الزمان» و «إمام الوقت» ستنبعث من بينهم ، وأنهم سيملكون الأرض قاطبة . وبفضل هذه النظرية اعتقد بعض أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم في اليمن ، وأن شمس الإسماعيلية ستشرق من البلاد اليمنية .

وقد لقيت فكرة مهدية عبيد الله نجاحا ملموسا في بلاد المغرب ، لأن دعاة الإسماعيلية الأوائل ، وبخاصة الحلواني وأبا سفيان ، كانوا قد لوحوا للمغاربة بتلك النظرية المهدية . فلما جاء أبو عبد الله الشيعي اعتمد عليها في دعوته اعتمادا كبيرا ، وأكد لهم قرب ظهور المهدي بينهم ، ووضع لهم من الأحاديث ، أو سرد لهم من الأحاديث الموضوع في المهدي ما أثار في نفوسهم النزعة الحريية ، ليكونوا أول جنود المهدي الذين يجلسونه على العرش . ألم يقل لهم أبو عبد الله : « المهدي يخرج في هذه الأيام ؟ » ثم ألم يقل لهم : « هذا فجع الأخيار ، وما سمي إلا بكم . ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبؤ عن الأوطان ، ينصره فيه الأخيار من أهل هذا الزمان ، قوم اشتق اسمهم من الكتان ؛ فأنتم كتامة ، وبخروجكم من هذا الفجع سمي فجع الأخيار (١) ؟ » و « إن الشمس تطلع من مغربها ، ولأنها لا تنكس راية المهدي عليه السلام حين يقوم بها ؟ » . وكذلك روى الإسماعيلية كثيرا من الأحاديث ؛ فما ينسبونه إلى الرسول قوله : « فإذا قام العاشر من ولدي ، هاجر

(١) انظر ص ١١٨ من هذا الكتاب .

إلى أرض المغرب ، وبني بها مدينة تسمى باسمه ، ويكون أصداده كثيرا من أهل المغرب ، وهو الشمس الطالعة من المغرب ، وهو الذي يفتح الله على يديه المغرب ، وبه يعز من قال : أنا من أمتي وعترتي (١) . وهكذا استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يجمع المغاربة حول عبيد الله ، على أساس أنه المهدي ، وأن يقلب دولة الأغالبة بمساعدة هؤلاء البربر الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم ، كما استطاع أن يخضع جميع البربر في شمال إفريقيا (٢) .

وقد شهد خلفاء المهدي له بالفضل ، فقال فيه المعز لدين الله : « كان المهدي مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة ، فيه فتح الله تعالى ذلك للعباد ، وذلك يتصل عنه من ذريته حتى يتم لهم وعد الله الذي وعدهم إياه » (٣) . كما يروون عن سلمان الفارسي أنه قال : لا بد من قائم من ولد فاطمة يقوم من المغرب ، فيكسر شوكة المبتدعين ويقتل الظالمين ، (٤) .

وأغرب من هذا ما يروونه عن تنبؤ الرسول بالمهدي ، وبأمور أخرى كثيرة ، ما يجعلنا نعتقد أن مثل هذه الأحاديث موضوعة لا محالة . ومن تلك الأحاديث التي نشك في صحتها ما يروونه عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « قال رسول الله يوما : انطلق معي يا بن مسعود ! ففضيت معه حتى أتينا (مكانا) قد غص ببني هاشم . فقال لهم رسول الله ﷺ : من كان معكم من غيركم فليقم ، فقام من كان معهم من غيرهم ، حتى لم يبق إلا بنو هاشم خاصة : بنو عبد المطلب وبنو العباس . فقال لهم النبي : يا علي ! أخبرني جبرائيل أنك مقتول بعدى ، فأردت أن أراجع ربي ، فأبى علي ، قال : ... فالويل لعترتي ولأهل بيتي ، ولبنى أمية مما يلقون من بني العباس . ويهرب من بني أمية رجال ، فيلحقون بأقصى المغرب ، فيستحلون فيه المحارم زمانا . ثم يخرج رجل من عترتي غضبا لما لقي أهل بيتي وعترتي ، فيملا

(١) المجلس السابع عشر والمائة من مجالس سيدنا خاتم بن إبراهيم الحامدي ص ١٠٨ (من المنتخب)

(٢) Sanhoury : Le Califat, p. 380.

(٣) شرح الأخبار ص ٢٠ (من المنتخب) .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤ — ٢٥ .

الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما ، (١) .

هذه الأحاديث وغيرها كان يستغلها دعاة الإسماعيلية إلى أبعد حد ، وبفضل هذه والتنبؤات ، استطاع دعاة المهدي في المشرق أن يصلوا إلى سويداء قلوب الناس ، حتى خيل للعباسيين أن الأرض ستميد بهم ، وأن أنصارهم ، كالسامانية والزارية ، وقوادهم كيوسف بن أبي الساج وسواه ، سيكونون جنودا للفاطميين ، وحربا عوانا عليهم .

وقد عملت نظرية المهدي عمل السحر في نفوس القرامطة ، فنادوا بها جميعا . ولما قامت الدولة الفاطمية جهر أبو طاهر الجنابي بأنه من دعاة المهدي ، الذي خرج على العباسيين ، خروج الأسد الغضنفر ، ، والذي سيملك الأرض شرقا وغربا . ومع ذلك فقد غرر به بعض الأدعياء في أخريات حياته (في سنة ٣١٩ هـ ، ٣٢٠ هـ) ، فادعى له أنه يعلم الغيب ، حتى إنهم سموه د المهدي الكذاب ، . وهذا يدل على عظم تأثير هذه النظرية في الإسماعيلية . ومهما يكن من شيء ، فإن نظرية المهدي كانت عوننا لعبيد الله فيما أحرزه من نجاح في زمن استتاره ، وإليها يرجع الفضل في جلوسه على العرش في سنة ٢٩٧ هـ .

(هـ) برامج الإسماعيلية ووسائلهم الخاصة لنشر مذهبهم :

كان من أهم عوامل نجاح الإسماعيلية في نشر دعوتهم ، أنهم نهجوا مناهج بدوا فيها غيرهم من الفرق الشيعية الأخرى ، فكان الإسماعيلية يبالغون في التخفي في نشر دعوتهم ومبادئ مذهبهم ، على شكل خطوات تتدرج من المعلومات البسيطة ، حتى تصل بالمستجيب إلى مبادئ فلسفية عميقة ، لا يفهمها إلا القليلون ؛ حتى إن المستجيب كان لا يعرف شيئا عن الدرجات التي تلي درجته ، وإنما كان همه الوصول إلى درجة أعلى من الدرجة التي وصل إليها ، وأصبح كثير من الإسماعيلية لا يعرفون شيئا عن زملائهم الذين انتظموا في سلك المذهب الإسماعيلي ، وخفي أمرهم على خصومهم العباسيين .

كذلك استغل الإسماعيلية ، وعلى رأسهم عبيد الله ، مذهب التقية ؛ فكانوا سنيين مع أهل السنة ، شيعيين مع الشيعيين ، يهودا مع اليهود ، ومسيحيين مع المسيحيين ، ومجوسيين مع المجوس . وبذلك انضم إلى عبيد الله ألوف مؤلفة من المسلمين ، ولم يشعر العباسيون إلا وقد حقق الإسماعيلية أغراضهم بإقامة دولة إسماعيلية خالصة . كما برع الإسماعيلية منذ نشأتهم في تنظيم دعوتهم تنظيماً رائعاً ، فتظاهروا بالتقشف والورع ، وبالبلاغة والتضلع في العلم . وخصصوا لكل منهم مبادئ يلقنها المستجيبين . وكان لنظام التخصص هذا أثره في تكوين جماعة من العلماء الدعاة الذين يتقنون ناحية مذهبية خاصة ، ويستطيعون أن يمثلوها في أذهان سامعيهم من المستجيبين . وكان دعاة عبيد الله المنتشرون في كافة أنحاء المملكة الإسلامية ، أشبه بجواسيس ينقلون إلى عبيد الله أسرار الدولة العباسية وأخبار ولائها ، ويحذرونه الخطر الذي قد يحدق به أو بدعوته ودولته . وقد اعتمد عبيد الله على دعاة المقيمين وعلى دعاة السيارة ، اعتماداً تاماً في وقت فراره من سلمية إلى بلاد المغرب ؛ واستطاع بفضل هؤلاء أن يتجنب الأخطار التي كادت تحقق به . كما آمن الناس بفضلهم بمهدية عبيد الله ، فذهب الإسماعيلية في البحرين واليمن وبلاد المغرب ، يذودون عن مذهبهم بسلاحهم ، حتى أقاموا له دولة قوية العماد تربع على هرشها .

وكان لنظام أخذ العهود على المدعوين ، أثر كبير في جذبهم إلى المذهب الإسماعيلي ورؤسائه ، كما أن القيود ، التي كانت تربطهم بهذا المذهب برباط وثيق لا ينفصم ، وتجعل المستجيبين يتركون معتقداتهم السابقة ويلتفون حول رئيس دعوتهم الجديدة ، لا تقل أثراً في هذه السبيل .

وليس من شك في أن نظام الدعوة الإسماعيلية نظام يقوم على الإخاء والمودة ، ويربط الفرد بالمجموع بوشائج قوية ، بحيث يرى هذا الفرد أن حياته في تماسك الجماعة . ولذلك ترى الإسماعيلية مرتبطة بعضهم ببعض ارتباطاً يثير الدهش ، وترى جماعتهم تتكون من أفراد مختلفي المشارب والنزعات . ومع ذلك يرتبطون بالحب والإخاء ، والتفاني في سبيل النهوض بمذهبهم والدفاع عن رئيسهم وخليفتهم . فهذا الفيلسوف النسفي يدافع عن مذهب ورئيسه بقلبه ولسانه ، وهذا الداعي المحارب ، كأي عبد الله الشيعي وابن حوشب ، يزيلان الدول ويثلان

العروش لإحياء دولة إسماعيلية . كما ترى عامة أتباع هذا المذهب وسوادهم ، ومنهم الزارع والتاجر والصانع ، وكل هؤلاء يتنافسون في الدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره . وبفضل هذا كله استطاع عبيد الله المهدي أن يتقلد رئاسة الدولة الإسماعيلية .

ناهيك بهذه المبادئ الخلابية التي كان الإسماعيلية ينادون بها ، وما كان لها من أثر في النهوض بالمذهب الإسماعيلي ، والالتفاف حول عبيد الله المهدي . فقد استغلوا مبدأ التأويل ، لينفروا الناس من أديانهم ومذاهبهم ، ويربطوهم بمبادئ المذهب الإسماعيلي برباط متين ، وينشروا كثيرا من الغموض ، ليمثلوا نفوس الأتباع بالآمل . وقد استغلوا ذلك المبدأ الجذاب ليثبتوا للناس والأتباع أن مذهبهم إنما وجد لمحاولة فهم حقيقة الدين الإسلامي وباطنه ؛ أو بعبارة أخرى ، أن المذهب الإسماعيلي دين الباطن ، والإسلام دين الظاهر ، لأن عليا صاحب التأويل ، ومحمدا ﷺ ! صاحب التنزيل .

وكذلك استغل الإسماعيلية مبدأ الشعوية ذي الخطر ، ليستثيروا الوطنية في الشعوب المغلوبة على أمرها ، ويوجهوهم إلى محاربة أعدائهم الأساسيين وهم العباسيون . وكان للشعوية أثر كبير بين مستجبي الفرس والديلم والنبطيين وسواهم ؛ فقد آلى هؤلاء على أنفسهم أن ينتقموا من العباسيين الذين أذلّوهم ، فثاروا تحت رايات زعمائهم الإسماعيلية من الدعاة وسواهم . وقد رأينا عبد الله بن ميمون القداح ، مؤسس المذهب الإسماعيلي ، يستعين بكثير من أنصار الشعوية ، لينقض بهم على العباسيين ، ويحقق مآربه السياسية الدينية في خلق جماعة تدين للأئمة الإسماعيليين بالطاعة . ولا يقل تأثير مبدأ الدعوة لدين عام يتفق مع مشارب الجميع ، ومبدأ المهديّة ، عن هذه المبادئ السابقة أثرا ؛ فقد ظهر تبعا لذلك جماعة من طيقات مختلفة يسعى كل منها في إخلاص في سبيل نجاح دعوة المهدي المنتظر .

خاتمة القول في عبيد الله المهدي

أخصر وصفاته :

يعتبر عبيد الله المهدي من الرجال الذين لا يجود بهم الدهر إلا نادرا . فقد استطاع ، بفضل ما أوتيته من قوة الشخصية ، وما جبل عليه من الصفات العالية ، أن يحقق ما عقده عليه الإسماعيلية من آمال بعيدة ، في توطيد دعائم المذهب الإسماعيلي في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ؛ كما استطاع أن يخلق بال الدولة العباسية ويشير مخاوفها ، ويقضي على دولة الأغالبة التي اعتمد عليها العباسيون منذ أيام هارون الرشيد في الوقوف في وجه الأدارسة ، ورد هجماتهم نحو الشرق ، ويقم في النهاية دولة مهيبة الجانب ، استطاعت أن تقطع خيرة بلاد الدولة العباسية في المغرب ومصر ، وفي الشام وفلسطين والحجاز واليمن وغيرها ، كما عولت على مد نفوذها إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين . كل ذلك كان راجعا إلى الصفات التي تجل بها عبيد الله المهدي ، والتي كان لها أثر بعيد فيما أحرزه من نجاح .

فقد امتاز المهدي بالصبر . ونستطيع أن ندرك أثر تلك الصفة في موقفه من القرامطة ؛ فقد رأى انتفاض حمدان قرمط عليه ، وحدة منافسة أبناء زكرويه ابن مروييه له . ومع ذلك ظل يصابرهم ، ويعمل في هدوء على تنظيم جماعته ، وعين داعيا لدعائه يحل محل حمدان قرمط ، واتصل بأبناء زكرويه دون أن يشور عليهم كما ثاروا عليه ، وظل يرقب في ثبات جميع حركاتهم في الشام . فلما أخفق في معالجته الأمور في صبر وروية ، غادر بلاد الشام . وكان لهدوئه أثر عظيم في كل ما ناله من نجاح . فقد عرف عن طريق دعائه المقيمين في الشام ، أن رسل العباسيين يلاحقونه ؛ ومع ذلك لم يجد الهلع إلى نفسه سيلا ، بل أخذ ينظم برامج رحلته في هدوء واطمئنان . وفي مصر عرفه أحد المصريين ، وهم بالقبض عليه وإفشاء سره ، ومع ذلك تخلص منه عبيد الله في لباقة تدل على الذكاء والثبات والصبر . ثم انظره وقد بكى داعيه المقيم بين يديه حين رأى المصاعب تلاحقه من كل جانب ، يهديء من روعه في هدوء يحسد عليه ، ويتغنى بشعر لا يدل على الثبات فقط ، وإنما يدل على

الاستماتة في تحقيق كبار الآمال . ولولا ثباته وثقته بنفسه وصبره ، لما استطاع تحمل المكاره وهو بسلبية ، ثم وهو في طريقه إلى مصر ؛ بل لما استطاع أن يصل إلى سجنه وسجنه ويمر ببلاد الأغلبية الذين كانوا يتحرقون شوقا للقبض عليه والفتك به . وقد رأيناه ثابتا هادئا حين هب في وجهه أنصار أبي عبد الله الشيعي ، وأرادوا الفتك به بعد أن التفوا حول قصره ، فتقهقروا بسبب ثباته ، وعادوا من حيث أتوا .

ومن أهم صفات المهدي الجود ؛ فكان ينفق عن سعة ، ولم يكن ذلك راجعا إلى ماله ، بل لأنه كان جوادا بطبعه . وقد استطاع بفضل جهوده أن يجذب إليه أهل سلبية وعماها ، حتى طجت الألسن بالثناء عليه . ولكن جوده قد أثار الشكوك على ما رأينا ، وانتهى الأمر بخروجه من سلبية . وبفضل جوده سكنت عنه محمد بن سليمان وعيسى النوشري ، واستطاع أن يجذب إليه اليسع بن مدرار صاحب سجنه حينئذ من الزمن . وهكذا كان جود عبيد الله المهدي من العوامل التي ساعدته على التغلب على الصعاب التي كانت تعترضه . ولا ننسى أنه بفضل جوده وكرمه ، زاد تعلق أتباعه به ، وتفاؤوا في إخلاصهم له ، حتى كان يقرض لحم الواحد منهم ، وتقلع أظفاره ، على أن يقر عليه فلا يفعل . وبفضل جوده كان يجد من الأصدقاء من يعتمد عليه . انظروا وقد أصبح رئيس قافلة هربه طوع بئانه ، يقطع الفيافي والقفار ، ويحمل القافلة كل أنواع المشاق . وإنما فعل ذلك كله إرضاء لعبيد الله المهدي ؛ ولولا ذلك لوقع في قبضة زيادة الله الأغلب .

وكان عبيد الله فوق ذلك مهيبا ، يفرض احترامه وتقديره على من يراه ، حتى إن علماء الإسماعيلية يرجعون سبب نجاحه في الإفلات من مصر ، إلى هذه المهابة التي ألقى الله بها في قلب عيسى النوشري ، كما يقولون : إنه بفضل مهابته لم يلحق به سوء من ناحية اليسع بن مدرار . يقول أبو حنيفة النعمان عن عبيد الله في سجنه : « أقام بها ، وكل ذلك تلحظه العيون في طريقه ، وحيثما نزل ، وفي أي مدينة دخل ، ويقول كل من رآه ممن له تمييز وبصيرة : والله ما هذا تاجر ، وما هذا إلا سلطان أو ملك من الملوك . وكذلك كان يقول فيه كثير من أهل سجنه . وكان مما يدل

عليه إفضاله على من يصحبه أو يأتيه ، وما أنزل الله من المهابة والجلالة في عين من رآه (١) . ثم انظره وقد أنقذته هيئته وجلالة قدره من صلف اليسع ، وأنزل الله بأكثر الهيبة في قلبه (أى قلب اليسع) والجلالة في عينه ، فلم يمتحنه بأكثر من أن جعله في دار ، وجعل عليه حرسا ، وجعل ابنه القائم بأمر الله كذلك في دار أخرى (٢) .

كما امتاز عبيد الله المهدي بالصدق ، حتى في أخرج أوقاته ؛ فقد أعلن لعبدان ، أحد زعماء قرامطة السواد ، أنه من نسل القداح (٣) ، مع أن ذلك يعرضه للخطر . لكنه لم يشأ أن يقر بغير الصدق ، ويعلن في شيء من اللباقة لليسع بن مدرار ، صاحب سجناسه ، أنه ينتمى إلى العلويين حقا ، ويقرر أنه لا يعرف أبا عبد الله ، ويقسم له بأغلاظ الإيمان على ذلك . وهو صادق في اعترافه ، لأنه لم ير أبا عبد الله حقا . وهكذا اعترف له بالنسب ، إذ لم يسعه إنكاره ، ولغزله في ذكر أبا عبد الله فقال : ما رأيته ولا أعرفه ، وكذلك كان ، لم يره . ولما سأله اليسع بن مدرار : « فهذا الرجل الذى ظهر ببلد كتمان ، وغلب على نواحي إفريقية إليك يدعو ؟ قال : ما رأيت هذا الرجل ولا أعرفه . وكذلك كان ، لم يكن - صلع - ، رآه كما ذكر... قال : ولكنه بلغنى أنه يدعو إلى الرضا من آل محمد . قال : فإنه قد أخذ بإفريقية ، وأقبل بعساكره إلينا ، وما يدعو إلا إليك . قال (المهدي) : أهل النسب بالمغرب كثير ، فإن كان يدعو إلى نفعك عنده ، ولم أضرك ، وإن كان إلى غيرى لم يكن على في ذلك مقال (٤) .

كان عبيد الله المهدي وسيما جميل المنظر . ويروى الإسماعيلية فيه حديثا يؤيد ذلك : « المهدي رجل من ولدى ، أرى وجهه كالنكوكب الدرى : اللون لون

(١) افتتاح الدعوة الزاهرة (من المنتخب) ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) انظر ص ٨٥ من هذا الكتاب .

(٤) شرح الأخبار (من المنتخب) ص ٣٢ .

عربي (١) ، والجسم جسم إسرائيلي (٢) . فكان المهدي « وسيمًا جسيمًا بباطًا ، لا يكاد أحد يماشيه إلا قصر عنه ، وصغر إلى جانبه » .

وكان عبيد الله قوى الساعد ، شديد البطش . جاء في شرح الأخبار « روى عبد الله بن عمر ، وذلك مما أثره أو نقله عن رسول الله قال : يعطى المهدي قوة عشرة » . ويقولون أيضًا عنه : « كان المهدي قويا أيذا ، معروفًا بذلك من حداثة سنه » . وكان حين تولى الإمامة وتقلد الدعوة شابًا يمتلئ قوة ونشاطًا ، حتى قالوا فيه : « يقوم المهدي ع م ، وليس في رأسه ولا خيته طاقة بيضاء » ، وأنه « لما قام بالإمامة وسلمها إليه إمام الزمان (٣) الذي كان في عصره ، ونص عليه بأنه مهدي الأئمة ، ودعت بذلك إليه دعاة ، وهو يومئذ حديث السن ، مقتبل الشباب من الفتيان وأحسن الشبان » (٤) . فهذه الصفات وغيرها تدل على أن المهدي كان جديرًا بالزعامة .

أولاده وزوجاته :

تسكاد تجمع المراجع الإسماعيلية التي تذهب إلى القول بأن المهدي أبو القائم ، على أنه لم يكن له ولد سواه ؛ على حين يرى بعض آخر أن عبيد الله كان له ولد آخر غير القائم ، لم يل الأمر بعده ، وإنما انتقلت الإمامة من المهدي إلى القائم ، بخلاف ما ذهبنا إليه من أن القائم لم يكن ابنًا حقيقيًا جسيمًا لعبيد الله المهدي ، وإنما كان ابن الإمام المستقر السابق ، وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله ، أو على ابن الحسين هذا . ونحن نعلم أن عبيد الله حين فر لم يصحب معه غير القائم . لذلك لا نخرج عن القول بأن المهدي حين تولى عرش الخلافة الإسماعيلية الفاطمية في سنة ٢٩٧ هـ ، لم يكن له من الإبناء الجسمانيين أحد . كما أننا لا نعرف هل كان قد تزوج بعد اعتلائه العرش ، أو أنه أنجب من نسائه وهو في سلمية . وقد

(١) لأنه أبلغ تشويه حيرة .

(٢) جسم إسرائيلي : أي جسم فهو أجسم من العرب .

(٣) يقصد بإمام الزمان : الإمام الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق

(٤) شرح الأخبار ص ٩ .

ذكرت المراجع الإسماعيلية أنه لما غادر سلية ، لم يصحب عند هربه غير القائم ، وأم حبيب زوجة القائم ، ثم زوجته هو وابنتيه وابنتي أخيه (١) . كما أنه ترك في قصره جارية له تدعى ولعب ، ومحمداً ابن ذكر منه . ولكن الحسين بن زكرويه المعروف بأبي مهزول ، قتله في مذبحه العلويين بسلية (٢) ، حيث رميت هذه الجارية في الصهريج ، وقتل ولدها ، ومن كان معها . وفرق الصقالبة فأثروا إليه بجميع من في ذلك القصر (أي قصر المهدي) من صغير وكبير ، من الرجال والنساء ، فقتلهم كلهم ، ورمى بهم في ذلك الصهريج ، وكانوا ثمانين وثمانين نفساً (٣) . ومن ذلك نستطيع أن نقول إنه لم يكن للمهدي ولد جسماني أو روحاني ، سوى القائم . على أن ما ذهب إليه ابن عذارى من أنه كان لعبيد الله ستة أولاد ، أكبرهم أبو القاسم ولي عهده وخليفته ، لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه ، وهو أن المهدي لم يكن له أبناء عند وفاته سنة ٣٢٢ هـ . وأما الذي يلتفت النظر حقاً فهو ما ادعاه ابن عذارى (٤) من أن المهدي كان له ولد آخر ، وأنه أشيع بين الناس أنه يريد نقل ولاية العهد إليه في سنة ٣١٦ هـ ، حتى إن أبا القاسم (القائم فيما بعد) حين علم من ابنه ، قاسم ، أن الناس تحدثوا بمبايعة عبيد الله لابنه أحمد المسكني بأبي علي ، أقلقه ذلك (٥) . أضف إلى هذا ما كان من ادعاء رجل من أهالي طرابلس أنه ابن المهدي ، وثورته على القائم (٣٢٢ هـ) . كل هذا — إن صح — يؤكد ما ذهبنا إليه من أن القائم ليس ابن عبيد الله ، وإلا لما ثار على القائم ابن طالوت القرشي في طرابلس ، وادعى أنه ابن المهدي ، ولم يقل إنه أخو القائم . أضف إلى ذلك أن النعمان ينسب إليه ولد اسمه الحسن ، أنجبه من أم ولد له في المهديّة ؛ لكنه لم يدع إليه ، بل أقرت أمه بزوال الأمر عن بيت المهدي إلى بيت القائم (٦) .

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ .

(٢) استتار الامام ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) استتار الامام ص ١٠٥ .

(٤) البيان المغرب : ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٥) النعمان : المجالس والمعارف ج ٢ (المجلد الثاني) ورقة ٦٢١ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٩ .

وأما عن زوجات عبيد الله ، فإننا لا نعرف له من الخرائر سوى ابنة عمه التي زوجها إياه الإمام الحسين بن أحمد ، بعد أن ولاه عمده . ويدعى بعض أنها أم القائم (١) ، وأنها صحبته في رحلته من سلية إلى بلاد المغرب . كما لا نعرف له من الإماء سوى جاريته ، ولعب ، التي قتلها الحسين بن زكرويه في مذبحة سلية ، على ما تقدم ، وأم ولده أبي الحسن الذي ولد بالمهدية وأصيب بالجدرى ، وفقد بصره (٢) .

وفاة المهدي :

توفي أبو محمد عبيد الله المهدي بمدينة المهدية ، بعد أن حكم بلاد المغرب أكثر من أربع وعشرين سنة ، وتوفي وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة . وقد ذكرنا أنه ولد في سنة ٢٦٠ هـ أو في سنة ٢٥٩ هـ ، وأن ذلك كان بمدينة سلية ، على ما ذهب إليه جمهرة المؤرخين ، أو بالأحرى على ما ذهب إليه بعضهم ، وتقلد وظيفة الحجة أو نائب الإمام عقب وفاة عمه أحمد بن عبد الله القداح في سنة ٢٨٠ هـ . ولم يكن عبيد الله قد جاوز العشرين ، فأظهر إخلاصه وتفانيه للذهب الإسماعيلي ، ولذلك كان موضع ثقة زعيمة الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبد الله ، على ما ذهب إليه عامة مؤرخي الإسماعيلية ، أو على بن الحسين ، على ما ذهب إليه الداعي الخطاب في كتابه غاية الموالي . ومن ثم قلده إمامة الإسماعيلية استيعاداً لا استقراراً . ومع أننا لا نعرف السنة التي تولى فيها عبيد الله الإمامة ، فإنه مما لا شك فيه أنه لم يتقلد الإمامة قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، أو بعد أن جاوز الثلاثين ، لأننا نراه يفر من سلية في سنة ٢٨٩ هـ ، وهو متقلد رتبة الإمامة وسنه لا تتجاوز الثلاثين ، وأنه قام بوظيفته الجديدة خير قيام ، واجتمعت فيه صفتا الحجة والإمام ، واستمر على ذلك مدة في سلية ، ثم وهو في طريقه إلى بلاد المغرب ، واستقراره في سجلماسة ، حتى أجلسه داعيه وتابعه أبو عبد الله الداعي على عرش الخلافة في أوائل سنة ٢٩٧ هـ ، بمعنى أن عبيد الله المهدي دخل إفريقية (تونس) .

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) انتمان : المجالس والمسائر ج ٢ ص ٦٢١ .

ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره . وكان عبيد الله المهدي في عهد خلافته إماما مستودعا لا مستقرا ، ظاهرا لا مستورا . كما كان مثال الأمانة المطلقة ، لحافظ على الإمامة المستقرة ، وردّها إلى مستحقها القائم ابن الإمام الحسين بن الإمام أحمد بن الإمام عبيد الله بن الإمام محمد بن إسماعيل ، وذلك في سنة ٣٢٢ هـ .

هكذا انطوت صفحة عبيد الله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية ، بعد أن قضى وقتا طويلا إماما مستورا ، وإماما ظاهرا ، وخليفة ، يحكم دولة امتد نفوذها فيما بعد من المحيط الأطلسي غربا إلى بلاد العراق شرقا ، ومن جبال طوروس شمالا إلى بلاد السودان جنوبا . وكانت هذه الدولة مضرب المثل في ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفي السياسة والدين والثقافة .

ونحن إذ ننتهي من دراسة حياة عبيد الله المهدي ، نرجو أن تكون قد وفقنا إلى تحليل هذه الشخصية الفذة ، وإمالة اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت لا تزال غامضة في تاريخ المذهب الإسماعيلي ، وهو الغرض الأول الذي نرمى إليه من دراسة حياة عبيد الله المهدي ، وغيره من الخلفاء الفاطميين ، الذين كان لهم أثر كبير في تطور المذهب الإسماعيلي . على أن تمام بحث تاريخ هذا المذهب إنما يكون بما نحاوله بعد هذا الكتاب من دراسة عصر الخليفة الفاطمي الرابع ، وهو المعز لدين الله الفاطمي ، الذي حكم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر زهاء أربع وثلاثين سنة (٣٤١—٣٦٥ هـ) ، ثم دراسة عصر الخليفة المستنصر (٤٢٧—٤٨٧ هـ) وما يتلوه من دراسة تاريخ البارزين من أئمة الإسماعيلية مستعملية ونزارية ، فيتصل بذلك بحث تاريخ المذهب الإسماعيلي ، الذي امتد نفوذه في كثير من أرجاء العا الإسلامي قرونا ، والذي لا تزال مبادئه باقية إلى اليوم في كثير من البلاد الإسلامية ، وبخاصة بين البهرة والأغاخانية .

الملاحق

ملحق ١

نهاية الإمام إسماعيل بن جعفر وإمامته (١)

« وما يدل على إمامة إسماعيل أيضا ، صلوات الله عليه ! أن الصادق ، صلوات الله عليهما ! لما قبض أقامه في مجلسه مسجى ثلاثة أيام ، وهو مكشوف الوجه ، والناس يدخلون عليه فيعرفونه ، من بني هاشم وغيرهم وسائر أهل المدينة والزوار ، [و] إنه يقول لمن دخل إليه وعزاه فيه : أليس هذا ولدى إسماعيل ؟ ولا يستدل المسئول من قول نعم عند ما رأى ما رآه ، فعند ذلك يأخذ خطه في محضر حضره . وإنه لم يزل على ذلك ، حتى أخذ خطوط كل من في المدينة وغيرهم من الزوار وأهل المدينة ، وأنه خرج به في اليوم الرابع إلى البقيع ، وهو مكشوف الوجه ، وأنه كان ينزله ويقبله ، ويقول : والله ما أسفى على إسماعيل ، أسفى على ما أودعته إياه ، ويشاهد جماعة من معه ، ويأخذ بذلك خط من لم يحضره من قبل خروجه ، وأنه لم يزل على ذلك مرارا ثلاثة ، ومع الرابعة أنزله على قبره ، وفعل به مثل ما فعله في غيره ، واشهد الخلق بذلك .

ودفنه بمحضر منهم ، وكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى المنصور ضده ، وكتب أيضا الصادق إليه يعزيه فيه ، وكان قد جعل عيونا على الصادق حتى يعرف إلى من يسلم الأمر إليه فيقتله ، وأنه لما وصلت الأخبار إليه اضطرب ، وهم بالتوجه إليه في طلبه ، حتى أتاه موته فسكن ما كان يجده منها . ثم إنه لم يمر له إلا أيام حتى يحكى له أن رجلا كان بالبصرة زمنا ، له ستون سنة (٢) ، وأنه كان قاعدا على باب دكانه يعمل الخوص ، وأنه مر به شاب من وصفه وصفته (٣) ، والناس يهرعون حوله ،

(١) جعفر بن منصور البين : أسرار النعفاء ، نقل عن كتاب المنتخب من كتب الاسماعيلية ،

طبعة إيفانو (من ١٠٣ - ١٠٤) .

(٢) في الأصل ستين .

(٣) يقصد المؤلف إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويسمونه ، ويكنونه (١) . وأن الزمن لما مر به ، وكان يتشيع لآبيه ، ناداه : يا بن رسول الله - خذ يدي أخذ الله بيدك ، فرجع يأخذ يده ، وأنزله من مكانه ، ثم سار به ساعة وخلاه ؛ فرجع إلى موضعه صحيحا سويا ، فاجتمع إليه الناس . وقيل (له) : من مر بك ؟ قال : إسماعيل بن جعفر بن محمد ، صلوات الله عليهم !

فكتب أصحاب الأخبار بموته (٢) ، ووصل كتاب الصادق بالتعزية فيه ، ثم قرأها وقال : إنه لا يزول سحر بني أبي كبشة . . . حتى يفنوا عن آخرهم . ثم إنه أرسل لوقته إلى الصادق ، فأشخصه إلى حضرته ؛ فلما مثل بين يديه ، أخرج إليه كتابه وكتاب أصحاب الأخبار بموته وتعزيتيه ، وقال له : أليس هذا خط يدك ؟ تعزيتي في إسماعيل ؟ قال : نعم فعند إقراره أخرج إليه كتاب أصحاب الأخبار بما كان من قصته بالبصرة ؛ فعند ذلك أخرج الصادق عليه السلام المحضر الذي حضره بموته ودفنه ، فلما رآه ووقف على ما فيه من الشهود ، سكن ما به من الغضب ، فأحضر جماعة من بني هاشم كانوا عنده ، فشهدوا بما رأوه ، وثبتوا على خطوطهم . فعند ذلك أمر بترك (٣) الصادق وإكرامه ، وردّه إلى موضعه . والخلق لا يعلمون سر الله كيف يجري في أوليائه ، ولا مامنهم به في كل عصر وزمان . ورجع الصادق إلى حرم جده ، وجلس مجلسه ، كما جلس يعقوب في مجلس يوسف بعده ، وشعيب لما انقطع التأييد عنه .

صالح ٢

في إمامة محمد بن إسماعيل (٤)

« وقام محمد بن إسماعيل ، صلوات الله عليه ! وهو سابع الأئمة وقائمهم ، مقابل لجده على أمير المؤمنين تمام الدور الروحاني ، والخلق الآخر الذي هو نفس

(١) في الأصل ويكنفونه ، وليس هناك ما يمنع صحة هذا التعبير ، غير أن ما ذكرناه أقرب إلى الصواب .

(٢) أي كتب أصحاب الأخبار بموته إلى أبي جعفر المنصور .

(٣) في الأصل ينزل .

(٤) الداعي إدريس : زهر المعاني ، من كتاب المنتخب من بعض كتب الاسماعيلية ، طبعة

لإيفانو (ص ٥٢ - ٥٦) .

الشيء وروحه ومعناه ، وهو تمام الدور الأول ، ومنه ابتداء الدور الثاني .

وكان بالمدينة ، فقام بدين الله سبحانه ، وبث الدعاة ، ونشر العلوم ، وأمر دعائه بطلب دار هجرة يلجأ إليها . وكان في عصر الرشيد ، فلما بلغه علم محمد بسبب انتشار دعوته ، أمر بالقبض عليه ، وأن يؤديه إليه . وكان الإمام قد أعد بداره سرّاً (١) ينسكتم فيه من الضد (٢) . فلما وصل الرسول من الرشيد إلى المدينة ، دخل ذلك السرب واختفى فيه ، وطلبوه فلم يجدوه ولا قدروا عليه . فعادوا إلى الرشيد ، وأنهوا إليه خبر ما فعلوه . ولما هدا الطلب ، سار الإمام في طلب دار هجرته ، وخلف بالمدينة ولدين خالين من الإمامة ، وهما إسماعيل وجعفر ، وشخص إلى نيسابور بنفسه منكثاً عن ضده ، وهو يدور ما بينهما (٣) وبين الديلم . وتزوج بنيسابور امرأة ، فولدت له ولداً فسماه عبد الله ، وكناه الرضى ، وعرف عبد الله الإمام بالطاهر كتماناً لمقامه وإخفاء له . ونصب له حُجُباً ، وأمر كل واحد من الحجب والحجب أن يتسمى باسم الإمام ؛ فمن أخذ العهد على مستجيب ، سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه ستراً على صاحب الأمر . وجرت بذلك السنة والقضية في الأئمة المستورين الثلاثة . فمن ذلك أن الدعاة في أوضاعهم يسمون هؤلاء الأئمة بأسماء مختلفة ، ما اتفق منها في ذلك اثنان .

فقام محمد باللسان ، وصمت عنه السيف إلى بلوغ الكتاب أجله (٤) ، فأظهر العلوم ، وبين الحقائق وكشف لخصائمه منها السر المكتوم ؛ فظهرت منه حقائق ومعجزات ، ودلائل وآيات ، لم تظهر في الأئمة من قبله ، ولا قام أحد من الأئمة كمثلها ، لأنه السابع صاحب القوة والظهور ، والضياء والنور ، ومبين العلم المستور . وكان محمد بن إسماعيل متم الدور المنتهية إليه غاية الشرائع المختومة به ، المشتمل على مراتب حدودها ، المحيط بعلومهم . وهو القائم بالقوة ، صاحب الكشف الأولى ؛ لأن القائم بالفعل هو القائم الكلى ، الذى هو صاحب الكشف الأخرى والبطشة

(١) السرب : بتشديد السين المقترحة ، الحفير تحت الأرض ، والطريق .

(٢) يقصد به هارون الرشيد ، كما أن ضد جعفر الصادق هو أبو جعفر المنصور .

(٣) في الأصل ما بينهما .

(٤) في الأصل « إلى بلوغ كتاب أجله » .

العظمى ؛ قائم القيامة الكبرى ، لأن القيامات كثيرة ، أولها المأذون المكفوف ، ثم
المأذون المطلق ، ثم الداعي المحرم ، ثم الداعي المطلق ، ثم داعي البلاغ ، ثم الحجّة ،
وغايتها الباب . وإنما كانت هذه الحدود قيامات ، كقيام كل واحد منهم بما يتصل
من الصور المجردة المفارقة للأجسام الصائرة إلى أفقه المعروفة به .

ويتلو هذه القيامات قائم قيامة كبرى ، وهو المقام الذى هو الإمام عليه أفضل
السلام ؛ فهو قائم القيامة ونهاية النهايات ، وكل أحد من ذكرنا قائم بنسبة إلى من
دونه . ويتلوها جميعا قائم القيامة الكبرى ، صاحب البطشة العظمى ، المجتمعة عنده
جميع المقامات ، وهو لهم غاية الغايات الشريفة ، الجامع لها . . . وإنما وقع عليه
اسم الناطق السابع لنطقه بالأمر الإلهى ، وجمعه للفضل الذى هو إليه متناهى ،
وليس يتم ولا رسول ، بل هو منفرد برتبة الوحدة ، وقد تم التمام ، واتسق النظام .
وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك ، لانتظامه فى سلك مقامات دور الستر ، لأنك
إذا عدت آدم ووصيه وأئمة دوره ، كان خاتمهم الناطق ، وهو نوح عليه السلام . . .
وإذا عدت عيسى ووصيه وأئمة دوره ، كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم متسلما لمراتبهم ، وهو الناطق
الخاتم للنطقاء ، وكان وصيه عليه السلام بالفضل منفردا . وإذا عدت الأئمة فى
دوره ، كان محمد بن إسماعيل سابعهم ، وللسابع قوة على من تقدمه . فلذلك صار
ناطقا وخاتما للأسبوع وقائما ، وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس ببيان
معانيها ، وإظهار باطنها المبطن فيها .

. . . ومحمد بن إسماعيل لم يبطل شيئا من ظاهر شريعة محمد صلى الله عليه وآله !
بل أكدها ، وأمر بالعمل بها . وعلى ذلك سنة الأئمة الطاهرين من أبنائه التابعين
لهم ، قياما بالتكليفات ومحافظة على المفترضات ، من غير ترخيص ولا إهمال ،
ولا ترك ولا إبطال ، وإنما عنى الإمام المعز بقوله : وعظمت بقيامه ظاهر شريعة
محمد ، لما كان لمعانيها مبينا ، ولأسرارها كاشفا ومجليا ، فأزال عن أتباعه وأشياعه
اعتقاد الظاهر ، على ما فيه من تعطيل وتشويه للبدع الحق بمخلوقاته ، وتمثيل وتجسيم
للملائكة الروحانيين ، واعتقاد لذلك ، على ما هو موجود فى هذه الدار . فعطل ذلك
الاعتقاد ، وبين فيه المراد ؛ كاشفا للحقائق ، وإظهار البيان الصادق ، وقيام بالتأويل
الذى عرف فيه التوحيد بحقيقته ، ونزه البارى سبحانه عن صفة خليقته ، وعرفت

الملائكة بجوهرها اللطيف ، وبين الثواب والعقاب على ما يعتقد أهل التجسيم والتكشيف .

ملحق ٣

ظهور المهدي (١)

... وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدي بالله ، ويبشرون بدولته . ثم إن الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، حتى إن كثيرا منهم تبرأ من الأمر كملك صنعاء ، وكثير منهم . ثم إن الإمام صاحب الزمان (٢) ، تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدي في كنفه ، فأظهر النقلة في سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير ، وتسمى بالإمامة ، بأمر الناص عليه . ستر على ولي الله ، وإخفاء لمقامه عن أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره . وطلوع نوره . وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعة ، ستر على ولي الله ولده القائم من بعده ، فلم يطلع أحد عليه ، ولا وقف على سر الله فيه ، إلا الخلفاء الأبرار ، المصطفون الأخيار ، العارفون لسر الله في أوليائه ، المطلعون على معرفة ما أظهر لهم من أصفياه . حتى إذا آن الميقات ، ووطد (٣) الدعوة الدعاة ، وأشاروا إلى ولي أمرهم الذي أمروا بالإشارة إليه ، وأوضحوا فضله لمتبعيهم ، ودلوا عليه ، وبشروا بظهور الشمس من غربها ، ووعدوا بدنو الميقات لظهورها من استتار حجبتها .

فقام المهدي ، صلوات الله عليه ! وقد انتشرت دعوته في الآفاق ، واستبدل بواضح براهينه أهل الخلاف فرجعوا إلى الوفاق ، فظهر من سجداسة على يد داعيه . أبي عبد الله صاحب الدعوة بالمغرب ، قدس الله روحه ! ومعه الإمام القائم بأمر الله محمد بن عبد الله ، المستحق بعده للخلافة ، والذي إليه دعوة الأولياء كافة ، والمهدي بالله كافل له في كفالته ، ومشير بعالي مقامه إلى أهل دعوته .

... وهو قائم بما قام به جده محمد ﷺ ، خاتم الأنبياء وسيد الأصفياء ، وبه .

(١) الداعي لإدريس : زهر المغان (من المنتخب من بعض كتب الاسماعيليه ، طبعة إيفانو

ص ٦٥ - ٦٧) .

(٢) المقصود به الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل .

(٣) في الأصل ووطدت .

بشر ، وبظهور أمره أنذر في مواقف عدة وإشارات جمة ، وقال : على وفاء الثلثمائة من هجرتي ، تطلع الشمس من مغربها . فكان شمس الله الطالعة ، وآيته الساطعة ، والحجاب الأعظم ، والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعته ، ومسئلهما إلى القائم بأمر الله ، ولده المنتسب إليه بتعليمه وإفادته ، وهو خليفته ، القائم منه كعلى جده أمير المؤمنين ، من محمد رسول الله الأمين ، صلوات الله وبركاته وتحياته عليهم أجمعين ! .

ماحوى

انتقال الإمامة إلى المهدي (١) والطيب بن الأمر

لأنه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله فى أرضه على بن الحسين ، صلوات الله عليه يريد بلاد المغرب ، حتى كان فى بعض طريقه ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجته سعيدا الملقب بالمهدي ، سلام الله عليه ! فثبت قواعد الدعوة ؛ وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ماجرى ، ووقى الله وليه ، سلام الله عليه ! كيده ، لما كان من زحف أبى عبد الله عليه ، وظفره واستخراجه ولى الله سلام الله عليه من سجنه .

فلما حضرت المهدي النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الإمامة فى عقبه ، سلام الله عليه ! حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، وأطمانت بموضعها من الإمام المنصور أبى على الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين بالنص عليه .

... فقام صلوات الله عليه بالإمامة ، وولى الأمر بنفسه وظهر فيه . ثم لأنه لما أراد إظهار الغيبة بما أظهرها به ، قدم النص قبل ذلك ، وأمر بإشاعته فى كافة الجزائر ، ووردت بذلك أوامره (٢) العالية القاهرة ، فى سجلاته الموضوعة عليها

(١) أبو الخطاب الداعي : كتاب غاية المواليد ص ٣٧ - ٣٨ (من المنتخب من بعض كتب

الاسماعيلية (طبعة إيفانو) .

(٢) فى الأصل أوامر .

العلامة الشريفة ، بخط اليد العالية إلى حجته ووليته المنصوبة بجزيرتنا (١) من قبل آبائه الأئمة الطاهرين ، سلام الله عليهم أجمعين ! بسمع منا ووقوف بين يديها ، وإيضاحها ذلك لنا ، وشهادتها بصحة ماورد عليها ، وقيام الأدلة المتظاهرة ، والبراهين الباهرة على صحة ذلك بما تقدم ذكره .

ملحق ٥

الواجب على الأمة للأئمة (٢).

إذا كان العلماء في زمان إمام حق ، وأهله فاسقون ، وجب على العلماء عرض أنفسهم إليه ، ليسلمهم إلى الأشكال والحدود التي يجدها أبلغ وأنفع لما يريد . فالذي يجب على عبد أمير المؤمنين من هذا ، كشفه لمولاه من حال نفسه ، اعتقاد ولايته والإخلاص له فيها . وذلك أصل ما لا يزكو عمل إلا به ، والصدق فيما يعوله له وعليه ، لا يسأل الله عن كذب إن شاء الله لا يتعمده ولا يقصده ، والتسليم لمولاه ، واستفراغ الجهد فيما يتحرى به رضاه ، وأمير المؤمنين أعلم بعبدته وما يراه أهلاله . فإن وقع من قوله أو فعله شيء بخلاف موافقة مولاه ، فمن حيث رأى أن يقع ذلك بموافقة وهواه . وقد قال جده (٣) رسول الله ﷺ : قد تجاوز الله لأمي عن خطئها ونسيانها ، وما أكرهت (٤) عليه ، وأمير المؤمنين ﷺ محي سنة جده ، ومقتفي أثره ، ومنجز وعده لأهل عصره ، ومتبع أمره .

ملحق ٦

في محاولة عبيد الله فتح مصر (٥).

يقول المعز لدين الله : سمعت المنصور بالله يقول : أمر المهدي بالله القائم

(١) المؤلف يعني ، ويقصد بجزيرته بلاد اليمن ، وبحجة الامام ووليته السيدة أروى الصليحية ملكة اليمن المتوفاة سنة ٥٣٣ هـ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) الضمير يعود إلى المعز .

(٤) في الأصل ما لا أكرهت .

(٥) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

بأمر الله عم ، بالنهوض إلى مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! قد خولك الله وملكك ، وأعطاك من الدنيا ما فيه وسعة وكفاية . فعلام تغم نفسك ، وتشغل صدرك ؟ دع هذا حتى يأتي الله به عفوا . فقبض صلى الله عليه وسلم كفه اليسرى وقال : نعم ! هذا المغرب في قبضتي هذه ، وبسنت اليمين وقال : ولكن كفى هذه من المشرق صفر ، إن ثقل عليك ما أمرتك به ، خرجت له بنفسى . قال : بل أنفذ لما أمرت به يا أمير المؤمنين ، وأسارع إليه . قال المعز صلى الله عليه وسلم : ولقد علم المهدي صلى الله عليه وسلم أنه لا يصل إلى ذلك ، ولكنه أحب أن لا يضيع الحزم ، ولم يرتك ما افترض الله عز وجل عليه من الجهاد في سبيله .

ملحق ٧

في فضل كتامة على الفاطميين (١)

يقول المعز لدين الله في كتامة : « بارك الله فيهم ، وكثر أعدادهم ! فما أسرتهم وباحثفاهم ! وما أحب إليّ أشخاصهم ، وأزين في عيني مناظرهم . ثم نظر عم إلى فقال (٢) : رأيت مثلهم في بهائمهم ، وجمال مراكبهم ، وحسن مناظرهم ؟ أما أنى ربما أقول في نفسى إذا أعجبنى ذلك منهم : إن ذلك لفرط محبتي لهم ، فقلت : هم والله على ما وصفهم أمير المؤمنين عند الولي والعدو . ولقد اتصل بنا من غير وجه ، أن مغلدا وأصحابه اللعناء كانوا يقولون أيام الفتنة ، وهم يقاتلونهم : أما ركوب كتامة وجمالهم فيه ، فما ندعيه ولا ننازعهم فيه ، فقال : هم والله الذين أذاقوهم طعم الموت ، وأحلوهم محل الذل ، وأخرجوهم قسرا بظلمات السيوف وحدث الرماح ، حتى ألحقوهم بقن الجبال في أطراف البلاد ؛ ثم استنزلوهم منها قسرا ، وأبادوهم قتلا ، بنصر الله لوليهِ وبركة مقامه وسعادة جده وأيامه ، وطاعتهم له ، وصبرهم معه .

فقال بعض العميد الضعالية : فنحن يا أمير المؤمنين ، فما ترى أنا قصرنا ، وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثل ما كان لغيرنا ، فننازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ، ومن استشهد منا . فقال عم : لا سواء بهم (٣) . إنا ملكناكم

(١) الثمان : المجالس والمسائرات ج ٢ ص ١ - ٥ .

(٢) الضمير يعود إل أبي حنيفة الثمان المغربي

(٣) بمعنى أنه لا يتساوى أحد بالكتاميين .

ولم نملكهم بكم . أرأيت لو تركت أنت وأمثالك في بلدانكم ، أكنتم تأتوننا ؟ قال : لا ! قال : فهؤلاء أتونا طائعين ، وبذلوا لنا أنفسهم راغبين ؛ مضى على ذلك أسلافهم ، وثبت عليه أخلافهم ، للسلف منا وللخلف ، قرنا فقرنا ، وجيلا فجيلا . والله ما وفيت أمة من الأمم لنبي من الأنبياء ، ولإمام من الأئمة ، ولا لملك من ملوك الدنيا ، ولا وفي لها ، وفاءهم لنا ووفاءنا لهم ، إلا وقد تداخل أولئك الفشل ، واعتراهم الخلل ، وحال عليهم ملوك الدنيا ، واستأثروا غيرهم دونهم ، واطرحوهم وأوقعوا بهم . وهؤلاء أجدادهم مع أجدادنا وآباؤهم مع آبائنا ، وهم معنا ، وكذلك يكون أعقابهم مع أعقابنا إلى يوم الدين إن شاء الله .

ملحق ٨

عييد الله والزعامة في الرملة (١)

يقول جعفر الحاجب : « وصلنا إلى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه ، فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي ع م كيف يخدمه ، ورفع المهدي فوق رأسه ، وقبل يديه ورجليه . قال : فأذكر قيامي على رأس المهدي أنا وطيب (٢) ، وأبو يعقوب على المائدة ، والعامل مع المهدي والقائم وفيروز يتغدون ؛ إذ ورد النجائب الذي ورد إلى دمشق من بغداد بكتاب القبض علينا ، وبصفة المهدي واسمه . قال : فقرأه العامل ودفعه إلى المهدي عليه السلام . فلما وقف على ما فيه انكب العامل على رجلي المهدي ع م يقبلهما ويبكي ، فقال له المهدي عليه السلام : طب نفسا وقر عينا . فوالذي نفسي بيده لا وصلوا إلى أبدا ، ولنملك أنا وولدي نواصي بني العباس ، ولندوسن خيولي بطونهم ، فلا تحش على شيئا مما ترى . فمكتب عامل الرملة إلى عامل دمشق جواب كتابه ، بأنه ما رأى هذا الرجل ولا هذه الصفة ، ولا علم بجوازه إن كان قد جاز ، وإن لم يكن قد جاز فنحن نترصده على كل طريق إن شاء الله . قال جعفر : فجدد المهدي ع م البيعة على عامل الرملة ، وأقمنا عنده . . . فسقطت في تلك الليلة نجوم ، فخرج المهدي والقائم ، صلوات الله عليهما ! والعامل والجماعة إلى سطح دار العامل ينظرون ، وقد انقلبت المدينة بصراخ الناس ، والابتهال إلى

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٢ (مجلة كلية الآداب سنة ١٩٣٦) .

(٢) أحد عييد سعيد الخير ، ومثله أبو يعقوب .

الله عز وجل ، قال : كان سقوطها تلك الليلة في سنة تسع وثمانين ومائتين في شهر رجب ، فرأيت المهدي قد شديده على يد العامل ، وقال : هذه النجوم إحدى دلائلي ، ومن بعض علاماتى .

ملحق ٩

عيد الله في مصر (١)

قال جعفر : « وسرنا من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو علي الداعي ، وكان مقبياً يدعوا بها ، وأكثر دعاة المهدي من قبله . وكان فيروز الذي دعاه ورباه ، وزوجه ابنته أم أبي الحسين وولده . فتقدم إليه المهدي عليه السلام قبل دخولنا مصر بأن لا ينزله عنده ، ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عندهم يثق به ، فأنزله عند ابن عياش . قال : فما أقننا إلا يسيراً حتى ورد الرسول إلى مصر في طلبنا ، قال : فوجه صاحب مصر (٢) في ذلك الوقت إلى ابن عياش ، فأعلمه بالرسول ، وأقرأ عليه الكتاب ، فقال ابن عياش : أما الرجل النازل عليّ ، فوالله لا وصل إليه شيء إلا ما يصل إليّ ، لأنه رجل هاشمي شريف تاجر من وجوه التجار ، معروف بالفضل والعلم واليسار . والذي أتى الرسول في طلبه قد أعطيت خبره ؛ إنه توجه إلى اليمن قبل ورود هذا الرسول بمدة طويلة . قال جعفر : فقال العامل لابن عياش : نحن نقضى حقتك في هذا الرجل وحقه ، ولكن لا بد لنا أن نبدي عذراً بالقبض على بعض غلماننا ، ونقررره خوفاً من أصحاب الأخبار ، والأمر يجرى له ولك على ما تحب ويحب إن شاء الله . قال جعفر : وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه ، وقدمت إلى التقرير ، وعلقت وضربت أسواطاً يسيرة ضرباً خفيفاً لم يكن عليّ منه بأس . »

ملحق ١٠

الآمن في عهد أبي عبد الله الشيعي (٣)

يقول جعفر الحاجب : تقدم إلى المهدي « أن أطلب له مزيناً ، وقال : اجتهد

(١) سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣ - ١١٤ . (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦ م)

(٢) عيسى النوشري .

(٣) محمد بن محمد النجاشي : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٧ - ١١٨ . (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد سنة ١٩٣٦ م)

في أن يكون غريبا ، قال : فخرجت ، فلقيت مزيينا عليه أثر السفر ، فقلت له : أغريب أنت ؟ قال : نعم ! قلت : متى دخلت هذا البلد ؟ قال : في يومى هذا ، فأخذته معى وجئت به إليه ، وعرفته أنه غريب . فلما رآه سأله عن اسمه وعن بلده ، وهل هو حر أو مملوك ، وكذلك كانت عادته عليه السلام إذا رأى شخصا لا يعرفه ، لم يكلمه ولم يؤانسه ، حتى يسأله عن اسمه ونسبه وبلده . فلما سأله عن جميع ذلك ، عرفه الرجل أنه من أهل إفريقية من القيروان ، وأنه غاب عنها مدة طويلة إلى بلد كتامة ، ومنه وافي إلى هذه المدينة . قال له : كيف استطعت دخول بلد كتامة والمقام فيه على ما قيل فيه من الفتن وتغير السنن ؟ قال له : والله يامولاي ! ماله ولرسوله سنة صحيحة إلا ببلد كتامة . قال له المهدي عليه السلام : هذا خلاف ماوردت به الأخبار من كل الجهات عن الرجل الخارجى بها ، فقد قيل إنه لقد فتتهم ، وأحل لهم البنات والأخوات ، ورفع عنهم الصوم والصلاة . قال له المزين : والله الذى لا إله إلا هو ، ما من هذا يامولاي قليل ولا كثير ، ولا لله دين إلا الذى عليه الرجل الذى ببسند كتامة . فقال المهدي : ما الذى استحسنت من أفعاله ، حيث أراك تمدحه هذا المدح الذى لا يجامعك عليه أحد ؟ فقال له : والله يامولاي لقد شاركت شريكا ، وقلت له : اعزم بنا أن ندخل في مدينة سطيف (١) ، ونعمل بها مدة شهر ، فما قسم الله عز وجل لنا من رزق قسمناه بيننا ، فسرنا إليها ؛ فلما أردنا الدخول من باب المدينة ، منعنا من الدخول بسلاحنا إليه ، قلنا لهم : فكيف نعمل به وليس نعرف هاهنا أحدا نودعه إياه ؟ فقالوا لنا : اطرحوه خلف سور المدينة ، فقلنا : وكيف نضع سلاحنا؟ فقلل لنا : اطرحوه ولا تخافوا عليه ! قال : فطرحناه ودخلنا المدينة واحتسبناه ، لأن الرجوع شق علينا بعد أن وصلنا المدينة ؛ فأقننا فيها شهرا ، ثم خرجنا ، فإذا سلاحنا بحاله ماضاع لنا منه شيء . فهدده يامولاي سيرة رجل يرمى بالكفر وتبديل الشريعة . قال جعفر : فرأيت وجه المهدي عليه السلام يتهلل .

(١) في الأصل سطيق ، والصواب سطيف ، وهي من مدن كتامة كما رأينا .

ملحق ١١

المناظرة الأولى بين أبي عثمان (١) سعيد بن محمد بن الحداد

وأبي العباس أخى أبي عبد الله الشيعى (٢)

وقال أبو عثمان سعيد بن محمد : أتانى رسوله ، يعنى أبا العباس ، فدخلت عليه في قصر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وحوله وجوه أصحابه ، ومعى موسى القطان ، فسليت وجلست . وقد كان أتاه قبل ذلك جميع أهل بلدنا ، أعنى من أهل العلم ، بغير إرسال . فقلت له : قد كان من كان قبلك في هذا القصر ، وقد علم الله وعلم من حضر من أصحابنا ، أنى لم أكن بجيأ للهلك ، ولا آتى أحدا منهم بغير رسول . فتكلم ثم قال لى : من أين قلت بالقياس ؟ قلت (٣) : قلته بكتاب الله ، قال : وأين هو في كتاب الله ؟ قلت : قال الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاءه مثل ما قتل من النسم ، يحكم به ذوا عدل منكم) (٤) . فالصيد منصوص ، والذي أمرنا أن نمثله بالمنصوص ليس بمنصوص ، فعلينا بذلك أن من دين الله تمثيل ما لم ينص بما نص .

قال أبو عثمان : تم قال : ومن ذوا عدل ؟ وأوما إلى أنهم قوم دون قوم فقلت : هم الذين قال الله فيهم في المراجعة من الطلاق ، (وأشهدوا ذوى عدل منكم) .

(١) من كبار علماء القرن الثالث وأوائل القرن الرابع في بلاد المغرب ؛ اشتهر بالمناظرة والجدل فيها ، وكثير نقاشه مع الشيعيين . وقد ناظر أبا العباس أخا أبي عبد الله مناقشات كثيرة ، أهمها تلك المناظرات الأربع التى وردت في كتاب طبقات علماء إفريقيا ؛ ولذلك يعد أبو عثمان من كبار العلماء السنيين في بلاد المغرب ، الذين ذبوا عن الاسلام . يشهد بذلك ما قيل فيه : « كانت لأبي عثمان مقامات كريمة ، ومواقف مجودة في الدفع عن الاسلام ، والذب عن السنة » . ناظر فيها أبا العباس المندوم ، أخا أبي عبد الله الشيعى الصنعائى بملء فيه ومنى نفسه ، مناظرة القسرين المساوى ، بل مناظرة المعتز المتعالى ، لم يتلثم لفظاعة المقام ، ولا أحجم لهيبة الساطعان ، ولا خاف مما خيف عليه من سطوة الحدثنان . ولقد قال له ابنه محمد يوما : اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل ، فقال له : حسبي من له غضبت وعن دينه ذبيت ، (طبقات علماء إفريقيا ص ١٩٩) .

(٢) أبو العرب محمد بن أحمد النخعى : كتاب طبقات علماء إفريقيا (الجزائر سنة ١٣٣٢ هـ -

١٩٤٠ م (ص ١٩٩ - ٢٠٢) .

(٣) في الأصل قال ، والصواب قلت .

(٤) سورة المائدة آية ٩٥ .

قال أبو عثمان : وأجابه موسى القطان من فوري^(١) بحديث عليّ في الخمر إذ قال في السكران : إذا سكر هذى ، وإذا هذى افتري ، فوجب عليه ضرب ثمانين أدنى أن يضرب ثمانين . فقال له : ألم يقل النبي ﷺ ، عليّ أفضلكم . قال أبو عثمان : فقلت لموسى وهو إلى جنبي : وفي الحديث « ومعاذ أعلمكم بالحلال والحرام ، وعمر أقواكم في دين الله » ، فكلمه بذلك ، فغضب وقال : أياكم أقواكم في دين الله من فر بالراية يوم خيبر ؟ فقال له موسى : ماسمعنا بهذا ، قال أبو عثمان : فقلت : قال الله : « لا تمسحوا بالقتال أو تمسحوا إلى قسّة » . فعمر من تحرف لقتال ، أو تحيز إلى فئة . فقال : وأي فئة أكثر من النبي ، وقد كان حاضرا ولم يتحيز إليه ، فقلت : جاء عنه ﷺ أنه قال : عمر فئة ، فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة . فسكت . فخرجه بعض أصحابه وقال : ألا تسمع ما يقول هذا الشيخ ؟ فقال : صدق ، أو نحو هذا من القول . سمعتها أنا منه ومن كان يليه .

قال أبو عثمان : ثم عطف فقال : أنتم تبغضون عليا بأهل المدينة ، قال أبو عثمان : عليّ مبغض عليّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وكيف أبغض عليا وقد سمعت سمخون بن سعيد ، وهو إمام أهل المدينة بالمغرب ، يقول : عليّ بن أبي طالب إمامي في ديني ، أهتدي بهديه ، وأستمد بسنته ، ورحمة الله عليه . فقال لي : بل صلوات الله عليه ، قال : فرفعت صوتي وقلت : إن الصلاة في كلام العرب الدعاء ، وقلت : قال الأعشى :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا :

يارب جنبّ أبي الأوصاب والوجع

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي

نوما ، فإن لجنب المـرب مضطجعا

قال أبو عثمان : سم قلت : نعم ! صلى الله على عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين ، وأهل طاعة الله أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ! قال أبو عثمان : ثم قال لي : أليس عليّ مولاك ؟ يقول النبي : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . قال ، قلت : هو مولاي بالمعنى الذي أنا به مولاه ، ولا ولاية ، لا ولا عتاقة ، لأن المولى في كلام العرب متصرف : يكون المولى ، ويكون ابن العم ، ويكون المعتق ، ويكون المنعم عليه . ثم قلت : قال الله حكاية عن زكريا :

(وإني خفت الموالى من ورائي)، يريد العصبية. وقال ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم. يريد أن الله ولي المؤمنين، وأن الكافرين لا ولي لهم. وقال في المؤمنين: وبعضهم أولياء بعض؛ فعلى مولى المؤمنين، لأنه وليهم وهم مواليه بأنهم أولياؤه، فعلى مولاى بالمعنى الذى أنا به مولا.

قال أبو عثمان: ثم قال لى: فالحديث الآخر وأنت منى بمنزلة هارون من موسى. قال: قلت هارون كان حجة في حياة موسى، وعلى لم يكن حجة في زمان محمد ﷺ، ولم يكن بأخيه، وإنما كان له وزيراً، والمؤمنون وزراء رسول الله ﷺ. قال: ثم قال لى: أليس على بأفضلهم؟ قال: فقلت له: الحق متفق عليه، غير مختلف فيه، قال لى: نعم! قال فقلت له: قد ملكت مدائن كثيرة قبل مدينتنا هذه وهي أعظم مدينة، واستفاض الخبر عنك أنك لم تكره أحداً خالفك في مذهبك، على الدخول فيه، فاسلك بنا مسلك غيرنا.

ملحق ١٢

المناظرة الثانية بين أبي عثمان وأبي العباس (١)

قال أبو عثمان: ثم دخلت عليه في مجلس ثان، فأقبل يسأل من حضر من المدينيين والعراقيين السنة ما هي؟ فقال بعضهم: السنة (هي) السنة. وما درى أحد منهم ما يجيب، قال: ثم حوّل وجهه إليّ وقال: بلغني أنك تقول بالكتاب والسنة، ولكن السنة ما هي؟ فقلت له: السنة محصورة في ثلاثة أوجه، فقال: وجهها، فقلت: الائتجار بما أمر به رسول الله ﷺ، والانهاء بنهيه، والإتمام به في فعله ﷺ، قال: فقال لى: فإذا اختلف عليك فيما نقل إليك عنه من الحديث، قال قلت: أطلب الدليل على موضع الحق في أحد الأحاديث، ويكون سبيلى في ذلك سبيلى من شهد عنده شهود، فاختلفوا في شهادتهم، فقال بعضهم: أعلم، وقال بعضهم: لا أعلم. فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق في إحدى الشهادات، فقال أبو العباس: أناظركم على أنى إن وجدت الحق في مذهبكم رجعت إليه، وإن وجدت الحق في مذهبي رجعت إليه، أليس هذا الإنصاف كما قال الله: (قل فأتوا بكتاب من عند الله

(١) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي: طبقات علماء إفريقية ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١).
 قال أبو عثمان : فقلت : أئى الله ما ذكرت ، ولم تدر ما أراد الله . إنما أراد النفي لأن
 يأتوا بكتاب هو أهدى منهما ، لا على أنه يمكن أن يأتوا بكتاب أو بسورة من مثله ،
 وهو القائل : (قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
 لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٢). فنفي عنهم الإتيان بكتاب هو
 أهدى منهما ، كما قال عز وجل : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنْ
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) (٣).
 فعلم بذلك أنه إنما دعاهم بحجهم عن الإتيان بسورة من مثله . قال : فبادر إلى
 ابن عبدون وقال لى : يا أبا عثمان ! الحق بنا لنا ، فنهضنا ، فقال لى بعد الخروج :
 خفنا أن يطرد الكلام ، فبادرناك بالقيام .

ملحوظة ١٣

المناظرة الثالثة بين أبى عثمان وأبى العباس (٤)

قال أبو عثمان : دخلت عليه فأجلسنى معه فى مكانه ، وهو يقول لرجل من أهل
 العراق : المعلم يكون أعلم من المتعلم أبدا ، والعراقى يقول : نعم ! وأهل المجلس
 لا ينطقون ، قال : فقلت : بقی شيء أو أتكلم ؟ فتبادى وقال : أليس المتعلم يكون أبدا
 محتاجا إلى المعلم ؟ والعراقى يقول : نعم !

قال أبو عثمان : وفهمت مراده وقصده ، وإنما أراد تأكيد الطعن على أبى بكر
 الصديق ، إذ سأل عليا عن فرض الجدة ، وذكر لى معنى ذلك . فبدت وقلت :
 أسمع كلاما يجب على الله فيه ألا أسكت ، فقال لى : وما ذلك ؟ فقلت : المتعلم
 يكون أعلم من المعلم وأفقه ، ويكون أفضل منه أيضا ، فقال لى : وما دليلك على ذلك ؟
 قال : قلت رسول الله ﷺ حيث يقول : رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ،

(٢) سورة القصص آية ٤٩ .

(٣) سورة الامراء آية ٨٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٣ - ٢٤ .

(١) التفسير : ما يأتى علماء إفریقیة ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

جرب حامل فقه غير فقيه ، قال : قلت : وأخرى ، ما هو معروف بين الخليقة ، أن المعلم يعلم الصبيان ، فلا يزال يعلم حتى يكبر الصبي ، فيعطى الله الصبي من الفهم بخاص القرآن وعامه ، وغير ذلك من أسباب العلم ووجوهه ، مالا يقدر عليه معلمه . قال لى : اذكر من خاص القرآن وعامه شيئا . فقلت : نعم اقال الله تعالى : (ولا تشكروا المشركات حتى يؤمن) (١) ، فكان ظاهرها العموم . فلما قال فى موضع آخر : (يسألونك ماذا أحل لهم قل : أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) (٢) ، دل على الآية الأولى ، أنه إنما أراد بها الخصوص : المشركات غير الكتابيات .

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فمن المحصنات ؟ قال : قلت : العفاف ، فقال : المحصنات المتزوجات . قال : فقلت له : الإحصان فى كلام العرب التى نزل بلسانها القرآن ، الإحراز ، فمن أحرز شيئا فقد أحصنه . فالإيمان إحراز لدم صاحبه وماله ، والعق يحصن المملوك ، لأنه يحرسه من أن يجرى عليه ما يجرى على المملوك ، والتزويج يحصن الفرج من أن يكون له مباحا ما كان له قبل التزويج ، والعفاف إحصان لأنها أحرزت فرجها بالعفاف . قال أبو عثمان : فقال لى : ما الإحصان عندى إلا النكاح . قال : فقلت له : فنزل الفرقان يأتى ما ذكرت . قال الله عز وجل : (ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها) (٣) يريد أعفته . قال : أعفته ؟ قال : نعم أعفته ، وقال : (محصنات غير مسافحات) ، يقول : عفاف غير زوان . قال : فقد قال فى الإمام : (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) . فكيف يقول العذاب على المحصنات وهن عندك قد يكن عفاف ؟ قال : قلت : سماهن بمقدم أسماهن قبل زناهن . قال الله تبارك وتعالى : ولكن نصف ما ترك أزواجكم ، وقد انفصمت العصمة بالموت ، يريد اللاتى كن أزواجكم ؛ وهذا كثير . قال أبو عثمان : وذكرت من ذلك ، فعارضنى بعض أحداث العراقيين ، فقلت له : أمسك يا حدث ! قال : فلم ينطق .

(١) سورة البقرة آية ٢٢٠ .

(٢) سورة المائدة آية ٥ .

(٣) سورة التحريم آية ١٢ .

قال : فقال لى أبو العباس : فعذاب المحصنات الرجم ، فكيف يعقل نصف الرجم وقد يقتل بواحدة ، وربما لم يقتل بأكثر من ذلك . قال : فقلت : هذا مما كنى فيه ، أراد خاصا دون عام ، أراد نصف ما عليهن من عذاب الجلد دون الرجم . فقال لى : ومن يقول بالجلد مع الرجم ؟ قال : قلت : على بن أبى طالب رضى الله عنه جلد شراحة مائة ورجمه . وقال : جلدتك بكتاب الله ، ورجمتك بسنة رسول الله ، قال : فقال لى : يا شيخ ! أنت تلوذ^(١) . قال : فقلت ليس أنا الذى ألوذ ، لأنى أنا المجيب ، وأنت الذى تلوذ ، لأنى إذا وقفتك من المسألة على حد ، لذت أنت إلى مسألة أخرى غير ما سألتني عنه . قال : ثم صحت أن لا أحد يكتب ما أقول ويقول ، توفى الله شره . قال : فكأنك تقول : إنك أعلم الخلق . قال : قلت : أما بدينى فنعم ! لأن دينى هو الحق الذى ليس الحق فى سواه . قال : أفما تحتاج فيه إلى زيادة . قال : قلت : لا ! قال لى : فأنت إذن أعلم من موسى حين قال للخضر : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ؟ قال : قلت : قائل هذا القول غامض على موسى فى نبوته ، إذ يزعم أن الله اصطفاه برسالاته وبكلامه ونبوته ، وهو يحتاج إلى أن يعلم بعد ذلك شيئا من دينه . معاذ الله ! إنما كان العلم الذى كان عند الخضر ، علم سفينة كان عرفها ، لعله بالملك الذى يأخذ كل سفينة غصبا ، وغلاما قتله لعله بكفره ، وإيمان أبويه ، وجدارا أقامه علما بالكمنز الذى كان تحته ، وذلك لا يزيد فى دين موسى شيئا^(٢) .

قال أبو عثمان : ثم قال لى : فأنا أسألك . قال : قلت : أورد أبدا ، وعلى الإصدار بالحق ... قال : قال لى : ما تفسير «الله» ؟ قال : قلت : ذو الإلاهة (لعلها الألوهية) . قال : وما الإلاهة ؟ قلت : الربوبية . قال : وما الربوبية ؟ قال : قلت الملك للأشياء . قال : فقال لى : فقريش كانت فى جاهليتها تعرف الله ؟ قلت : لا ! قال : لا ! قلت : لا ! لأنها كانت تقول : الله ذو الشركاء والآلهة ، فلم تعرفه إذ قالت ذو الشركاء . وإنما يعرف الله من قال : إن الله وحده لا شريك له .

قال : فمن الذين آمنوا ؟ قال : قلت : نحن ومن ترى ، وأوميت إلى أصحابنا .

(١) يقصد هنا أنت تتعرب .

(٢) يشير بذلك إلى ما ورد فى سورة الكهف آيات ٦١ - ٨٢ .

وهم بين يديه . وقال : ومن الذين هادوا ؟ قال : قلت هذا من ذلك الذي تقدم ذكره .
سماعهم بمتقدم ، كلمة كانت منهم يأتونها ، وكانوا بها مسلمين ، يقولون هتدنا إليك .
قال : فمن النصارى ؟ قال : قلت : المتكلمون في المسيح - صلى الله على نبيينا محمد
وعليه ! قال : فمن الصابئون ؟ قال : قلت : هم الذين عبدوا الملائكة ، وزعموا أنهم
بنات الله . قال أبو عثمان : وهذا قول أهل العلم ، فبدأت بجوابهم قبل أن أجيبه
بكلام المتكلمين . قال أبو عثمان : فقال لي : هم الذين عبدوا الملائكة قال : قلت : نعم !
وزعم هشام أنهم أصل المنانية^(١) . قال : فمن الذين أشركوا ؟ قال : قلت : هم الذين
عبدوا الأصنام ، الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب بآية من
سورة براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض
أربعة أشهر^(٢) . قال : فقال لي : وما كانت تعبد قريش ؟ قلت : الأصنام ، قال لي :
وما الأصنام ؟ قلت : الحجارة ، قال لي : والحجارة كانت على النسكر ، لأن تكون
الحجارة هي الأصنام . قال : قلت : نعم ! والعزى كانت تعبد ، وهي شجرة ، والشعري
كانت تعبد ، وهي نجم . الله يقول : أمّن لا يهدي إلا أن يهدي ، فكيف تقول : إنها الحجارة
والحجارة لا تهدي إذا هديت ، لأنها ليست من ذوات العقل ، فعارضني بعض أهل
المجلس ، كالمعين له . فقال : كيف تعقل الحجارة وليست من ذوات النطق ؟ قال :
فقلت للمعارض : أمسك ! مالك ولذا ؟ ثم قلت : قد أخبرنا الله أن الجلود تنطق في
الآخرة ، وليست من ذوات النطق ، قال : فقال : نسب إليها النطق على المجاز ،
والنطق للأفواه . قال : فقلت : منزل الفرقان يأبى ما ذكرت . قال الله : (اليوم نختم
على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)^(٣) . قال أبو عثمان :
وأشرت بإصبعي السبابة إلى فمي ، فقلت : ختم الله على أفواههم ، ثم نفى بقوله :
وقالوا الجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وما الفرق
بين جسمك وأجسامنا والحجارة ، إلا أنه عقلنا الله فعقلنا ، ولو لم يعقلنا ما عقلنا ؟
وكذلك الحجارة ، إذا شاء أن يعقلها عقلت . هذا الجبل لما عقله الله عقل جلال

(١) أتباع ما في أبي الفرس القدماء ، وهم تنوية زنادقة .

(٢) سورة التوبة آية ١ - ٢ .

(٣) سورة يمين آية ٦٥ ، وردت كلمة يكسبون في الأصل يعملون .

تجلىه واندك ، قال الله تبارك وتعالى : (فَلْيَسَّاجِدْ لِرَبِّهِ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّا) (١) .

ملحوظة ١٤

المناظرة الرابعة بين أبي عثمان وأبي العباس (٢)

قال أبو عثمان : هذا مجلس دار بيني وبينه (٣) ، ما رأيته أقرب إلى الإنصاف منه فيه . وكأنه في مناظرته لي ، إنما يناظرني عن مذهب غيره . وذلك أن المسألة جرت بيننا وبينه في باب الفاضل والمفضول ، لأن من أصل مذهبه ، القول بأنه لا يجوز تقديم المفضول على الفاضل بعد الاتفاق من الخصمين على الفاضل ، فقال لي : أليس قولك إجازة تقديم المفضول على الفاضل ؟ فقلت : أعزك الله بتوفيقه ! أنا متبع في ذلك لكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وذلك لا يخفى عن ذي لب نظر في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعدوها إلى غيرهما . قال لي : وأين تجد ذلك في كتاب الله ؟ قال : قلت له : قال الله ، وقال لهم نبيهم : **إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** ، قالوا **أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْهُ** . قال : **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ، (٤) . فقال عند ذلك كالمغضب : ليس القصة كما توهمت . فقلت له : والأمر الذي لم أتوهمه وفيه الحق عندك ، هل إلى ذكره من سبيل ؟ فقال : نعم ! ذكرت خبر طالوت ، واحتججت فيه بقول نبيهم وقول أهل الجيش . فقلت له : قال الله وقال لهم نبيهم : **إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** ، فاقصد إلى موضع حجتك هاهنا . ثم قلت : أعز الله الأمير ! لما كان خروج طالوت من فوق إذن نبيهم ، ثبت أن الله قدم المفضول على الفاضل ، إذ كنا لا نشك نحن ومن خالفنا أن نبيهم أفضل من طالوت ، وطالوت هو المفضول ، فقال لي : وهكذا اعتقادك ؟ فقلت : نعم أيها

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٢) التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ص ٢٠٨ - ٢١٠ (الجزائر سنة ١٢٣٢ هـ = ١٩١٤ م)

(٣) الضمير يعود على أبي العباس أخى أبي عبد الله الشيعي .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

الأمير ! فقال لجميع من حضره من حوله من أهل المجلس : انهموا عنا ، ثم أوماً إلى وقال لي : إنما كان خروج طالوت من تحت يدي نبيهم ، لا كما توهمت أنه من فوق إذنه . لأن نبيهم هو الذي أخبرهم أن طالوت مقدم على الجيش . فلما كان هذا هكذا ، كان الفاضل بعد هو المفضل ، فقد تبين فساد قولك وتناقضه . فقلت له : إني بإذنك أستوفي حجتي ، فإن أذنت لي في الكلام أثبت على ما أريد ، فقال لي : قل ، ولا تبق من حجتك شيئاً .

فقلت له : نفس الآية لي شاهد ، ولا تكون الحجة من غيرها ، وذلك أن الله أخبر عن نبيهم أنه قال لهم ، إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، ولم يقل : إني بعثته لكم . فلما جاء الخبر من نبيهم وأضافه إلى الله لا إلى نفسه ، وجب بهذا أن أمر طالوت من فوق إذن نبيهم ، وكذلك قالت الآية . ثم قلت له : وهذه سنة رسول الله ﷺ ، فانظر منها إلى تقديم المفضل على الفاضل ، وهو ما لا ينكره أحد . من ذلك أن رسول الله ﷺ أمر على جيش عمرو بن العاص (١) ، فكان يقسم النخيل ويأمر وينهى فيطاع ، ويصلي لهم الصلوات ويشاورونه ويستأذنونهم في جميع شأنهم وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر ، وهما جميعاً أفضل منه ، لا يشك في ذلك أحد ، وأيضاً أن النبي ﷺ أمر على جيش زيد بن حارثة ، فكان يفعل في ذلك وفيمن تحت يديه من المسلمين كفعل عمرو بن العاص فيمن تحت يديه من المسلمين ، وتحت يديه في الجيش ذو الجناحين جعفر بن أبي طالب ، وهو أفضل من زيد بن حارثة . فلما ثبت ذلك عندنا وقام مقام العيان ، جاز للأمة تقديم المفضل على الفاضل . فقال لي : نحن لا نقول كقولك ، إن للأئمة أن تجتمع ، فتقدم على نفسها إماماً ؛ وإنما يكون الإمام من اصطفاه الله ورسوله . وأما من لم يقدمه الله على خلقه ، ولم يقدمه رسول الله ﷺ ، فكيف له والتقديم ؟

فقلت : أعز الله السيد ! إن الذي اصطفاه الله ورسوله ، لا يعدو إحدى منزلتين . إما أن ينطق به كتاب ناطق ، أو سنة ثابتة عن رسول الله . ولما لم نجد في كتاب الله ، أن الله نصب إماماً ، وفرض طاعته ، ولا رسوله ، لم يقم لإنساناً بعينه فيقول : أيها الناس ! هذا وصي وخليفة من بعدي . وكان يقول صباحاً

(١) في الأصل ابن العاص .

ومساء : خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا : كتاب رب ، وحواري أصحائي ؛
علينا الحلال والحرام ، وما نأتى وما نذر . كأن من اجتمع المسلمون عليه ، ثابت
الأمر ، صحيح الأحكام ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله . وما لم تجده في كتاب
الله ولا في سنة رسول الله ، فهو مأخوذ من الاجتهاد ، ومن أتباع السلف المتقدمين .
هذا قولنا ، والأمر على ذلك إلى هذا الوقت . فقال لي : قد ثبت فساد هذا عليك
في صدر مناظرتنا ، بما أوردته عليك في تقديم المفضول على الفاضل .

فلما سمعت كلام رجل يباهت العيان ويحول عن الحق ، رأيت الصواب في
الإعراض عن معارضته ، وذلك أني لم أحتج عليه بحجة عقل ، ولا وزن من قياس ،
ولأنما قابلته بكتاب الله وأفعال نبيه ﷺ ، وإجماع المسلمين ، وجعل يدخل عليَّ
كثرة الاستفهام وكثرة التكرار ، بلا حجة حاسمة ولا برهان مبين . نعوذ بالله من
الحيرة في الدين . وإياه أسأل المعونة والتوفيق .

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب ، وقد رتببت أسماء المؤلفين
في جميعها حسب أحرف الهجاء .

ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٢٨ م) : علي بن أحمد بن أبي الكرم .

١ — "الكامل في التاريخ" ، ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤ هـ) .

أرندونك : فان Arendone : Van

٢ — "De Opkomst Van Het Zaidieeische Imàmaat in
Yemen" (Leiden, 1919).

أرنولد : توماس ر . Arnold : Thomas W.

٣ — "The Preaching of Islam", 3rd edition, by
Reynold A. Nicholson (Lond. 1935).

الآشعري (٣٢٤ هـ = ٩٣٥ — ٩٣٦ م) : أبو الحسن علي بن إسماعيل .

٤ — "مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين" ، جزءان (استنبول ، ١٩٢٠ م) .

إقبال : الشيخ محمد Ikbal : Sheikh Mohammed

٥ — "The Development of Metaphysics in Persia"
(Lond. 1908).

أماري : ميشيل Amari : Michel

٦ — "مكتبة صقلية العربية" ، Biblioteca Arabo-Sicula في جرتين :

أمير علي : سيد Ameer Ali : Sayed

٧ — "مختصر تاريخ العرب والتدين الاسلامي" ، (القاهرة ١٩٢٨) نقله إلى العربية
رياض رافت .

أوتينا (٣١١ هـ = ٩٢٩ م) : سعيد بن البطريق .

٨ — "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" ، (بيروت ١٩٠٩) .

أوليري : دي ليسي O'Leary : De Lacy.

٩ — "A Short History of the Fatimid Khalifate"
(Lond. 1923).

إيفانوف : فلاديمير Ivanow : Valadimir

١٠ — "The Rise of the Fatimids" (Calcutta, 1942).

١١ — "A Guide to Ismaili Literature" (Lond. 1933).

١٢ — "The Alleged Founder of Ismailism" (Bombay, 1946).

١٣ — استنار الامام : للتبصوري (نشره في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦) .

١٤ — سورة جعفر الحاجب ،، اللباني ،، (نشره في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول سنة ١٩٣٦) .

١٥ — "Kalami Pir" (Bombay, 1934.)

،، ابن كتاب مستطاب عن حقيقة مذهب إسماعيل مسمى كلام بير يعني هفت باب ،، :
وينصب خطأ إلى ناصر خسرو .

١٦ — ،، مختصر العقائد ،، لميدنا علي بن الوليد المتوفى — سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)
نشره الأستاذ ايفانو بعنوان

"A Creed of the Fatimids"

(Cambridge, 1936.)

براون : إدوارد ج. Browne : Edward G.

"Literary History of Persia—from the Earliest — ١٧

Times until Firdawsi (Lond, 1909.)

البغدادي (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

١٨ — ،، الفرق بين الفرق ،، (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م) .

البكري (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز .

١٩ — ،، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ،، (طبعة دي سلان De Slane

باريس ١٩١١) .

بلوشيه : ل. Blochet : L.

"Le Missianisme dans l'Heterdoxie Musulmane" — ٢٠

(Paris, 1903.)

تاج الدين (نقيب حلب)

٢١ — ،، كتاب غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار ،،

(مصر ١٣١٠ هـ) .

القيسي (من علماء القرنين الثالث والرابع) : أبو العرب محمد بن أحمد .

٢٢ — ،، كتاب طبقات علماء إفريقية ،، (الجزائر ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م) .

تيلور : و. س. Taylor : W. C.

"History of Mohammedanism and its Sects" — ٢٣

(Lond, 1839.)

ابن الجوزي (٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) : أبو الفرج عبد الرحمن .

٢٤ — ،، تليس إبليس ،، أو نقد العلماء (مصر ١٣٤٠ هـ) .

٢٥ — ،، المنتظم ،، رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دي سوموجي في

Revista degli Studi Orientali, vol. xiii.

ابن الجوزي (٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م) : أبو المظفر تيزوغلي سبط بن الجوزي :

٢٦ — ،، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ،، ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ،

رقم ٥٥١ تاريخ .

جولد تسيهر : Ignaz Goldziher

"Le Dogme et la Loi de l'Islam", (Paris, 1920.) — ٢٧

حسن إبراهيم حسن : دكتور

٢٨ — "الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص" ، (القاهرة ١٩٢٢) .

٢٩ — "تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي" ، الجزء الثالث ، (القاهرة ١٩٤٦) .

٣٠ — "السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية" ، تأليف فان فلون ،

وترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

ابن حماد : القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد .

٣١ — "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" ، (الجزائر ١٣٤٦) .

الحمادي (أواسط القرن الخامس الهجري) : محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي البجلي .

٣٢ — "كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة" ، (مصر ١٣٥٧ هـ) .

ابن حوقل (٢٨٠ هـ = ٩٩٠ م) : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصل .

٣٣ — "كتاب المسالك والممالك والمفاوز والممالك" ، (نشره دي غوييه - لندن ١٨٧٣ م) .

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٣٤ — "مقدمة ابن خلدون" ، (مصر ١٣١١ هـ) .

٣٥ — "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

ابن خلصكان (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الدافقي

٣٦ — "وفيات الأعيان" ، (مصر ١٣١٠ هـ) .

دوزي : R. P. A. Dozy . ب . ا . د

"Essai sur l'Histoire de l'Islamisme" (T.R.V. — ٣٧

Chauvin, Paris, 1879.)

"Histoire des Musulmans d'Espagne" (Leyden, 1861.) — ٣٨

ديفريميري : M.C. Defrémery . م . س

"Essai sur l'Histoire des Ismaéleens de la Perse." — ٣٩

ابن أبي دينار (١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م) : محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني

٤٠ — "كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس" ، (تونس ١٢٨٦ هـ) .

الذهبي (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ - ١٣٤٨ م) : شمس الدين محمد بن أحمد

٤١ — "تاريخ الاسلام" ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ

المجلد الثالث .

الرازي (٢١١ هـ = ٩٢٢ م) : أبو بكر محمد بن زكريا .

٤٢ — "رسائل فلسفية" ، (نشره بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩) .

الرضي (٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن الحسين

ابن علي بن أبي طالب .

- ٤٣ — ديوان الشريف الرضى (بيروت ١٣٠٧ هـ) .
 دي ساسي : س De Sacy : Silvestre
- ٤٤ — "Exposé de la Religion des Druzes ... précédé
 d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim—Biamr-allah",
 2 vols. (Paris, 1838.)
- ٤٥ — "Recherches sur l'Initiation à la Secte Ismaé-
 lienne (Journal Asiatique, 1824).
- ابن سعيد (٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) : علي بن موسى المغربي .
- ٤٦ — "كتاب المغرب في حل المغرب" (ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م) .
- السلوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصري .
- ٤٧ — "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" ، أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ هـ) .
- السنهوري : الدكتور عبد الرزاق أحمد باشا Sanhoury : Dr. A.A.
- ٤٨ — "Le Califat" (Paris, 1926.)
- سيولد : كريستيان فردريخ الألماني .
- ٤٩ — نشر كتاب "النقط والدوائر" من كتب الذوز (١٣١٩ هـ = ١٩٠٢ م) .
- السيوطي (٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .
- ٥٠ — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (مصر ١٣٥١ هـ) .
- أبو شامة (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين
 الملقب بأبي شامة شافعي من أهالي دمشق .
- ٥١ — "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين" ، جزءان (مصر ١٢٨٧ هـ) .
- الشهرستاني (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
- ٥٢ — "الملل والنحل" ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣٧١ هـ) .
- ابن طباطبا (٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي .
- ٥٣ — "الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية" ، (القاهرة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م)
- الطبري (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .
- ٥٤ — "تاريخ الأمم والملوك" ، ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .
- طه أحمد شرف : دكتور .
- ٥٥ — "الزندقة والزنادقة" ، مخطوط ، رسالة الماجستير .
- ٥٦ — "تاريخ الاسماعيلية السياسية حتى سقوط بغداد" ، مخطوط ، رسالة الدكتوراه .
- ابن عذارى (توفي في أواخر القرن السابع الهجري) : أبو محمد عبد الله محمد المراكشي .
- ٥٧ — "البيان المغرب في أخبار المغرب" ، نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (ليدن
 ١٨٤٨ - ١٨٥١ م) .

- عريب بن سعد (٢٦٦ هـ = ٩٧٦ - ٩٧٧ م) القرطبي .
 ٥٨ — " صلة تاريخ الطبري " (القاهرة ١٣٢٦) .
 عمارة البني (٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م) : أبو الحسن نجم الدين الحكيم البني .
 ٥٩ — " تاريخ البني " (لندن ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٢ م) ، نشره هنري كامل .
 العيني (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى .
 ٦٠ — " عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ .
 الفزالي (٥٠٥ هـ = ١١١١ م) : الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد .
 ٦١ — " المنقذ من الضلال " ، أر المال والنحل (دمشق ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) .
 ٦٢ — " فضائح الباطنية " ، أو المستظاري ، نشره جولد آشير (١٩١٦ م) .
 دي غويه : م . ج . De Goeje : M. J.
 "Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les — ٦٣
 Fatimides" (Leyden, 1886.)
 "La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahraïn" — ٦٤
 (Journal Asiatique, 1895.)
 "The Karmathians" (Encyclopaedia of Religion — ٦٥
 and Ethics.)
 فايزي : أ . أ . Fayzee : Asaf, A.A.
 "A Chronological List of the Imams and Daïs of — ٦٦
 the Musta'lian Ismailis" (Journal of Bombay Branch of the Royal
 Asiatic Society, 1934.)
 كارا دي فو Carra de Vaux
 "Les Panseurs de l'Islam" (Paris, 1926, vol. v.) — ٦٧
 ابن القلانسي (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة .
 ٦٨ — " تاريخ ابن القلانسي " ، المسى " ، ذيل تاريخ دمشق " ، مصحوب بشذرات من
 تواريخ ابن الفاروق وسبط بن الجوزي والذهبي (بيروت ١٩٠٨ م) .
 كامل حسين : دكتور محمد .
 ٦٩ — " المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي " ، رسالة الدكتوراه .
 كترمير : إتيين Quatremère : Etienne
 "Mémoires Historiques sur la Dynastie des — ٧٠
 Khaliphs Fatimites (Journal Asiatique, 1836, série ii.)
 السكندی (٢٥٠ هـ = ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف .
 ٧١ — " كتاب الولاة والقضاة " ، (نشره روفن جست)
 (E. J. W. Gibb Memorial Series, vol. xix, 1912.)

لامانس : Lammens

"Islam Beliefs and Institutions." — ٧٢

لويس : برنارد Lewis : Bernard

"The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940.) — ٧٣

ماسنيو : لوى Massignon : Louis

"Esquisse d'une Bibliographie Carmathe" (Cam- — ٧٤

bridge, 1922) مقالة نشرت في كتاب عجيب تامه

مامور : برنس Momour, Prince

"Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs" — ٧٥

(Lond., 1934.)

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي .

٧٦ — "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ، (القاهرة ١٩٣٥) .

محمد عبده : الامام .

٧٧ — "رسالة التوحيد" ، (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

المسعودي (٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .

٧٨ — "التنبيه والاشراف" ، (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

مسكويه (٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م) : أبو علي أحمد بن محمد .

٧٩ — "كتاب تجارب الأمم" ، جزءان (طبعة هـ . ف . أمدرودز H.F. Amedroz)

وترجمه د . س . مرجليوث (D. S. Margoliouth ، أكسفورد ١٩٢١ م) .

المعري (٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان .

٨٠ — "رسالة الغفران" ، (طبعة هندية بالقاهرة ١٩٠٣ م) .

المقريزي (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي .

٨١ — "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" ، جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ) .

٨٢ — "اتعاظ الخلفاء بأخبار الخلفاء" (بيت المقدس ١٩٠٨) .

المنصوري (٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م) : ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار

٨٣ — "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول ،

المجلد الخامس .

ميور : وليام تيمبل Muir : William Temple

"The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall" — ٨٤

(Lond., 1924.) .

ابن النديم (٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحاق .

٨٥ — "كتاب الفهرست" ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

نظام الملك (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) : الوزير .

- ٨٦ — "سياسة نامة"، المجلد الثاني (باريس ١٨٩٣ م) .
- ظنمان (٣٦٣ هـ = ٩٧٢ - ٩٧٣ م) : أبو حنيفة بن حيون المغربي .
- ٨٧ — "المجالس والمعارات"، ثلاثة أجزاء، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٦٠ .
- ٨٨ — "افتتاح الدعوة الزاهرة"، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول .
- النوبختي (٢٠٢ هـ = ٨١٧ م) : أبو محمد الحسن بن موسى .
- ٨٩ — "كتاب فرق الشيعة"، (استمبول ١٩٣١ م) .
- النويري (٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .
- ٩٠ — "نهاية الأرب في فنون الأدب"، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، رقم ٢٥٧٠ تاريخ ٥٤٩ هـ معارف .
- النبيحوري .
- ٩١ — "استنار الإمام"، (نشره إيفانو في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦) نيكلمون : أ . رينولد Nicholson : A. Reynold
- ٩٢ — "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930.) نيكلمون : جون Nicholson : John
- ٩٣ — "An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa" (Tübingen, 1840.) هامر : فون Hammer : Von
- ٩٤ — «Histoire de l'Ordre des Assassins» (trad. par Hellert, Paris, 1833.)
- ابن هاني (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) : أبو القاسم المسكني بأبي الحسن محمد .
- ٩٥ — "ديوان ابن هاني"، (بيروت ١٢٢٦ هـ) .
- الهمداني : دكتور حسين
- ٩٦ — "Some Unknown Ismaili Authors and their Works" (J. R. A. S. 1933.)
- ٩٧ — "A Compendium of Ismaili Esoterics" (Islamic Culture, 1937, vol. ii.) زهر المعاني
- ٩٨ — "The Letters of al-Mustansir" (B.S.O.S. 1934.)
- ياقوت (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الخوي الرومي .
- ٩٩ — "معجم البلدان"، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٢٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .
- يحيى بن سعيد الأنطاكي (٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) .
- ١٠٠ — "مجلة تاريخ أوتينا"، جزآن (بيروت ١٩٠٩ م) .

فهارس الكتاب

١ - الأعلام

٦٥ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ،

٢٠٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٨ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،

إدريس بن عبد الله الحسني - آخر محمد النفس

الزكية : ٣٠٧ ، ٣٠٩

أستاذ سيس - من أتباع أبي مسلم

الخراساني : ٢٣

أسفار بن شيرويه - أحد عظماء طبرستان والديلم : ٢٤٦

إسماعيل بن إبراهيم الخليل : ٢٧

إسماعيل بن جعفر الصادق : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٥ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٥٣ ،

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤

الأشعري الفقيه : ٢٣ ، ٦٤

أغا خان - زعيم الاسماعيلية الحالي : ٧٩ ، ١٢٤ ،

٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢

الأفضل بن بدر الجمالي الوزير : ٧٩ ، ٢٧٦

إقبال - المؤلف : ٢٨٢

إقبال - أغا سردار المؤلف : ١٥٥

(ب)

بابك الخرمي : ٢٣ ، ٤٩ ، ٢٩٥

بدر الحماني - قائد أحمد بن طولون : ٧٩ ،

١٠٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٧٦

برنارد لويس : ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٩

البساسيري : أبو الحارث : ١٤٤

بسام - أحد القلاء : ٣٣

ابن البصري - : ٩٩

بيان بن سمان - مؤسس جماعة البينانية : ٢٣

(١)

آدم - النبي : ٢٧ ، ٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

٢٦٤ ، ٢٧٨ ، ٣٠٠ ، ٣٥٥

الأمير - الخليفة الفاطمي : ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٢٧

إبراهيم - الخليل عليه السلام : ٢٧ ، ٢١٧

إبراهيم بن الأغلب - وال إفريقية في عهد

العباسيين : ١٣٣ ، ٢٣٣

إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

٢٠ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٣٠٩

إبراهيم بن عبد الله الأكبر بن محمد بن إسماعيل : ١٥٢

أبو بكر الباقلاني - القاضي : ١٤٧ ، ١٦٢ ،

٢٨٥ ، ٢٩٤

أبو بكر الصديق : ١٧ ، ٩٧ ، ١٧٢ ، ٢٦١ ، ٣٣٦

ابن أبي الساج - الأمير : ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله القداح : ٨٤

أحمد أبو القاسم بن عبد الله القداح - حجة الامام

الحسين بن أحمد : ٤٥ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٩٨

١١٦ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥

أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل - الامام

المستور : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ،

٦٣ ، ٦٦ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٥٣ ،

١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠

أحمد بن عبيد الله المكفي بابي علي : ٣١٩

أحمد بن قريش - أمير صقلية : ٢٠٠ ، ٢٠١

أحمد بن طولون : ٤٧ ، ٦٩

أحمد بن محمد بن الحنفية : ٢٦

أحمد الوقي بن موسى الكاظم - الجلد الثاني لعبيد

الله في بعض الانساب : ١٠٥

إدريس عماد الدين - الداعي : ٢٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ،

٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

(ت)

تكوين — الوالى العباسى بمصر : ٢١٥

(ج)

جبريل — عليه السلام : ٣١١

جعفر الحاجب — صاحب السيرة التى كتبها

اليامى : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ٢٢٤ ، ٢٨٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

جعفر الصادق الامام : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٨٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠

٣٢٣ ، ٣٢٤

جعفر بن محمد بن اسماعيل — أحد أئمة الاسماعيليه :

٢٤ ، ٣٨ ، ٣٢٤

أبو جعفر المنصور : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٥٠ ،

١٦١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

جعفر بن منصور الدين الداعى : ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ،

٢٧ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٣ ،

٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢

جوهر الصقلي : ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٤٢

(ح)

أبو حاتم البورانى — رئيس البورانية

الاسماعيلية : ٩٧

أبو حاتم الرازى — الداعى الاسماعيل : ١٨٦ ،

٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣

أبو حاتم معروف التيسابورى — الشاعر

الفيلسوف : ١٢٣ ، ١٢٤

الحافظ — الخليفة الفاطمى : ٢٧٨

الحاكم بأمر الله : ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٣ ،

٣٠٤

أبو حامد الاسفراينى — أرسله القادر بأمر الله

للشريف الرضى : ١٤٧

عباسة بن يوسف : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

حيثى بن أحمد المغربى القائد : ١٨١

حريث بن مسعود — من زعماء القرامطة : ٢٣١

الحسن بن أحمد بن أبى خنيزر السكتامى —

والى صقلية : ١٩٩ ، ٢٠١

الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الجنائى —

الأعظم : ٨٦ ، ٨٧ ، ١٥٧ ، ١٨٤ ،

١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢٧٦

الحسن بن أحمد الكلبي — أحد ولادة صقلية : ٢٠٣

الحسن الثانى — حفيد نزار بن المستنصر

الفاطمى : ٢٩٢

الحسن بن الصباح : ١٢٤ ، ١٥٤ ، ٢٥٠ ، ٢٧٦ ،

٢٧٧

الحسن بن عبيد الله المهدى : ٣١٩ ، ٣٢٠

الحسن العسكري : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٨٩

الحسن بن على بن أبى طالب : ١٧ ، ٢٦ ، ٢٧ ،

٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٨١ ، ١٨٧ ، ٢٨٦ ،

٣٣٤

الحسن بن القاسم بن إدريس : — أجداد موسى

ابن أبى العافية عن المغرب : ١٩٧

الحسن بن محمد بن اسماعيل : ٤٠

الحسين بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن اسماعيل —

الامام المستنصر : ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ،

١١٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ،

١٥٨ ، ١٦٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ،

٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ،

الحسين بن جوشب الداعى : ٤٠ ، ٧١ ، ٢٣٦ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

أبو الحسين — داعى الدعاة : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٣٨ ،

الحسين بن زكرويه — القرمطى : ٤٣ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

(خ)

خداش — الداعي العباسي : أنظر عمارة
أبو الخطاب المتشيع — صاحب فرقة الخطابية :
٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٧٩ ،
٣٢٧ ، ٣٠٠

خلف الداعي : ٦٤ ، ١٢٢ ، ١٢٤
ابن الخليج — أحد قواد الطولونيين : ١٢٢

(د)

داود بن عجبشاء — صاحب فرقة الداودية
بالهند : ٢٧٨
دندان — كاتب عبد العزيز بن أبي دلف :
٥٥ ، ٥٧ ، ٦٩ ، ٢٧٩
ديسان — والد ميمون القداح في بعض
الروايات : ٤٨

(ذ)

أبو ذر الغفاري النخعي — صاحب المبادئ
الاشتراكية : ٢٥٧
ذلول — استخلفه مصالة بن حبوس بتكوير ١٩٣ :

(ر)

ابن رزام : ٢٩٤
الرشيد : ٢٧ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٩ ،
٥٥ ، ١٣٧ ، ٢٥٩ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٤

(ز)

أبو زكريا معارك — الزعيم المغربي : ٢١٦ ، ٢١٧
الزراذشتي — ينتمي إلى الزرادشتية : ٢٩٢
أبو زكريا الصمعي الداعي : ١١٠ ، ١١١ ، ٣٠١
زيادة الله الأغلي : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ٣١٦
زيد بن حارثة — الذي أمره النبي على أحد
الجيش : ٢٤١
زيدان خادم المهدي : ١٨١
زيد بن علي بن الحسين العلوي : ١٩ ، ٢٠٦ ،
٢٨ ، ٣٠٦

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٥

الحسين بن عبد الله القداح — ينسب إليه
عبيد الله : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
٨٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤
الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل : ٧١ ، ١٥٧
الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٨ ، ١٩ ، ٢٦ ،
٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨١ ، ١١٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤

الحسين بن علي المروزي — أمير خراسان :
١٢٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨

الحسين بن علي الهادي : ١٥٦
ابن حفصون — الناصر بالآندلس : ٢٠٣ ، ٢٥٤
الحلاج المتصوف : ٣٠١

الحلواني — الداعي الاسماعيلي باليمن : ٤٥ ،
٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ٢٥٤ ، ٣١٠

حدان قرمط : ٢٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ٢١١ ،
٢١٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥

حميد الدين السكرماني — داعي الحاكم بأمر الله
في فارس : ٢٤٨ ، ٢٩٣

حميد بن يصل — والي تاهرت : ١٩٨
أبو حنيفة الامام : ٢٨٥

أبو حنيفة النعمان المغربي : ٨٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٧ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ،
٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

عبد بن حوشب — الداعي الاسماعيلي باليمن :
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،
٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،
٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣

ذكرويه بن مرويہ القرطبي : ٨٦ ، ٦٩ ، ٥٦ ،

٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،

٢١٢ ، ٢٩٨ ، ٣١٥

(س)

سالم بن راشد — أحد ولاة الفاطميين بصقلية :

٢٠٢

ابن سبأ — أنظر عبد الله

السجزي — أحد دعاة المهدي : ١٨٦ ، ٢٤٤ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ،

ابن سعدون الوريثي — الشاعر : ١٧١

أبو سعيد — أحد ولاة الفاطميين بصقلية : ٢٠٢

أبو سعيد الجنابي القرطبي — أحد زعماء

قرامطة البحرين : ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ،

٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧

سعيد الخير بن إبراهيم بن عبد الله الأكبر بن

محمد بن إسماعيل : أنظر عبيد الله

سعيد الخير بن الحسين بن عبد الله القداح : ٣٩ ،

٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٢٣٣ ، ٢٧٠ ،

٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

سعيد بن أبي سعيد الجنابي القرطبي : ٢١٤ ،

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧

سعيد بن صالح — صاحب مدينة نكور بالمغرب :

١٩٣

أبو سفيان الداعي : ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ٢٥٤ ،

سليمان الفارسي : ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٧٩ ،

٨٠ ، ٢٥٧ ، ٣١١

أبو سلمة الخلال — وزير آل محمد : ٢٩

سليمان بن أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابي —

أحد زعماء قرامطة البحرين ٢١٦

سليمان بن عبد الله — زعيم فرقة السليمانية باليمن

٢٧٨

سليمان بن عبد الملك — الخليفة الأموي : ١٩

سنان راشد الدين الداعي : ١٥٤

سفيان المجوسي — ثار في عهد المنصور : ٢٣ ،

٢٩٥

السجزي باشا : ٣٠٧ ، ٣١١

السيد الخيري الشاعر الأبو هاشمي : ٢٦

(ش)

الشافعي الإمام : ٢٨٥

الشاوري داعي اليمن : ١٧٦

الشريف الرضي القاعر : ١٤٥ ، ١٤٦

الشليخاني المتصوف : ٣٠١

(ص)

صاحب الزنج — صاحب الثورة المشهورة : ٧٠

٣٠٥

صالح بن سعيد — قتل ذلولاً والي نكور ١٩٣

الصولي الشاعر : ١٧٧ ، ١٧٩

(ط)

طلوت : ٣٤٠ ، ٣٤١

ابن طلوت القرشي — الشاعر بطرابلس :

١٨٥ ، ٣١٩

أبو طاهر الجنابي — أحد زعماء قرامطة

البحرين : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٧٦ ،

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ،

(م — ٢٣)

- أبو العلاء المعري الشاعر : ٥٢ ، ٥٤ ، ٣٠٢
 علي بن بويه — قائد مرداويج الديلي : ٢٤٦
 علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن
 إسماعيل — والد القائم بأمر الله في بعض
 الروايات : ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ٨٩
 ١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧
 علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ١٨ ، ٢٨
 علي بن حمدون الأندلسي — بني مدينة المحمدية
 بالمغرب : ٢٠٩
 علي بن أبي خنيزر — أخو أمير صقلية : ١٩٩
 أبو علي الداعي : ٧٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢
 ١٣٨ ، ١٧٣ ، ٢٣١
 علي الرضا : ٤٣ ، ٤٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٠٩
 علي زين العابدين : ١٨ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٨١
 علي بن أبي طالب : ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩
 ٣٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧٩
 ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٩
 ١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠
 ١٥٢ ، ١٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٨١
 ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣٢٧
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
 علي بن عبد الله القداح القرمطي : ٦٤ ، ٦٦
 ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٥٨
 علي بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل : ٩٨
 علي بن عيسى الوزير — وزير المقتدر : ٢١٢
 ٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١
 علي بن أبي الفوارس — والي صقلية : ١٩٩
 علي بن الليث بن محمد بن إسماعيل : ٤٠
 علي بن محمد الصليحي — داعي المستنصر باليمن : ٢٤١
 علي الهادي بن محمد بن علي الرضا بن موسى :
 ١٤٥ ، ١٥٥
 ابن العلقمي — وزير المستنصر العباسي : ٧٩
 عماد الدين الداعي : أنظر إدريس
 عماد بن بديل الداعي العباسي : ٢٢
 عمار بن ياسر من الصحابة : ٢٥٧
 للدعوة الاسماعيلية : ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠
 ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥
 ١١٠ ، ١٦٢ ، ٢٣١ ، ٢٧١ ، ٣١٧
 عبد الله بن الحسن بن محمد بن عبد الله القداح :
 ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٣٦ ، ٣٢٧
 عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكبر :
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢
 عبيد الله بن الحسين بن علي الهادي بن محمد
 الجواد : ١٥٦
 عبيد الله بن الحسين الزكي بن محمد بن إسماعيل :
 ١٤٨ ، ٧٧
 عبيد الله المهدي : ١٧ ، ٢١ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٣
 ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤
 ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٠
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١
 ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠
 ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١
 ١٩٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤
 ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٤٠
 أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد الفقيه — ناظر
 أبا العباس الداعي : ٣٣٣ ، ٣٣٥
 ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠
 عروبة بن يوسف : ١٩٠ ، ١٩١
 العزيز الخليفة الفاطمي : ٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 ٢٧٦
 عقيل بن أبي طالب : ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٩٣ ، ٩٥

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ،
٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٣٠

أبو القاسم بن زكرويه — صاحب الناقة : ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠١

أبو القاسم سعيد بن أبي سعيد الجنابي القرمطي : ٣١٦
أبو القاسم الحسن بن فرج — بن حوشب في
عرف صاحب كتاب استنار الامام : ٧١

القاهر — الخليفة العباسي : ١٨٣
القسطاني المنتظر — يعتقد الجينيون بقرب
ظهوره : ٣٠٧ ، ٣١١

القداح : أنظر ميمون بن غيلان
قرمط : أنظر حمدان

(ك)

كثير عزة الشاعر : ٢٦ ، ٢٨
الكرماني الداعي : ٢٥٠ ، ٢٥٣
ابن كلس الوزير الفاطمي : ١٦٢
ابن كيداد : أنظر أبا يزيد

(م)

الأمون : ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
١٥٩ ، ٣٠٩

ماني — تنسب إليه المانوية : ٢٩٢
المبارك — مولد إسماعيل بن جعفر الصادق :
٥٠ ، ٦٤

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٢٧ ، ٣٢ ،
٤٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ١٤٦ ، ٢١٥ ،
٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣١٤ ،
٣٣٩ ، ٣٣٥

محمد بن أبي بكر — والي مصر من قبل علي : ١٧٧
محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون والد عبيد الله
في بعض الروايات : ١٦٤ ، ١٦٥

عمارة اليمنى الشاعر : ٧٤ ، ١١٢ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩

عمر بن الخطاب : ١٧ ، ٩٧ ، ٢٦١ ، ٢٣٤

عمرو بن العاص : ٢٤١

عمير بن بيان المعجل — صاحب مذهب العميرية :
٢٤

ابن عياش — نزل المهدي بداره بمصر : ١١٢ ،
١٣٠ ، ٢٣١

عيسى بن مريم : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٢٩ ، ٢٥٣ ،
٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٥

عيسى بن موسى الداعي : ٢٣١

عيسى النوشري — والي مصر : ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ،
٣١٦ ، ٣٣١

(ف)

ابن فضل الجندى — الداعي الاسماعيلي باليمن :

٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
١٢٥ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ،
٢٤٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،
٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩

أبو الفوارس — أخلص دعاة حمدان : ٩٧
فيروز — حفيد أبي مسلم الخراساني : ٢٣
فيروز — داعي الدعوة : ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

(ق)

القادر — الخليفة العباسي : ١٤٥ ، ١٤٧
القاسم النقي بن أحمد الوفي بن محمد الوصي بن
موسى الكاظم : ١٥٥

أبو القاسم القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي الثاني :
٤٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ،
١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢

ابن مدين الداعي : ٢٧٧
 مدين بن موسى بن أبي العافية — استبد بفاس :
 ١٩٨
 مرداويج بن ريار الديلمي : ١٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
 ٣٠٨
 المروزي — منع الفقهاء من الافتاء : ٢٥٧
 مزدك — تنسب إليه المزدكية : ٢٢ ، ٤٨
 ٢٩٢ ، ٢٩٥
 المستعلي الفاطمي : ٧٩ ، ٢٤١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
 المشكفي : ٢٢٥
 المستنصر : ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٤١ ، ٢٥٠
 ٢٧٦ ، ٣٢١
 ابن مسرة : المسالم الفيلسوف : ٢٥٥
 أبو مسلم الخراساني : ٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
 ٢٦٣ ، ٢٦٨
 مصالة بن حبوس — القائد المغربي : ١٩٢
 ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
 المتعمم : ٢٣ ، ٥٦
 المتعبد : ٨٩ ، ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢
 المعتمد : ٣٠٥
 معروف الداعي : ١٢٣
 المعز لدين الله : ٣٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٠ ، ١٥٣
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ٢١٠
 ٢١٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦
 ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
 المغيرة بن سعيد العجلي — مؤسس المغيرية : ٢٣
 المقتدر : ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠
 ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١
 ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢١
 ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧
 المنع الخراساني : ٢٣ ، ٢٩٥
 المشكفي : ١٢٥ ، ١٣٢
 المكرم الصليحي : ١٥٤
 ابن ملبج الداعي : ٩٥
 متون بن سعيد — إمام أهل المدينة والمغرب : ٣٣٤
 أبو منصور أحمد بن أبي سعيد الجنابي القرطبي : ٢١٦

محمد بن إسماعيل بن جعفر — الامام المسكتوم
 ٤ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩
 ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٢
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤
 ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥
 ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٠
 ١٦٧ ، ١٧٠
 محمد الباقر — بن علي زين العابدين : ٢١ ، ٢٨
 ٢٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٢٩٤
 محمد البديل القاعر : ٢٥٧
 محمد الحبيب — والد عبيد الله في بعض الروايات :
 ٣٦ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ١٤٨
 محمد المنتظر بن الحسن العسكري بن علي الهادي
 ابن محمد الجواد — اختفى بسر داب في سامرا : ٣٠
 ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٨٩
 محمد بن الحنفية : ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٣ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨
 محمد بن خلف النيرباني : ٢٢٧ ، ٢٢٨
 محمد بن زكريا الرازي — الفيلسوف : ٢٥٢
 محمد بن سليمان — والي مصر : ١٠٨ ، ١٣٣
 ١٣٨ ، ٣١٦
 محمد بن طنج الاخشيد : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤
 محمد بن عبد الله — النفس الزكية : ٣٠٠
 محمد بن عبد الله — المعروف بابي القاطع :
 ٦٦ ، ٦٧ ، ١٦٢
 محمد بن عبد الله القداح : ١٥٩ ، ١٦٥
 محمد الجواد بن علي الرضا — زوج ابنة المأمون :
 ١٥٥ ، ١٥٦
 محمد بن علي بن عبد الله بن العباس : ١٩ ، ٢٠
 محمد بن القاسم بن إدريس — أجلى ابن أبي
 العافية أبنائه عن المغرب : ١٩٧
 محمد بن محمد بن عبد الله القداح : ١٦٤
 المختار بن أبي عبيد القمي : ١٩ ، ٢٢ ، ٣٤
 المدر — قائد الحسين بن زكرويه : ١٠٥
 المدر — عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل : ١٠٥

نصر بن أحمد الساماني : ١٤٥ ، ١٨٧ ، ٢٢٩ .

٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٨

نظام الملك — وزير ملكه السلجوقي : ٥٢ ،

٦٤ ، ١٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ .

٢٩٥

نوح — الرسول : ٣٩ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠ ، ٣٢٥ .

نوح بن نصر الساماني — طارد الاسماعيلية .

وقتل النفسى : ٢٥٠

(هـ)

الحادي العباسي : ٢١ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ .

هارون — أخو موسى الرسول : ٦٢ ، ٢٣٥ .

هارون بن خماروية : ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٣٢ ، ١٥٢ .

هارون بن سعد العجلي — أحد الزيدية : ٢٥ .

أبو هاشم بن محمد بن الحنفية : ٨١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨ .

هولاكو القائد المغول : ٧٩ ، ١٧٠ ، ٢٩٢ .

(ي)

يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس : ١٩٤ ، ١٩٥ .

١٩٦

يحيى بن زيد بن علي زين العابدين : ١٧ ، ١٩ .

يحيى بن عبد الله العلوي — آخر محمد النفس .

الزكية : ٢٧ ، ٢٧ ، ٣٠٩ .

يحيى بن المهدي — علي قداح الطالقان كيا .

يذكر بعض : ١١٠ ، ١١١ .

أبو يزيد بن خالد بن كيداد — الخارجي بالغرب .

١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ .

٢٢٩ ، ٢٠٩

اليسع بن مدرار — أمير سلجمانية : ١٢٠ .

١٢١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٦٨ .

١٧٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ .

أبو يعقوب — أحد عبيد سعيد الخير : ٢٣٠ .

يعقوب بن إسحاق — قائد الحملة البحرية التي

أرسلها المهدي : ٢٠٢ .

أبو يعقوب إسحاق بن أحمد : أنظر السجزي

المتنصر : ١٥٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ .

٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٨٦ .

منيب بن سليمان الكنفاس الداعي : ٣٠٣ .

المهدي العباسي : ٣٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

المهدي الفاطمي : أنظر عبيد الله

المهدي المنتظر : ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٣ .

٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ .

أبو مهزول بن زكرويه صاحب الشامة : ٩٨ .

١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ٣١٩ .

موسى — الرسول : ٦٢ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٣٥ .

٢٣٨

موسى بن أبي العافية : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ .

١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ .

موسى القطان — حضر مناظرة أبي عثمان مع

أبي العباس الداعي : ٢٢٣ ، ٢٣٤ .

موسى الكاظم : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ .

٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٨١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

١٦٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٩ .

مؤنس الخادم — قائد المقتدر : ١٧٤ ، ١٧٥ .

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢١٩ .

المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الداعي : ١٥٣ .

ميمون الداعي : ٢٠٣ .

ميمون بن غيلان الفارسي القداح : ٢٤ ، ٣٥ .

٤٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ .

٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ .

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١١١ .

١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ .

٢٧٣

(ن)

نزار بن الممتنصر الفاطمي : ٧٩ ، ١٢٤ ، ٢٧٦ .

٢٧٧ ، ٢٩٢ .

النفسى الداعي : ١٨٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣١٣ .

أنطاكية : ٢٩٤
الأمواز : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٨ ، ٢٦٢ ، ٢٢٠
أوربة — قبيلة مغربية : ١٩٤
أبيريا — شبه جزيرة : ٢٥٥
إيطاليا : ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
إيكجان — جبل بافريقية يقع فيه فج الأخيار :
٢٠٤

(ب)

باجة — مدينة بالمغرب : ٣٠٣
البحرين : ٤٧ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٢ ، ١٧٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ،
٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨

بخارى : ٢٤٨
بدخشان — مركز ناصر خمير وداعية المستنصر :
٢٥٠

برقة : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ،
البصرة : ٣١ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٧١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
بغداد : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ،
١١٠ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ،
٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
٣١٥ ، ٣٣٠

البقيع — موضع قرب المدينة : ٣٠ ، ٣٢٢ ،
بلخ — من أعمال خراسان : ٦٨

(ت)

تاهرت — مدينة بالمغرب الأوسط : ١٩ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ٣٠٣
تهامة : ٢٣٤
توزر — مدينة بكورة قسطنطينية بتونس : ١٣٦

أبو يعقوب بن أبي سعيد الجنابي القرمطي : ٢١٦
يوسف عليه السلام : ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠٨ ،
٣١٢ ، ٣٢٣

النساء

أم حبيب — زوجة القائم بأمر الله : ٣١٩
أم أبي الحسين — ابنة فيروز الداعي : ٣٣١
خرما زوجة مزدك : ٢٢ ، ٢٩٥
فاطمة بنت رسول الله : ٢٦ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ٧٩ ،
٨٢ ، ٨٧ ، ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ،
٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٩٢ ، ٣١١
فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني : ٢٣ ، ٢٩٥
لعب — جارية عبيد الله : ٣٢٠

٢ — الأماكن

(١)

الأحساء : ٢١٣ ، ٣١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٧٩
أذر بيجان : ١٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٣٠٨
أسبانيا : انظر الأندلس
الاسكندرية : ١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١ ،
١٨٢ ، ٢٠٥
أصفهان : ٢٤٥ ، ٢٤٦
إفريقية : ٢٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
١٤٣ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ،
١٨٩ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ،
٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣١١ ،
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠
الموت — قلعة جنوبي بحر قزوين : ٧٩
الأندلس : ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،
١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

رحبة مالك بن طوق : ٢٢٩
الرصافة — مدينة غربي الرقة : ٢٠٤
رضوى — جبل بالحجاز : ٢٦
رقادة — مدينة بافريقية : ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ،
١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠ ،
٣٠٤

الرقة : ١٠٤ ، ٢٣٠
الرملة : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ،
١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٠ ،
٣٣١
الري : ٣٨ ، ٤٣ ، ٦٤ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ،
١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٣٠٨

(ز)
الزاب — بالمغرب : ٢٠٩
زويلة — مدينة بناها المهدي قرب المدينة : ٢٠٦

(س)
ساباطه أبي نوح — من قرى الاهواز : ٦٨
سامرا : ٣٠ ، ٤٢
سبته — من موانئ المغرب الأقصى : ٢٠٣
سجلماسة — من مدن المغرب : ٨٢ ، ٩١ ،
١٠٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٦٦ ،
٣١٦ ، ٣١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
سردانية — اهتمر الغاطميون على الروم بالقرب
منها : ٢٠٢

سطيف — من مدن كتامة : ٣٣٢
سفاقس — ميناء بتونس : ٢٠١
سلا — مدينة بالمغرب الأقصى : ١٩٥
سلبية : ٢٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
٥٥ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ،
٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩

تونس : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،
٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠

(ج)
الجريد — بافريقية : ١٧١
الحزائر : ١٧٠ ، ٢٧
جناية — من موانئ الخليج الفارسي : ٢١٩
جيحون : ٢٤٨
الحيزة : ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١

(ح)
الحجاز : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٧٦ ، ١٢٢ ،
١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٦٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٥
حماء — من مدن الشام : ٩٦
حصص : ٤٢ ، ٥٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٧
الحيرة : ٢٣

(خ)
الخابور : ٢٢٩
خراسان : ١٩ ، ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ،
٧٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ،
١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ،
٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨
خوارزم : ٤٣ ، ٤٠
خوزستان : ٤٣ ، ٤٢

(د)
دجلة : ٢٢٨
دمشق : ٦٩ ، ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٥١ ،
٢٠٥ ، ٢٣٠

دومارند — جبل قريب من الري : ٣٨
الديلم — قرى إلبا يحيى بن عبد الله : ٢٧ ،
٢٤٣ ، ٢٤٦

(ر)
الرحبة : ٢٢٩ ، ٢٣٠

٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٠٤ ، ١٨٧
طبرمين — ثغر بصقلية ٢٠٠
طبرية — مدينة بالشام : ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٨
طرابلس الشام : ١٢٦
طرابلس الغرب : ١٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠
٢٠١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
طودوس — بآسيا الصغرى : ٢٢١
طنجة — ميناء بالمغرب الأقصى : ٢٠٣

(ع)

عند لاعة باليمن : ٧٢
العراق : ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٦
عسكر مكرم — إحدى ضواحي مدينة الأهران :
٥٧ ، ٦٨ ، ١٦٠
عمان : ١١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٤١

(غ)

الغور : ١٢٣

(ف)

فارس : ٤٥ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨
فج الاخيار — موضع بجبل إيكجان بأفريقية :
١١٦ ، ١٤٢ ، ٢٠٤ ، ٢٧٩ ، ٣١٠
فخ : ٢١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩

٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠

سنجار — مدينة بنواحي الموصل : ٢٣٠

السماعة — بادية بشبه الجزيرة : ٥٦ ، ١٠٠ ، ١٠١

سملا — موضع قرب الرى : ٣٨

السند : ١١٢

سوسة — من مدن تونس : ٢٠١

(ش)

الشام : ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥

شبراز : ٣١٢

(ص)

الصفا — موضع قرب مكة : ٢٩٩

صقلية : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٩

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٦٨

صنعاء : ٧٣ ، ١١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٢٦

(ط)

الطاحونة — موضع بطرابلس الغرب : ١٣٤

الطالقان بخراسان : ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ٩٨

١١١

طبرستان : ٤٩ ، ٦٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٠

الفرات : ٢٢٧

فرغانة — فر إليها محمد بن إسماعيل : ٣٨ ، ١٨٢
فلسطين : ٤٩ ، ١٠٢ ، ١٢٩ ، ٣١٥

(ق)

قابس — مدينة بتونس : ٢٠١ ، ٢١٩

القادسية : ٧٢ ، ٢٢٩

القاهرة : ٤٣ ، ١٤٧ ، ٢٠٨ ، ٢٦٢

قرطبة : ١٩٨ ، ٢٥٤

قرقيسيا — بلد على نهر الخابور : ٢٢٩

القسطنطينية : ٢٥٤

قسطنطينية : — مدينة إلى الشمال من رقادة : ٢٠٨

القطائع : مدينة ابن طولون : ٦٩ ، ١٢٩

القطيف : ١١٠ ، ١١١ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٠٨

نقصة — مدينة باقرية : ٢٠٦

قلورية بإيطاليا : ٢٠٠ ، ٢٠٢

قوهستان — مركز لنشاط عبيد الله القذافي :

٦٤ ، ١٧٠

القيروان : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٧١

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩

٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

٣٣٢

(ك)

كشامة — قبيلة مغربية : ٦٨ ، ٨٨ ، ١٣٦

١٤٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٦٦

٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢

الكرخ — قرب بغداد : ٢٠٦

كبريا — شبه جزيرة جنوبي إيطاليا : ١٨٩

كلواذا — قرب بغداد : ٦٩ ، ١١٠

الكوفة : ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢

٧٧ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٦

١٥٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٧

٣٠٨

(م)

مازندران — وهي طبرستان : ٤٢

مالقة — من ثغور الأندلس : ١٩٣

محد آباد — سملا سابقا : ٣٨

المحمدية — مدينة بالمغرب الأوسط : ٢٠٤ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩

المدينة المنورة : ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٧٣

٣٢٢ ، ٣٢٤

مراكش : ١٧٠ ، ١٩٥

مرو الروذ بخراسان : ٦٨ ، ١٢٣

مسور — جبل بأعمال صنعاء ، ٧٣

المصيلة — مدينة بالمغرب الأوسط : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،

٢٦٩

مشتول : ١٧٣

مصر : ٢١ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٨٦ ، ١١٢ ، ١١٣

١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨

١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٦

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧

١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٦

٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢

٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١

٣٢٨ ، ٣٢٩

المغرب : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٢

١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤

١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١١

٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨

٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠

٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩

٣٣٣

٣ - الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة

(أ)

الأبو مسلمية — أتباع أبي مسلم الخراساني :
٢٩٥ ، ٢٣
الأبو هاشمية — أتباع أبي هاشم بن محمد بن
الحنفية : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٢٧٢ ،
٣٠٨ ، ٢٨٧
الأتراك ، ٥٦ ، ٢٢٦ ، ٣٠٥
الاثنا عشرية : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧١
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤
١٥٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ،
الاخشيديون ، ١٨٥
الأخشيد ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤
هارون بن خماروية ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٣
الادارية ، ١٧ ، ٢٧ ، ١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥
١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩
إدريس بن عبد الله الحسني : ٣٠٧ ، ٣٠٩
الحسن بن القاسم بن إدريس : ١٩٧
يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس : ١٩٤ ، ١٩٥
١٩٦
الاسماعيلية : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٣

مكتوبة ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
٣٦ : ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٢١٨ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥

المنصورية ، ٢٠٨ ، ٢٦٢
المهدية ، ٨٣ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩٦ ،
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ،
٢٧٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠
المؤمنية ، ٢٢٦ ، ٢٧٩

(ن)

نكور — مدينة بالمغرب الأقصى : ١٩٢ ، ١٩٣
نهارند : ٤٢ ، ٤٣
نيسابور : ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٣٢٤

(هـ)

هجر : ١٧٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠
هراة — من أعمال خراسان : ١٢٣
الهند : ٧٩ ، ١١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٧٨

(و)

واسطة : ٢٢٧

(ي)

يثرب : أنظر المدينة
الين ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ،
٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ،
٧٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ،
١٧٥ ، ١٨٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ،
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ،
٣٢٧ ، ٣٢٨

إمامة أحمد بن عبد الله : ٤٣ — ٤٥
 إمامة الحسين بن أحمد : ٤٥ — ٤٧
 إمامة عبد الله الرضوي : ٤٠ — ٤٣
 إمامة محمد بن إسماعيل : ٣٦ — ٤٠
 آية الإسماعيلية ٣٤ ، ٣٩ .

الآئمة المستوردون يتخذون سلبية مركزا لدعوتهم :

٤٧

الأميون : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩١ ،
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٥ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٠

الانجيل : ٢٩٣ ، ٢٩٤

(ب)
 الباكية — اتباع بابك الخرمي : ٢٣
 الباقرية — أنصار محمد الباقر : ٢
 البربر : ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٧١ ، ٢٠٣ ، ١٩١
 ٢٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١١

بنو رستم : ١٨٩
بنو عبد الطالب : ١٨٩
بنو مدوار — ملوك سبوحنامه : ١٨٩

الجمالية — فرقة تقول بصحة الأديان جميعها: ٢٩٤
 البهرة: جماعة من أنصار المستنلى القاطن: ٢٧٩، ٢٨١
 البورانية — فرقة إنشاعيلية من أتباع البوراني:

94

الجزءون : ٨٦ ، ١٨٤

البیانۃ — أنباء بیان بن سیمان : ۳۳

ایمیز اعلیٰ : ۲۳۱۰

(٤)

تقوایة : ۲۹۳ ، ۲۹۴

(ث)

ثبوتية — أصحاب نظرية إله الخير والشر :

1779 6 00

(ج)

الجعفرية : ٢١ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٥٦
الجنابية — أتباع أبي سعيد الجنابي : ٩٣

(ح)

الحجة — وظيفة تقليدية في بيت ميمون القداح : ٧٧
الحسينيون — أتباع الحسين بن علي : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٦
الحنفية : — أتباع محمد بن الحنفية : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠٨
الحواشب — أتباع ابن حوشب : ٩٢ ، ١٨٤

(خ)

الخرمية — أتباع بابك الخرمي : ٤٤ ، ٢٩٥
الخطابية — أتباع محمد بن زينب الأجندع المعروف بأب الخطاب : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٣٠٠
الخوارج : ١٣٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٧٢

(د)

الداودية — أتباع داود بن مجبشاه : ٢٧٨
الدرزية — جماعة تعتبر القداح أساس الأئمة الاسماعيلية : ٥٣ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

الدعوة الاسماعيلية في بلاد الأندلس : ٢٥٤-٢٥٥
الديالة : ٢٤٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٤

(ر)

الرافضة — الذين يرفضون طاعة زيد : ١٩
الروم : ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠

(ز)

الزراذقية — أتباع زرادشت : ٢٤٣ ، ٢٩٢
زناتة : قبيلة مغربية : ١٩٠ ، ١٩٦

الزنادقة : ٦ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ٣٣٩

الزيارية — من أنصار العباسيين : ٣١٢
الزيدية — أتباع زيد بن علي : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

(س)

السامانية — أنصار نصر بن أحمد الساماني : ٣١٢
السبئية — أتباع عبد الله بن سبأ : ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠٢

السلمانية — أتباع سليمان بن عبد الله : ١٧٨
السفيون : ٣٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٢ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٣

السفيون الذين يؤيدون صحة نسب الفاطميين : ١٤٤ — ١٤٩

(ش)

الشعرية : ٢٢ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٢٣
الشيعة : ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٢٤ ، ١٤٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

(ص)

الصائفة : ٢٩٢
الصقالية : ٣١٩ ، ٣٢٩
الصليحيون باليمن : ٧٣
صناجة — قبيلة مغربية : ١٩٦ ، ١٩٧

(ط)

الطولونيون : ٥٦ ، ٦٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
١١٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ،
١٧٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٦

الطبية — أتباع الامام الطيب بن الأسر : ٢٩٢

(ع)

العباسيون : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ،
٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ،
١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ،
٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ،
٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،

العباسيون يفتككون بأننا عبد الله وإخوته يهاوند
والري و نيسابور : ٤٣

العلويون : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ ،
٧٨ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٢٣ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥ ،
٢٨٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٧ ، ٣١٩

العميرية — أتباع عمير بن بيان العجلي : ٢٤

(غ)

الغياثية — أتباع غياث الداعي : ١٢٢

(ف)

الفاطميون : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٧٤ ،
٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
٢٤٢ ، ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٧٢ ،
٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٩

الفاطميون : أتباع فاطمة بنت أبي مسلم : ٢٣

الفرس : ٢٣ ، ١٢٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٩

(ق)

القيط : ١٧٣

القداحية — نسبة إلى قديمون القداح : ٧٩ ،
٥٧ ، ٦٧

القرامطة : ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦١ ،
٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٠

المتولة : ٥٧ ، ١٥٣ ، ٢٨٥
 المغيرة — أتباع المغيرة بن سعيد العجلي : ٢٣
 الموسوية — أتباع موسى الكاظم : ٣٠ ، ٣١
 ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣
 ٣٠١ ، ١٥٥
 الميمونية — نسبة إلى ميمون القداح : ٤٩

(ن)

النبطيون : ٣١٤
 النزارية الاسماعيلية — أتباع نزار بن المستنصر
 ٧٩ ، ١٢٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٢
 النصارى : ٢٩٤
 النصيرية : ٢٧ ، ١٥٤ ، ٣٠٢

(هـ)

بنو هاشم : ٢١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٩٤ ، ١٠٧
 ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 هواردة — قبيلة مغربية : ٢٠٩

(و)

اليهود : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

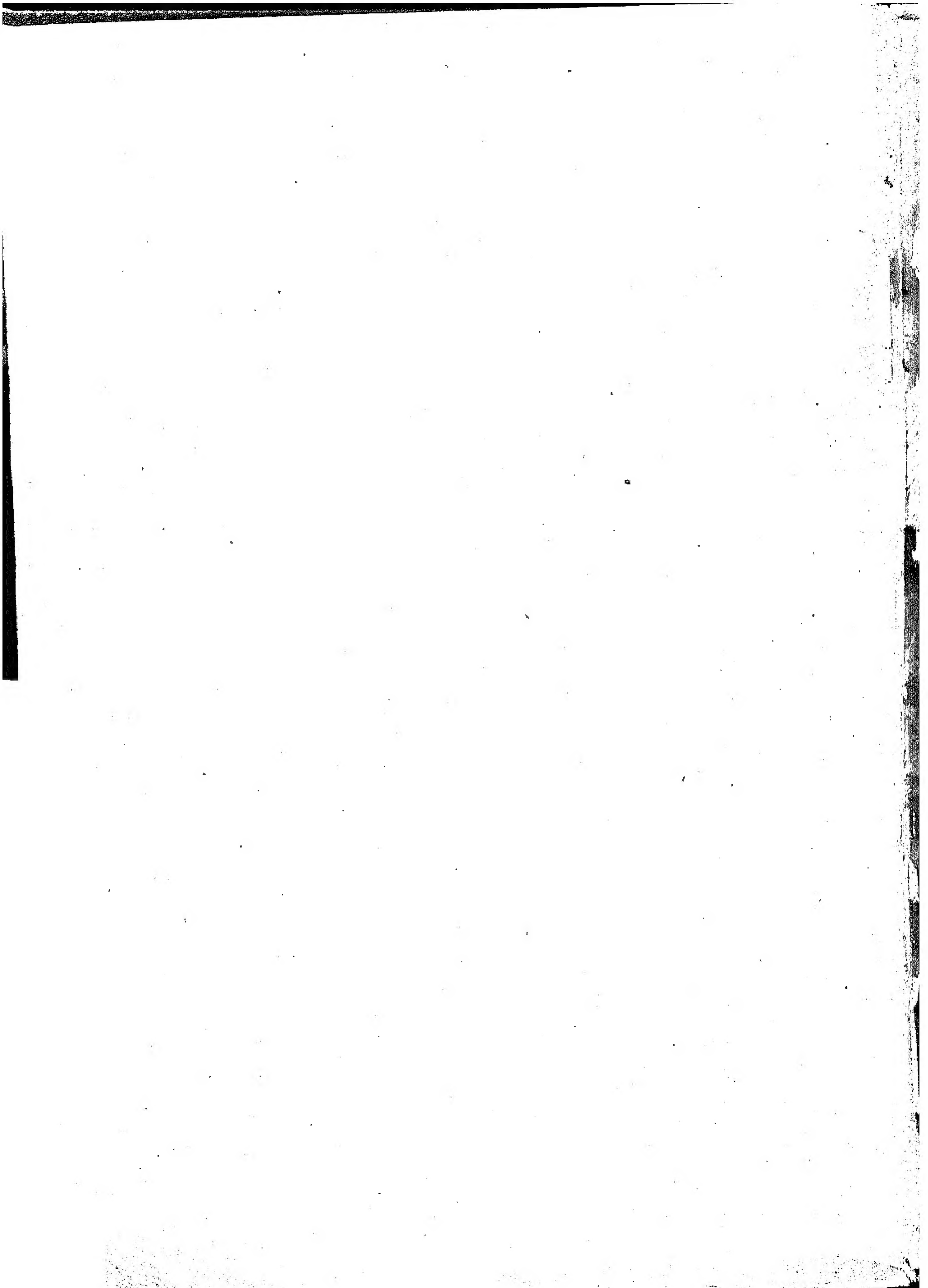
١١٧ ، ١٧٩ ، ٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٩٥
 ٢٩٦ ، ١٩٧ ، ٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ٢٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٣
 قرامطة البحرين : ١٠٠ ، ١١٠
 قرامطة الشمال : ٩

(ك)

الكنيسانية — أتباع محمد بن الحنفية وأصحاب
 المختار الثقفى : ٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦
 ٩٤ ، ٩٣ ، ٥٦

(م)

المانوية أتباع ماني : ٢٩٢ ، ٢٤٣
 المباركية — أتباع المبارك : ٣٣ ، ٥٠ ، ٦٤
 المجوس : ٢٣ ، ٥١ ، ٥٤ ، ١٩٤ ، ٢٩٣ ، ٣١٣
 المجوسية : ١٦ ، ٢٢ ، ١٦٤
 المحمدية — أتباع محمد بن جعفر الصادق : ٣٦
 بنو مدرار — ملوك سجلماسة : ١٢٠
 المستعالية — أتباع المستعل بن المستنصر : ٢٧٦
 ٢٧٩
 المسيحية : ٥١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣



THE MAHDI UBAY'D-ULLAH

**The Ismaili Imam and Founder of the
Fatimid Dynasty in North Africa**

BY

HASSAN IBRAHIM HASSAN

D.Litt. (Cairo), Ph.D., D.Lit. (London)

Professor of Islamic History, Head of the Dept. of History
Fouad 1st University, Cairo

and

TAHA AHMED SHARAF

M. A., D. Litt. (Cairo)

1366 — 1947

Published By

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9, Adly Pacha Street, Cairo

Shibokshī Press - Azhar Cairo

